أعلام المسلمين
٧٩

شيخ الإسلام
أحمد بن تيمية

رجل الإصلاح والدعوة
٦٦١ - ٧٢٨هـ

تأليف
إبراهيم محمد العلي

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

شيخ الإسلام

أحمد بن تيمية

رجل الإصلاح والدعوة

الطّبعَة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

تُطلبُ جميعُ كتبُنا مِنْ :
دَارُ القَلَم - دمَشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدّار الشاميّة - بيْروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعوديّة عن طريق
دَارُ البَشير - جدّة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

هٰـذَا الرَّجُـل

● الشيخ الإمام العالم العلاَّمة الأَوحد الحافظ المجتهد الزاهد العابد القدوة، إمام الأئمة، قدوة الأُمة، علاَّمة العلماء، وارث الأنبياء، آخر المجتهدين، أوحد علماء الدين، بركة الإسلام، حجة الأعلام، برهان المتكلمين، قامع المبتدعين، محيي السنَّة، ومن عَظُمت به لله علينا المِنَّة، وقامت به على أعدائه الحجة، واستبانت ببركته وهديه المحجة، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، أَعلى الله مناره، وشيَّد به من الدين أركانه..»

«الحافظ كمال الدين ابن الزملكاني»

● لما اجتمعتُ بابن تيمية رأيتُ رجلاً كل العلوم بين عينيه، يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريد.

وقال: ما كنتُ أَظنُّ أَنَّ الله بقيَّ يخلقُ مثلك.

«الحافظ ابن دقيق العيد»

● ما رأَيتُ مثله، ولا رأى مثل نفسه، وما رأَيتُ أَحداً أَعلم بكتاب الله وسُنّة رسوله، ولا أَتبع لهما منه.

«الحافظ المزي»

● لو حُلِّفْتُ بين الركن والمقام لحلفتُ أَني ما رأَيتُ بعيني مثله، ولا والله ما رأَى مثل نفسه في العلم.

إنه بحر لا ساحل له، وكنزٌ لا نظير له.

شيخنا الإمام العالم العلاَّمة الأوحد شيخ الإسلام، مفتي الفرق، قدوة الأمة، أُعجوبة الزمان، بحر العلوم، حبر القرآن، تقي الدين سيد العُبّاد، أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني.

«الحافظ الذهبي»

●.. فالمملوك يتحقق كبر قدره، وزخارة بحره، وتوسعه في العلوم الشرعية والعقلية، وفرط ذكائه واجتهاده، وبلوغه في كلٍ من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف،.. وقدره في نفسي أعظم من ذلك وأجل، مع ما جمع الله له من الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام فيه، لا لغرض سواه، وجريه على سنن السلف، وأَخذه من ذلك بالمأَخذ الأوفى، وغرابة مثله في هذا الزمان بل من أَزمان.

«الحافظ تقي الدين السبكي»

● أَلفيته ممن أدرك من العلوم حظاً، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظاً.. برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه.

● الشيخ الإمام حامل راية العلوم، ومدرك غاية المفهوم، تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني رحمه الله.

«الحافظ بن سيد الناس»

● وشهرة إِمامة الشيخ تقي الدين أَشهر من الشمس، وتلقيبه بشيخ الإسلام في عصره باقٍ إلى الآن على الألسن الزكية، ويستمر غداً كما كان بالأمس، ولا ينكر ذلك إلا من جهل مقداره، أَو تجنب الإنصاف، فما أَغلط من تعاطى ذلك وأكثر عثاره.. وقد شهد له بالتقدم في العلوم، والتميز في المنطوق والمفهوم، أئمة عصره من الشافعية وغيرهم، فضلاً عن الحنابلة.

«الحافظ ابن حجر العسقلاني»

● ابن تيمية الشيخ الإمام العلاَّمة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع شيخ الإسلام، علم الزهاد، نادرة العصر، تقي الدين أبو العباس أحمد بن المفتي شهاب الدين عبد الحليم ابن الإمام المجتهد شيخ الإسلام مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحراني أَحد الأعلام... وكان من بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين، والزهاد، والأفراد.

«الحافظ جلال الدين السيوطي»

المقــدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ الحَمد للّهِ نحمَدهُ وَنَستَعِينُه وَنستَغفِرهُ.

وَنَعُوذُ بِاللّهِ مِنْ شرُورِ أَنفُسِنَا وَمِنْ سَيئَاتِ أَعمالِنَا، مَنْ يَهدِهِ اللّهُ فَلا مُضلَ لَهُ، وَمَنْ يُضلِلْ فَلاَ هادِيَ لَهُ.

وَأَشهَدُ أَنْ لا إِلهَ إِلاّ اللّهُ وَحدَهُ لا شَريكَ لَهُ.

وَأَشهَدُ أَنَّ مُحمَّداً عَبدُهُ وَرَسُولُهُ.

يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ، وَلا تَمُوتُنَّ إِلاّ وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ.

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنهَا زَوْجَهَا، وَبَثَّ مِنهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً، وَاتَّقُوا اللّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرحَامَ، إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيكُمْ رَقِيباً.

يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَقُولُوا قَولاً سَدِيداً، يُصلِح لَكُمُ أَعمَالَكُم وَيَغفِر لَكُم ذُنُوبَكُمْ.

وَمَنْ يُطعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَد فَازَ فَوزاً عَظِيماً.

وبعد:

لمَّا كان العلم كالماء للحياة، ينتفع به من ينتفع ممن يعمل به، ويهلك من يهلك ممن لم يعمل به، فقد أثنى الله تعالى في كتابه العظيم على أهل العلم والعلماء حيث قال سبحانه وتعالى:

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] وذكر علو مكانتهم حين قرنها مع ذاته العلية، ومع ملائكته المقربين حين قال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، وميزهم عن سواهم من الناس فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] وحين ذكر آياته في الكون، وآياته المنزلة على أنبيائه، ذكر أن أكثر من يعقلها ويفهمهما على وجهها الصحيح أهل العلم فقال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وغير ذلك كثير في كتاب الله تعالى.

وأما ثناء النبي ﷺ عليهم في سُنّته العطرة الصحيحة فهو أكثر من أن يحصى، وحسبنا منه زهرة فواحة من بستان النبوة الطاهر فيما جاء عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ سَلَكَ طريقاً يبتغي فيهِ عِلماً سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طريقاً إِلى

الجنةِ، وإِنَّ الملائكَةَ لتضعُ أَجنحَتَها رضاءً لطالبِ العلمِ، وإن العالم ليستغفر لَهُ مَنْ في السمواتِ وَمَنْ في الأَرضِ، والحيتانُ في جوفِ الماء.

وإِنَّ فضلُ العالمِ على العابدِ كَفَضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِالكواكبِ.

وإِنَّ العُلماءَ وَرَثَهُ الأَنبياءِ، إِنَّ الأنبيَاءَ لَمْ يُورثوا دِيناراً وَلا دِرهماً، إِنَّما ورثوا العِلْمَ، فمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخذَ بِحظٍ وافرٍ»[(١)].

ومن أعلى رتبة ممن تشتغل الملائكة وغيرهم بالاستغفار والدعاء له، وتضع له أجنحتها، وإنهُ ليُنافَسُ في دعاء الرجل الصالح أو من يظن صلاحه، فكيف بدعاء الملائكة.

وقال أبو مسلم الخولاني رحمه الله: «العلماء في الأرض مثل النجوم في السماء؛ إذا بدت للناس اهتدوا بها، وإذا خفيت عليهم تحيروا».

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله: «أرفع الناس عند الله منزلةً من كان بين الله وبين عباده، وهم الأنبياء والعلماء»[(٢)].

---

(١) أخرجه الترمذي برقم: ٢٦٨٢، وأبو داود برقم: ٣٦٤١، وابن ماجة: ٢٢٣، والحديث صحيح.

(٢) تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة الكناني: ص ٣٤، ٣٥.

والحديث عن فضل العلم، وما يصل إليه طالبه من مكانة ومنزلة، حديث لا يكشف عن مجهول من الأمور، ولا يطرق سمع الناس بشيء جديد، ولكن هي الذكرى التي تنفع المؤمنين.

○ وسائل أوصلتهم إلى هذه المكانة:

كان العلماء رحمهم الله تعالى يصلون الليل بالنهار، ويقطعون القيافي والقفار في تحصيل العلم، والاجتهاد في تدوينه، يرتحلون المسافات الطويلة ليتحققوا من لفظة حديث، يعتمدون في ذلك على الله تعالى، ويستلهمون منه السداد والرشاد، حيث كانوا يطلبون العلم للعمل، مخلصين لله قلوبهم، ولسان حالهم ما كان يوصي به الخطيب البغدادي رحمه الله طلبة العلم حيث يقول:

«إني موصيك يا طالب العلم بإخلاص النية في طلبه، وإجهاد النفس على العمل بموجبه، فإن العلم شجرة والعمل ثمرة، وليس يُعدُّ عالماً من لم يكن بعلمه عاملاً»[1].

ويعلمون أن العلم لا ينال بالتمني والراحة، وإنما ينال بالجد والاجتهاد، وتفريغ القلب والطلب المستمر، والمذاكرة المتواصلة، لا يشغلهم عنه شاغل مهما بلغت أهميته، لأنهم يعلمون أن العلم إن لم تعطه كلك، لا يُعطيكَ بعضه، ورائدهم

---

(١) معجم شيوخ الذهبي: ص ٥٠٥.

في ذلك ما قاله ابن أبي حاتم الرازي رحمه الله حين قال: «لا يستطاع العلم براحة الجسد»[1].

ويعلمون أن العلم ليس وسيلة للتكسب من أبواب السلاطين، أو نيل العطايا منهم، ولذلك كانوا يربأون بأنفسهم عن إذلال العلم على أبوابهم، ويزهدون بما في أيديهم، ولذلك أحبهم الحكام وخافوهم، وأَجَلّوُهُمْ واحترموهم، وكان لكلمات العلماء مكانتها في قلوب الناس، يهزون بها عروش الحكام، ويزلزلون الأرض تحت أقدامهم، لا يأخذهم في قول الحق والجهر به لومة لائم، ولا سطوة سلطان، أو جبروت حاكم ولسان حالهم ما كان يحذر منه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وهو يقول: «لن يخاف الرجلُ غير الله إلا لمرض في قلبه، فإن رجلاً شكى إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة فقال: لو صححت لم تخف أحداً، أي خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك»[2].

لأجل هذا كله وغيره احتل العلماء هذه المكانة المرموقة، فكانوا نجوم هداية لأمتهم، ومعقد الرجاء للإصلاح من شعوبهم، فكانوا بأقوالهم وأفعالهم المحركين للهمم، والمغيرين للتاريخ، وعليهم كانت تنعقد الآمال، وبجهادهم الموصول كان يبنى المجد الأَثيل، وتنزاح عن صدور أبناء أمة الإسلام عوامل اليأس

(١) سير أعلام النبلاء: ١٣/ ٢٦٦.

(٢) الإعلام العلية: ص ٧٢.

والإحباط، والضعف والاستسلام، ويحل الرجاء والأمل بمستقبل مشرق باسم، ويأتي في مقدمة هذا الركب المبارك في القرنين السابع والثامن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الذي شغل كاناً كبيراً في عصره علماً، وعملاً، وزهداً، وورعاً، وجهاداً، وجرأة في الحق.

o لماذا شيخ الإسلام ابن تيمية:

لأنه البحر من أي النواحي جئته، والبدرُ من أَي الضواحي رأيتَهُ، رَضَعَ ثدي العلم منذ فطم، وطلع وَجهُ الصباح ليحاكيه فَلَطَم، وقطع الليلَ والنهار ردائين، واتَّخذ العلمَ والعملَ صاحبين، إلى أَنْ أَنسى السَّلفَ بِهُداه، وأَنأَى الخلف عن بلوغ مداه، على أنه من بيت نشأت منه علماء في سالف الدُّهور، ونشأت منه عظماء على المشاهير الشهور، فأَحيا معالم بيته القديم إذ دَرَس، وجنى من فَنَنِهِ الرطيب ما غرس، وأصبح في فضله آية، إلا أَنه آية الحرس، عرضت له الكدى فزحزحها، وعارضته البحار فضحضحها.

ثم كان أُمَّةً وحده، وَفْرداً حتى نزل لَحْدَه، أخمل من القرناء كل عظيم، وأخمد من أهل البدع كل حديث وقديم، جاء في عصر مأهول بالعلماء، مشحون بنجوم السماء، تموج في جوانبه بحور خضارمْ(*)، وتطير بين خافقيه نسور

(*) خضارم: الكثير الماء.

قشاعمْ(*) وتشرق في أنديته بدور وضيئة، إلا أن شمسه طمست تلك النجوم، وبحره طمْ(*) على تلك الغيوم، وابتلع غديره المطمئن جداولها..»[1].

ولأنه كان عظيماً في ذات نفسه، اجتمعت له صفات لم تجتمع في أحد من أهل عصره، فهو الذكي الألمعي، وهو الكاتب العبقري، وهو الخطيب المصقع، وهوا لباحث المنقب، وهو العالم المطلع الذي درس أقوال السابقين، وقد أنضجها الزمان، وصقلتها التجارب، ومحصتها الاختبارات، فنفذت بصيرته إلى لبها، وتغلغل في أعماقها، وتعرف أسرارها، وفحص الروايات، ووازن بين الآراء المختلفة، وطبقها على الزمان، مع إدراك للقوانين الجامعة، وربط للجزئيات، وجمع للاشتات المتفرقة، ووضعها في قرن واحد[2].

ولأنه الفقيه الذي شهد له أقرانه بأنه بلغ درجة الاجتهاد، فكانت مصنفاته شاهدة على براعته، وغزارة علومه ومعارفه، وأحكامه من كل فن أصوله وفروعه فإن عد الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق، وإن حضر الحفاظ نطق وخرسوا، وسرد وأبلسوا

(*) قشاعم: جمع قشعم: المسن من الرجال والنسور.

(*) طمَّ: غطى.

(١) ابن فضل الله العمري: الشهادة الزكية: ص ٥٥.

(٢) ابن تيمية محمد أبو زهرة: ص ٥.

واستغنى وأفلسوا.. فإنه كان رباني الأمة، وفريد الزمان، وحامل لواء الشريعة، وصاحب معضلات المسلمين»[١].

ـ ولأنه صاحب المواقف المشهورة الجريئة، الذي كان يقدم حين يحجم الشجعان، وينطق حين تخرس ألسن الفصحاء، فقد جلس إلى السلطان قازان حيث تجم الأُسد في آجامها، وتسقط القلوب دواخل أجسامها، وتجد النار فتوراً في ضرامها، والسيوف فَرقاً في قرمها، خوفاً من ذلك السبع المختال، والنمرود المحتال، والأجل الذي لا يدفع بحيلة محتال، فجلس إليه وأومأ بيده إلى صدره، وواجهه ودرأ في نحره، وطلب منه الدعاء فرفع يديه ودعا دعاء منصف أكثره عليه، وغازان يؤمن على دعائه، وكتب ابن الزملكاني على بعض تصانيف ابن تيمية هذه الأبيات:

ماذا يقول الواصفون له
وصفاته جَلّتْ عن الحَصْر
هو حجة لله قاهرةٌ
هو بيننا أُعجوبة الدهر
هو آية في الخلق ظاهرةٌ
أنوارها أربت على الفجر[٢]

---

(١) الذهبي: العقود الدرية لابن عبد الهادي: ص ٢٤ـ ٢٥.

(٢) ابن فضل الله العمري: عن تاريخ ابن الوردي: منجد ص ٢١.

ـ ولأنه انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل، والزهد والورع، والشجاعة، والكرم، والتواضع، والحلم، والإنابة، والجلالة والمهابة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وسائر أنواع الجهاد، مع الصدق والأمانة، والعفة والصيانة، وحسن القصد والإخلاص، والابتهال إلى الله، وكثرة الخوف منه، والمراقبة له، وشدة التمسك بالأثر، والدعاء إلى الله، وحسن الأخلاق، ونفع الخلق، والإحسان إليهم والصبر على من آذاه، والصفح عنه، والدعاء له، وسائر أنواع الخير.

وكان رحمه الله سيفاً مسلولاً على المخالفين، وشجُا في حُلُوق أهل الأهواء من المبتدعين، وإماماً قائماً ببيان الحق، ونصرة الدين.

وكان بحراً لا تكدره الدلاء، وحَبراً يقتدي به الرجال الألباء، وطنت بذكره الأمصار، وضنت بمثله الأعصار، واشتغل بالعلوم، وكان ذكياً، كثير المحفوظ، إماماً في التفسير، وما يتعلق به، عارفاً بالفقه واختلاف العلماء والأصلين، والنحو، واللغة، وغير ذلك من العلوم النقلية والعقلية.

وما تكلم معه فاضل في فن إلا ظن: أن ذلك الفن فنه، ورآه عارفاً به، متقناً له[١] وكان يدافع عن الكتاب والسنّة وينصرهما، ويتحمل الأذى في سبيل دفاعه عنهما، وجهره بالحق الذي هداه

---

(١) العقود الدرية: ٦ـ٧.

إليه الدليل منهما، وقف نفسه لله تعالى ولنصرة دينه، حين عز الرجال «وتعرضت الأمة للمحن والابتلاءات التي كادت تعصف بأركانها، فقام لنصرة دين الله باذلاً لسانه وقلمه ويده وماله ونفسه في سبيل نصرة الحق، وحتى يعيش عزيزاً كريماً يستظل بحماه، وكأنه يتمثل قول سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام رحمه الله وهو يقول:

«ينبغي لكل عالم إذا أُذِلَّ الحقُّ، وأُخمِلَ الصوابُ أن يبذلَ جَهْدَه في نصرهما، وأن يجعل نفسه بالذُّل والخُمول أولى منهما، وإن عز الحقُّ فظهر الصوابُ أن يستظل بظلهما، وأن يكتفي باليسير من رشاش غيرهما»[(١)].

ـ لأجل هذا كله كانت شخصية شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله جديرة بالبحث والاهتمام.

لذا رغب صاحب دار القلم الغراء بتقديم شخصية هذا الإمام لقرائها الأكارم، فأكرمني برغبته في الكتابة عن هذا الإمام العظيم، وتقديم شخصيته إلى الأحبة القراء.

وكم من مصنف صنف عن حياته، وبيان عظمة شخصيته في شتى جوانب المعرفة، مما جعلني أقف حائراً أمام تزاحم المعلومات وكثرتها حاراً ماذا أختار وماذا أدع وأترك، ولكني استعنت بالله تعالى، وبذلت جهدي في التعريف بشخصية هذا

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ( ).

الإمام رحمه الله تعالى وتقديمها إلى القراء الأكارم، في صورة حرصت أن تحببه إلى قلوبهم، وتؤثر في سلوكهم وأعمالهم، وذلك على النحو التالي:

تمهيد: عصر ابن تيمية.

الفصل الأول: مولده وأسرته.

الفصل الثاني: نشأته وطلبه للعلم.

الفصل الثالث: شيوخه وتلاميذه.

الفصل الرابع: ابن تيمية أخلاق وسجايا.

الفصل الخامس: منهجه في الدعوة والإصلاح بين النظرية والتطبيق.

الفصل السادس: مرضه ووفاته.

الفصل السابع: مكانته العلمية وثناء العلماء عليه.

الفصل الثامن: مؤلفاته.

الفصل التاسع: ابن تيمية فقيهاً.

الفصل العاشر: ابن تيمية محدثاً.

الفصل الحادي عشر: ابن تيمية مفسراً.

الفصل الثاني عشر: ابن تيمية وعلوم المنطق والعقيدة والكلام.

الفصل الثالث عشر: ابن تيمية والعلوم الأخرى.

الفصل الرابع عشر: كيف نتعامل مع أهل العلم.

الخاتمة

وختاماً فهذا الجهد الذي بذلته، هو جهد المقل، أفشيت فيه مآثر وفضائل هذا الإمام الجليل، ودفعت عنه ما استطعت شبهات المفترين، فإن أحسنت فلله وحده الفضل في الأولى والآخرة، وإن أخطأت فذلك من عوامل الضعف الكامنة في النفس البشرية، فأسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يغفر لي زللي، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله في ميزان أعمالي يوم القيامة، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وأن يحشرنا في زمرة النبي المصطفى ﷺ، وأن يسقينا من يده الشريفة شربة لا نظمأ بعدها أبداً، إنه أعظم مسؤول، وأكرم مجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

إبراهيم محمد العلي

تمهيد

عصر ابن تيمية

إن البيئة التي ينشأ فيها الداعية تعد من أهم العوامل التي تؤثر في تكوين شخصية العالم، ولعوامل الوراثة والأسرة دور آخر في التكوين، وكم تحكمت البيئة في حياة كثير من الناس ومصائرهم.

وللبيئة دور كبير في تحديد مواقف العالم، وطريقه تعامله مع ذلك الجو الذي يعيش فيه، ولقد شهد العصر الذي عاش فيه شيخ الإسلام حوادث خطيرة، وقلاقل كثيرة، نتيجة لاجتياح التتار البلاد الإسلامية، وسقوط الخلافة، وقتل الخليفة أسوأ قتلة.

وشهد أيضاً اضطراباً وانحرافاً في مختلف جوانب الحياة، فعاش شيخ الإسلام في عصر حالك أسود متلاطم بأمواج الضعف، والفساد، والانحراف في النواحي العلمية والسياسية والاجتماعية.

ولقد كان العصر الذي عاشه شيخ الإسلام بحاجة إلى مصلح داعية، يجدد من معالم الدين ما درس في شتى مجالات الحياة، ويعيد الطمأنينة والسكينة إلى النفوس المضطربة، لا يركز جهوده على جانب واحد وينسى أو يتناسى الجوانب الأخرى،

فكان شيخ الإسلام رحمه الله ذلك الرجل الذي هيأه الله تعالى ليقوم بذلك الدور، ولا شك أنه كان دوراً عظيماً وشاقاً في رد الناس في عصره إلى منهج الحق، والتمسك بكتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ، وسنحاول إلقاء نظرة موجزة على الأحوال العامة في النواحي السياسية والاجتماعية والعلمية.

○ الحالة السياسية:

اتسمت الحالة السياسية في عصر شيخ الإسلام بالاضطراب والتفكك، فقد انقسمت بلاد المسلمين إلى دويلات، وممالك صغيرة، تنظر كل مملكة أو دويلة إلى الأخرى نظرة العداء، والحكام يعاملون رعاياهم بتسلط وظلم شديدين، ويسومونهم الخسف والهوان، مما أدى إلى ضعف المسلمين، وأفقدهم الثقة بأنفسهم، فطمع فيهم أعداؤهم، وهم أعجز من أن يدفعوا عن أنفسهم الأخطار الداهمة، وقد أشار ابن الأثير رحمه الله تعالى إلى الأخطار التي كانت تتهدد المسلمين في تلك الأزمان فقال:

«لقد بُلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم:

منها: ظهور التتار قبحهم الله، أقبلوا من المشرق، ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها.

ومنها: خروج الفرنج لعنهم الله من المغرب إلى الشام،

وقصدهم ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها، لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم.

ومنها: أن السيف بينهم مسلول، والفتنة قائمة»[1].

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إلى خروج الصليبيين والأسباب التي أدت إلى الحروب التي أشعلوها في بلاد المسلمين بقوله:

«فلما ظهر النفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسول، سلطت عليهم الأعداء، فخرجت الروم والنصارى إلى الشام والجزيرة مرة بعد مرة، وأخذوا الثغور الشامية شيئاً فشيئاً إلى أن أخذوا بيت المقدس... وبعد هذا بمدة حاصروا دمشق، وكان أهل الشام بأسوأ حال بين الكفار النصارى والمنافقين الملاحدة»[2].

فأما الخطر الصليبي فقد كان يلفظ أنفاسه الأخيرة حين ولد شيخ الإسلام وكان في بواكير شبابه، حيث تم القضاء عليه على يد الملك الأشرف خليل بن المنصور، الذي أنهى هذا الوجود الصليبي من آخر الحصون حين فتح عكا وبقية الثغور الساحية التي كانت بأيديهم، وذلك في سنة تسعين وستمائة للهجرة[3].

---

(١) الكامل في التاريخ: ٩/ ٣٣.

(٢) مجموعة الرسائل الكبرى: ١/ ١٣٣ـ ١٣٤.

(٣) البداية والنهاية: ١٣/ ٣٣٨ وما بعدها.

وأما الخطر التتري فقد عاين شيخ الإسلام وعائلته وأهل بلدته حران منه الأَمرين، حيث اضطروا للهجرة من بلدهم بسبب هجوم التتار المتكرر عليها، وتخريبهم لها، فهم قد انسابوا من المشرق، فما مروا على بلدة إلا جعلوها كالرميم، لا يبقون من معالم الحضارة في البلاد التي مروا عليها شيء، وكأنها لم تغن بالأمس، وقد وصف ابن الأثير رحمه الله هذا البلاء الذي أحدق ببلاد المسلمين بقوله:

«لقد بقيتُ عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلاً وأؤخر أخرى، فمن يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟! ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟! فيا ليت أمي لم تلدني! ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً!.

إلا أنني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً.

فنقول: هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق، وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم ـ مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن ـ لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها. ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم، وتفنى الدنيا إلا يأجوج

ومأجوج.. هؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها، وعم ضررها، وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح.

إن قوماً خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان.. ومنها إلى بلاد ما وراء النهر، فملكوها.. ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكاً وتخريباً وقتلاً ونهباً، ثم يتجاوزوها إلى الري وهمذان.. إلى حد العراق ثم يقصدون بلاد أذربيجان ويخربونها ويقتلون أهلها، ولم ينج منهم إلا الشريد النادر في أقل من سنة، هذا ما لم يسمع بمثله.. ثم قصدوا بلاد قفجان، وهم من أكثر الترك عدداً فقتلوا كل من وقف لهم، فهرب الباقون إلى الغياض ورؤوس الجبال، وفارقوا بلادهم.. واستولى هؤلاء التتر عليها، فعلوا هذا في أسرع زمان، ولم يلبثوا إلا بمقدار مسيرهم لا غير، ومضت طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان، ففعلوا فيها مثل ما فعل هؤلاء وأشد هذا مما لم يطرق الأسماع مثله... وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأكثره عمارة وأهلاً، وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة في نحو سنة... ثم أنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم فأنهم معهم الأغنام والبقر والخيل وغير ذلك

من الدواب يأكلون لحومها لا غير، وأما دوابهم التي يركبونها، فإنها تحفر الأرض بحوافرها، وتأكل عروق النبات ولا تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من خارج.

«وأما ديانتهم فأنهم يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يحرمون شيئاً، يأكلون جميع الدواب، حتى الكلاب والخنازير وغيرها، ولا يعرفون نكاحاً، بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال، فإذا جاء الولد لا يعرف»[1].

واستفحل خطر هؤلاء التتار حتى سقطت حاضرة الخلافة الإسلامية بغداد في أيديهم، ففعلوا فيها الأعاجيب، حتى أباحوها قتلاً وسلباً ونهباً أربعين يوماً، فأصبحت وهي خاوية على عروشها ليس بها أحد، إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات أنتنت جيفهم، وانتشرت رائحتهم، وحصل فيها وباء شديد. وسرى في الجو إلى البلاد المجاورة فمات خلق كثير، فاجتمع على الناس الغلاء، والوباء، والفناء، والطعن والطاعون كما قال ابن كثير رحمه الله[2].

ولقد كان لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مشاركات جدية في حرب هؤلاء التتار بلسانه وسنانه، فهم قد اضطروا أسرته

---

(١) الكامل في التاريخ: ٩/ ٣٢٩ـ ٣٣٠.

(٢) البداية والنهاية: ١٣/ ٥١٦.

للهجرة من بلدهم حران إلى دمشق، فكان يعقد مجالسه العلمية في المسجد ويحض الناس على الجهاد وبذل النفقة في سبيل الله.

وحين حاصر التتار دمشق، خرج شيخ الإسلام في جماعة من العلماء وأعيان البلد، لمقابلة ملكهم قازان، فأخذ الأمان لدمشق وأهلها، وخاطب قازان فأغلظ له القول، وكلمه كلاماً شديداً فيه مصلحة، وقد عاد نفعها على المسلمين، فقد أكرم قازان شيخ الإسلام لإخلاصه وقوة إيمانه، فانصاع له وأعطاه ما يطلب، وقد خشي عليه القضاة والعلماء من أن يقتله السلطان ولكن الله هو الذي نجاه[١].

ومن ذلك أنه رحمه الله خرج إلى مصر ليستحث السلطان الناصر على الخروج لمواجهة التتار، وكلمه كلاماً فيه شدة، وما زال به حتى خرج إلى الشام لمجابهة التتار[٢].

ومن ذلك مشاركته الفعلية الميدانية في مجابهة التتار، حين شارك في قتالهم في معركة شقحب التي أزالت خطرهم عن بلاد الشام[٣].

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ٨.

(٢) البداية والنهاية: ١٤/ ١٧.

(٣) البداية والنهاية: ١٤/ ٢٤ـ٢٨.

ومن ذلك مشاركته في قتال أهل الجبل من النصيرية والباطنية والإسماعيلية الذين تحالفوا مع التتار والصليبيين واستتابتهم[1].

ومن هذا تبين لنا أن الحالة السياسية في ذلك العصر كانت مليئة بالمحن والبلاء والمصائب الكبيرة، وحالة المسلمين في تفرق ومزق، وبعد عن التمسك بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

○ الحالة الاجتماعية:

وانعكاساً للحالة السياسية فإن الحالة الاجتماعية كانت مضطربة وغير مستقرة، فقد أدت الأخطار المحدقة ببلاد المسلمين، وكثرة غارات التتار والصليبيين إلى فقدان الأمن، واضطراب النظام، وانتشار الفزع والخوف في قلوب المسلمين، بحيث أصبح أحدهم لا يطمئن على نفسه وماله، وأدى ذلك إلى نقص في الأموال والثمار نتيجة لعدم اهتمام الناس بالزراعة والعمل، مما أدى إلى سوء وكساد في الحالة الاقتصادية، وانتشار الفقر والغلاء، واحتكار السلع لبيعها بأسعار باهظة، ثم نزول الجراد الذي قضى على البقية الباقية من الزروع والثمار.

وقد أدى اختلاط أهل البلاد بعضهم بالبعض الآخر إلى تفكك في الروابط الاجتماعية والأسرية، وانتشار عادات وتقاليد

---

(١) العقود الدرية: ١٧٩، البداية والنهاية: ١٤/ ١٣.

وأفكار جديدة في أوساط الناس، وفي مثل هذه الأجواء عمد الناس إلى الغش في البيع، وتطفيف المكاييل والموازين، مما اضطر شيخ الإسلام لأن يضع كتابه «الحسبة في الإسلام» يحض فيه ولاة أمر المسلمين والمحتسبين على متابعة أمور ومصالح عامة الناس، وإنزال العقوبات الرادعة بالمفسدين في الأرض، وفرض ما يجب من تسعيرات تحفظ للناس أقواتهم وأرزاقهم ومعايشهم.

وبالجملة فقد كانت الحياة الاجتماعية للمسلمين في ذلك العصر قد امتلأت بالفساد إلى حد كبير، وبحاجة إلى إصلاح شامل يقوم به مصلح مخلص جريء يعيد الأمور إلى نصابها، ويصلح ما فسد منها.

وقد مارس شيخ الإسلام رحمه الله جهد الإصلاح، وبذل قصارى جهده في سبيل إعادة الأمور إلى نصابها، ومن ذلك ما قام به بنفسه من ضبط للأمن، وتحديد للأسعار، وإزالة للمنكرات والفواحش، وإراقة للخمور وإغلاق للحانات، حين اضطربت الأحوال بقدوم التتار، وخرج من دمشق نائب السلطنة والأمراء وأعيان البلد، مستمداً منهجه الإصلاحي من الكتاب والسُّنَّة وما كان عليه سلف الأمة.

○ الحالة العلمية:

شهد العصر الذي عاشه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

نهضة علمية كبيرة ـ رغم المصائب والأحداث التي نزلت بالناس في ذلك الزمان، فقد كان في ذلك العصر إيمان وكفر، وتقوى وزندقة، وأمن واضطراب، وسلم وحرب. وقد وجد في ذلك العصر أئمة كبار أصبحوا مرجعاً لمن جاء بعدهم بما ألفوه من كتب ومصنفات في مختلف العلوم مثل: ـ عز الدين بن عبد السلام، وابن دقيق العيد، ومحيي الدين النووي، وأبي الحجاج المزي، إلا أنه وبالرغم من وجود مثل هؤلاء الأفذاذ فقد غلبت نزعة الجمود والتقليد على الحركة العلمية، فكان قصارى جهد العالم أن يفهم ما قيل من غير بحث ولا مناقشة، وقد عمد العلماء إلى جمع المعلومات المتعلقة بكل فن، فنظموها في سلك واحد، وألفوا فيها كتباً مطولة أحياناً، ومختصرة أحياناً، وسلكوا في ذلك منهجاً حسناً في التأليف ولكن لا أثر للابتكار والتجديد فيه.

ورغم غلبة الجمود والتقليد على الكثير من العلماء في ذلك العصر، فقد كان انتشار العلم والتوسع فيه في حركة تقدم مطرد، وملامح الخير موجودة، فقد بذل الملوك والأمراء والأعيان من ذوي الثراء والغنى أقصى الجهد في إنشاء المدارس التي تهتم بعلوم الدين من الفقه والحديث وغيرهما والتي كان يؤمها الطلاب من أنحاء العالم لتلقي العلوم الدينية، وكانوا يلحقون بها مكتبات كبيرة، ومساكن للطلاب، ويتكفلون بالإنفاق عليهم أثناء فترة التحصيل والطلب.

وقد جاء ابن تيمية رحمه الله فوجد عصره وبلده مملوءين بتلك المدارس والمكتبات فاستفاد منها أعظم ما تكون الاستفادة، إضافة إلى المساجد التي كانت حتى ذلك الزمن لا تزال مراكز للعلم والوعظ ولتأثير المصلحين في جمهور الناس.

ولكن الذي كان يقلق شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وغيره من أهل الخير أكثر من أي شيء آخر هو كثرة الفرق الإسلامية ونشاط اتباعها ضد الإسلام وأهله، فأصلحهم حالاً من كان يقف موقف المتفرج (كالصوفية) أو كان يمد يد المساعدة للتتار والفرنجة الصليبيين ضد المسلمين (كالإسماعيلية الباطنية، والرافضة النصيرية).

فقد كانت هذه الفرق حرباً على الإسلام والمسلمين معلنة ذلك بالسلاح والكلام كالباطنية، أو مفسدة لعقائد الناس في ذلك الزمان المضطرب مثل أفكار المعتزلة والفلاسفة.

وقد عاصر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى نخبة ممتازة من أئمة العلم الكبار من المحدثين والمفسرين والفقهاء، واللغويين والأدباء، وأهل العلم بالتاريخ وغيرهم أذكر فيما يلي أسماء جماعة منهم:

أبو عبد الله القرطبي صاحب التفسير المتوفى (٦٧١ هـ)، ومحيي الدين النووي (ت٦٧٦هـ)، وابن دقيق العيد (ت٧٠٢هـ)، وأبو حيان الغرناطي الأندلسي (ت ٧٥٤هـ) والسمين الحلبي

(٧٥٦) وابن رشيد الفهري الأندلسي (ت ٧٢١) وابن سيد الناس اليعمري (ت ٧٣٢هـ) وأبو الحجاج المزي (ت ٧٤٢هـ) وشمس الدين الحنبلي (ت ٧٠٩هـ) وأبو البركات النسفي (ت ٧١٠هـ) وابن جماعة الكناني (٧٣٣هـ) وابن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، وابن قيم الجوزية (٧٥١ هـ)، وتقي الدين السبكي الشافعي (٧٥٦هـ).

وجمال الدين ابن منظور (٧١١ هـ) صاحب لسان العرب، وابن آجروم الصنهاجي صاحب الأجرومية في النحو (٧٢٣هـ)، وابن هشام النحوي (ت٧٦١هـ) وصدر الدين بن الوكيل المرحل (ت٧١٦هـ) وشهاب الدين النويري صاحب (نهاية الأرب) (ت٧٣٢هـ)، وجمال الدين بن نباته المصري (ت٧٦٨هـ) وابن الطقطقي الموصلي (ت٧٠٩هـ)، وابن أبي زرع المغربي (ت٧٢٦هـ)، وعلم الدين البرزالي الدمشقي (ت ٧٣٩هـ) وشمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ) والصفدي (ت ٧٣٤هـ) وابن شاكر الكتبي (ت٧٦٤هـ)، وقطب الدين الشيرازي (ت ٧١٠هـ) وابن الفركاح الفزاري الدمشقي (ت ٧٢٩هـ) والرحالة ابن فضلان (ت ٧٤٩هـ). وغيرهم كثير.

ومن أجل هذا كله نستطيع القول أن هذا العصر كان عصراً زاهراً بالحركة العلمية في مختلف علوم الدين واللغة والتاريخ وعلوم الحياة، ولكنه لم يكن فيه من أصالة الفكر والتجديد

والابتكار في الآراء حظ كبير يتميز به ويتناسب ولو إلى حد ما مع كثرة ما جمع فيه من علوم ومعارف.

في مثل هذا العصر عاش شيخ الإسلام، مما كان له أثره على حياته العلمية، ويلحظ ذلك من خلال كتبه ورسائله التي أجاد فيها وأفاد.

الفصل الأول

«مولده وأسرته»

ـ اسمه ونسبه:

هو الإمام الفقيه، المجتهد، المحدث، الحافظ، المفسر، الأصولي، الزاهد، شيخ الإسلام، وعلم الأَعلام، تقي الدين أبو العباس، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد ابن تيمية، النميري، الحراني، ثم الدمشقي الحنبلي(١).

ـ سبب تسميته «بابن تيمية»:

وأما سبب هذه التسمية، فقد جاء فيها عدة أقوال، نوردها فيما يلي:

الأول: أَن جده محمد بن الخضر حج وكانت امرأته حاملاً، فلما كان بتيماء رأى جُويرية قد خرجت من خباء، فلما رجع إلى

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٨٧، السلوك للمقريزي: ٢/ ٣٠٤، الدرر الكامنة: (١/ ١٥٤)، العقود الدرية: ص ٢ وغيرها من المصادر التاريخية.

حران وجد امرأته قد وضعت جارية، فلما رفعوها إليه قال: يا تيمية، يا تيمية، يعني أنها تشبه التي رآها بتيماء، فسمي بها[١].

الثاني: إن جده «محمداً» كانت أمه تسمى «تيمية» وكانت واعظة، فنسب إليها وعرف بها[٢].

ـ وأما نسبته «النميري»:

فنسبة إلى قبيلة «بني نمير» فهو عربي الأصل، على خلاف ما قال الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله: بأن شيخ الإسلام لم يكن عربياً، وأنه كان كردياً، بدليل أن المؤرخين لم يذكروا قبيلته[٣].

فقد أثبت هذا النسب الإمام القاضي نور الدين محمود العدوي الصالحي المعروف «بالزوكاوي» المتوفى سنة ١٠٣٢هـ في كتابه الزيارات، وابن ناصر الدين الدمشقي المتوفى سنة ٨٤٢هـ في كتابه «التبيان لبديعة البيان»[٤]، وهذا ما يدفع قول الشيخ أبي زهرة رحمه الله تعالى.

---

(١) الشهادة الزكية: ص ٢٣ـ ٢٤، العقود الدرية: ص ٢، تاريخ إربل: ص ٦٧.
(٢) الشهادة الزكية: ص ٢٤، العقود الدرية: ص ٢.
(٣) ابن تيمية لمحمد أبو زهرة: ص ١٨.
(٤) الزيارات: ص ٩٤ رقم ٩، التبيان لبديعة البيان: الطبقة الحادية والعشرين وهو مخطوط في جامعة أم القرى برقم: ١٧٦.

○ مكان وتاريخ ولادته:

ولد الإمام ابن تيمية رحمه الله في حران، وهي بلدة قديمة كانت من أهم مراكز الديانات القديمة، وهي تقع شمالي شرقي الجمهورية التركية، قرب أورفة، وهي بلدة عامرة الآن، وقد أصابها الخراب عند احتلال التتار لها أيام رحيل آل تيمية وغيرهم عنها[(١)].

وأما تاريخ ولادته فقد اتفق جمهور من ترجم له على الشهر الذي ولد فيه والسنة التي ولد فيها، لكن جاء الاختلاف في تحديد تاريخ اليوم الذي ولد فيه.

فقد كان مولده رحمه الله في عاشر ربيع الأول، سنة إحدى وستين وستمائة[(٢)].

وقد جاء أنه ولد يوم الإثنين عاشر أو ثاني عشر ربيع الأول، سنة إحدى وستين وستمائة[(٣)].

والراجح أنه ولد في العاشر من ربيع الأول في السنة المذكورة والله أعلم.

---

(١) الإعلام العلية: ص ١٦ تعليق رقم (١)، وقد ذكر كثير من المؤرخين أنه ولد بحران.

(٢) ثلاث تراجم نفيسة: ص ٢٢، الإعلام العلية: ص ١٦، تاريخ ابن الوردي: ٢/ ٤٠٧، تذكرة الحفاظ: ص (١٤٩٦)، البداية والنهاية (١٣/ ٢٤١) الدرر الكامنة: ١/ ١٥٤، الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٨٧، السلوك للمقريزي: ٢/ ٣٠٤.

(٣) العقود الدرية ص ٢.

○ **حليته وصفاته الخَلْقية:**

وقد وصفه معاصروه الذين ترجموه وصفاً دقيقاً أعطانا صورة واضحة عن حليته وسمته وهيئته رحمه الله تعالى، فقد جاء في وصفه:

أنه كان أسود الرأس واللحية، قليل الشيب، شعره إلى شحمة أُذنية، ربعة من الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جهوري الصوت، فصيح اللسان، أبيض، أعين، كأَنَّ عينيه لسانان ناطقان، سريع القراءة، تعتريه حدة ثم يقهرها بحلم وصفح.

كان ملبسه رحمه الله تعالى كآحاد الفقهاء، فَرْجية وَدَلَق، وعمامة تكون قيمة ثلاثين درهماً، ومداس ضعيف الثمن، وشعره مقصوص، ذا سطوة وإقدام وعدم مداراة، ربما قام لمن يجيء من سفر أو غاب عنه، وإذا جاء فربما يقومون له، الكل عنده سواء، وكأنه فارغ من هذه الرسوم، ولم ينحن لأحد قط، وإنما يُسلم ويصافح ويبتسم، وقد يعظم جليسه مرة، ويهينه في المحاورة مرات.

يضاف إلى هذا جميعاً ذكاءً خارقاً، وحافظة واعية لا تكاد تنسى شيئاً مما تقرأ، وشدة توجه إلى الله في الابتهال والاستعانة لم يُرَ مثله في ذلك رحمه الله تعالى[1].

---

(١) تاريخ ابن الوردي: ٢/ ٤١٣، الوافي بالوفيات: ٧/ ١٧ منجد، الدرر الكامنة ١/ ١٥٤، الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٦، فوات الوفيات: ١/ ٧٥، العلماء العزاب: ص ١٧١.

○ **آثار حليته على تصرفاته:**

تلك صفات جسمية ونفسية فوق ما له من مزايا عقلية، تجعله ذا هيبة خاصة، وقوة تأثير، ونفوذ في قلب من يتحدث إليه، ومن يلقي سمعه إليه، لا يلبث أن يلقي قلبه ومشاعره بين يديه.

تقدم أحمد بهذه الصفات الشخصية، وهذه المواهب، وتلك المدارس، وذلك العلم الغزير، فألقى دروسه في الجامع الكبير بلسان عربي مبين، فاتجهت إليه الأنظار، واستمعت إليه أفئدة سامعيه، وانتقل كثيرون من المستمعين إلى تلاميذ مريدين متحمسين معجبين، وصار له من بينهم مخلصون إخلاص الحواريين الصديقين، وجمعت دروسه بين الموافق والمخالف، والبدعي والسني، فكثر تلاميذه وسامعوه رحمه الله تعالى[١].

○ **تلقيبه «شيخ الإسلام»:**

أثنى على الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى عدد كبير من العلماء، وأشادوا بعلمه وجهاده وإمامته، وهم من الذين عاصروه، أو جاؤوا بعده، وأطلقوا عليه لقب «شيخ الإسلام»، وسأذكر تالياً ما جاء في معنى هذا اللقب:

---

(١) ابن تيمية لأبي زهرة: ص ٢٩.

قال الحافظ الإمام العالم العلاَّمة ابن ناصر الدين الدمشقي الشافعي ما نصه تحت عنوان «معنى شيخ الإسلام»:

منها: أنه شيخ في الإسلام قد شاب، وانفرد بذلك عمن مضى من الأتراب، وحصل على الوعد المبشر بالسلامة: أنه «من شاب شيبة في الإسلام فهي له نور يوم القيامة».

ومنها: ما هو في عرف العوام: أنه العدة، ومفزعهم إليه في كل شدة.

ومنها: أنه شيخ الإسلام بسلوكه طريقة أهله، قد سلم من شر الشباب وجهله، فهو على السُّنَّة في فرضه ونفله.

ومنها: شيخ الإسلام بالنسبة إلى درجة الولاية، وتبرك الناس بحياته، فوجوده فيهم الغاية.

ومنها: أَن معناه المعروف عند الجهابذة النقاد، المعلوم عن أَئمة الإسناد: أن مشايخ الإسلام والأَئمة الأعلام هم المتبعون لكتاب الله عزّ وجلّ، المقتفون لسُنَّة النبي ﷺ، الذين تقدموا بمعرفة أحكام القرآن ووجوه قراءاته، وأسباب نزوله، وناسخه ومنسوخه، والأَخذ بالآيات المحكمات، والإيمان بالمتشابهات، قد أَحكموا من لغة العرب ما أَعانهم على علم ما تقدم، وعلموا من السُّنَّة نقلاً وإسناداً وعملاً بما يجب العمل به اعتماداً، وإيماناً بما يلزم من ذلك اعتقاداً، واستباطاً لوصول والفروع من الكتاب والسُّنّة، قائمين بما فرض الله عليهم، متمسكين بما ساقه الله من

ذلك إليهم، متواضعين لله العظيم الشأن، خائفين من عثرة اللسان، لا يَدَّعون العصمة ولا يفرحون بالتبجيل، عالمين أَن الذي أوتوا من العلم قليل.

فمن كان بهذه المنزلة حكم بأنه إمام، واستحق أن يقال له: شيخ الإسلام»[1].

ثم ذكر رحمه الله طبقات من العلماء استحقوا مثل هذا اللقب وأطلق عليهم، من زمن التابعين، وحتى زمن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

وفي معنى «شيخ الإسلام» يقول الإمام الحافظ إمام الحنفية في زمانه بدر الدين العيني رحمه الله تعالى:

«وقد عُلِمَ أن لفظة الشيخ لها معنيان، لغوي، واصطلاحي.

فمعناه اللغوي: الشيخ من استبان فيه الكبر.

ومعناه الاصطلاحي: الشيخ الذي يصلح أن يتتلمذ له.

وكلا المعنيين موجود في الإمام المذكور، ولا ريب أنه كان شيخاً لجماعة من علماء الإسلام، ولتلاميذه من فقهاء الأنام، فإذا كان كذلك، كيف لا يطلق عليه «شيخ الإسلام» لأَن من كان شيخ المسلمين، يكون شيخاً للإسلام، وقد صرح بإطلاق ذلك عليه قضاة القضاة الأعلام، والعلماء الأفاضل أركان الإسلام وهم

---

(١) الرد الوافر: ص ٥١ـ٥٢.

الذين ذكرهم مؤلف كتاب الرد الوافر في رسالته التي أَبدع فيها بالوجه الظاهر»[1].

ويقول أستاذنا وشيخنا العالم الأديب الفقيه عبد الفتاح أبو غده رحمه الله تعالى في كتابه النافع «العلماء العزاب»:

«لفظ «شيخ الإسلام» لقب أطلق في عهد الخلافة العثمانية، على من قام بوظيفة الإمامة في الدين، وكان أَكبر العلماء مقاماً لدى سلطان المسلمين، فهو بهذا المعنى لقب وظيفي.

وأطلقه العلماء السابقون على كل من حاز درجة كبيرة عالية في العلم بالكتاب والسُّنّة، وفي الفضل والصلاح والقدوة، وكان مرجع المسلمين في العلم وشؤون الدين، وهو بهذا المعنى، وارد في كتب المحدِّثين والمؤرخين والرجال والتراجم، فاعرفه»[2].

وقد أورد الإمام ابن ناصر الدين في كتابه «الرد الوافر» بضعة وثمانين ترجمة لأكابر العلماء وأعيان الزمان، في عصر ابن تيمية رحمه الله وبعد عصره ممن أطلقوا هذا اللقب على الإمام ابن تيمية رحمه الله ووصفوه به، ولم يشترط استيعاب من وصفه بهذا اللقب، بل ذكر من حضره ذكره.

---

(١) الشهادة الزكية: ص ٧٧ـ ٧٨، الرد الوافر: ص ٢٦٤.

(٢) العلماء العزاب: ص ٤٦.

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى:

«ولقد افتخر قاضي القضاة تاج الدين السبكي رحمه الله تعالى في ترجمة أبيه الشيخ تقي الدين السبكي في ثناء الأَئمة عليه، بأن الحافظ المزي - رحمه الله - لم يكتب بخطه لفظة شيخ الإسلام إلاّ لأَبيه، وللشيخ تقي الدين ابن تيمية، وللشيخ شمس الدين ابن أبي عمر -[1].

فلولا أن ابن تيمية في غاية العلو في العلم والعمل، ما قرن ابن السبكي أباه معه في هذه المنقبة، ولو كان ابن تيمية مبتدعاً أو زنديقاً ما رضي أن يكون أباه قريناً له»[2].

- أسرته ومن اشتهر منهم بالعلم:

إن التعرف على أسرة عالم ما، يلقي الضوء على شخصيته ونشأَته، وذلك لما للأسرة والبيت من أثر عجيب في تكوين شخصية هذا العالم، وابن تيمية رحمه الله سليل أسرة عريقه، وبيت مشهور بالعلم والمكارم والفضائل، قد ورث العلم والمجد والأَخلاق لأبنائه، جيلاً عن جيل، وكابراً عن كابر، وكان أَبناء هذه الأسرة حملة لراية العلم بما لهم من قدم راسخة فيه.

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ٦/ ١٦٨.

(٢) الرد الوافر: ص ٢٥٠.

وقد تفتحت عينا ابن تيمية رحمه الله على مجد عريق، وعلم غزير، فوالده الإمام الجليل العلاَّمة المفتي شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم، الذي اشتهر في عصره بغزارة علمة، وقوة حافظته، ومكانته العالية بين علماء عصره، فحمل الراية بعده، وتابع طريق العلم مسجلاً لأُسرة تيمية سبقاً عظيماً في العلم والفضل، ومكانة لا تدانيها مكانة عبر الأزمان المتعاقبة ولقد عبر عن هذه المكانة العالية لهذه الأسرة الإمام نجم الدين سليمان بن عبد القوي رحمه الله تعالى حيث قال:

يا أَهلَ تيميَّةَ العالين مَرْتبةً
وَمنصباً فرع الأفلاكَ تبياناً

جواهرُ الكَونِ أنتمْ، غَيرَ أَنكمُ
في مَعشرٍ أُشرِبوا في العَقلِ نقصاناً

لا يَعرفونَ لَكُمْ فَضلاً، وَلوْ عَقلوا
لصيَّروا لكُمُ الأَجفانَ أوطاناً

يا مَنْ حَوى مِنْ علومِ الخلقِ ما قَصُرتْ
عَنهُ الأَوائِلُ مُذْ كانوا إِلى الآنا

إن تُبْتَلَى بلِئامِ الناسِ يرفعهم
دَهرٌ عَليكَ لأَهلِ الفضلِ قَدْ خانا

إني لأُقسمُ، وَالإسلامُ مَعتقدي،
وإنني مِنْ ذَوي الإيمانِ: أَيماناً

لَـمْ أَلـقَ قَـبلْـكَ إِنـسـانـاً أُسـر بِـهِ
فـلا بَـرِحـتَ لـعيـنِ الـمـجـدِ إِنـسـانـاً[1]

وقد ساعدت ظروف هذه الأُسرة العريقة في مجال العلم، والتي لم يكن زادها وعتادها في حياتها حتى وفي مراحل الخطر والهجرة إلا كتب العلم، ساعدت هذه الظروف في تكوين شخصية إمامنا ابن تيمية رحمه الله، مع وجود الاستعدادات الفطرية التي كانت فيه، مما ساعد على تفوقه العلمي، وبروزه بين أَقرانه في مرحلة مبكرة من حياته، وتأَهله للتدريس والفتوى وهو في صدر شبابه.

وسأذكر ترجمة موجزة لأبناء هذه الأُسرة المباركة ممن اشتهروا في ميدان العلم، وعرف لهم أَهل عصرهم هذه المكانة:

ـ والده:

هو شهاب الدين، أبو المحاسن، عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية الحراني، الإمام العلاَّمة المفتي، والد شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية رحمهما الله تعالى.

ولد بحران سنة سبع وعشرين وستمائة، تلقى العلم على والده وغيره من أهل العلم، ورحل في صغره إلى حلب وسمع

(١) العقود الدرية: ص ٢٥٤ـ٢٥٥.

من شيوخها وأهل العلم فيها، حتى إذا أتقن العلوم درس وأفتى وصار شيخ حران وخطيبها.

قال الذهبي رحمه الله: «قرأ المذهب حتى أتقنه على والده، ودرس وأفتى وصنف وصار شيخ البلد بعد أبيه، وخطيبه وحاكمه، وكان إماماً محققاً كثير الفنون له يد طولى في الفرائض والحساب والهيئة، ديناً متواضعاً، حسن الأخلاق جواداً، من حسنات العصر، تفقه عليه ولداه أَبو العباس وأَبو محمد، وان قدومه إلى دمشق بأهله وأقاربه مهاجراً سنة سبع وستين، وكان من أَنجم الهدى، وإنما اختفى من نور القمر، وضوء الشمس، يشير إلى أبيه وابنه.

وقال البرزالي رحمه الله عنه: كان من أعيان الحنابلة، باشر بدمشق مشيخة دار الحديث السكرية، وكان له كرسي بالجامع يتكلم عليه أيام الجمع من حفظه.

وكان يسكن دار الحديث السكرية بالقصّاعين، له تعاليق وفوائد ومصنف في علوم متعددة، توفي رحمه الله ليلة الأحد أواخر شهر ذي الحجة سنة ٦٨٢هـ ودفن بمقابر الصوفية(١).

---

(١) البداية والنهاية: ١٣/ ٣٠٣، الذيل على طبقات الحنابلة: ٣/ ١٦٧، تراجم العليمي: ٢/ ٤٧٣، شذرات الذهب، ٥/ ٣٧٦، جلاء العينين لابن الآلوسي: ص١٩.

ـ والدته:

هي الشيخة الصالحة ست النعم بنت عبد الرحمن بن علي بن عبدوس الحرانية، والدة شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية، عمرت فوق السبعين سنة، ولم ترزق بنتاً قط.

كان لها المكانة العظيمة في نفس شيخ الإسلام رحمه الله، يدل على هذه المكانة تلك الرسالة التي أَرسلها إليها من سجنه في القاهرة، والتي امتلأت بالمشاعر والعواطف الجياشة، والمحبة العظيمة التي كان يكنها لها رحمهما الله تعالى.

وكانت رحمها الله تعالى على قيد الحياة يوم عاد شيخ الإسلام من مصر سنة ٧١٢هـ.

توفيت يوم الأربعاء العشرين من شوال سنة ٧١٦هـ، ودفنت بالصوفية، وحضر جنازتها خلق كثير، وجمع غفير، رحمها الله تعالى[(١)].

ـ جده:

هو الفقيه الإمام المقرىء المحدث المفسر، الأصولي، شيخ الإسلام وفقيه الوقت وأحد الأعلام مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن تيمية الحراني الحنبلي، جد شيخ الإسلام تقي الدين.

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ٧٩، والدرر الكامنة: ١/ ١٥٩.

ولد بحران سنة تسعين وخمسمائة. وحفظ القرآن بها، وسمع من عمه الخطيب فخر الدين ومن غيره من أهل العلم، ورحل في طلب العلم إلى بغداد وأقام بها ست سنين يشتغل في الفقه والخلاف وسائر العلوم، ثم رجع إليها مرة أخرى بعد عودته إلى حران، ومكث فيها ـ يعني ببغداد ـ بضع عشرة سنة فازداد فيها علماً وفقهاً.

قال عنه شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رحمه الله: كان جدنا عجباً في حفظ الأحاديث وسردها، وحفظ مذاهب الناس وإيرادها بلا كلفة.

قال الذهبي: قال لي شيخنا أبو العباس: كان الشيخ جمال الدين بن مالك يقول: أُلين للشيخ المجد الفقه كما أُلين لداود الحديد.

وقال الذهبي: كان الشيخ مجد الدين معدوم النظير في زمانه، رأساً في الفقه وأصوله، بارعاً في الحديث ومعانيه، له اليد الطولى في معرفة القرآن والتفسير، صنف التصانيف، واشتهر وبعُدَ صيته، كان فريد زمانه في معرفة المذهب، مفرط الذكاء، متين الديانة، كبير الشأن.

قال الحافظ الشريف عز الدين: حدث بالحجاز، والشام، والعراق، وبلده حران، وصنف ودرس، وكان من أعيان العلماء، وأكابر الفضلاء ببلده، وبيته مشهور بالعلم والدين والحديث.

أَخذ عنه العلم جماعة من العلماء أشهرهم ابنه شهاب الدين عبد الحليم، والحافظ عبد المؤمن الدمياطي وآخرون.

له من المصنفات كتاب الأحكام الكبرى، وكتاب المنتقى من أحاديث الأحكام والذي يعد أصل كتاب نيل الأوطار للشوكاني الذي قام بشرح كتاب المنتقى، وله المسودة في الأصول، والتي زاد فيه ولده شهاب الدين، ثم حفيده أبو العباس تقي الدين. توفي رحمه الله تعالى يوم عيد الفطر بعد صلاة الجمعة من سنة اثنتين وخمسين وست مئة بحران، ودفن بظاهرها»[١].

ـ عم جد شيخ الإسلام:

الواعظ الفقيه الخطيب فخر الدين أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله المعروف بابن تيمية الحراني الحنبلي.

كان عالماً فاضلاً، تفرد في بلده بالعلم، وكان المشار إليه في الدين، لقي جماعة من العلماء. وقدم بغداد وتفقه بها على أبي

(١) لمزيد من التفاصيل انظر ترجمته في الكتب التالية: شذرات الذهب: ٥/ ٢٥٧ـ ٢٥٨، الذيل على الطبقات: ٣/ ٢٩ـ ٢٥٤، العبر: ٥/ ٢١٢، سير إعلام النبلاء: ٢٣/ ٢٩١ معرفة القراء الكبار: ٢/ ٥٢٠ـ ٥٢١، البداية والنهاية: ١٣/ ١٨٥، فوات الوفيات: ٢/ ٣٢٣ـ ٣٢٤، ترجمة: ٢٧٨، جلاء العينين: ص ١٨ـ ١٩.

الفتح ابن المني، وسمع الحديث بها، وصنف في مذهب الإمام أحمد مختصراً أجاد فيه.

كان يدرس التفسير في كل يوم بحران حين عاد إليها، وقد فسر القرآن خمس مرات في مسجد حران الكبير، كانت المرة الأولى في عام ٥٥٨هـ والمرة الأخيرة عام ٦١٠هـ.

وقد اشتهر بالورع وعيِّن إماماً وخطيباً لمسجد حران الكبير، وعهد إليه بالتدريس في المدرسة النورية بها، ولم يزل أمره على السداد وصلاح الحال، وله القبول التام عند الخاص والعام.

ذكره أبو يوسف محاسن بن سلامة بن خليفة الحراني في «تاريخ حران» وأثنى عليه.

وكان مولده بحران في أواخر شعبان سنة اثنتين وأربعين وخمس مئة، وتوفي بها في حادي عشر صفر، سنة إحدى وعشرين وستمائة، رحمه الله تعالى[١].

ـ ابن عم جد شيخ الإسلام:

هو الشيخ الإمام العالم الفاضل سيف الدين عبد الغني بن الشيخ فخر الدين محمد بن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحنبلي أبو محمد الحراني رحمه الله تعالى.

---

(١) وفيات الأعيان: ٤/ ٣٨٦ـ٣٨٨، مختصر الشطي: ص ٤٨، شذرات الذهب ٥/ ١٠٢، تاريخ إربل: ص ٦٧، طبقات الحنابلة: ٢/ ١٥١، الوافي بالوفيات: ٣/ ٣٧ النجوم الزاهرة: ٥/ ١٠٢، سير إعلام النبلاء: ٢٢/ ٢٢٨.

ولد في الثاني من صفر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة بمدينة حران، وسمع بها من والده وغيره، ثم رحل إلى بغداد في سنة ثلاث وستمائة فسمع بها من جماعة من العلماء منهم الفخر إسماعيل غلام بن المني وغيره.

قال ابن حمدان: الشيخ الإمام العالم الفاضل سيف الدين، قام مقام والده في التدريس والفتوى، والوعظ والخطابة، فكان خطيباً خصيماً، رئيساً ثابتاً، رزين العقل(١).

كان يلقي التفسير في الجامع على الكرسي، له تصنيف على «الزوائد على تفسير الوالد» و «إهداء العرب إلى مساكن الرب»، وممن لقيه وسمع منه الحافظ المنذري رحمه الله توفي في السابع عشر من محرم سنة تسع وثلاثين وستمائة بحران رحمه الله تعالى.

● ومن ذرية الشيخ سيف الدين: ابنه أبو الفرج فخر الدين عبد القاهر بن أبي محمد بن أبي القاسم بن تيمية الحراني الحنبلي، ولد بحران سنة اثنتي عشرة وستمائة، وسمع من جده وابن اللتي، وحدث بدمشق، وخطب بجامع حران، وتوفي في حادي عشر شوال ـ يعني سنة ٦٧١هـ ـ بدمشق، ودفن من الغد

---

(١) مختصر الشطي: ص ٤٨، الإعلان للسخاوي: ص ١٢٥، طبقات المفسرين للداودي: ١/ ٣٣١ـ ٣٣٢، ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٢٢٢، التكملة لوفيات النقلة: ٣/ ٥٧٠.

بمقابر الصوفية[1].

● ومن ذريته حفيده: أبو البركات شرف الدين عبد الأَحد ابن أبي القاسم بن عبد الغني ابن خطيب حران فخر الدين بن تيمية الحراني الحنبلي التاجر، روى عن ابن اللتي حضوراً، وعن ابن رواحة وابن شقير وجماعة، وكان صالحاً عدلاً، تقياً، توفي بدمشق في شعبان ـ يعني سنة ٧١٢هـ ـ عن اثنتين وثمانين سنة»[2].

ـ إخوة شيخ الإسلام:

● منهم الفقيه الإمام المتقن، المفتي الزاهد القدوة شرف الدين عبد الله بن عبد الحليم بن عبد السلام بن أبي القاسم ابن الخضر بن محمد بن تيمية الحراني، ثم الدمشقي، الحنبلي، أبو محمد أخو الشيخ تقي الدين رحمهم الله تعالى.

ولد في الحادي عشر من شهر محرم سنة ست وستين وستمائة بحران، وقدم مع أهله إلى دمشق وهو صغير، فحضر بها على ابن أبي اليسر وغيره، ثم سمع ابن علان وابن الصيرفي. وخلقاً، وسمع المسند والصحيحين وكتب السنن، وتفقه في

(١) شذرات الذهب: ٥/ ٣٣٤، ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٢٨٢.

(٢) شذرات الذهب: ٦/ ٣٠، معجم شيوخ الذهبي: ١/ ٣٤٦، ذيل العبر: ٤/ ٣٤، لدرر الكامنة: ٢/ ٣١٤.

المذهب حتى أَفتى، وبرع أيضاً في الفرائض والحساب وعلم الهيئة، وفي الأصلين والعربية، وله مشاركة قوية في الحديث، ودرس بالحنبلية مدة.

كان صاحب صدق وإخلاص، قانعاً باليسير، شريف النفس شجاعاً مقداماً زاهداً، عابداً، ورعاً يخرج من بيته ليلاً ويأَوي إليه نهاراً، ولا يجلس في مكان معين بحيث يقصد فيه، وكان كثير العبادة والتأله والمراقبة والخوف من الله تعالى، كثير الصدقات، وقد حج مرات عديدة.

كان له يد طولى في معرفة تراجم السلف ووفياتهم في التواريخ المتقدمة والمتأخرة، وقد سجن مع أخيه بالديار المصرية، وقد استدعي غير مرة للمناظرة، فناظر وأفحم الخصوم.

سئل عنه الشيخ كمال الدين بن الزملكاني، فقال: هو بارع في فنون عديدة من الفقه والنحو والأُصول، ملازم لأَنواع الخير، وتعليم العلم، حسن العبارة قوي في دينه، مليح البحث، صحيح الذهن، قوي الفهم، رحمه الله، قاله ابن رجب، وذكره الذهبي في المعجم وغيره، وأثنى عليه خيراً.

توفي رحمه الله تعالى يوم الأَربعاء رابع عشر جمادي الأُولى ـ يعني سنة ٧٢٧هـ ـ وصلي عليه الظهر بالجامع، وحمل إلى القلعة فصلى عليه أخواه تقي الدين وعبد الرحمن وغيرهما، صلى عليه أخواه في السجن لأَن التكبير عليه كان يبلغهم، وكان

وقتاً مشهوداً، ثم صلي عليه مرة ثالثة ورابعة، وحمل على الرؤوس والأصابع ودفن بمقابر الصوفية[1].

● **ومنهم**: العالم الفاضل زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني أخو الشيخ تقي الدين.

ولد سنة ثلاث وستين وستمائة بحران، وحضر على أحمد بن عبد الدايم وهو في الخامسة جزء ابن عرفة، وسمع من ابن أبي اليسر والقاسم الإربلي، وغيرهم من العلماء، وجمع له منهم البرزالي ستة وثمانين شيخاً.

وكان يتعاطى التجارة، وهو خيّرٌ ديّن حبس نفسه مع أَخيه بالإسكندرية ودمشق محبة له وإيثاراً لخدمته، ولم يزل عنده، ملازماً معه للتلاوة والعبادة إلى أن مات الشيخ، وخرج هو، وكان مشهوراً بالديانة والأمانة، وحسن السيرة، وله فضيلة ومعرفة.

كان شديد التعظيم لأخيه شيخ الإسلام، وكان يجلس بحضرته كأن على رأسه الطير، وكان يهابه كما يهاب سلطاناً، فإذا سئل عن هذا قال: إني أرى منه أشياء لا يراها غيري، أَوجَبَت عليّ أَن أكون معه كما ترون.

---

(١) شذرات الذهب: ٦/ ٧٦ـ ٧٧، مختصر الشطي: ص ٥٣، الرد الوافر: ص ٩٦ الدرر الكامنة: ٢/ ٣٧٠، معجم الشيوخ للذهبي؛ ١/ ٣٢٣، ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٨٢.

ومات في ثالث ذي القعدة سنة ٧٤٧ هـ رحمه الله تعالى[١].

- ومنهم أخو الشيخ لأُمه: الفقيه الحنبلي التاجر بدر الدين أبو القاسم محمد بن خالد بن إبراهيم الحراني.

ولد سنة خمسين وستمائة تقريباً بحران، وسمع بدمشق من ابن عبد الدايم وابن أبي اليسر وابن الصيرفي وابن أبي عمر وغيرهم، وتفقه ولازم الاشتغال على الشيوخ وأَفتى بالمدرسة الجوزية، وبمسجد الرماحين بسوق جقمق، ودرس بالمدرسة الحنبلية نيابة عن أَخيه الشيخ تقي الدين مدة.

قال الذهبي: كان فقيهاً عالماً إماماً بالجوزية، وله رأس مال يتجر به، وكان قد تفقه على أَبي زكريا ابن الصيرفي وابن المنجا وغيرهما، سمعنا منه أجزاءً وكان خيّراً متواضعاً.

وقال البرزالي: كان فقيهاً مباركاً كثير الخير، قليل الشر، حسن الخلق، منقطعاً عن الناس، وكان يتجر ويتكسب وترك لأولاده تركة، وروى جزء ابن عرفة مراراً عديدة. توفي يوم

---

(١) الدرر الكامنة: ٢/ ٤٣٧، البداية والنهاية: ١٤/ ٢٢٠، شذرات الذهبي: ٦/ ١٥٢، الإعلام العلية: ٥٤ـ ٥٥، معجم شيوخ الذهبي: ١/ ٣٦١، الوفيات لابن رافع: ٢/ ٣٧.

الأَربعاء ثامن جمادى الآخرة سنة ٧١٧هـ ودفن بمقابر الصوفية عند والدته[١].

ـ بنت أخ شيخ الإسلام: زينب بنت عبد الله بن عبد الحليم بن تيمية الحنبلية.

قال ابن حجر: سمعت من الحجار وغيره وحدثت وأَجازت لي.

من شيوخ ابن ناصر الدين محمد بن أبي بكر الدمشقي القيسي[٢].

في مثل هذا الجو العلمي، والأسرة الكريمة، ذات الأمجاد العريقة في حمل راية العلم والفقه والدين، نشأ شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى يتقلب في أعطاف العلم، تعلماً وتعليماً، مع ما قد حباه الله تعالى من ذاكرةٍ حادة، وعقلٍ مستنير، وفكر صحيح لا عوج فيه، واطلاع مدهش جعل له من الأثر الكبير في نبوغه وتفوقه مبكراً، فقد تفوق قبل سنِّه حتى أصبح موضع اهتمام وحديث أهل عصره.

لقد نبغ شيخ الإسلام رحمه الله نبوغاً لا نظير له، ووصل إلى أبواب من العلوم وصنف فيها لم يسبقه إليها أحد، ولم يلحق

---

(١) شذرات الذهب: ٦/ ٤٥ـ ٤٦.

(٢) ذيل طبقات الحفاظ: ص ٣١٧، شذرات الذهب: ٦/ ٣٥٨، أعلام النساء: ٢/ ٧٤.

به فيها أحد، وأصبح ذكر سيرته على الألسنة في سائر البلدان، وامتلأَت بترجمته الكتب والمؤلفات، وأثنى عليه أهل العلم في عصره وبعد عصره ثناءً جميلاً، وخلف وراءه من المصنفات والمؤلفات مئات المجلدات ازدانت بها المكتبة الإسلامية، فكلما ذكر المصلحون والمجددون، أو علوم الكلام والمنطق ومناقشة أهل الفرق، أو الفقه وأصوله، أو التفسير والمفسرون، أو الحفاظ الذين لا يشق لهم غبار، أو أي فن يضرب الناس المثل بالإكثار من تعلمه وحيازته، قفز إلى الذاكرة علم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في هذه الفنون، الذي أدهش أهل عصره بما حباه الله من العلم، وما ناله من الفضل والمكانة العالية، وهذا الفضل كله من الله تعالى الذي يؤتيه من يشاء من عباده.

الفصل الثاني

نشأته وطلبه للعلم

- مرحلة الهجرة والاستقرار
- مرحلة طلب العلم والتلقي
- مرحلة بداية العطاء

نشأَته وطلبه للعلم

نشأ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في عائلة متدينة. قد اشتهرت بالعلم، وورثه الآباء والأجداد، للأبناء والأحفاد. وكان للكثير من أبنائها نصيب وافر وحظ كبير من العلم، وقد ذكرنا بعض من اشتهر به منهم فيما مضى، ومن الطبيعي أَن تعتني هذه العائلة بأبنائها ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وتربيه وتشنئه على الأخلاق الفاضلة، والآداب العالية، وتبتعد به عن كل خلق سيء يشينه وينزل به.

وقد تأدب شيخ الإسلام بآداب من حوله، واقتدى بسيرة أبيه وأجداده الكرام، فكان نعم الوارث لتلك الأمجاد العريقة، والأخلاق الفاضلة.

وقد أثرت هذه العائلة الكريمة في تكوين شخصيته العلمية، وتوجيهه إلى طلب العلم، وتشجيعه على الازدياد منه، والنهل من منابعه الصافية، منذ حداثة سنه وإلى أن تأهل للتدريس والإفتاء، وأصبح مركزاً للإشعاع العلمي، وسيوضح هذا الفصل الذي سنعقده هذا الإجمال الذي ذكرناه آنفاً.

١ ـ مرحلة الهجرة والاستقرار:

ولد شيخ الإسلام ابن تيمية في عصر امتلأ بالفتن والاضطرابات، وكانت حياة المسلمين مليئة بالمصائب والأحداث الجسام، وقد ابتلوا ببلاء عظيم وهو غزو التتار لبلاد المسلمين، وكثرة غاراتهم على مدنه وحواضره، وتخريبهم كل ما تصل إليه أيديهم من معالم الحضارة والعمران، وإسرافهم في قتل المسلمين وسبي نسائهم، وسلب أموالهم.

وقد شهد شيخ الإسلام من فظائعهم الشيء الكثير من بداية حياته، ونعومة أظفاره، حتى بلغ مرتبة الإمامة في الدين، وشارك في دحرهم وهزيمتهم في معركة شقحب على أرض الشام.

ولذلك ما إن بلغ الإمام رحمه الله السادسة من عمره حتى أَغار التتار على بلده حران، وأعملوا فيها السيف والتدمير والتخريب، فما كان من والده الإمام شهاب الدين عبد الحليم رحمه الله إلاّ أن فر بأسرته هارباً من حران باتجاه دمشق، يصحبهم في طريقهم الكثير من العائلات والأُسر الكريمة التي تعرضت بلادها للاعتداء والسلب والنهب، وهي تحمل معها تراثها وكنوزها من كتب العلم وعراقة الأمجاد.

وقد صَعُبَ على الشيخ شهاب الدين عبد الحليم رحمه الله أن يترك ثروته الكبيرة من كتب العلم، وذخائر التراث الإسلامي، ليعيث فيها التتار حرقاً وتدميراً وفساداً، فما كان منه إلا أن وضع

كتبه التي يمتلكها على عجلة يجرها، ويعينه في جرها أبناء بلدته الذين خرجوا معه، فهو إمامهم وعالم بلدهم وخطيبها، رغم طول المسافة، وتزايد الخوف من التتار الذين كانوا يطاردونهم، واشتداد المشقة عليهم في جرها بأيديهم لعدم توفر الدواب.

وكاد التتار أن يلحقوا بهم في أثناء الطريق لتوقف العجلة عن السير، فما كان من هذه الأسرة الكريمة، ومن معهم من الأصحاب؛ إلا أن رفعوا أيديهم يتضرعون إلى الله تعالى، ويستعينون به، حتى أنجاهم الله عزّ وجلّ من هذا الخطر الماحق الذي أحاط بهم، وسلموا، وساروا حتى وصلوا إلى دمشق المحروسة، فاستقروا بها[1].

ـ الاستقرار في دمشق:

وما أن وصلت هذه الأسرة الكريمة إلى دمشق، واستقرت بها، حتى باشر الشيخ شهاب الدين عبد الحليم رحمه الله التدريس والوعظ في المسجد الأموي. وفي مدرسة الحديث السكرية، فقد كان صاحب قدم راسخة في الفقه والحديث وسائر العلوم، وقد سبقته شهرته من حران إلى دمشق وغيرها من بلاد العالم الإسلامي، حيث كان مقصداً لطلاب العلم والراغبين في التعلم.

---

(١) البداية والنهاية: ١٣/ ٣٢٥، تاريخ ابن الوردي: ٢/ ٤٠٨، الإعلام العلية: ص ١٦، العقود الدرية: ص ٣.

يقول الإمام الذهبي رحمه الله:

وكان قدومه إلى دمشق بأهله وأقاربه مهاجراً سنة سبع وستين، وكان من أَنجم الهدى، وإنما اختفى من نور القمر، وضوء الشمس يشير إلى أبيه وابنه.

ويقول البرزالي رحمه الله:

كان من أعيان الحنابلة باشر بدمشق مشيخة دار الحديث السكرية بالقصاعين وبها سكن وكان له كرسي بدمشق يتكلم عليه أيام الجمع من حفظه.

وقال ابن كثير رحمه الله:

كان له فضيلة حسنة، ولديه فضائل كثيرة. كان له كرسي بجامع دمشق يتكلم عليه عن ظاهر قلبه، وولي مشيخة دار الحديث السكّرية بالقصّاعين، وبها كان سكنه، ثم درس ولده الشيخ تقي الدين بها بعده(١).

٢ـ مرحلة طلب العلم والتلقي:

يكاد المؤرخون أن يجمعوا على أن ابن تيمية نشأ في عفاف وتقى وصلاح وتصون، وقد عود نفسه على الاقتصاد في الملبس والمأكل، وكان براً بوالديه، ورعاً، عابداً، ناسكاً، صواماً، قواماً، وقافاً عند حدود الله آمراً بالمعروف، وناهياً عن المنكر، راغباً في

(١) البداية والنهاية: ١٣/ ٣٢٠.

العلم نهماً في طلبه، لا يمل من المطالعة ولا يكل من البحث[1].

كلما دخل باباً من أبواب العلم فتحه الله عليه على مصراعيه، ويتفوق فيه على حذاق ذلك الفن وأئمته، فقد كان يحضر المجالس والمحافل العلمية من صغره، فيتكلم ويناظر ويفحم الكبار ويأتي بما يتحير منه أعيان ذلك العلم. وكان فصيح اللسان، سريع القراءة، قوي الذاكرة، بل نادرة في الحفظ، وقف حياته للعلم والدعوة إلى كتاب الله وسُنَّه رسوله، والجهاد في سبيل أعلاء كلمة الله.

وفي ذلك يقول الحافظ الذهبي رحمه الله:

«نشأ ـ يعني الشيخ تقي الدين ـ رحمه الله في تصوف تام، وعفاف وتأله وتعبد، واقتصاد في الملبس والمأكل، وكان يحضر المدارس والمحافل في صغره، ويناظر ويفحم الكبار، ويأتي بما يتحير منه أعيان البلد في العلم، فأَفتى وله تسع عشرة سنة بل أقل، وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت، وأكب على الاشتغال، ومات والده ـ وكان من كبار الحنابلة وأئمتهم ـ فدرس بعده بوظائفه وله إحدى وعشرون سنة، واشتهر أمره، وبعد صيته في العالم»[2].

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٠، المقصد الأرشد: ١/ ١٣٦.

(٢) العقود الدرية: ص (٥)، تاريخ ابن الوردي: ٢/ ٤٠٦ـ٤٠٧ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي.

○ حفظه البارع، والعلوم التي تعلمها:

أ ـ اشتهاره بالحفظ:

كان ابن تيمية رحمه الله تعالى من أكابر حفاظ عصره، فقد رزقه الله تعالى حافظة قوية، وذاكرة حادة واعية، بحيث كان من الأفذاذ الذين يضرب المثل بقوة حفظهم، وفي ذلك يقول الشيخ محمد صادق عرجون رحمه الله:

«... نشأ الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يزينه عقل جمع الله له في المعارف قوى الفكر الإنساني، حفظاً وإدراكاً، ووعياً، فالتاريخ يضعه مع طليعة الأفذاذ الذين يضرب بهم المثل في الألمعية والذكاء المتفوق، وفي الحفظ الضابط، والذاكرة الواعية، الذين لا تغلطهم الأَغاليط، ويقول عنه معاصروه: أَنه ما حفظ شيئاً ونسيه، ولا نظر في مكتوب قل أو كثر إلا وحفظه، ولا سمع من العلم والمعارف شيئاً غاب عنه بعد أَن علمه، فإذا قرأنا عن مالك بن أنس إمام دار الهجرة أَنه كان يسمع من شيخه إمام المحدثين ابن شهاب الزهري من الثلاثين إلى الأَربعين حديثاً في مجلس واحد فيحفظها لا يخرم منها حرفاً إذا تلاها، وقد ذكر الرواة أنه سمع مرة هذا القدر وفيه حديث السقيفة على إتساعه وطوله وتنوع الكلام فيه، فأَعادها كلها لم تندَّ عنه كلمة، وإذا قرأنا عن الإمام أبي عبد الله الشافعي أنه سمع من شيخه مالك بن أنس بضعة عشر حديثاً في مجلس واحد، فأعادها حفظاً بأسانيدها لم

يختلف فيها عن سماعه من الإمام في كلمة أو حرف، إلى كثير من أوتوا في الإسلام حوافظ ضابطة، ومدارك واعية ـ فإنَّ ما أُثر عن ابن تيمية منذ طفولته ـ وهو الرجل المخاصم الذي يتربص به خصومه ليأخذوا عليه شيئاً يعيبونه به ـ ليضعه في الذروة مع أولئك الغر البهاليل من أئمة الإسلام دون نكير»[1].

ومن ذلك الوصف الذي وصفه به معاصروه، بأن له من الحافظة الضابطة ما لم يتوفر لغيره في عصره ما قاله الحافظ الذهبي رحمه الله ونقله عنه ابن الوردي، وابن شاكر الكتبي رحمهما الله:

«انبهر الفضلاء من فرط ذكائه، وسيلان ذهنه، وقوة حافظته وسرعة إدراكه»[2].

ومن ذلك ما قاله الحافظ عمر بن علي البزار رحمه الله تعالى:

«كانت مخايل النجابة عليه في صغره لائحة، ودلائل العناية فيه واضحة.

... كان الله قد خصه بسرعة الحفظ وإبطاء النسيان، لم يكن يقف على شيء، أو يستمع لشيء غالباً إلا ويبقى على خاطره، إما

---

(١) مجلة الوعي الإسلامي السنة الثامنة ـ عدد ٨٨ ـ ربيع الآخر/ ٩٢: ص ٦٩.

(٢) تاريخ ابن الوردي: ٢/ ٢٨٦، والعقود الدرية: ص ٣، فوات الوفيات عن المنجد ص (٥٧).

بلفظه أو معناه، وكان العلم كأَنه اختلط بلحمه ودمه وسائره، فإنه لم يكن له مستعاراً، بل كان له شعاراً ودثاراً، لم يزل آباؤه أهل الدراية التامة، والقدم الراسخة في الفضل، لكن جمع الله له ما خرق بمثله العادة، ووفقه في جميع أمره لاعلام السعادة، وجعل مآثره لإمامته من أكبر شهادة»[١].

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى:

«قال جمال الدين السرمري في أماليه:

ومن عجائب ما وقع في الحفظ من أهل زماننا، أن ابن تيمية كان يمر بالكتاب مطالعة مرة، فينتقش في ذهنه، وينقله في مصنفاته بلفظه ومعناه»[٢].

وما قاله الإمام الحافظ الصلاح الصفدي رحمه الله تعالى في ترجمته لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«فما رأيتُ ـ ولا أرى ـ مثله في اطلاعه وحافظته، ولقد صدَّقَ ما سمعنا به عن الحفاظ الأُول، وكانت همته عالية إلى الغاية..»[٣].

---

(١) الأعلام العلية: ص ١٦، ١٨.

(٢) الدرر الكامنة: ١/ ١٦٣. الرد الوافر: ص ٢٣٤ـ ٢٣٥.

(٣) الوافي بالوفيات: ٧/ ١٩.

وما قاله الإمام الذهبي رحمه الله حين عده من الحفاظ الكبار وذكره في كتابه الشهير الذي أعده لترجمة الحفاظ من أعيان الزمان «تذكرة الحفاظ».

فقال في ترجمته:

«كان من بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين»[١] وكذلك قال الحافظ السيوطي في ترجمته له في كتابه طبقات الحفاظ[٢].

ويقول الشيخ الندوي: عرفت أسرة ابن تيمية بقوة الذاكرة وكثرة الحفظ وسرعته، فقد كان أبوه وجده قويـي الذاكرة، ولكن تقي الدين بن تيمية سبق أسرته كلها في هذه النعمة، فقد أَدهش العلماء وأساتذته بذاكرته القوية النادرة، وسرعة حفظه واشتهر بذلك في دمشق»[٣].

ويكاد كل الذين أرخوا لعصره وترجموا له يجمعون على وصفه بالحفظ، وقوة الذاكرة، واستحضار ما يحفظ.

ومن النماذج المذكورة في سرعة حفظه رحمه الله تعالى:

أنه حفظ القرآن الكريم وهو في سن السابعة من عمره، وأن الله تعالى أكرمه فاستبقى له هذه النعمة حتى توفاه الله تعالى، فلم

---

(١) تذكرة الحفاظ: ٤/ ١٤٩٦.

(٢) طبقات الحفاظ: ص ٥٢١.

(٣) ابن تيمية للندوي: ص ٣٧.

يكن شيء أيسر عليه في حجاجه وفتاويه وكتبه من سوق الآيات القرآنية لمواضعها من الاستدلال بها في مناسباتها[1].

ومن تلك النماذج أيضاً ما أورده ابن عبد الهادي رحمه الله بقوله:

«.. واتفق أن بعض مشايخ العلماء بحلب قدم إلى دمشق، وقال: سمعت في البلاد بصبي يقال له أحمد بن تيمية، وأنه سريع الحفظ. وقد جئت قاصداً لعلّي أراه.

فقال له خياط: هذه طريق كُتَّابه وهو إلى الآن ما جاء فاقعد عندنا، الساعة يجيء يعبر علينا ذاهباً إلى الكتَّاب.

فجلس الشيخ الحلبي قليلاً، فمر صبيان، فقال الخياط للحلبي:

ذاك الصبي الذي معه اللوح الكبير هو أحمد بن تيمية.

فناداه الشيخ، فجاء إليه، فتناول الشيخ اللوح، فنظر فيه ثم قال: يا ولدي امسح هذا حتى أملي عليك شيئاً تكتبه.

ففعل، فأملى عليه من متون الأحاديث أحد عشر، أو ثلاثة عشر، حديثاً.

وقال له: إقرأ هذا فلم يزد على أَن تأمله مرة بعد كتابته إياه، ثم دفعه إليه وقال:

اسمعه عليَّ، فقرأه عليه عرضاً كأحسن ما أنت سامع.

---

(١) الإعلام العلية: ص ١٧، تاريخ ابن الوردي: ٢/ ٢٨٦، العقود الدرية: ص ٣.

فقال له: يا ولدي امسح هذا، ففعل.

فأملى عليه عدة أسانيد انتخبها، ثم قال:

اقرأ هذا، فنظر فيه، كما فعل أول مرة.

فقام الشيخ، وهو يقول: إن عاش هذا الصبي ليكونن له شأن عظيم، فإن هذا لم يُرَ مثله، أو كما قال»[(١)].

ومن تلك النماذج العجيبة المذكورة في حفظه رحمه الله تعالى ما ذكره الإمام أبو المظفر السرمري رحمه الله تعالى في المجلس السابع والستين من أَماليه في الذكر والحفظ:

«ومن عجائب ما وقع في الحفظ في أهل زماننا شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، فإنه كان يمر بالكتاب فيطالعه مرة فينتقش في ذهنه فيذاكر به، وينقله في مصنفاته بلفظه ومعناه، ومن أعجب ما سمعته عنه ما حدثني به بعض أصحابه:

أنه لما كان صبياً في بداية أمره، أراد والده أن يخرج بأولاده يوماً إلى البستان على سبيل التنزه.

فقال له: يا أحمد تخرج مع إخوتك تستريح، فاعتلَّ عليه، فألح عليه ولده، فامتنع أَشد الامتناع.

فقال: اشتهي أن تعفيني من الخروج.

---

(١) العقود الدرية: ص ٤.

فتركه وخرج بأخوته، فظلوا يومهم في البستان، ورجعوا آخر النهار، فقال: يا أحمد أوحشت إخوتك اليوم، وتكدّر عليهم، بسبب غيبتك عنهم فما هذا؟.

فقال يا سيدي! إنني اليوم حفظت هذا الكتاب، لكتابٍ معه.

فقال: حفظته!! كالمنكر المتعجب من قوله.

فقال له: استعرضه عليَّ، فاستعرضه، فإذ به قد حفظه جميعه، فأَخذه وقَبَّله بين عينيه، وقال:

يا بني لا تخبر أَحداً بما قد فعلت، خوفاً عليه من العين، أو كما قال»[1].

وقد ذكر الصلاح الصفدي رحمه الله هذه القصة، وذكر معها اسم الكتاب الذي حفظه وهو كتاب «جَنّة المناظر، وجُنّة المُناظِر» وهو مجلد صغير وأمره شهير[2].

ومما يذكر من قوة حفظه وسرعة بديهته، وقوة علميته:

أنه كان جالساً في إحدى المرات في حلقته، إذ جاءه سؤال على لسان ذمي ينكر صاحبه القدر، وكان السؤال عبارة عن أبيات من الشعر، ومطلعها:

أيا علماء الدين ذمي دينكم
تحير دلوه بأعظم حجتي

(١) الرد الوافر: ٢٣٤ـ ٢٣٥.

(٢) أعيان العصر عن كتاب ابن تيمية عند المؤرخين للمنجد ص ٥١.

إذا ما قضى ربي بكفري بزعمكم
ولم يرضه مني فما وجه حيلتي

وأبيات أخرى غير هذين البيتين.

فلما قرأ الشيخ الأبيات فكر قليلاً، ثم أَنشأ يكتب في الحال جواباً لهذا الاعتراض، وكان الطلاب يظنون أنه يكتب نثراً، ولما فرغ وقرأه من حضر من أصحابه وإذا هو نظم من الشعر، من نفس البحر والقافية الذي ورد به السؤال، يزيد على مائة بيت، وقد ذكر أَنه أَبرز فيها من العلوم ما لو شُرح لجاء شرحه في مجلدين كبيرين، يقول في مطلعها:

سؤالك يا هذا سؤال معاند
يخاصم رب العرش، باري البرية
وهذا سؤال خاصم الملأ العلا
قديماً به إبليس أصل البلية
ومن يك خصماً للمهيمن يرجعن
على أُم رأس هاوياً في الحفيرة

إلى آخر الأبيات»[1].

ومن ذلك ما جاء في سبب تأليفه لكتابه «الفتوى الحموية الكبرى» في أول شهر ربيع الأول لسنة ثمان وتسعين وستمائة:

---

(١) الإعلام العلية ص ٢٨، العقود الدرية ص: ٣٨٣- ٣٩٣، الكواكب الدرية ص ٧٩ - ٨٠، الدرر الكامنة: ١/١٩٦.

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام رحمه الله:

«كنت قد سُئِلتُ من مدة طويلة بعيد سنة تسعين وستمائة عن الآيات والأَحاديث الواردة في صفات الله في فتيا قدمت من حماة، فأحلت السائل على غيري، فذكر أنهم يريدون الجواب مني فكتبت الجواب في قعدة بين الظهر والعصر..»[1].

فألف الرسالة بين الظهر والعصر في جلسة واحدة، كما أشار الشيخ رحمه الله، وقد أشار إلى ذلك كل من ابن القيم وابن عبد الهادي رحمهما الله تعالى[2].

هذه الأمثلة وغيرها كثير لها دلالة واضحة على ما كان يتمتع به شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من ذاكرة واعية ضابطة، وعلى قوة حفظ لم تتيسر لغيره لفترة طويلة من الزمن، ومما يؤكد ما ذهبت إليه ما جاء عن علاَّمة عصره القاضي ابن الزملكاني رحمه الله تعالى:

فقد أورد الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: بلغني من طريق صحيح عن ابن الزملكاني: أنه سئل عن الشيخ - يعني ابن تيمية - فقال:

---

(١) نقض التأسيس - مخطوط - (١/ ٣).

(٢) العقود الدرية: ٦٧، البداية والنهاية: ١٤/ ٤، الدرر الكامنة: ١/ ١٥٥ الكواكب الدرية ص ١٠٢، ١١٢.

لم يُرَ من خمسمائة سنة ـ أو قال أربعمائة سنة ـ الشك من الناقل وغالب ظنه أنه قال: من خمسمائة سنة أحفظ منه»[1].

ب ـ العلوم التي تعلمها:

إن أعلم الناس بالعالِم تلاميذه ومعاصريه، والحق أنه ما من عالِم نال من الثناء على علومه ومعارفه، وغزاره معلوماته، وطول باعه في العلم كما ناله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

وها هو أحد كبار تلاميذه العلاَّمة الحافظ الإمام ابن عبد الهادي رحمه الله تعالى يحدث عن بداية أمر ابن تيمية رحمه الله وعن غزارة علومه فيقول:

«وقال بعض قدماء أصحاب شيخنا ـ وقد ذكر نبذة من سيرته: ـ

أما مبدأ أمره ونشأته، فقد نشأ من حين نشأ في حجور العلماء، راشفاً من كؤوس الفهم، راتعاً في رياض التفقه ودوحات الكتب الجامعة لكل فن من الفنون، لا يلوي إلى غير المطالعة والإشتغال والأخذ بمعالي الأمور، خصوصاً علم الكتاب العزيز والسُّنَّة النبوية ولوازمها، ولم يزل على ذلك خلفاً صالحاً سلفياً متألهاً عن الدنيا صَيِّناً تقياً، براً بامه، ورعاً عفيفاً، عابداً ناسكاً صواماً قواماً، ذاكراً لله تعالى في كل أمر وعلى كل حال، رجاعاً

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٣.

إلى الله تعالى في سائر الأحوال والقضايا، وقافاً عند حدود الله تعالى وأوامره ونواهيه. آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر بالمعروف، لا تكاد نفسه تشبع من العلم، فلا تروى من المطالعة ولا تمل من الاشتغال، ولا تكل من البحث، وقلَّ أن يدخل في علم من العلوم من باب من أبوابه إلا ويفتح له من ذلك الباب أبواب، ويستدرك مستدركات في ذلك العلم على حُذَّاق أَهله، مقصوده الكتاب والسُّنّة.

ولقد سمعته في مبادىء أمره يقول: إنه ليقف خاطري في المسألة والشيء أو الحالة التي تشكل عليّ فاستغفر الله تعالى ألف مرة أو أكثر أو أقل، حتى ينشرح الصدر وينحل إشكال ما أَشكل، قال: وأكون إذ ذاك، في السوق أو المسجد أو الدرب أو المدرسة، ولا يمنعني ذلك من الذكر والاستغفار إلى أن أنال مطلوبي..»[١].

لقد تبحر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في علوم الإسلام والعربية بما لم يعرفه التاريخ العلمي في الإسلام لأحد سواه، فقد أتقن جميع فنون المعارف التي كانت معروفة في عصره، حيث كانت هذه المعارف قد بلغت ذروتها في نضج مبادئها وأصولها، فقرأها وهضمها، ونقدها وكشف زيف الباطل منها، وانتفع بما فيها من حق وخير.

---

(١) العقود الدرية: ٥ـ٦.

وقد اعترف بفضله وقوته في العلوم والمعارف الفطاحل من معاصريه الذين كان له في مجال الفكر والعلوم الإسلامية القدح المعلى، والذين تعتبر شهادتهم مفخرة في حياة هذاالإمام الداعية المجاهد، وسأسوق بعضاً من هذه الشهادات:

● يقول الإمام العلاَّمة شيخ عصره في الحديث وعلومه ابن دقيق العيد رحمه الله وقد اجتمع به وسئل عنه:

رأيت رجلاً جمع العلوم كلها بين عينيه، يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريد»[(١)].

● وقال الإمام الحافظ أمير المؤمنين في الحديث جمال الدين المزي رحمه الله: «ما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسُنَّة رسوله ولا أتبع لهما منه»[(٢)].

● وقال الحافظ المؤرخ العلاَّمة ابن سيد الناس رحمه الله:

«كادَ يستوعب السنن والآثار حفظاً، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، أو أَفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر في الحديث فهو صاحب علمه ودرايته، أو حاضر بالملل والنحل لم تر أوسع من نحلته في ذلك، ولا أرفع من دلالته، برز في كل علم على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينيه مثل نفسه»[(٣)].

---

(١) الرد الوافر: ص ١٠٧، تاريخ ابن الوردي: ٢/ ٤٨، شذرات الذهب: ٦/ ٨٣.

(٢) شذرات الذهب: ٦/ ٨٤.

(٣) العقود الدرية: ص ١٠، الرد الوافر: ٥٨ـ ٥٩، الشهادة الزكية ٢٦ـ ٢٧.

• وفيه يقول عصريه الشيخ الإمام العلاَّمة، قاضي القضاة، كمال الدين بن الزملكاني رحمه الله تعالى:

«قد ألان الله له العلوم، كما ألان لداود الحديد، كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع: أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه من قبل، ولا يُعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه، ولا تكلم في علم من لعلوم ـ سواء كان من علوم الشرع، أم من غيرها، إلا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه، وكان له اليد الطولى في حسن التصنيف، وجودة العبارة والتريب، والتقسيم والتبيين»[1].

والقارىء المتجرد لهذه النصوص وغيرها يدرك جيداً أن ابن تيمية رحمه الله قد تعلم العلوم التي كانت منتشرة في عصره، ولم يترك باباً من أبواب العلم إلا أتقنه، فاعترف فضلاء عصره بفضله وبلوغه العلمي.

ومن هذه العلوم التي تعلمها ما ذكره مترجموه رحمهم الله تعالى حيث يقول الحافظ ابن رجب:

---

(١) الرد الوافر: ص ١٠٥، العقود الدرية: ٧ـ٨، فوات الوفيات عن المنجد ص (٥٩)، ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٢، المختصر في أخبار البشر لابن الوردي: ٢/ ٤٠٦.

«عني بالحديث وسمع المسند مرات، والكتب الستة، ومعجم الطبراني الكبير وما لا يحصى من الكتب والأجزاء، وقرأ بنفسه، وكتب بخطه جملة من الأجزاء، وأقبل على العلوم في صغره، فأخذ الفقه والأصول عن والده، وعن الشيخ شمس الدين بن أبي عمر، والشيخ زين الدين بن المنجا، وبرع في ذلك وناظر، وقرأ في العربية أياماً على سليمان بن عبد القوي، ثم أخذ كتاب سيبويه، فتأمله ففهمه، وأقبل على تفسير القرآن الكريم فبرز فيه، وأحكم أصول الفقه والفرائض، والحساب والجبر والمقابلة، وغير ذلك من العلوم، ونظر في علم الكلام والفلسفة، وبرز في ذلك على أهله، ورد على رؤسائهم وأكابرهم، ومهر في هذه الفضائل، وتأهل للفتوى والتدريس وله دون العشرين سنة، وأفتى من قبل العشرين أيضاً، وأمده الله بكثرة الكتب وسرعة الحفظ، وقوة الإدراك والفهم، وبطء النسيان، حتى قال غير واحد: أنه لم يكن يحفظ شيئاً فينساه»(١).

وقال ابن عبد الهادي رحمه الله:

«وشيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ، وسمع مسند الإمام أحمد بن حنبل مرات، وسمع الكتب الستة الكبار والأجزاء، ومن مسموعاته معجم الطبراني الكبير، وعني بالحديث، وقرأ ونسخ، وتعلم الخط والحساب في المكتب، وحفظ القرآن،

(١) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٨٧.

وأقبل على الفقه، وقرأ العربية على ابن عبد القوي، ثم فهمها، وأخذ يتأمل كتاب سيبويه حتى فهم في النحو، وأقبل على التفسير إقبالاً كلياً، حتى حاز فيه قصب السبق، وأحكم أُصول الفقه وغير ذلك، وهذا كله وهو ابن بضع عشرة سنة، فانبهر الفضلاء من فرط ذكائه، وسيلان ذهنه، وقوة حافظته وإدراكه»[1].

وقال الحافظ أبو حفص البزار رحمه الله بعد أن ذكر قراءاته في الحديث:

«وأول كتاب حفظه في الحديث (الجامع بين الصحيحين) للإمام الحميدي، وَقلَّ كتاب من فنون العلم إلا وقف عليه، وكان الله قد خصه بسرعة الحفظ وإبطاء النسيان، لم يكن يقف على شيء، أو يستمع لشيء ـ غالباً ـ إلا ويبقى على خاطره، إما بلفظه أو معناه»[2].

وها هو الإمام الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى يذكر العلوم التي أتقنها ابن تيمية رحمه الله تعالى فيقول:

«كان آية في الذكاء، وفي سرعة الإدراك، رأساً في معرفة الكتاب والسُّنَّة والاختلاف، بحراً في النقليات، هو في زمانه فريد عصره علماً وزهداً وشجاعة وسخاءً وأمراً بالمعروف ونهياً عن

(١) العقود الدرية: ص ٣، تاريخ ابن الوردي: ٢/ ٤٠٦، فوات الوفيات عن المنجد: ١٨، ٥٨.

(٢) الإعلام العلية: ص ١٨.

المنكر وكثرة تصانيف» إلى أن قال:

«فإن ذكر التفسير فهو حامل لوائه، وإن عد الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق، وإن حضر الحفاظ نطق وخرسوا، وسَرَدَ وأبلسوا، واستغنى وأفلسوا، وإن سمي المتكلمون فهو فَرْدُهم وإليه مرجعهم، وإن لاح ابن سينا يَقْدمُ الفلاسفة فَلَّهم وبَخَسهم، وهتك أستارهم، وكشف عوارهم، وله يد طولى في معرفة العربية والصرف واللغة، وهو أعظم من أن يصفه كلمي، أو ينبه على شأنه قلمي، فإن سيرته وعلومه ومعارفه، ومحنه وتنقلاته يحتمل أن توضع في مجلدتين»[1].

○ اتقانه لغات أخرى:

كان ابن تيمية رحمه الله تعالى يتقن لغات أخرى غير العربية، فقد أتقن اللغة العبرية مما جعله يحسن دراسة العهدين القديم والجديد، ويرد على ما جاء فيهما من تحريف.

يقول رحمه الله:

«وقد سمعت ألفاظ التوراة بالعبرية من مسلمة أهل الكتاب، فوجدت اللغتين متقاربتين غاية التقارب، حتى صرت أفهم كثيراً من كلامهم العبري بمجرد المعرفة بالعربية»[2].

---

(١) العقود الدرية: ص ٢٣ـ ٢٤، فوات الوفيات عن المنجد: ٦٢.

(٢) نقض المنطق: ص ٩٢، ٩٣، مجموع الفتاوى: ٤/ ١١٠.

وقد كان يعرف كلاً من اللغة التركية، واللغة اللاتينية، كما دل على ذلك نص ورد في مجموع الرسائل الكبرى[1].

وإذا كان شيخ الإسلام رحمه الله يصرح عن نفسه بأنه كان يعرف هذه اللغات، فلا أجد وجهاً أو مساغاً لما قاله هنري لاوست حين قال:

«كانت ثقافته قبل كل شيء ثقافة عربية خالصة، فلم يكن ابن تيمية يعلم أي لغة أخرى، كما أجمع على ذلك مترجموه، ويعضد ذلك حذره من دراسة أية لغة أخرى غير العربية وبالتالي أي ثقافة أجنبية»[2].

من كل هذا نعلم أن ابن تيمية رحمه الله تعالى قد اطلع على فنون الثقافة في عصره من تفسير، وحديث، وتوحيد، وفقه، وأصول، وتاريخ، ونحو وصرف، وبلاغة، ولغة، وجبر، ومقابلة، وحساب، ومنطق، وفلسفة وغير ذلك من العلوم التي كانت في عصره، وكان واقفاً على أصول الديانات كاليهودية والنصرانية، وكذا الفرق الضالة القديمة، والتي كانت في عصره كالفرق الباطنية وغيرها، حتى صار يضرب المثل بزخارة علمه في هذه الأبواب، وسعة الاطلاع، وكان أول ثلاثة قال فيهم الشاعر:

---

(١) مجموع الرسائل الكبرى ١/ ١٢٤، مطبعة محمد علي صبيح بمصر ١٩٦٦.

(٢) شرائع الإسلام: ١/ ٨١.

ثَـــلاثــــةٌ لـــيــــسَ لَـــهـــمْ رابـــعُ
فــي الـعــلـمِ والـتـحـقـيـقِ والـنُّسُـكِ
وَهُـــمْ إذ شِـــئـــتَ ابـــنُ تـــيــمـــيـــة
وابـــنُ دقـــيـــقِ الـــعـــيـــدِ والـــســبكـــي

وقد أعجب السيوطي رحمه الله تعالى بمدى معرفة ابن تيمية رحمه الله بالفلسفة والمنطق، فضرب المثل بزخارة علمه، فقال:

«فإن برعت في الأصول وتوابعها من المنطق والحكمة والفلسفة وآراء الأوائل ومجاراة العقول، واعتصمت من ذلك بالكتاب والسُّنَّة وأصول السلف، ولفقت بين العقل والنقل، فما أظنك في ذلك تبلغ رتبة ابن تيمية ولا تقاربها»(١).

وحتى بلغ بالحافظ الذهبي رحمه الله تعالى أن يقول فيه:

«لو حُلفتُ بين الركن والمقام، لحَلفتُ أَني ما رأيت بعيني مثله، ولا والله ما رأى هو مثل نفسه في العلم»(٢).

جـ ـ عدم شبعه من العلم والمطالعة:

كان لابن تيمية ـ رحمه الله ـ بصر نافذ ونفس طلعة لا تكاد تشبع من العلم، ولا تكل من البحث، ولا تروى من المطالعة، مع التوفر على ذلك وقطع النفس له وصرف الهمة نحوه، حتى أنه لم

---

(١) ابن تيمية لأبي زهرة: ص ١١٦.

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٨٩ـ ٣٩٠، شذرات الذهب: ٦/ ٨١ـ ٨٢.

ينقطع عن البحث والتأليف طيلة حياته في الشام أو في مصر، في السجن أو في البيت، بل إنه كان يتوجع ألماً وحسرة حينما أخرجوا الكتب والأوراق من عنده في أُخريات أيامه عندما كان سجيناً في قلعة دمشق.. وكان يعد ذلك من أعظم النكبات.

ولقد كانت لذة العلم وتحصيله عنده من أعظم اللذات التي لا يعادلها عنده شيء ولذلك كان يقول:

«لا ريب أن لذة العلم أعظم اللذات، واللذة التي تبقى بعد الموت، وتنفع في الآخرة هي لذة العلم بالله والعمل له، وهو الإيمان بالله»[١].

وقد وصفه مترجموه في هذا الباب بما يدهش الألباب، ويحير العقول، فلنسمع إلى أقوالهم وهي تصف حالته، واندماجه مع العلم، ونهمته في طلبه وتحصيله.

○ يقول الصفدي رحمه الله تعالى:

«كان من صغره حريصاً على الطلب، مُجداً على التحصيل والدأب، لا يؤثر على الاشتغال - أي تحصيل العلم - لذة، ولا يؤثر أن يضيع منه لحظة في البطالة فذة، يذهل عن الطعام، ويغيب في لذة العلم عن حسه، لا يطلب أكلاً إلا إذا حضر لديه،

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٤/ ١٦٢.

ولا يرتاح إلى طعام أو شراب في أبرديه - أي في الغداة والعشي -»[1].

○ **ويقول الذهبي رحمه الله:**

«.... لا تكاد نفسه تشبع من العلم، ولا تروى من المطالعة، ولا تَملُّ من الاشتغال، ولا تكل من البحث، وقَلَّ أن يدخل في علم من العلوم في باب من أبوابه، إلا ويفتح له من ذلك الباب أبواب ويستدرك أشياء في ذلك العلم على حذاق أهله»[2].

ويقول أيضاً:

«كان إماماً متبحراً في علوم الديانة، صحيح الذهن، سريع الإدراك، سيال الفهم، كثير المحاسن، موصوفاً بفرط الشجاعة والكرم، فارغاً عن شهوات المأكل والملبس والجماع، لا لذة له في غير نشر العلم، وتدوينه والعمل بمقتضاه»[3].

○ **وأما الحافظ أبو حفص عمر بن علي البزار رحمه الله فيقول:**

«وكان العلم كأنه قد اختلط بلحمه ودمه وسائره، فإنه لم يكن له مستعاراً، بل كان له شعاراً ودثاراً، لم يزل آباؤه أهل الدراية التامة، والنقد، والقدم الراسخة في الفضل، لكن الله جمع

---

(١) الوافي بالوفيات: (٧/ ١٩ـ ٢٢)، أعيان العصر عن المنجد: ص ٥١.

(٢) الوافي بالوفيات: ٧/ ١٦، فوات الوفيات عن المنجد: ٥٧ـ ٥٨.

(٣) المعجم المختص بالمحدثين: ص ٢٥.

له ما خرق بمثله العادة، ووفقه من جميع أمره لأعلام السعادة، وجعل مآثره لإمامته من أكبر بشهادة»[1].

○ **وها هو الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله تعالى يقول فيه:**

«قد بدا فيه منذ صغره ثلاث من مزاياه التي نمت وظهرت ثمراتها في كبره:

أولاها: الجد والاجتهاد، والانصراف إلى المجدي من العلوم، والدراسات، لا يلهو لهو الصبيان، ولا يعبث عبثهم.

وثانيها: تفتح نفسه وقلبه لكل ما حوله يدركه ويعيه، فلم يكن الغلام المنقطع عن الأحياء والحياة، إلى الحفظ والاستذكار فقط.

والثالثة: الذاكرة الحادة، والعقل المستيقظ والذكر المستقيم، والنبوغ المبكر»[2].

وبعد هذا الوصف له في شدة إقباله على العلم وتحصيله، نسمعه رحمه الله تعالى وهو يقول:

«حصول العلم في القلب كحصول الطعام في الجسم، فالجسم يحس بالطعام والشراب، وكذلك القلوب تحس بما يتنزل إليها من العلوم التي هي طعامها وشرابها»[3].

---

(١) الإعلام العلية: ص ١٨.

(٢) ابن تيمية: محمد أبو زهرة: ص ٢٠.

(٣) مجموع الفتاوى: ٤/ ٤١.

فهو رحمه الله تعالى لا مكان للدنيا في قلبه، وإنما نفسه تواقة لا ترضى إلا بجوار ربَها، فشدَّ مؤزر، وحمل عصاه على عاتقه، فلم يضعها حتى أتاه اليقين.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

«وسمعت شيخنا أبا العباس ابن تيمية يقول ـ وقد عرض له بعض الألم، فقال له الطبيب: أضر ما عليك الكلام في العلم والفكر فيه والتوجه والذكر.

فقال:

ألستم تزعمون أن النفس إذا قويت وفرحت أوجب فرحها له قوة تعين بها الطبيعة على دفع العارض، فإنه عدوها، فإذا قويت عليه قهرته؟.

فقال الطبيب: بلى.

فقال: إذا اشتغلت نفسي بالتوجه والذكر والكلام في العلم، وظفرت بما يشكل عليها منه فرحت به وقويت فأوجب ذلك دفع العارض»[1].

فكأن العلم وضع بين عينيه رحمه الله، أو اختلط بلحمه ودمه، فقد أُحرقت شهواته، فطعامه الكفاف، وشرابه دفع الظمأ، ولباسه التقوى، لم تشغله عن طلب العلم وتحصيله صاحبة ولا ولد.

---

(١) مفتاح دار السعادة: ٢/ ١٧٠ـ ١٧١.

ويقول الحافظ البزار رحمه الله:

وأخبرني غير واحد أنه ما رآه، ولا سمع أنه طلب طعاماً قط، ولا غداء ولا عشاء، ولو بقي مهما بقي لشدة اشتغاله بما هو فيه من العلم والعمل، بل كان يؤتى بالطعام، وربما يترك عنده زماناً حتى يلتفت إليه، وإذا أكل، أكل شيئاً يسيراً»[1].

وبعد هذا كله فالحق أن ابن تيمية رحمه الله قد أتقن كل تراث الفكر في عصره، وألَّم بجميع ألوان الثقافة العقلية من كلامية وفلسفية، ثم اعمل فيها عقله الجبار، وذكاءه الخارق، فأخرج لنا منه تراثاً غاية في القوة والخصوبة والعذوبة، حتى صدق فيه قول الحافظ الذهبي رحمه الله وهو يصفه، ويصف علومه بقوله:

«.. ومعرفته بالتفسير إليها المنتهى، وحفظه للحديث ورجاله، وصحته وسقمه، فما يلحق فيه، وأما نقله للفقه ومذاهب الصحابة والتابعين ـ فضلاً عن المذاهب الأربعة ـ فليس له فيه نظير، وأما معرفته بالملل والنحل والأصول والكلام فلا أعلم له فيه نظيراً، ويدري جملة صالحة من اللغة، وعربيته قوية جداً، ومعرفته بالتاريخ والسير فعجب عجيب، وأما شجاعته وجهاده وإقدامه فأمر يتجاوز الوصف، ويفوق النعت، وهو أحد الأجواد

(١) الإعلام العلية: ص ٥٥ـ٥٦.

الأسخياء الذين يضرب المثل بهم، وفيه زهد وقناعة باليسير في المأكل والملبس»[1].

٣ ـ مرحلة بداية العطاء:

لقد تعلم ابن تيمية رحمه الله سائر العلوم التي كانت معروفة ورائجة في عصره، فلم يترك باباً من الأبواب إلا أتقنه، وحق على من وصل إلى هذا المستوى من العلم أن ينتقل وهو في سن مبكرة إلى العطاء فيصبح مقصداً للطلاب ينهلون من علومه، ويستفيدون من معارفه، وقد هيأ الله تعالى له الظروف التي مهدت له الطريق إلى العطاء والإنتاج العلمي المبكر.

فقد أثنى عليه العلماء بغزارة علمه، وواسع اطلاعه، ونوع معارفه، واتفق على هذا الموافق له والمخالف.

فقال الذهبي رحمه الله:.

«برع في الرجال وعلل الحديث وفقهه، وفي علوم الإسلام وعلم الكلام وغير ذلك، وكان من بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين، والزهاد الأفراد، والشجعان الكبار، والكرماء الأجواد، أثنى عليه الموافق والمخالف»[2].

---

(١) العقود الدرية: ص ٢٣.

(٢) تذكرة الحفاظ: ص ١٤٩٦ ترجمة رقم: ١١٧٥.

- **وقال ابن الزملكاني رحمه الله:**

«... ولا تكلم في علم من العلوم، سواءً أكان من علوم الشرع أم من غيرها، إلا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه..»[1].

- **وقال ابن سيد الناس رحمه الله:**

«... برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه..»[2].

- **وقال الصفدي رحمه الله:**

«... ورأيتُه مرات بمدرسة القَصَّاعين وبالحنبلية، وكان إذا تكلَّم أَغمضَ عينيه، وازدحمت العبارةُ على لسانه، فرأَيتَ العجبَ العجيبَ، والحَبْرَ الذي ما له مُشاكِلٌ في فنونه ولا ضَرِيب، والعالِمَ الذي أَخذ من كل شيء بنصيب، سَهْمُه للأَغراض مُصِيب، والمُناظِرَ الذي إذا جال في حومة الجدال رَمَى الخصوم من مباحثه باليوم العصيب.

وعـايـنـتَ بَـدْراً لا يَـرى الـبدرُ مِـثـلَـهُ
وخاطبتَ بحراً لا يَرى العِبْرَ عائمه[3][4]

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٢، الرد الوافر: ص ٥٨، العقود الدرية: ص ٣٨٩.

(٢) العقود الدرية: ص ١٠.

(٣) العِبْرَ: الشاطىء.

(٤) الوافي بالوفيات: ٧/ ١٩.

○ **الإذن له بالفتوى:**

لقد تشربت نفس ابن تيمية بالعلوم والمعارف التي تعلمها، ومع هذه العلوم والمعارف فقد رزق نبوغاً وذكاءً حاداً، أهله للتدريس والفتوى وهو في صدر شبابه قبل أن يتم العشرين من عمره، ثم قام بوظائف أبيه العلمية بعد وفاته وله حينئذٍ عشرون سنة أو تزيد قليلاً.

وقد ذكر مترجموه سن تأهله للفتوى والتدريس بأنه كان دون العشرين.

قال الذهبي رحمه الله:

«تأهل للتدريس والفتوى، وهو ابن سبع عشرة سنة»(١).

وقال أيضاً:

«... فأفتى وله تسع عشرة سنة، بل أقل، وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت، وأَكب على الاشتغال»(٢).

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى في ترجمة الشيخ الإمام أحمد بن نعمة المقدسي رحمه الله أنه ممن أذن لابن تيمية رحمه الله بالفتوى، فقال في وفيات ٦٩٢هـ.

«توفي الشيخ الإمام الخطيب المدرس المفتي شرف الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ كمال الدين أحمد بن نعمة المقدسي،

---

(١) العقود الدرية: ص ٢٤.

(٢) العقود الدرية: ص ٤.

ولي القضاء نيابة، والتدريس والخطابة بدمشق... وأَذن في الإفتاء لجماعة من الفضلاء منهم الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية وكان يفتخر بذلك ويفرح به ويقول:

أنا أَذنت لابن تيمية بالإفتاء»[1].

○ **وفاة والده وقيامه بالتدريس مكانه:**

وبعد فترة قصيرة من الإذن له بالفتوى، توفي والده العلامة الشهير الشيخ شهاب الدين، فنابَ في التدريس عنه ابنه شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمهما الله تعالى، وله إحدى وعشرون سنة.

قال الذهبي رحمه الله:

«مات والده، وكان من كبار الحنابلة وأئمتهم، فدرس بعده بوظائفه، وله إحدى وعشرون سنة، فاشتهر أمره، وبعد صيته في العالم»[2].

وقال ابن كثير رحمه الله في تأريخه لأحداث سنة ٦٨٣ هـ:

«في يوم الإثنين، ثاني المحرم منها، درس الشيخ الإمام العالم العلاَّمة تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني، بدار الحديث السكرية التي بالقصاعين»[3].

---

(١) البداية والنهاية: ١٣/ ٣٤١.

(٢) فوات الوفيات (منجد؛ ص ٥٨)، العقود الدرية: ص ٥.

(٣) البداية والنهاية: ١٣/ ٣٠٣.

وقال ابن رجب رحمه الله تعالى:

«ثم توفي والده، الشيخ شهاب الدين المتقدم ذكره، وكان له حينئذٍ إحدى وعشرون سنة، فقام بوظائفه بعده، فدرس بدار الحديث السكرية في أول سنة ثلاث وثمانين وستمائة.»[١].

○ درسه الأول ومن حضره من العلماء:

حين توفي الشيخ شهاب الدين عبد الحليم والد شيخ الإسلام في عام ٦٨٢هـ، وكان تقي الدين أحمد بن تيمية في الثانية والعشرين من عمره، وشعر الناس بفراغ كبير في التدريس في دار الحديث السكرية، وفزعوا لهذا الفراغ، ولكن فزعهم لم يطل، حيث حل ابن تيمية الابن محل الوالد المتوفي، وسد ذلك الفراغ، بعد فترة قصيرة من الزمن، فكان درسه الأول في يوم الإثنين الثاني من محرم سنة ثلاث وثمانين وستمائة...»[٢].

○ من حضره من العلماء:

وقد حضر هذا الدرس الأول كبار علماء دمشق وفضلاؤها، مثل الشيخ قاضي القضاة بهاء الدين بن الزكي الشافعي، والشيخ تاج الدين الفزاري شيخ الشافعية، والشيخ زين الدين ابن المرحل،

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٨٧.

(٢) البداية والنهاية: ١٣/ ٣٠٣، الرد الوافر: ص ١٥٤.

وزين الدين بن المنجا الحنبلي، وبعض علماء الحنفية، وغيرهم من كبار العلماء وسراتهم[1].

وقد كان لهذا الدرس أثراً كبيراً في نفوسهم، جعلهم يعترفون بالتبحر العلمي، وسرعة البديهة، والفصاحة والجرأة لهذا العالم الشاب، وكلهم أثنى على ابن تيمية، واعترف بفضله، وعلمه، وقوة ذاكرته، وفي ذلك يقول ابن كثير رحمه الله:

«... وكان درساً هائلاً، وقد، كتبه الشيخ تاج الدين الفزاري لكثرة فوائده، وكثرة ما استحسنه الحاضرون، وقد أطنب الحاضرون في شكره على حداثة سنه وصغره، فإنه كان عمره إذ ذاك عشرين سنة وسنتين»[2].

وقال ابن رجب رحمه الله:

«... وذكر درساً عظيماً في البسملة، وهو مشهور بين الناس، وعظمه الجماعة الحاضرون، وأَثنوا عليه ثناءً كثيراً.

قال الذهبي: وكان الشيخ تاج الدين الفزاري، يبالغ في تعظيمه الشيخ تقي الدين، بحيث أنه علق بخطه درسه بالسكرية...»[3].

---

(١) البداية والنهاية: ١٣/ ٣٠٣، ذيل الطبقات الحنابلة: ٢/ ٣٨٧، الرد الوافر: ص ١٥٥.

(٢) البداية والنهاية: ١٣/ ٣٠٣.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٨٧، الرد الوافر: ص ١٥٤.

○ **جلوسه للتفسير في المسجد الأموي:**

«ثم جلس الشيخ تقي الدين رحمه الله يوم الجمعة عاشر صفر بالجامع الأموي بعد صلاة الجمعة على كرسي قد هيىء له لتفسير القرآن العزيز، فابتدأ من أوله في تفسيره، وكان يجتمع عنده الخلق الكثير، والجمع الغفير من كثرة ما يورد من العلوم المتنوعة المحررة، مع الديانة والزهادة والعبادة، فسارت بذكره الركبان في سائر الأقاليم والبلدان، واستمر على ذلك مدة سنين متطاولة، وكان يورد من حفظه في المجلس نحو كراسين أو أكثر، وبقي يفسر في سورة نوح عدة سنين أيام الجمع»[1].

○ **طريقته في إلقاء دروسه في مجالسه:**

وقد وصف أحد من استمعوا إليه طريقته في إلقاء دروسه وصفاً دقيقاً يبعث على الإعجاب حيث قال الحافظ أبو حفص البزار رحمه الله:

«وأما ذكر دروسه فقد كنتُ في حال إقامتي بدمشق لا أُفوتها، وكان لا يهيىء شيئاً من العلم ليلقيه ويورده، بل يجلس بعد أن يصلي ركعتين فيحمد الله ويثني عليه، ويصلي على رسوله ﷺ، على صفة مستحسنة مستعذبة لم أسمعها من غيره، ثم

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٨٧ـ٣٨٨، البداية والنهاية: ١٣/ ٣٠٣، فوات الوفيات عن المنجد: ٥٨، العقود الدرية: ص ٥.

يشرع فيفتح الله عليه إيراد علومٍ وغوامض ولطائف ودقائق، وفنون ونقول، واستدلالات بآيات وأحاديث، وأقوال العلماء، ونصر بعضها وتبيين صحته، أو تزييف بعضها، وإيضاح حجته، واستشهاد بأشعار العرب وربما ذكر اسم ناظمها، وهو مع ذلك يجري كما يجري السيل، ويفيض كما يفيض البحر، ويصير منذ يتكلم إلى أن يفرغ، كالغائب عن الحاضرين، مغمضاً عينيه، وذلك كله مع عدم فكر فيه أو روية، من غير تعجرف ولا توقف ولا لحن، بل فيض إلهي، حتى يبهر كل سامع وناظر، فلا يزال كذلك إلى أن يصمت، وكنت أراه حينئذٍ كأنه قد صار بحضرة من يشغله عن غيره، ويقع عليه إذ ذاك من المهابة ما يُرعد القلوب، ويحير الأبصار والعقول.

وكان لا يذكر رسول الله ﷺ قط إلا ويصلي ويسلم عليه، ولا والله ما رأَيتُ أحداً أشدُّ تعظيماً لرسول الله ﷺ، ولا أَحرص على إِتباعه ونصر ما جاء به منه، حتى إِذا أَورد شيئاً من حديثه في مسألة، ويرى أنه لم ينسخه شيء غيره من حديث يعمل به، ويقضي ويفتي بمقتضاه، ولا يلتفت إلى قول غيره من المخلوقين كائناً من كان، وقال رضي الله عنه: كل قائل إنما يحتج لقوله لا به، إلا الله ورسوله.

وكان إذا فرغ من درسه يفتحُ عينيه، ويُقبل على الناس بوجه طلق بشيش، وخلق دمث، كأنه قد لقيهم حينئذٍ، وربما اعتذر إلى

بعضهم من التقصير في المقال مع ذلك الحال.

وكان درسه الذي يورده حينئذٍ قدر عدة كراريس، وهذا الذي ذكرته من أحوال درسه أمر مشهور يوافقني عليه كل حاضر بها، وهم بحمد الله خلق كثير، لم يُحصر عددهم: علماء، رؤساء، وفضلاء، من القراء، والمحدثين، والفقهاء، والأُدباء وغيرهم من عوام المسلمين»[1].

وقال ابن الوردي رحمه الله:

«... أَخذ في تفسير الكتاب العزيز أيام الجمع على كرسي من حفظه، فكان يورد المجلس ولا يتلعثم، وكذلك الدرس، بتؤدة وصوت جهوري وفصيح، يقول في المجلس أزيد من كراسين، ويكتب على الفتوى في الحال، عدة أوصال بخط سريعٍ في غاية التعليق والإغلاق»[2].

وقال الصفدي رحمه الله:

«.. رأَيته مرات بمدرسة القصاعين وبالحنبلية، وكان إذا تكلم أَغمض عينيه، وازدحمت العبارة على لسانه، فرأيتَ العجب العجيب، والحَبْرَ الذي ما لهُ مُشاكِلٌ في فنونه ولا ضَريب،، والعالم الذي أخذ من كل شيء بنصيب سهمه للأَغراض مُصيب،

---

(١) الإعلام العلية ٢٧ـ٢٩.

(٢) تاريخ ابن الوردي: ٢/٤٠٨.

والـمُـنـاظِـرَ الـذي إذا جـال فـي حـومـة الـجـدال رمـى الـخـصـوم مـن مباحثه باليوم العصيب:

وعـايـنـت بـدراً لا يَـرى الـبدرُ مِـثْـلَـهُ
وخـاطـبـتَ بـحـراً لا يـرى الـعِـبْـرَ عـائـمـه

واجتمعت به مرات، وكنت أَحضرُ دروسه في الحنبلية، ويقع لي أثناء كلامه فوائد لم أسمعها من غيره، ولا وقفت عليها في كتاب»[1].

صفات دروسه:

ودروسه وإن تعددت نواحيها تجمعها جامعة واحدة، واتجاه واحد، وهو إحياءها ما كان عليه الصحابة أهل القرن الأول الذي تلقى الإسلام صافياً لم يرفق بأفكار غريبة، ولم تدرس فيه نحل بائدة أراد أن يحييها أصحابها مستورة بستار المسلمين، فيجمعوا بين أمرين، إحياء تراثهم وإفساد إدراك المسلمين، فيجمعوا بين أمرين، إحياء تراثهم وإفساد إدراك المسلمين لدينهم.

وكان ينهج النهج الذي يعود بالإسلام إلى عهد الصحابة في عقائده، وأصوله وفروعه، وإذا استيقن أن ما يقول هو ما كان عليه الصحابة دافع عنه بالحجة والبرهان، وكل ما يواتيه عقله ودراساته، من أدلة عقلية ونقلية، ويقرب ما يقول بعبارات

(١) الوافي بالوفيات: ٧/ ١٩.

مستقيمة، وتعليلات سليمة، وبواقع الحياة وما يجري بين الناس.

وهو في هذا يلقي بكل أسلحته العلمية، ومن رآه من كبار العلماء يثير إعجابه.

لقد رآه المحدث الكبير ابن دقيق العيد، وقد كان حجة العصر في الحديث وعلومه فقال فيه:

«رأيت رجلاً جمع العلوم كلها بين عينيه، يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريده، وقال له أول مرة رآه وسمع كلامه: كنت أظن أن الله تعالى ما بقي يخلق مثلك» برزت هذه المعارف، وتلك الخواص، وذلك الامتياز البين، وابن تيمية حول الثلاثين من عمره، وقد صار مقصداً للعلماء، والطلاب، الذين يستمعون إليه ليحكموا عليه فيعجبوا به، والطلبة ليستفيدوا، فيستهديهم بفكره وقلبه وإخلاصه وبلاغ بيانه»[1].

وها هو الحافظ ابن حجر رحمه الله يبدي إعجابه بغزارة علومه، وقدرته العلمية الكبيرة فيقول:

«وكان يتكلم على المنبر على طريقة المفسرين مع الفقه والحديث، فيورد في ساعة من الكتاب والسُّنّة واللغة والنظر، ما لا يقدر أَحدٌ على أن يورده في عدة مجالس، كأَن هذه العلوم بين

---

(١) ابن تيمية لأبي زهرة: ص ٣٠.

عينيه يأخذ منها ما يشاء ويذر»[1].

ونستطيع أن نلخص أبرز صفات أو سِمات ـ دروسه على النحو التالي:

١ ـ فصاحة اللسان، وجرأة الجنان، وعدم التلعثم فيما يورده، والكلام بتأنٍ وبصوت جهوري مسموع لمن حضره واستمع إليه.

٢ ـ سلاسة الألفاظ التي يوردها، وفيضان العلم في مجالسه وكتاباته، بحيث عبر عن ذلك الأقشهري رحمه الله بقوله: «وقلمه ولسانه متقاربان».

٣ ـ شدة تعظيمه للرسول ﷺ، ومحبته الكبيرة له، وتقديمه لسُنّته على كل رأي غيرها.

٤ ـ نصرته للكتاب والسُّنّة، وما كان عليه الصحابة الكرام في العهد الأول، مع توضيحه لما يقول بأوضح حجة، وأقوى برهان.

٥ ـ سعة اطلاعه التي أعطته وفرة في المعلومات، وكثرة البراهين والحجج، وقدرة على توظيف هذه المعلومات في المكان الذي يحتاج إليها فيه، مما جعل حجته أبلغ، وقدرته على الحوار والمناظرة أوسع، مما جعل الكثير من العلماء في

---

(١) الدرر الكامنة: ١/ ١٥٣.

عصره يرهبون، بل ويحجمون عن مواجهته في ميدان المناظرة والجدل.

٦ ـ الذاكرة الحادة المتيقظة، والذكاء الخراق، مما أكسبه قدرة غير عادية على استحضار الآيات الدالة على ما يريد، واستحضار متون الأحاديث وعزوها إلى أماكنها كأنها نصب عينيه.

٧ ـ هيبته الكبيرة في قلوب مستمعيه، وشدة تأثيره في نفسيات من يستمعون، ما جعله يثير إعجابهم به، فلا يملكون إلا أن يعبروا عن هذا الإعجاب بكلمات جامعة، كما فعل ابن دقيق العيد رحمه الله.

٨ ـ حيوية مجالسه، وشدة تأثيرها في الناس، وذلك لأنها كانت شديدة المساس بمشاكلهم اليومية، ولارتباطها بواقع الحياة وما يجري بين الناس، مع تقديمه للتعليلات السليمة، بعبارات واضحة مستقيمة، ولا أول على ذلك من معالجته قضية غزو التتار للشام، وقضية الحلف بالطلاق وغيرهما من القضايا.

هذه الصفات وغيرها جعلت من شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله شخصية محبوبة، قريبة من آمال وآلام الناس، مما أكسبه قوة في التأثير على أحداث الفترة التي عاشها، مما جعل هذا التأثير يثير حراكاً غير عادي وسط جو من الجمود والتقليد، وأجواء المداهنة والمداراة للحكام في ذلك العصر.

○ اشتهار علمه في الآفاق:

إن من وهبه الله تعالى هذه العلوم والمعارف، وآتاه الله تعالى هذه القدرة الفائقة على توظيف معارفه لخدمة الكتاب والسُّنَّة، لجدير أن شير بذكره الركبان في البلدان والأقاليم، ويشتهر أمره بين الناس، فيأتيه طلبة العلم زرافات ووحداناً، وهو في بواكير عطاءه، وعظم همته التي ما فترت طيلة حياته، حتى توفاه الله تعالى وهو دائم العطاء، لا يعرف الكلل ولا الملل، ولا يشبع من العلم والمناظرة والتصنيف والتأليف.

يقول الإمام الذهبي رحمه الله:

«ومات والده، وكان من كبار الحنابلة وأئمتهم، فدْرَّس بعده بوظائفه، وله إحدى وعشرون سنة، فاشتهر أمره، وبعد صيته في العالم، وأخذ في تفسير الكتاب العزيز أيام الجمع على كرسي من حفظه، فكان يورد ما يقوله من غير توقف ولا تلعثم، وكذا كان يورد الدروس بتؤدة وصوت جهوري فصيح»[(١)].

وقال أيضاً:

«وحج سنة إحدى وتسعين - وقيل ٦٩٢هـ - وله ثلاثون سنة، ورجع وقد انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل، والزهد، والورع، والشجاعة، والكرم، والتواضع والعلم، والأناة والجلالة

(١) العقود الدرية: ص ٦ـ٧، فوات الوفيات منجد: ص ٥٨.

والمهابة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع الصدق والأمانة، والعفة والصيانة، وحسن القصد، والإخلاص، والابتهال إلى الله تعالى، وشدة الخوف منه، ودوام المراقبة له، والتمسك بالأثر، والدعاء إلى الله تعالى، وحسن الأخلاق، ونفع الخلق والإحسان إليهم.

وكان ـ رحمه الله تعالى ـ سيفاً مسلولاً على المخالفين، وشجاً في حلوق أهل الأهواء والمبتدعين، وإماماً قائماً ببيان الحق ونصرة الدين، طنت بذكره الأمصار، وضنت بمثله الأعصار»[1].

○ تدريسه بالمدرسة الحنبلية:

إضافة إلى تدريسه رحمه الله تعالى في دار الحديث السكرية، وتفسيره القرآن الكريم في المسجد الأموي، فقد تولى رحمه الله التدريس بالمدرسة الحنبلية خلفاً للشيخ العالم العلاَّمة زين الدين بن المنجا الحنبلي، ثم تنازل عن التدريس فيها بعد فترة طويلة من الزمن، لعدم تفرغه وكثرة أسفاره بين الشام ومصر، وانشغاله بمحاربة التتار، وإعداد الناس لمجابهتهم.

وفي كل هذا يقول العلاَّمة ابن كثير رحمه الله في تأريخه لسنة ٦٩٥هـ:

«وفي يوم الأربعاء سابع عشر شعبان، درَّس الشيخ الإمام

---

(١) العقود الدرية: ص ٥، فوات الوفيات منجد: ص ٥٨.

العلاَّمة شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية الحراني بالمدرسة الحنبلية عوضاً عن الشيخ زين الدين ابن المنجا الذي توفي إلى رحمة الله»[1].

وقد كان الشيخ العلاَّمة الفقيه زين الدين ابن المنجا الدمشقي الحنبلي أحد شيوخ ابن تيمية، وكان قد انتهت إليه رئاسة المذهب الحنبلي أصولاً وفروعاً، وكان يلقي دروسه في المدرسة الحنبلية، فلما توفي رابع شعبان، خلفه في التدريس هناك تقي الدين ابن تيمية في السابع عشر من شعبان، بعد اثني عشر يوماً.

وأما عن تنازله عن التدريس فيها فيقول ابن كثير رحمه الله:

«ونزل ابن تيمية عن حلقة العماد ابن المنجا لشمس الدين ابن الفخر البعلبكي»[2].

○ إجماع علماء عصره في الثناء عليه:

لقد أجمع الذين عاصروه على قوة فكره، وسعة علمه، وأنه بعيد المدى عميق الفكرة، يستوي في ذلك الأولياء والأعداء، فإن تلك القوة الفكرية هي التي أثارت الأولياء لنصرته، وأثارت الأعداء لعداوته، ولو كان هيناً في ذاته أو فكره، ما تحركت مناوأة

---

(١) البداية والنهاية: ١٣/ ٣٤٤.

(٢) البداية والنهاية: ١٣/ ٣٤٤.

المناوئين، وما استعانوا بالقوة المانعة عن القول، وقد عجزوا عن مجاراته.

فالجميع إذن مقرون بقوة عقله وعلمه، يستوي في ذلك العدو والولي، وما بين هؤلاء وهؤلاء، ولكن موضع الخلاف بين الأعداء والأولياء هو في الموافقة على الرأي الذي كان ينادي به، لا في قدر المنادي وقوته في العلم والفكر، وإذا كان الناس قد غضوا من قدره كعالم جليل، فليس ذلك من صميم قلوبهم إن كانوا عالمين، بل من الهوى الذي يغلب الفكر والعقل، وليس هذا شأن علماء الدين، أما الجاهلون فلا عبرة بقولهم إن أيدوا أو خالفوا، فقولهم لم يدخل في الحساب.

ونستطيع أن نقول أن كل علماء عصره علموا قدر علمه، حتى من ناوأه وحاول إيذاءه، لأنه قد ضاق صدره حرجاً بمخالفته، وما يأتي من جديد، وإن كان يستمد من القديم قوته فلم يوافق عليه»[١].

وسيكون له وقفة مفصلة مع ثناء العلماء عليه، وأقوالهم في ذلك في فصل خاص سنفرده للحديث عن هذا الثناء العاطر الذي لم ينله عالم من العلماء كما حصل مع ابن تيمية رحمه الله إلا بعض علماء الصدر الأول، والقرون الأولى الخيرة.

---

(١) ابن تيمية لأبي زهرة: ص ٩٣ـ ٩٤.

الفصل الثالث

شيوخه وتلاميذه

المبحث الأول

شيوخه

○ **مصدر تلقي العلم في عصره:**

كان تلقي العلم في عصر ابن تيمية رحمه الله تعالى، والذي كان ضمن فترة عصر التدوين العلمي يتم من ناحيتين:

الأولى: من الرجال يوجهون ويلقنون، ويتخرج العالم عليهم.

الثانية: من الكتب يدرسها ويفحصها وينقب فيها.

ومن مجموع ما يتغذى مما يتناوله من شيوخ، وما يستخرجه من بطون الكتب تتكون المادة العلمية التي يبني عليها، ويستنبط منها، ويزيد عليها، وقد يأتي بلون آخر من ألوان الفكر، مادته الأولى فيما درس.

وسنزيد الأمر تفصيلاً في عرضنا لمادة هذا الفصل.

○ **شيوخه:**

وفي معرض الحديث عن الناحية الأولى والتي تمثل الرجال الذين يوجهون ويلقنون، ويتخرج العالم عليهم، يقول الأستاذ العلاَّمة الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله:

«... وقد تهيأ لابن تيمية ـ رحمه الله ـ مدرسة علمية في صدر حياته على أكمل مثال، وكان أول موجه له أبوه، فقد كان عالماً جليلاً له كرسي في المسجد الجامع بدمشق، وله مشيخة الحديث في بعض مدارسه، فنشأ في معدن العلم، ووجد الموجه الذي يلازمه، وهو أشفق الناس به وأَحناهم، استمر ملازماً لأبيه إلى أن بلغ الحادية والعشرين حيث توفي ذلك الموجه الكريم، وفي أثناء تلك الملازمة التي جمعت أَقوى قرابة، وصلة الروح والفكر كان يتصل بالعلماء ويتلقى عن كل شيخ من شيوخ دمشق أخص ما امتاز به»(١).

فقد جاء في ترجمته عند الحافظ ابن عبد الهادي رحمه الله ما نصه:

«وشيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ، وسمع مسند الإمام أحمد بن حنبل مرات، وسمع الكتب الستة الكبار والأجزاء، ومن مسموعاته معجم الطبراني الكبير»(٢).

---

(١) ابن تيمية لأبي زهرة: ص ١١١.

(٢) العقود الدرية: ص ٣.

وفي ذلك يقول الحافظ أبو حفص عمر بن علي البزار رحمه الله:

«ولقد سمع غير كتابٍ على غير شيخ من ذوي الروايات الصحيحة العالية، أما دواوين الإسلام الكبار كمسند أحمد، وصحيح البخاري، ومسلم، وجامع الترمذي، وسنن أبي داود السجستاني، والنسائي، وابن ماجه، والدارقطني، فإنه سمع كلاً منها مرات عدة، وأول كتاب حفظه في الحديث الجمع بين الصحيحين للإمام الحميدي»(١).

إن المتتبع لحياة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يلحظ أنه تلقى على الرجال ما لا يؤخذ إلا بالسماع، وهو الحديث، ليسند روايته إلى من قرأ عليه، وتلقى قبل ذلك أوائل العلوم على شيوخ تخصصوا فيها، ودربوا عليها، فعلم العربية على شيوخها، والمنطق على شيوخ، والتفسير على شيوخه، والفقه الحنبلي على شيوخه وهكذا.

وكان مع ذلك يحضر المحافل والمجامع فيستمع إلى مساجلات العلماء، ومحاورات الأدباء ومحاضرات ذوي الفكر الثاقب التي كانوا يلقونها في المساجد الجامعة، أو في المدارس.

هذا في المجالس العامة، والمحافل الجامعة، أما في المجتمعات الخاصة فكان بيته لمنزلة أبيه في العلم، ومكانته بين

---

(١) الأعلام العلية: ص ١٨.

الفقهاء ورياسته لمشيخة الحديث، مجتمعاً علمياً خاصاً، يستمع فيه إلى أَدق المسائل النظرية، والحقائق العلمية مدققاً موازناً بين غثها وسمينها، ضعيفها وقويها، بعقل ذكي أريب، وقلب فتي مجيب، يردد ما يسمعه ويمحصه.

ولذلك كان يستفيد من كل العلماء الذين كانوا بمدينة دمشق، أو يفدون إليها، أو يمرون عليها، ويغشى مجالسهم مستمعاً مستفيداً مميزاً، غير هاضم إلا ما يستسيغه العقل ويوافق الأثر»[١].

○ ثبت بأسماء قسم من شيوخه:

ذكرت سابقاً أن شيخ الإسلام رحمه الله قد تلقى العلم عن عدد كبير من شيوخ عصره يفوق المائتي شيخ، كما أشار إلى ذلك تلميذه ابن عبد الهادي رحمه الله تعالى، وقد حاولت جمع ما أستطيع من أسماء هؤلاء الشيوخ، لأُكون من خلال ذلك ثبتاً لأسماء شيوخ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وفيما يلي أسوق أسماء من وصلت إليهم، ومصادر ترجمة كل واحد منهم، وبعض ما سمع شيخ الإسلام على كل واحد منهم، وتاريخ السماع إن وجدت ذلك.

---

(١) ابن تيمية لأبي زهرة: ص ١١١٢.

١ ـ الإمام المحدث الفقيه مسندِ الشام أبو العباس زين الدين أحمد بن عبد الدائم بن نعمة بن أحمد المقدسي، المولود سنة ٥٧٥هـ، من شيوخ الحنابلة، عالم بالحديث، كان فيه دين وتواضع ونباهة، وروى الحديث بضعاً وخمسين سنة، وانتهى إليه علو الإسناد، توفي يوم الإثنين ثامن من رجب سنة ٦٦٨هـ رحمه الله تعالى.

وقد استفاد منه ابن تيمية رحمه الله في الحديث وسمع منه سنة ٦٦٧هـ وقد ذكر ذلك كما في مجموع الفتاوى الكبرى(١).

وقد كف بصر ابن عبد الدائم في آخر عمره(٢).

٢ ـ الشيخ الإمام العالم العلاَّمة الزاهد قاضي القضاة شمس الدين أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي، الجماعيلي، الحنبلي، الصالحي ولد في محرم سنة ٥٩٧هـ. وكان كثير الفضائل، وتفقه على عمه الشيخ الموفق وكان منقطع النظير، عظيم القدر، في العلم والفضل والجلالة، من تصانيفه: كتاب شرح المقنع، وكتاب تسهيل المطالب في تحصيل المذاهب، وكلاهما في فروع الفقه الحنبلي، توفي سنة ٦٨٢هـ.

---

(١) مجموع الفتاوى الكبرى: ١٨/ ٧٧.

(٢) شذرات الذهب: ٥/ ٣٣٥ـ٣٣٦، النجوم الزاهرة: ٧/ ٢٣٠، البداية والنهاية، ١٣/ ٢٤٤، الوافي بالوفيات: ٦/ ٢٨، فوات الوفيات: ١/ ٨١ـ ٨٢ ترجمه: ٣٥، العبر في خبر من غبر: ٣/ ٣١٧.

وكان شيخاً لابن تيمية في الحديث ذكر أنه سمع منه في شعبان سنة ٦٦٧هـ بقاسيون، وأخذ عليه الفقه والأصول»[1].

٣ ـ الإمام الفقيه القاضي شرف الدين أبو العباس أحمد بن أحمد بن نعمة المقدسي الشافعي، المولود سنة ٦٢٢هـ، سمع الكثير، وبرع في الفقه، والأصول، والعربية، وصنف فأجاد وأفاد، ولي القضاء نيابة بدمشق، وأذن في الإفتاء لجماعة من الفضلاء، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية، وكان يفتخر بذلك ويفرح به ويقول: أنا أَذنت لابن تيمية، من مؤلفاته: كتاب في أصول الفقه، توفي سنة ٦٩٤هـ[2].

٤ ـ والده الإمام الفقيه العلاَّمة المحدث أبو المحاسن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني المتوفى سنة ٦٨٢هـ.

سمع منه بحران سنة ٦٦٦هـ.

وقد ذكرنا ترجمته في بداية الكتاب، حين تحدثنا عن أسره شيخ الإسلام[3].

---

(١) البداية والنهاية: ١٣/ ٣٢، شذرات الذهب: ٥/ ٣٧٦، النجوم الزاهرة: ٥/ ٣٧٦، الأعلام للزركلي: ٣/ ٣٢٩، ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٠٤ـ ٣١٠، العبر في خبر من غبر: ٣/ ٥٠، مرآة الجنان: ٤/ ١٧٩.

(٢) البداية والنهاية: ١٣/ ٣٤١، شذرات الذهب: ٥/ ٤٢٤ـ ٤٢٥، طبقات الشافعية: ٥/ ٧ معجم المؤلفين: ١/ ١٥٦.

(٣) البداية والنهاية: ١٣/ ٢٨٧، الدارس في أخبار المدارس للنعيمي: ١/ ٧٤، شذرات الذهب: ٥/ ٣٧٦.

٥ ـ الإمام الفقيه المحدث زين الدين أبو البركات المنجَّى بن عثمان بن أسعد بن المنجَّى بن بركات التنوخي، الدمشقي، الحنبلي المولود سنة ٦٣٢هـ، انتهت إليه رئاسة المذهب الحنبلي بالشام في وقته، ومن تصانيفه: شرح المقنع، وتفسير القرآن العزيز، وغيرهما.

أخذ عنه ابن تيمية رحمه الله الفقه.

وهو الذي تولى شيخ الإسلام ابن تيمية التدريس بدلاً عنه بعد وفاته في المدرسة الحنبلية، وهو ممن حضر أول درس لابن تيمية في دار الحديث السكرية، توفي رحمه الله سنة ٦٩٥هـ(١).

٦ ـ الإمام الفقيه النحوي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد القوي بن بدران المقدسي المرداوي. فقيه، محدث، نحوي، ناظم، كان ابن تيمية رحمه الله ممن قرأ عليه العربية، من مؤلفاته: كتاب الفروق، وغيره، توفي رحمه الله سنة ٦٩٩هـ(٢).

٧ ـ الإمام الفقيه القاضي شمس الدين أحمد بن إبراهيم بن عبد الغني السروجي الحنفي، شارح كتاب الهداية، وكان بارعاً في علوم شتى، له اعتراضات على شيخ الإسلام ابن تيمية في علم

---

(١) البداية والنهاية: ١٣/ ٣٦٥، الذيل على الطبقات: ٢/ ٣٣٢ـ ٣٣٣ برقم: ٤٣٩.

(٢) الوافي بالوفيات: ٣/ ٢٧٨، الأعلام: ٧/ ٨٣، شذرات: / ٤٥٢ـ ٤٥٣، الذيل على الطبقات: ٢/ ٣٤٢ ترجمة رقم: ٤٥٠.

الكلام، وقد رد عليه شيخ الإسلام في مجلدات، وأَبطل حجته، توفي سنة ٧١٠هـ[(١)].

٨ ـ الإمام المحدث الشيخ فخر الدين أبو الحسن علي بن أحمد بن عبد الواحد بن أحمد السعدي المقدسي الصالحي، الحنبلي، المعروف بابن البخاري المولود سنة ٥٩٥هـ، كان شيخاً، عالماً، فقيهاً، زاهداً، عابداً، مسنداً، مكثراً، مكرماً للطلبة، حدث نحواً من ستين سنة.

طال عمره، ورحل الطلبة إليه من البلاد، وألحق الأسباط بالأجداد في علو الإسناد، حتى أصبح مسند الدنيا في عصره.

سمع منه شيخ الإسلام ابن تيمية سنة ٦٨١هـ، وكان يقول عنه: «ينشرح صدري إذا أَدخلت ابن البخاري بيني وبين النبي ﷺ في حديث»، توفي رحمه الله سنة ٦٩٠هـ[(٢)].

٩ ـ الشيخ الفقيه الإمام العالم البارع جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن سليمان بن سعيد بن سليمان البغدادي المولود سنة ٥٨٥هـ بحران، نزيل دمشق، سمع منه شيخ الإسلام سنة ٦٦٨هـ، توفي رحمه الله تعالى سنة ٦٧٠هـ[(٣)].

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ٥٢، الدرر الكامنة: ١/ ٩٦ـ ٩٧، معجم المؤلفين: ١/ ١٤٠.

(٢) شذرات الذهب: ٥/ ٤١٤، العبر: ٣/ ٣٧٣، البداية والنهاية: ١٣/ ٣٤٣، معجم الشيوخ الكبير للذهبي: ٢/ ١٣ـ ١٤، معجم المؤلفين: ٧/ ١٦، الإعلام: ٤/ ٢٥٧.

(٣) شذرات الذهب: ٥/ ٣٣٢، العبر: ٣/ ٣٢١، النجوم الزاهرة: ٧/ ٢٣٧.

١٠ ـ الإمام المحدث مُسند الشام الكاتب المنشىء تقي الدين أبو محمد إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليسر التنوخي ولد سنة ٥٨٩هـ وسمع منه ابن تيمية سنة ٦٦٩هـ. وفيه خير وعدالة وصلاح، توفي رحمه الله في صفر سنة ٦٧٢هـ[١].

١١ ـ الإمام الفقيه سيف الدين أبو زكريا يَحيى بن عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب الحنبلي الأنصاري المولود سنة ٥٩٢هـ سمع منه ابن تيمية رحمه الله يوم الجمعة عاشر شوال سنة ٦٦٩هـ، وتوفي رحمه الله في شوال سنة ٦٧٢هـ[٢].

١٢ ـ الشيخ الإمام القاضي شمس الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن عطاء بن حسن الأذرعي الحنفي المولود سنة ٥٩٥هـ، سمع منه ابن تيمية رحمه الله في سنة ٦٦٧هـ، كان يشار إليه في مذهبه مع الدين والصيانة والتواضع والتعفف، توفي وقد قارب الثمانين سنة ٦٧٣هـ[٣].

١٣ ـ الشيخ المسند زين الدين أبو العباس المؤمل بن محمد بن علي بن محمد البالسي المولود سنة ٦٠٢هـ وقيل

---

(١) البداية والنهاية: ١٣/ ٢٥٤، الدرر الكامنة: ١/ ٩١، شذرات الذهب: ٥/ ٣٣٦، العبر: ٣/ ٣٥٢.

(٢) شذرات الذهب: ٥/ ٣٤٠، العبر: ٣/ ٣٢٩.

(٣) البداية والنهاية: ١٣/ ٢٨٩، العبر: ٣/ ٣٢٧، شذرات: ٥/ ٣٤٠، الفوائد البهية: ص ٩٠.

ثلاث، وسمع منه ابن تيمية رحمه الله سنة ٦٦٩هـ والمتوفى سنة ٦٧٧هـ[(١)].

١٤ ـ الشيخ العدل رشيد الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر محمد بن محمد بن سليمان العامري سمع منه ابن تيمية رحمه الله تعالى سنة ٦٦٨هـ، ٦٦٩هـ ـ ٦٧٧هـ، وتوفي رحمه الله تعالى في ذي الحجة سنة ٦٨٢هـ[(٢)].

١٥ ـ الإمام المحدث شرف الدين أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن غدير بن القواس الطائي المولود سنة ٦٠٢هـ، كان شيخاً متميزاً حسن الديانة، سمع منه ابن تيمية رحمه الله سنة ٦٧٥هـ، وتوفي رحمه الله تعالى سنة ٦٨٢هـ[(٣)].

١٦ ـ الإمام العالم الزاهد كمال الدين أبو زكريا يحيى بن أبي منصور بن أبي الفتح بن رافع بن علي الحراني ابن الصيرفي، كان إماماً عالماً صاحب عبادة وتهجد وصفات حميدة، سمع منه ابن تيمية رحمه الله في شوال سنة ٦٦٨هـ، وتوفي في رابع صفر سنة ٦٧٨هـ[(٤)].

---

(١) العبر: ٣/ ٣٣٧، شذرات الذهب: ٥/ ٣٦٠، النجوم الزاهرة: ٧/ ٢٨٥.

(٢) العبر: ٣/ ٣٥١، شذرات الذهب: ٥/ ٣٨١، مرآة الجنان: ٤/ ١٧٨، النجوم الزاهرة: ٧/ ٣٦١.

(٣) شذرات الذهب: ٥/ ٣٨٠، العبر: ٣/ ٣٥١، النجوم الزاهرة: ٦/ ٣٦١.

(٤) معجم المؤلفين: ١٣/ ٢٣٣، العبر؛ ٣/ ٣٣٩، شذرات الذهب: ٥/ ٣٦٣.

١٧ ـ الحاج المسند العالم أبو بكر بن محمد بن أبي بكر بن عبد الواسع الهروي الدمشقي عماد الدين، المولود سنة ٥٩٤هـ، سمع منه ابن تيمية رحمه الله في رابع ربيع الأول سنة ٦٦٨هـ، وتوفي رحمه الله تعالى في رجب سنة ٦٧٣هـ[1].

١٨ ـ الإمام المسند زين الدين أبو العباس أحمد بن أبي الخير سلامة بن إبراهيم بن سلامة بن الحداد الدمشقي، كان والده إماماً لحلقة الحنابلة، فمات وهو صغير، وكان خياطاً ودلاّلاً، وأضر بآخره، وكان يحفظ القرآن.

سمع منه ابن تيمية رحمه الله في ربيع الأول سنة ٦٧٥هـ، وكان مولده رحمه الله في ربيع الأول سنة ٦٠٩هـ، وتوفي في يوم عاشوراء سنة ٦٧٨هـ[2].

١٩ ـ العدل المسند أمين الدين أبو محمد القاسم بن أبي بكر بن قاسم بن غنيمة الإربلي المولود في سنة ٥٩٥هـ أو قبلها بإربل، ارتحل في طلب العلم مع أبيه وله بضع عشرة سنة، سمع منه ابن تيمية رحمه الله سنة ٦٧٧هـ وتوفي رحمه الله في جمادي الأولى سنة ٦٨٠هـ[3].

---

(١) الأربعون لابن تيمية: ص ٢٢، مجموع الفتاوي: ١٨/ ٨٢.

(٢) العبر: ٣/ ٣٣٨، شذرات الذهب: ٥/ ٣٦٠، مجموع الفتاوى: ١٨/ ٩١ـ ١١٢.

(٣) العبر: ٣/ ٣٤٤، شذرات الذهب: ٥/ ٣٦٧، النجوم الزاهرة: ٧/ ٣٥٣.

٢٠ ـ الشيخ الإمام الصدر الرئيس شمس الدين أبو الغنائم المسلم بن محمد بن المسلم بن علان القيسي الدمشقي، كان محدثاً من سروات الحديث ولد سنة ٥٩٤هـ، وسمع منه ابن تيمية رحمه الله سنة ٦٦٧هـ، وسنة ٦٨٠هـ.

وتوفي رحمه الله تعالى في سادس ذي الحجة سنة ٦٨٠هـ[١].

٢١ ـ الإمام المحدث بدر الدين أبو العباس أحمد بن شيبان بن تغلب بن حيدرة الشيباني المولود سنة ٥٩٩هـ راوي مسند الإمام أحمد بن حنبل، سمع منه ابن تيمية رحمه الله سنة ٦٨٤هـ، وفي شعبان سنة ٦٧٥هـ وتوفي رحمه الله في صفر سنة ٦٨٥هـ[٢].

٢٢ ـ الإمام المحدث ناصر الدين أبو حفص عمر بن عبد المنعم ابن القواس الدمشقي، المولود سنة ٦٠٥هـ، والمتوفى سنة ٦٩٨هـ رحمه الله تعالى، كان مسند الوقت في زمانه[٣].

---

(١) البداية والنهاية: ٣١٦/١٣، النجوم الزاهرة: ٧/ ٣٥٣، شذرات الذهب: ٥/ ٦٩ العبر: ٣/ ٣٤٦.

(٢) شذرات الذهب: ٥/ ٣٩٠، النجوم الزاهرة: ٧/ ٣٧٠ العبر: ٣/ ٣٥٨، البداية والنهاية: ٢٣٢٦/١٣.

(٣) شذرات الذهب: ٥/ ٤٤٢.

٢٣ ـ الشيخ المسند كمال الدين أبو نصر عبد العزيز بن عبد المنعم بن الخضر بن شبل بن عبد الحارثي المولود سنة ٥٨٩هـ، سمع منه ابن تيمية رحمه الله تعالى في يوم الجمعة سادس شعبان سنة ٦٦٩هـ بجامع دمشق، وتوفي في شعبان سنة ٦٨٢هـ(١).

٢٤ ـ الشيخ الصالح المسند أبو عبد الله محمد بن بدر بن محمد بن يعيش الجزري سمع منه ابن تيمية في شعبان سنة ٦٧٥هـ بقاسيون، وتوفي في شعبان سنة ٦٧٥هـ رحمه الله تعالى(٢).

٢٥ ـ الشيخ المسند أبو يحيى إسماعيل بن أبي عبد الله بن حماد بن عبد الكريم العسقلاني، كان أُمياً لا يكتب، وقد سمع ابن العسقلاني في الرابعة سنة ٥٩٩هـ، وقد سمع منه ابن تيمية رحمه الله في شعبان سنة ٦٧٥هـ وفي سنة ٦٨١هـ، وتوفي رحمه الله تعالى سنة ٦٨٢هـ في رمضان(٣).

٢٦ ـ الفقيه الإمام العالم زين الدين أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن أبي الفرج بن أبي طاهر بن محمد بن نصر، عُرف بابن السديد الأنصاري الحنفي، سمع منه ابن تيمية رحمه الله في

---

(١) شذرات الذهب: ٥/ ٣٣٨، العبر: ٣/ ٣٢٥ النجوم الزاهرة: ٧/ ٢٢٤.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٨/ ٨٨ـ ٨٩.

(٣) العبر: ٣/ ٣٤٩، شذرات الذهب: ٥/ ٣٧٥، مجموع الفتاوى: ١٨/ ١٠٥ـ١٠٦.

رجب سنة ٦٧٥هـ، وتوفي رحمه الله في جمادى الأولى سنة ٦٧٧هـ، وله ثلاث وسبعون سنة(١).

٢٧ ـ الشيخ الإمام المقرىء الرئيس الفاضل كمال الدين أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل بن فارس التميمي السعدي، كان مولده سنة ٥٩٦هـ، وفيه خير وتدين، سمع منه ابن تيمية رحمه الله في رمضان سنة ٦٧٤هـ، توفي في صفر سنة ٦٧٦هـ(٢).

٢٨ ـ الجمال أحمد بن أبي بكر بن سليمان الواعظ ابن الحموي أبو العباس الدمشقي المولود في حدود سنة ستمائة، سمع منه ابن تيمية رحمه الله في رجب سنة ٦٨٠هـ، وفي سنة ٦٨١هـ، وتوفي في ذي الحجة سنة ٦٨٧هـ وله سبع وثمانين سنة(٣).

٢٩ ـ المسند الأصيل العدل مجد الدين أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن عثمان بن المظفر بن هبة الله بن عساكر الدمشقي الشافعي، كان مولده سنة ٥٨٧هـ سمع منه ابن تيمية رحمه الله في شعبان سنة ٦٦٧هـ، وتوفي رحمه الله في ذي

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٨/ ٨٩ـ ٩٠.

(٢) شذرات الذهب: ٥/ ٣٥١، العبر: ٣/ ٣٣١، مجموع الفتاوى: ١٨/ ٩٠ـ ٩١.

(٣) النجوم الزاهرة: ٧/ ٣٨٧، العبر: ٣/ ٣٦٣، شذرات الذهب: ٥/ ٤٠٠، مجموع الفتاوى: ١٨/ ١١ـ ١١٢.

القعدة سنة ٦٦٩هـ[١].

٣٠ ـ الإمام السيد عماد الدين أبو محمد عبد الرحمن بن أبي الصعر بن السيد بن الصانع الأنصاري المتوفى في رمضان سنة ٦٧٩هـ، سمع منه ابن تيمية رحمه الله في سنة ٦٧٦هـ[٢].

٣١ ـ الشيخ الأصيل المسند نجم الدين أبو العز يوسف بن يعقوب بن محمد بن علي المجاور الشيباني الدمشقي الكاتب، تفرد برواية تاريخ بغداد عن الكندي سمع منه ابن تيمية رحمه الله تعالى سنة ٦٧٦هـ، ٦٨٠هـ، وقد ولد رحمه الله سنة ٦٠١هـ، وتوفي في ذي القعدة سنة ٦٩٠هـ[٣].

٣٢ ـ الإمام العالم أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن يحيى بن علوي بن الحسين الدرجي القرشي الحنفي إمام مدرسة الكشك، روى المعجم الكبير للطبراني، سمع منه في رجب سنة ٦٨٠هـ، ولد سنة ٥٩٩هـ، وتوفي في صفر سنة ٦٨١هـ[٤].

---

(١) الوافي بالوفيات: ٢/ ٢١٩، شذرات الذهب: ٥/ ٣٣١، مجموع الفتاوى: ١٨/ ٩٦ـ٩٧.

(٢) الأربعون لابن تيمية: ص ٦٦.

(٣) الأعلام: ٨/ ٢٥٨، معجم المؤلفين: ١٣/ ٣٤٥، النجوم الزاهرة: ٨/ ٣٣، شذرات الذهب: ٥/ ٤١٧، العبر: ٣/ ٣٧٥.

(٤) العبر: ٣/ ٣٤٧، شذرات: ٥/ ٣٧٣، البداية: ١٣/ ٣١٧، النجوم الزاهرة: ٧/ ٣٥٦.

٣٣ ـ الإمام نجيب الدين المقداد بن أبي القاسم هبة الله بن المقداد أبو المرهف القيسي البغدادي الشافعي، كان عدلاً خيّراً تاجراً، ولد في سنة ٦٠٠هـ وتوفي بدمشق في ثمان شعبان سنة ٦٨١هـ(١).

٣٤ ـ الإمام محمد بن عامر بن أبي بكر الفسولي أبو عبد الله المقرىء، كان صالحاً متواضعاً خيِّراً حسن الوعظ، حلو العبارة في الدعاء، سمع منه ابن تيمية رحمه الله تعالى في سنة ٦٨٢هـ، وقد توفي رحمه الله تعالى في جمادى الآخرة سنة ٦٨٤هـ وقد قارب الثمانين(٢).

٣٥ ـ الشيخ الجليل الصالح كمال الدين أبو محمد عبد الرحيم بن عبد الملك بن يوسف بن قدامة المقدسي المولود في حدود سنة ٥٩٨هـ والمتوفى في جمادى الأولى سنة ٦٨٠هـ، وكان رجلاً صالحاً، سمع منه ابن تيمية رحمه الله تعالى في صفر سنة ٦٨٠هـ، أي قبل وفاته بشهرين تقريباً(٣).

٣٦ ـ الشيخ الإمام علي بن محمود بن شهاب، المولود سنة ٥٩٥هـ والمتوفى في رمضان سنة ٦٨٠هـ(٤).

---

(١) العبر: ٣/ ٣٤٩، شذرات: ٥/ ٣٧٤ـ ٣٧٥.

(٢) العبر: ٣/ ٣٥٧، شذرات: ٥/ ٣٨٩، البداية والنهاية: ١٣/ ٣٢٣، الأربعون: ص ٧٢.

(٣) العبر: ٣/ ٣٤٣، الأربعون: ٨٤.

(٤) مجموع الفتاوى: ١٨/ ١٠٥ـ١٠٦.

٣٧ ـ الشيخ الجليل الثقة زين الدين أبو بكر محمد بن أبي طاهر إسماعيل بن عبد الله بن عبد المحسن الأَنماطي الأنصاري المصري، سمع منه ابن تيمية رحمه الله تعالى في رجب سنة ٦٦٨هـ، وقد ولد سنة ٦٠٩هـ وتوفي في ذي الحجة سنة ٦٨٤هـ بالقاهرة[١].

٣٨ ـ الإمام شمس الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الملك بن عثمان بن عبد الله بن سعد المقدسي، كان ثقة صالحاً نبيلاً مهيباً من خيار الشيوخ. ولد رحمه الله سنة: ٦٠٦هـ، وتوفي في ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ، سمع منه ابن تيمية رحمه الله سنة ٦٨١هـ[٢].

٣٩ ـ الشيخ الإمام الحافظ جمال الدين أبو حامد محمد بن علي بن محمود بن أحمد بن علي بن الصابوني، شيخ دار الحديث النورية بدمشق، المولود في سنة ٦٠٤هـ، والمتوفى في ذي القعدة سنة ٦٨٠هـ، سمع منه في رمضان سنة ٦٦٨هـ[٣].

٤٠ ـ الشيخ الأمين الصدوق شمس الدين أبو غالب

---

(١) شذرات الذهب: ٥/ ٣٣٨، العبر: ٣/ ٣٥٧، مجموع الفتاوى: ١٨/ ١٠٧ـ١٠٨.

(٢) العبر: ٣/ ٣٦٩، شذرات: ٥/ ٤٠٨، النجوم الزاهرة: ٧/ ٣٨٦، مجموع الفتاوى: ١٨/ ١٠٨ـ١٠٩.

(٣) العبر: ٣/ ٣٤٦، مرآة الجنان: ٤/ ١٩٣، شذرات: ٥/ ٣٦٩، مجموع الفتاوى: ١٨/ ١١٠، ١١١، الوافي بالوفيات: ٤/ ٢٤٦.

المظفر بن عبد الصمد بن خليل الأنصاري المتوفى في جمادى الأولى سنة ٦٨٨هـ وعمره اثنان وثمانون سنة، سمع منه قراءة عليه في جمادى الآخرة سنة ٦٨٤هـ[(١)].

٤١ ـ الشيخ الإمام عبد الرحمن بن أحمد بن عباس أبو محمد الفاقوسي، المتوفى في شعبان سنة ٦٨٢هـ وله خمس وسبعون سنة[(٢)].

٤٢ ـ الشيخ الإمام محيي الدين أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي عصرون التميمي، المولود في سنة ٥٩٩هـ، والمتوفى في ثالث ذي القعدة سنة ٦٨٢هـ، سمع منه ابن تيمية رحمه الله تعالى سنة ٦٨٢هـ[(٣)].

٤٣ ـ أقضى القضاة نفيس الدين أبو القاسم هبة الله بن محمد بن علي بن جرير الحارثي الشافعي المتوفى في صفر سنة ٦٨٠هـ، وله ثلاث وسبعون سنة سمع منه سنة ٦٧٩هـ[(٤)].

٤٤ ـ الشيخ الإمام الزاهد شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الكمال عبد الرحيم بن عبد الواحد بن أحمد بن

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٨/ ١١٢ـ ١١٣.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٨/ ١١٢ـ ١١٣.

(٣) العبر: ٣/ ٣٥٠، شذرات: ٥/ ٣٧٩، النجوم الزاهرة: ٧/ ٣٨٢، مجموع الفتاوى: ١٨/ ١١٣ـ ١١٥.

(٤) مجموع الفتاوى: ١٨/ ١١٥ـ ١١٦.

عبد الرحمن المقدسي السعدي الحنبلي، عُني بالحديث وجمع وخرج، مع الدين والورع والعبادة، وولي مشيخة الضيائية، ومشيخة الأشرفية بالجبل، المولود في سنة ٦٠٧هـ، والمتوفى في جمادى الأولى سنة ٦٨٨هـ، سمع منه ابن تيمية رحمه الله في سنة ٦٨١هـ[(١)].

٤٥ ـ الشيخ شمس الدين عبد الرحمن بن الزين أحمد بن عبد الملك المقدسي[(٢)].

٤٦ ـ أحمد بن محمد الظاهري المحدث الحلبي، المولود في سنة ٦٢٦هـ والمتوفى سنة ٦٩٦هـ[(٣)].

٤٧ ـ أحمد بن عبد الرحمن بن العنيقة الحراني[(٤)].

٤٨ ـ الشيخة الصالحة أم الخير ست العرب بنت يحيى بن قايماز بن عبد الله التاجية الدمشقية الكندية، المولودة سنة ٥٩٩هـ والمتوفاة سنة ٦٨٤هـ، سمع منها في رمضان سنة ٦٨١هـ[(٥)].

٤٩ ـ الشيخة الجليلة الأصيلة أُم العرب فاطمة بنت أبي

---

(١) شذرات: ٥/ ٤٠٥، العبر: ٣/ ٣٦٧، النجوم الزاهرة؛ ٧/ ٣٨٢، مجموع الفتاوى: ١٨/ ١١٦ـ١١٧، معجم المؤلفين: ٣/ ٢٤٢.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٨/ ١١٦ـ١١٧.

(٣) الرد الوافر: ص ٩٦.

(٤) الرد الوافر: ص ٩٦.

(٥) العبر: ٣/ ٣٥٥، شذرات: ٥/ ٣٨٥، النجوم الزاهرة: ٧/ ٢٦٨، مجموع الفتاوى: ١٨/ ١١٧ ـ ١١٨.

القاسم علي بن أبي محمد القاسم بن أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين بن عساكر، وهي بنت الحافظ مؤرخ الشام أبو القاسم بن عساكر، المولودة سنة ٥٩٨هـ والتي توفيت في شعبان سنة ٦٨٣هـ، سمع منها في رمضان سنة ٦٨١هـ[(١)].

٥٠ ـ الصالحة العابدة المجتهدة الشيخة زينب بنت مكي بن علي بن كامل الحرانية، المعمرة أم أحمد، ازدحم عليها الطلبة، ولدت في سنة ٥٩٨هـ وتوفيت في شوال سنة ٦٨٨هـ، سمع منها ابن تيمية رحمه الله في شعبان سنة ٦٧٥هـ[(٢)].

٥١ ـ الشيخة الصالحة أُم محمد زينب بنت أحمد بن عمر بن كامل المقدسية، سمع منها ابن تيمية رحمه الله سنة ٦٨٤هـ، تفردت بأجزاء «كالثقفيات» ومسند «عبد» و «الدارمي» وارتحل إليها الطلبة، وماتت في بيت المقدس. ذكر الذهبي في العبر أنها ماتت سنة ٧٢٢هـ عن أربع وتسعين سنة، وذكرها صاحب الشذرات في وفيات سنة ٧٢٢هـ، وكذلك ذكر ابن حجر أنها توفيت في ذي الحجة سنة ٧٢٢هـ[(٣)].

---

(١) شذرات: ٥/ ٣٨٣، العبر: ٣/ ٣٥٣، مجموع الفتاوى: ١٨/ ١١٨ـ ١١٩.

(٢) مرآة الجنان: ٤/ ٢٠٧، النجوم: ٧/ ٣٨٢، شذرات: ٥/ ٤٠٤، العبر: ٣/ ٣٦٦ مجموع الفتاوى: ١٨/ ١١٩ـ ١٢٠.

(٣) الدرر: ٢/ ١١٨، النجوم: ٩/ ٢٥٨، العبر: ٤/ ٦٥، شذرات: ٦/ ٥٦، مرآة الجنان: ٤/ ٣٦٩، مجموع الفتاوى: ١٨/ ١٢٠ـ ١٢١.

هؤلاء هم أهم الأعلام الذين تلقى عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى كثيراً من العلوم والمعارف التي استطاع أن يصل إليها، ولعله فاق في كثير منها شيوخه الذين أخذ عنهم، وقد شهد هؤلاء الأعلام أو بعضهم على ذلك رحمهم الله تعالى أجمعين.

○ **الكتب التي قرأها:**

استفاد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من كل العلماء الذين لقيهم بمدينة دمشق، أو كانوا يفدون إليها، أو يمرون بها، وأخذ عنهم ما لا يؤخذ إلا بالسماع، وهو الحديث، وكان قد تلقى قبل ذلك على شيوخ تخصصوا فيها، ودربوا عليها، فأخذ العربية عن شيوخها، والمنطق على شيوخه، والتفسير على شيوخه. والفقه الحنبلي على شيوخه، وغير ذلك من العلم.

وحين تكوَّن له محصول طيب من هذه العلوم، أخذ يدرس بنفسه في الكتب ويتعمق في كل علم، يساعده في ذلك رغبة في العلم، ونهمة في طلبه وتحصيله، فقد كان لا يشبع من المطالعة والتأليف، ولا يشغله عنهما شيء فهو كما قال الصفدي رحمه الله تعالى عنه:

«كان من صغره حريصاً على الطلب، مُجداً على التحصيل والدأب، لا يؤثر على الاشتغال ـ أي تحصيل العلم ـ لذة، ولا يؤثر أن يضيع منه لحظة في البطالة، فذة، يذهل عن الطعام،

ويغيب في لذة العلم عن حسه، لا يطلب أكلاً إلا إذا حضر لديه، ولا يرتاح إلى طعام أو شراب في أبرديه ـ أي في الغداة والعشي»[١].

والحق أن ما نقل عنه في كثرة مطالعته لسائر أنواع العلوم، وقراءته لأصولها وتصحيحه لها، وزيادته على أربابها في أبواب كثيرة، شيء يثير العجب، فهو قلَّ كتاب إلا وقرأه واطلع عليه، وهذا الحافظ البزار رحمه الله ينقل عنه شدة محبته للمطالعة والقراءة فيقول الحافظ رحمه الله:

«قلَّ كتاب من فنون العلم إلا وقف عليه، وكان الله قد خصه بسرعة الحفظ، وإبطاء النسيان، لم يكن يقف على شيء أو يستمع لشيء غالباً، إلا ويبقى على خاطره، إما بلفظه أو معناه»[٢].

ويقول الذهبي رحمه الله:

«... لا تكاد نفسه تشبع من العلم، ولا تروى من المطالعة، ولا تَملُّ من الاشتغال، ولا تكل من البحث، وَقَلَّ أَن يدخل في علم من العلوم في باب من أبوابه، إلا ويفتح له من ذلك الباب أبواب، ويستدرك أشياء في ذلك العلم على حذاق أهله»[٣].

---

(١) الوافي بالوفيات: ٧/ ١٩ـ ٢٢، أعيان العصر عن المنجد: ص ٥١.

(٢) الإعلام: ص ١٨.

(٣) الوافي بالوفيات: ٧/ ١٦، فوات الوفيات عن المنجد: ٥٧ـ ٥٨.

ومن ذلك ما جاء في قراءاته في مجال علم التفسير، واهتمامه الشديد بكثرة المطالعة في هذا الفن ما ذكره الحافظ ابن عبد الهادي رحمه الله بقوله:

«... ما جمعه في تفسير القرآن العظيم، وما جمعه من أقوال مفسري السلف الذين يذكرون الأسانيد في كتبهم، وذلك في أكثر من ثلاثين مجلداً، وقد بيض أصحابه بعض ذلك، وكثيراً منه لم يكتبوه بعد.

وكان رحمه الله يقول: «ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثم أسأل الله الفهم، وأقول يا مُعَلّم آدم وإبراهيم علمني، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها وأُمرغ وجهي في التراب، وأسأل الله تعالى. وأقول: يا معلم إبراهيم فهمني...»[1].

وكذلك كان حاله في كل علم من العلوم التي أتقنها رحمه الله تعالى، فقد كان العلماء يعجبون من كثرة محفوظه في هذه العلوم، وفي ذلك يقول الشيخ علم الدين البرزالي رحمه الله تعالى:

«أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني، الشيخ تقي الدين أبو العباس الإمام المجمع على فضله ونبله ودينه.

---

(١) العقود الدرية: ص ٢٦.

قرأ الفقه وبرع فيه، والعربية والأصول، ومهر في علمي التفسير والحديث، وكان إماماً لا يلحق غباره في كل شيء، وبلغ رتبة الاجتهاد واجتمعت فيه شروط المجتهدين، وكان إذا ذكر التفسير بُهت الناس من كثرة محفوظه وحسن إيراده وإعطائه كل قول ما يستحقه من الترجيح والتضعيف والإبطال، وخوضه في كل علم كان الحاضرون يقضون منه العجب»[(١)].

وقال الحافظ ابن سيد الناس رحمه الله تعالى فيه:

«... ألفيته ممن أدرك من العلوم حظاً، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظاً، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر بالحديث فهو صاحب علمه وذو روايته، أو حاضر بالنِّحَل والملل لم يُر أوسع من نحلته في ذلك ولا أرفع من درايته.

برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه...»[(٢)].

وقال الحافظ ابن الزملكاني رحمه الله تعالى فيه:

«... كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه

---

(١) العقود الدرية: ١٢ـ١٣.

(٢) العقود الدرية: ص ١٠.

ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك، ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه، ولا تكلم في علم من العلوم. سواءً أكان من علوم الشرع أم غيرها إلا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه...»[1].

ولا شك أن من بلغ هذا المبلغ من العلم. ووصفه علماء عصره وأذكياؤهم بهذه الأوصاف، لم يبلغ كل هذا إلا وقد اطلع وقرأ وبحث ونقب عن كل هذه العلوم من مصادرها، وهضم علومها، وقوم معوجها، وزاد عليها وأحسن توجيه ما فيها من العلوم نحو الخير ومصلحة المسلمين، يعينه في ذلك كله حافظة واعية، وذكاء خارق، وتوفيق من الله تعالى له حين كان يلجأ إلى السجود ليفهمه الله تعالى أو يعلمه، ولعل فيما سنذكره في جوانب علمه ومعارفه ما يزيد الأمر وضوحاً.

(١) العقود الدرية: ص ٧.

المبحث الثاني

«تلاميذه»

ربى شيخ الإسلام جيلاً عالماً مجاهداً، شارك معه أحداث عصره، فأصابه ما أصاب الشيخ من السراء والضراء، ووقف معه يجابه الأحداث من قتال للتتار، وقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالقوة حيناً، وبالموعظة الحسنة حيناً آخر، وشاركه السجون والمعتقلات والضرب والإيذاء، كما شاركه الدعوة والإرشاد، والتدريس والإفادة. والافتاء والكتابة، والتصنيف والتأليف.

ولقد كثر تلاميذه رحمه الله تعالى كثرة فاقت غيره من علماء عصره رحمهم الله تعالى، وفي ذلك يقول الشيخ الإمام محمد أبو زهرة رحمه الله:

«لعل الجيل الذي عاش فيه ابن تيمية لم يعرف شيخاً كثر تلاميذه ومريدوه، كما كثر تلاميذ الشيخ تقي الدين رضي الله عنه، ولقد كان تنقله بين مصر والشام، وتنقله في مصر بين الإسكندرية والقاهرة، مع عكوفه الدائم على الدرس والفحص والجدال والخطابة، سبباً في أن كثر تلاميذه كثرة عظيمة، فكان له

تلاميذ في مصر، وتلاميذ في الشام، وتلاميذ مصر بين القاهرة والإسكندرية.

بيد أنه يلاحظ أن تلاميذه نوعان، لأن دروسه كانت نوعين، فالنوع الأول من دروسه دروس عامة يلقيها على العامة في المسجد الجامع يرشدهم بها ويبين لهم الاتباع وحقيقته، ويجنبهم الابتداع كما كان الشأن في كثير من دروسه بمصر، وببعض دروسه العامة في الشام وحيثما حل، كما فعل بغزة عندما مر بها، وهو مقبل إلى مصر؛ وقد كان له تلاميذ في هذه الدروس العامة يلازمونها وإن كان الأحرى أن يسمى أكثرهم مريدين، لأنهم لا طاقة لهم بأن يدركوا كل مدارك الشيخ، حتى يكونوا له تلاميذ بالمعنى الخاص الذي يرثون فيه علمه.

والقسم الثاني من دروسه، دروس خاصة كان يلقيها على تلاميذه الذين اختصوا بعظم المدارك وصلحوا لأن يكونوا ورثته في علمه من بعده، والقائمين على تركته الفكرية وخلفاؤه فيها، وهؤلاء هم الذين كان يلقي عليهم كل تفكيره ومنهاجه في مدارس الشام، وبعض الاجتماعات الخاصة، في مصر والشام.

وأن هذا القسم من التلاميذ هم الذين قاموا على تركته الفكرية من بعده وأكثرهم من الحنابلة، وكثير منهم من الشافعية، وأن عددهم لا يحصى، فقد كانوا كثيرين لطول المدة التي ألقى فيها دروسه، فقد ألقى دروسه نحواً من ستة وأربعين عاماً دائباً لا

يني ولا يمل، ولا يكل، أي من وقت أن توفي أبوه وهو في الحادية والعشرين إلى أن قبضه الله سبحانه وتعالى إليه، وقد بلغ السابعة والستين.

ولقد كان أولئك الخاصة من تلاميذه ينالهم الاضطهاد، إذا اعتقل، فقد كانوا معه في البلاء، كما كانوا في الدرس»[١].

وما يرى اليوم من كثير من الكتب التي يعتمد عليها طلبة العلم في مختلف العلوم الإسلامية فهي من تأليف تلاميذه وتلاميذهم، الذين ملأوا الدنيا علماً وفضلاً، ولا يمكن لطلبة العلم أن يستغنوا عنها أبداً.

وقد ذكر السخاوي رحمه الله تعالى في مؤلفات الذهبي رحمه الله مؤلفاً في أسماء أصحاب ابن تيمية رحمه الله فقال:

«... وورقة في أصحاب التقي بن تيمية سماها القبان»[٢].

وفي ذكره لمناقب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، يعرج الحافظ ابن حجر رحمه الله على ذكر تلميذه الإمام ابن القيم كنموذج رائع من التلاميذ الذين يعدون في مناقب شيوخهم، فيقول:

«... ولو لم يكن للشيخ تقي الدين من المناقب إلا تلميذه الشهير الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية صاحب التصانيف

---

(١) ابن تيمية لأبي زهرة: ص ٥٢٥ـ٥٢٦.

(٢) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ: ص ٦٧٥.

النافعة السائرة، التي انتفع بها الموافق والمخالف ـ لكان غاية في الدلالة على عظمة منزلته.

فكيف وقد شهد له بالتقدم في العلوم، والتمييز في المنطوق والمفهوم أئمة عصره من الشافعية وغيرهم، فضلاً عن الحنابلة»[1].

ولقد كثر تلاميذه كثرة فائقة كما سبق أن أسلفت قبل قليل، فاق فيها علماء عصره، ولعلنا نعيد أسباب ذلك إلى الأمور التالية:

١ ـ ما كان يتمتع به من شخصية عملاقة جبارة، تستهوي الأذكياء وأصحاب القدرات العالية، مع ما أوتيه من قدرة على التأثير فيمن حوله، مع عمل دؤوب للإسلام على مختلف الجبهات والمجالات المختلفة.

٢ ـ غزارة علمه، وسعة معارفه واطلاعه على شتى العلوم والمعارف التي كانت معروفة في عصره، مما جعله مقصداً لطلبة العلم الراغبين في أن ينهلوا من هذه الينابيع الغزيرة من العلوم المختلفة، مما أعطاه قدرة عالية في جذب طلبة العلم إليه، مع ما أوتيه من فصاحة لسان، وقدره بيانية عالية.

٣ ـ كثرة تنقلاته بين مصر والشام مما كان له أكبر الأثر في استفادة الكثيرين من علومه، حيثما نزل أو ارتحل، لا يحول بينهم

---

(١) الرد الوافر: ص ٢٣١، الشهادة الزكية، الكرمي: ص ٧٤.

وبين الاستفادة من علومه حائل، حتى أخذوا عليه في المعتقلات حيث سجن رحمه الله تعالى.

٤ ـ إلقاؤه الدروس العامة التي اكسبته علاقات اجتماعية كبيرة، مع شرائح واسعة في المجتمع الدمشقي أو القاهري، واكتسب من خلال جرأته في قول كلمة الحق فيها مهابة واحتراماً عند العامة والخاصة، فكان له من المحبين في كل طبقات المجتمع، وفي ذلك يقول ابن الوردي رحمه الله:

«... له محبون من العلماء والصلحاء والجند، والأمراء، والتجار، والكبراء، وسائر العامة تحبه...»(١).

ويضاف إلى ذلك الدروس الخاصة التي كان يلقيها على خاصة تلاميذه، والتي من خلالها برزت مداركه وقدراته الهائلة في العلم والمعارف.

٥ ـ احترامه ومحبته لتلاميذه، وبذله العلم لهم مع تلمسه حاجاتهم وقدراتهم وحسن تعامله مع هذه القدرات والكفاءات تهذيباً، وتنمية، وتعميقاً، مما رزق هؤلاء التلاميذ كثيراً من الثقة بالنفس، وجرأة في قول الحق والدفاع عنه، مهما كانت العوائق التي تعوق ذلك.

---

(١) شيخ الإسلام عند المؤرخين: المنجد: ص ٢٠.

○ **ثبت بأسماء أشهر تلاميذه رحمه الله:**

التلاميذ صحيفة من الشيخ ـ كما يقولون ـ ويكفي شيخ الإسلام رحمه الله فخراً تلاميذه، فهم أئمة أعلام، مُذكون أخيار، مشهود لهم بالفضل والتقى والعلم، منهجهم التحقيق والتدقيق.

وليس باستطاعتنا معرفة كل الذين سمعوا من ابن تيمية رحمه الله، وتتلمذوا على يديه، لأنه رحمه الله. انخرط في سلك العلم والعلماء منذ سن مبكرة، وعمل بالتدريس والإفتاء وهو في الحادية والعشرين. واستمر كذلك حتى بلغ السابعة والستين حين توفي رحمه الله.

وسأذكر فيما يلي أسماء أشهر تلاميذه رحمه الله تعالى:

١ ـ الفقيه الحنبلي، المجتهد المطلق، المفسر، النحوي، الأصولي شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي، ثم الدمشقي الشهير بابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى. صاحب التصانيف النافعة، التي انتفع بها الموافق والمخالف المتوفى سنة ٧٥١هـ[(١)].

٢ ـ الشيخ الإمام، الحافظ، مؤرخ الإسلام، ناقد المحدثين، وإمام المعدلين والمجرحين شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان التركماني الذهبي، الدمشقي المتوفى سنة ٧٤٨هـ، عالم

(١) انظر ترجمته: البداية: ١٤/ ٢٤٦ـ ٢٤٧، شذرات: ٦/ ١٦٨ـ ١٧٠، وغيرها.

التاريخ الموسوعي، وصاحب كتاب تاريخ الإسلام، وسير أعلام النبلاء، وميزان الاعتدال وغيرها[1].

٣ ـ الإمام الأوحد، المحدث الحافظ، الحاذق، الفقيه، المؤرخ، المقرئ النحوي، ذو الفنون، شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن قدامة المقدسي الحنبلي، صاحب الصارم المنكي، والعقود الدرية، والأجزاء المفيدة في الحديث، المتوفى سنة ٧٤٤هـ[2].

٤ ـ الإمام العالم الزاهد، الورع، المحدث، العمدة، الحجة، محدث العصر، الحافظ الكبير جمال الدين يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف المزي القضاعي الحلبي الدمشقي الشافعي إمام المحدثين، صاحب كتاب تهذيب الكمال في أسماء الرجال، المتوفى سنة ٧٤٢هـ[3].

٥ ـ الإمام، الحافظ، المؤرخ، المفسر، الفقيه أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي الشافعي، صاحب التفسير، والبداية والنهاية في التاريخ، المتوفى سنة ٧٧٤هـ[4].

---

(١) البداية: ١٤/ ١٩٤، شذرات: ٦/ ١٥٣ـ ١٥٧، وغيرها.

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ٤٣٦، البداية: ١٤/ ٢٢١ـ ٢٢٢، وغيرها.

(٣) تذكرة الحفاظ: ٤/ ١٤٩٨، البداية: ١٤/ ١٩١، شذرات: ٦/ ١٣٦.

(٤) شذرات: ٦/ ٢٣١ـ ٢٣٢، الدرر الكامنة: ١/ ٣٩٩ـ ٤٠٠ ترجمة ٩٤٤، وغيرها.

٦ ـ الفقيه، الأصولي، المحدث، نائب قاضي القضاة، محمد بن مفلح بن محمد المقدسي، الراميني، الدمشقي شمس الدين أبو عبد الله الحنبلي المتوفى سنة ٧٦٣هـ[1].

٧ ـ الإمام الحافظ المؤرخ علم الدين القاسم بن محمد بن يوسف بن محمد بن يوسف البرزالي الإشبيلي الأصل، الدمشقي الشافعي، صاحب التاريخ، والمعجم، والمؤلفات المختلفة الكثيرة المتوفى سنة ٧٣٩هـ[2].

٨ ـ الإمام الحافظ الفقيه العالم الأديب البارع فتح الدين أبو الفتح محمد بن أبي عمر محمد بن أبي بكر بن سيد الناس اليعمري الأندلسي الإشبيلي، ثم المصري الشافعي المتوفى سنة ٧٣٤هـ[3].

٩ ـ القاضي، الفقيه، العالم، الإمام شرف الدين أبو العباس، أحمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي عمر محمد بن أحمد بن قدامة الحنبلي، شيخ الحنابل، المقدسي الأصل، ثم الدمشقي، المشهور بابن قاضي الجبل، المتوفى سنة ٧٧١هـ رحمه الله تعالى[4].

---

(١) البداية: ١٤/ ٢٥٢، شذرات: ٦/ ١٩٩ـ ٢٠٠، الدرر: ٤/ ٢٦١.
(٢) البداية: ١٤/ ١٩٦، الأعلام: ٥/ ١٨٢، معجم الشيوخ: ٢/ ١١٥.
(٣) الرد الوافر: ٥٨ـ ٦٠.
(٤) الرد الوافر: ١٣٢، شذرات: ٦/ ٢١٩ـ ٢٢٠، الدرر الكامنة: ١/ ١٢٩ ترجمة ٣٣٤.

١٠ ـ الشيخ العالم الفاضل المحدث البارع الأصيل شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن أبي العباس أحمد بن عبد الدائم المتوفى سنة ٧٧٥هـ[١].

١١ ـ الشيخ الإمام المحدث المفيد أمين الدين جمال المحدثين محمد بن الشيخ المسند أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن أحمد بن أحمد بن الواني المؤذن المتوفى سنة ٧٣٥هـ[٢].

١٢ ـ الشيخ الصالح العالم المسند الكبير شمس الدين محمد بن إبراهيم بن محمد بن أبي بكر بن إبراهيم بن يعقوب بن إلياس الأنصاري الخزرجي ابن إمام الصخرة البيساني الدمشقي المقدسي المتوفى سنة ٧٦٢هـ[٣].

١٣ ـ الشيخ العالم الفقيه العابد الناسك، شرف الدين أبو عبد الله محمد بن الشيخ سعد الدين أبي محمد سعد الله بن عبد الأحد بن سعد الله بن عبد القاهر بن عبد الواحد الحراني ابن نجيح المتوفى سنة ٧٢٣هـ.

أذن له الشيخ تقي الدين بالإفتاء، وكان من جملة ملازميه[٤].

---

(١) الرد الوافر: ص ٦١ـ ٦٢.

(٢) الرد الوافر: ص ٧٤ـ ٧٦.

(٣) الإنس الجليل: ٢/ ١٥٨، الرد الوافر: ٨٠ـ ٨١.

(٤) الرد الوافر: ص ٩٠.

١٤ ـ الشيخ العالم الفاضل المحدث المفيد الرحال، جمال المحصلين، ناصر الدين، أبو المعالي محمد بن طغريل بن عبد الله الخوارزمي ابن الصيرفي المتصوف المتوفى سنة ٧٣٣هـ.

سمع من الشيخ ابن تيمية في مجلس يوم الجمعة الثاني عشر من رمضان سنة ٧١٧هـ بمشهد عثمان بجامع دمشق[(١)].

١٥ ـ الشيخ الإمام الزاهد العابد العلاَّمة النبيل، المحدث الأصيل، الحافظ الكبير، عمدة الحفاظ، شيخ المحدثين شمس الدين أبو بكر محمد بن عبد الله بن أحمد بن المحب عبد الله السعدي، المقدسي، ثم الصالحي، الحنبلي، الشهير بالصامت المتوفى سنة ٧٨٨هـ من أجل شيوخه ابن تيمية رحمه الله[(٢)].

ومن كبار أصحابه ومحبيه:

الشيخ الإمام الفقيه الصالح، مفتي المسلمين، علم المدرسين، شرف الدين أبو عبد الله محمد بن أبي البركات المنجا وابن العز أبي عمر وعثمان بن وجيه الدين التنوخي المغربي الأصل، ثم الدمشقي، المتوفى سنة ٧٢٤هـ.

---

(١) الرد الوافر: ٩١ـ ٩٢.

(٢) الرد الوافر: ٩٥ـ ٩٦.

كان من خواص أصحاب الشيخ تقي الدين بن تيمية وملازميه حضراً وسفراً.

هؤلاء بعض أشهر تلاميذه الذين تلقوا العلم على يديه، وأصابوا من غزارة علومه حظ وافر. ولا شك أن مما يلفت الانتباه أن هؤلاء التلاميذ كانوا من نوعيه خاصة ممتازة، انتجوا أمهات المراجع الإسلامية التي انتفع بها الخاص والعام، والموافق والمخالف، مما يوضح لنا قوة تأثير شيخ الإسلام في هؤلاء التلاميذ، وغزارة علومه رحمه الله تعالى.

الفصل الرابع

ابــن تيميــة
أخــلاق وسجايــا

إن صفات شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى الخُلُقية كثيرة، دلت في مجملها على ما كان يتمتع به من أجمل الخصال، وأنبل المزايا، لأنها ثمرات الإيمان الراسخ، فكلما قوي الإيمان وترسخت دعائمه، واستولى على القلب وتمكن منه، وملأه بنوره، ازدادت أخلاق صاحبه واتسعت، وغطت قطاعاً واسعاً من جوانب الحياة.

فقد انتهت إليه رحمه الله الإمامة في كثير من هذه الأخلاق، ووصل فيها إلى غاية المنتهى مما جعل علماء عصره يبدون إعجابهم الشديد بما وصل إليه ابن تيمية رحمه الله تعالى من سمو الأخلاق، ونبل الخصال والمزايا.

حيث قال فيه الحافظ ابن الزملكاني رحمه الله:

مــاذا يــقــول الــواصــفــون لــه
وصــفــاتــه جــلــت عــن الــحــصــر

هو حجة لله قاهرة
هو بيننا أعجوبة الدهر
هو آية للخلق ظاهرة
أنوارها أربت على الفجر»[1]

وقال الحافظ الذهبي رحمه الله:

«نشأ ـ يعني الشيخ تقي الدين ـ رحمه الله في تصوُّنٍ تام، وعفاف وتأله وتعبد، واقتصاد في الملبس والمأكل».

وقال رحمه الله أيضاً:

«انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل، والزهد والورع، والشجاعة والكرم، والتواضع والحلم، والأناة والجلالة والمهابة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع الصدق والأمانة، والعفة والصيانة، وحسن المقصد، والإخلاص والابتهال إلى الله تعالى، وشدة الخوف منه، ودوام المراقبة له. والتمسك بالأثر، والدعاء إلى الله تعالى، وحسن الأخلاق، ونفع الخلق والإحسان إليهم.

وكان رحمه الله تعالى ـ سيفاً مسلولاً على المخالفين، وشجا في حلوق أهل الأهواء والمبتدعين، وإماماً قائماً ببيان الحق ونصرة الدين، طنت بذكره الأمصار، وضنت بمثله الأعصار»[2].

---

(١) العقود الدرية: ص ٩، الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٢.

(٢) العقود الدرية: ص ٤ـ٧، فوات الوفيات: ص ٥٨ منجد.

وقال فيه الشيخ مجير الدين أحمد بن الحسن بن محمد الخياط رحمه الله:

مـا كـانَ إلاّ مُـزْنَ عـلـم رُوِّضَـتْ
مـنـه بِـصَـيِّـبِ قَـطـرِهِ الأَقـطـارُ

كـالـغـيـثِ أَقـلـع بَـعـدَ سَـحٍ غَـيـمـهُ
وتـخـلَّـفَـتْ مِـنْ بَـعـدِهِ الآثـارُ

مـا كـانَ إلاّ طـودَ عـلـمٍ بـاذخٍ
مِـنْ دونِ وَزن حـصـاتِـهِ الـقـنـطـارُ

مـا كـانَ إلاّ بـحـرَ جـودٍ، كَـفُّـهُ
تـيـارُهُ بـنـوالِـهِ زَخّـارُ

مـا كـانَ إلاّ ديـمـةٌ مـعـروفُـهـا
بـهـبـاتِـهِ لـصـفـاتِـهِ مـدرارُ

مـا كـان إلاّ الـبـدرَ عـنـدَ كـمـالِـهِ
وافـاهُ مِـنْ نـقـصِ الـتـمـامِ سِـرارُ

مـا كـانَ إلاّ خـيـر أُمّـةِ أحـمـدٍ
فـي الـعـصْـرِ لَـمْ تـسـمـحْ بِـهِ الأعـصـارُ

حـبرٌ، وبـحـرٌ لـلـمـكـارمِ، والـتـقـى
والـجـودِ، والإحـسـانِ فـيـهِ بـحـارُ

وسأذكر في هذا الفصل بعض أخلاق شيخ الإسلام رحمه الله تعالى موضحاً لهذه الأخلاق من خلال أحداث حياته، مكتفياً بهذه الأحداث دون تعليق في كثير من الأحيان.

١ ـ قوة إيمانه:

قد رزق شيخ الإسلام من رسوخ الإيمان في قلبه شيء يعجز عن وصفه الواصفون، وما مواقفه الجريئة في الحق إلا نتاجاً لما كان يعمر قلبه من إيمان بالله عزّ وجلّ.

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية رحمه الله:

«سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله رُوحه يقول:

في الدنيا جَنَّةً ـ يعني بها: جَنةَ الإيمان بالله وبما جاء به سيدنا رسول الله ـ من لم يدخلها ـ أي يتصف بها في الدنيا ـ لا يدخُل جنةَ الآخرة.

وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري ـ يعني بذلك: إيمانه وعلمه ـ، أين رُحتُ فهي معي لا تفارقني، إنّ حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي سياحة.

وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلتُ ملء هذه القلعة ذَهباً ما عَادَلَ عندي شكرَ هذه النعمة، أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللهم أَعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، ما شاء الله، وقال لي مرة: «المحبوس من حُبسَ قلبه عن رَبِّه تعالى، والمأَسورُ من أَسَرَه هواه».

ولما دخل القلعة وصار داخل سورها، نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]. وَعَلِمَ الله ما رأيتُ أَحداً أطيبَ عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخِلاف الرفاهية والنعيم، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأَسرَّهم نفساً، تلوحُ نضرة النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض، أتيناه، فما هو إلا أن نراه، ونسمع كلامه، فيذهب عنا ذلك كله، وينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً، وطمأنينة.

فسبحان من أشهدَ عبادة جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فأتاهم من روْحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قُواهم لطلبها والمسابقة إليها.

وسمعته قدس الله تعالى روحه يقول: الذكرُ للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حالُ السمك إذا فارق الماء؟.

وحضرته مرة: صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إليَّ وقال: هذه غدوتي ولم أَتغدَّ، ولو لم أتغد ـ هذا ـ الغداء سقطت قوتي، أو كلاماً قريباً من هذا.

وقال لي مرة: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحتها، لأستعد بتلك الراحة لذكرٍ آخر، أو كلاماً هذا معناه»[1].

ثم قال الشيخ الإمام ابن القيم: وهو يعدد فوائد الذكر:

والحادية و الستون من فوائد الذكر؛ أنه يُعطي الذاكر قوة، حتى إنه ليفعلُ مع الذكر ما لم يُظنَّ فعله بدونه.

وقد شاهدتُ من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية في سَنَنِه، وكلامِه، وإقدامه، وكتابتِهِ: أمراً عجيباً، فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخُ في جُمعة أو أكثر، وقد شاهَدَ العسكرُ في الحرب أمراً عظيماً»[2].

وفي محنته رحمه الله ظهر منه من عظمة الإيمان، ورسوخ الاعتقاد في القلب شيئاً عجيباً:

يقول خادمه إبراهيم بن أحمد:

فلما كان بعد صلاة العصر وقفت أبكي، فقال لي الشيخ: لا تبك، ما بقيت هذه المحنة تبطىء، فقلت له: أفتح لك في المصحف؟ فقال: افتح، فطلع قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٧ ـ ١٢٨].

---

(١) الوابل: ص ٦٩ـ ٧٠، الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ٤٠٢ـ٤٠٣، العلماء العزاب: ١٧٦ـ١٠٨.

(٢) الوابل الصيب.

قال: افتح في موضع آخر، فطلع قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠] إلى آخرها.

فقال: افتح آخره، فطلع قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح: ٢٩] إلى آخرها.

فلما صلينا المغرب بقي يدعو بدعاء الكرب، وأنزل الله عليه من النور والبهاء والحال شيئاً عظيماً كأن وجهه شمع يجلوه مثل العروس»(١).

٢ ـ الإخلاص في طلب الحق، والتخلص من أدران الهوى:

كان الإخلاص ولا زال مناط قبول العبد عند ربه تعالى، والينبوع الثر المعطاء الذي لا ينضب، والأصل الأصيل لكل عمل من أعمال الخير، بل والقاعدة المتينة لسائر الأعمال والأقوال.

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«.. ومعلوم أن الإيمان كله: تقوى الله، وتفصيل أصول التقوى وفروعها لا يحتمله هذا الموضع، فإنها الدين كله.

---

(١) ناحية من حياة شيخ الإسلام: ص ٣١.

لكن ينبوع الخير وأصله: إخلاص العبد لربه: عبادة، واستعانة، كما في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وفي قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وفي قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وفي قوله: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [العنكبوت: ٢٩] بحيث يقطع العبدُ تعلق قلبه من المخلوقين، انتفاعاً بهم، أو عملاً لأجلهم، ويجعل همته ربه ـ تعالى ـ وذلك بملازمة الدعاء له في كل مطلوب من: فاقة، وحاجة، ومخافة، وغير ذلك، والعمل له بكل محبوب، ومَن أحكم هذا، فلا يمكن أن يوصف ما يعقبه ذلك»[١].

ولا شك أن ابن تيمية رحمه الله تعالى قد رزق حظاً كبيراً، ونصيباً وافراً من الإخلاص، فقد أخلص في طلب الحقيقة فأدركها، وأخلص في نصرة الحق في هذا الدين فلم يقبضه إليه حتى ترك دوياً في عصره. وتناقلته الأجيال من بعده، وكل من يقرؤه يلمس نور الحقيقة ساطعاً مما يقرأ، وإشراق الإخلاص منيراً للقارىء، ويتأثر القارىء بما يقرأ، لأنه يجد حرارة الإيمان بينة قوية لا تحتاج إلى كشف«[٢].

ولقد أحس بإخلاصه وأدركه من عايشه من محبيه، ولم يستطع خصومه إلا أن يتكلموا مثنين عليه في هذا، ومنصفين له

---

(١) الوصية الصغرى: ص ٤٤.

(٢) ابن تيمية لأبي زهرة: ص ١٠٠.

لأَنَّ طبيعة العالم العارف بالله تأبى عليه إلا أن ينصف في شهادته حتى لو كانت في حق خصم له يختلف معه اختلافاً كبيراً في كثير من القضايا.

فهذا العلاَّمة السبكي رحمه الله تعالى يقول في رسالته التي بعث بها إلى الحافظ الذهبي رحمه الله، مثنياً على ابن تيمية رحمه الله ومقراً بفضله وعلمه:

«.. والمملوك يقول ذلك دائماً، وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجل، مع ما جمعه الله له من الزهادة، والورع، والديانة، ونصرة الحق، والقيام فيه لا لغرض سؤاه، وجريه على سنن السلف، وأخذه من ذلك المأخذ الأوفى، وغرابة مثله في هذا الزمان بل من أزمان»[1].

والإخلاص يقذف في قلب المخلص بنور الحقيقة ويجعله يدرك الأمور إدراكاً مستقيماً لا عوج فيه، ولا يأتي هذا الإخلاص إلا من قوة علاقة بالله تعالى، ومن كان في عصر ابن تيمية مثله في قوة علاقته بربه، وإخلاصه التوجه إليه سبحانه، والحافظ ابن كثير رحمه الله يقول فيه:

«لم أر مثله في ابتهالاته، واستعانته بالله، وكثرة توجهه إليه»[2].

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٢، العلماء العزاب: ص ١٧٥.

(٢) البداية والنهاية:

وقد جاء عن ابن تيمية رحمه الله أنه قال:

«ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير ثم أسأل الله تعالى. الفهم، وأقول: يا معلم إبراهيم علمني، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها، وأمرغ وجهي في التراب وأقول: يا معلم إبراهيم فهمني»[1].

ولم يكن هذا الإخلاص في حياته مغطياً لفترة معينة منها، وإنما غطى حياته كلها، وقد ذكر الإمام الشيخ أبو زهرة رحمه الله وأحسن إليه:.

إن إخلاصه تجلى في أمور أربعة أظلت حياته كلها، فما كان يخلو منها دور من أدوار حياته، مما جعلنا نؤمن بأن هذا العالم الجليل عاش دهره كله مخلصاً لله العلي العليم، ولدينه الكريم.

أولها: أنه كان يجابه العلماء بما يوحيه فكره، يعلنه بين الناس بعد طول الفحص والدراسة، خصوصاً ما يكون مخالفاً لما جرى عليه مألوف الناس، وما عرف بينهم فإذا أدركه وعلم وجه الحق فيه جهر به، لا يهمه رضي الناس أو سخطوا، لأنه لا يرجو إلا ما عند الله، وإذا دُعيَّ إلى المناظرة لم يجمجم ولم يتلكأ، لا يدهن القول لأحد، ولا يحاول إرضاء أحد.

والأمر الثاني: الذي كان يظهر فيه إخلاصه وتفانيه في

(١) العقود الدرية: ٢٦.

الحق، جهاده في سبيله ولو بالسيف، كما حصل في حربه للتتار، والنصيرية، وتحمله البلاء والتضييق على حريته في سبيل إعلان رأيه، حين رفض إلا أن يجهر برأيه الذي وصل إليه بالرغم من المراسيم السلطانية التي أصدرت لمنعه من الجهر برأيه، مما اضطر السلطان إلى تقييد كلمته بالسجن في القلعة بدمشق، ليموت رحمه الله سجيناً لإخلاصه الذي دفعه إلى المجاهرة بالحق، وسجل بهذا ابتعاده عن الغرض والهوى في آرائه.

(**الأمر الثالث**): الذي بدا فيه إخلاصه، وتبرؤه من الأغراض والهوى والمحاسدة والمباغضة، عفوه عمن أساؤوا إليه ما داموا مخلصين طلاب حق، وإن أخطأوا، حين عفا عن العلماء الذين أرادوا قتله، وسجنه، وقد مكنه السلطان من رقابهم، ومسامحته لكل من آذوه حين سجن في دمشق وأخذت منه كتبه، والتماسه المعذرة لهم وقوله: «أحللت كل مسلم من إيذائه لي».

(**الأمر الرابع**): زهده في المناصب التي عرضت عليه، فلم يطلب منصباً، ولم يتول منصباً، ولم ينازع أحداً في رياسة، رغم أنه عرض عليه مشيخة الشيوخ، وقضاء القضاه، ورفضه ذلك رحمه الله كما ذكر ذلك ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة[1].

---

(١) ابن تيمية لأبي زهرة: ١٠٠- ١٠٢ بتصرف، الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٠.

وكم أنجاه إخلاصه هذا من كيد دبر له، أو بلاء أعد له بالخفاء، ومصيبة قد دبرها أعداؤه ليلحقوها به، وفي ذلك يقول الذهبي رحمه الله:

«وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة، فينجيه الله تعالى، فإنه دائم الابتهال، كثير الاستعانة قوي التوكل، ثابت الجأش، له أوراد وأذكار يديمها»[1].

٣ ـ ورعه وزهده وفراغه عن الدنيا وأسبابها:

إن العالم إذا كان زاهداً في الدنيا، والمنافسة على المناصب فيها، يكون محل أنظار الناس وموضع عنايتهم لأنهم يحسون فيه أنه بعيد عن الحرص والهوى النفسي وحريص على حاجات الناس وما ينفعهم، فيزدادون محبة له.

وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كان من الزهاد الذين ضربت بهم الأمثال، بل كان شديد الزهد، فلم يجمع من الدنيا إلا القليل، وإذا عرضت عليه أعرض عنها.

قال الحافظ الذهبي رحمه الله:

«كان من بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين، والزهاد والأفراد، والشجعان الكبار، والكرماء الأجواد، أثنى عليه الموافق

(١) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٤.

والمخالف»[1].

وكان في الورع لا يجارى، إليه تنتهي الإمامة في الورع في عصره، وكل من رآه أو لازمه كان يدرك أنه لا يجارى في الزهد والورع، وها هم أهل عصره يثنون عليه ثناءً شديداً في هذا الباب:

يقول العلامة صفي الدين البخاري رحمه الله:

«أما ورعه: فان من الغاية التي ينتهى إليها في الورع، فما خالط الناس في بيع ولا شراء ولا معاملة ولا تجارة، ولا كان ناظراً أو مباشراً لوقف، ولم يقبل سنة لنفسه من سلطان ولا أمير ولا تاجر، ولا ادخر ديناراً ولا درهماً ولا غيرهما، ولا زاحم في طلب الرياسات، ولا رُئي ساعياً في تحصيل المباحات، مع أن الملوك والأمراء، والكبراء كانوا طوع أمره، خاضعين لقوله»[2].

ويقول الحافظ أبو حفص البزار رحمه الله:

«ولقد اتفق كل من رآه خصوصاً من أطال ملازمته، أنه ما رأى مثله في زهده في الدنيا، حتى لقد صار ذلك مشهوراً، بحيث قد استقر في قلب القريب والبعيد من كل من سمع بصفاته على وجهها، بل لو سئل عامي من أهل بلد بعيد من الشيخ من كان أزهد أهل هذا العصر، وأكملهم في رفض فضول الدنيا،

---

(١) تذكرة الحفاظ: ص ١٤٩٦.

(٢) الكواكب الدرية ص ١٥٦ـ ١٥٧.

وأحرصهم على طلب الآخرة؟ لقال: ما سمعت بمثل ابن تيمية»[1].

وأما عن فراغه عن الدنيا وأسبابها. وعدم اهتمامه بأمورها، وتقلله من متاعها، وعدم حرصه على ملذاتها، فقد ذُكر عنه في هذا الباب شيئاً عجيباً، فمن ذلك ما قاله الحافظ الذهبي رحمه الله:

«ما رأيت في العالم أكرم منه، ولا أَفرغ منه عن الدينار والدرهم، لا يذكره، ولا أَظنه يدور في ذهنه.. ولا له من المعلوم إلا شيء قليل، وأخوه يقوم بمصالحه، ولا يطلب منهم غداءً ولا عشاءً في غالب الوقت، وهو فقير لا مال له، وملبوسه كآحاد الفقهاء: فرجية ودلق، وعمامة تكون قيمة ثلاثين درهماً، ومداس ضعيف الثمن، وشعره مقصوص»[2].

وقال الشيخ زين الدين الواسطي رحمه الله وقد أقام مع الشيخ مدة:

«وكنت أسأله أَن يزيد على أَكلة فلا يفعل، حتى إني كنت في نفسي أتوجع له من قلة أكله..»[3].

ويقول الصلاح الصفدي رحمه الله:

«... لا يؤثر على الاشتغال ـ أي تحصيل العلم ـ لذة، ولا يؤثر أن تضيع منه لحظة في البطالة فذة، يذهل عن الطعام،

---

(١) الأعلام العلية: ص ٤٤ـ ٤٥.

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٦، تاريخ ابن الوردي: ٢/ ٤١٣.

(٣) الأعلام العلية: ص ٤٨.

ويغيب في لذة العلم عن حسه، لا يطلب أكلاً إلا إذا حضر لديه، ولا يرتاح إلى طعام أو شراب في أبرديه ـ أي في الغداة والعشي..»[1].

ومن تلك الأحداث التي تدل على زهده وورعه، وفراغه عن الدنيا وأسبابها:

○ إجابته للسلطان محمد بن قلاوون حين أخبره أنه قد حُدث أن شيخ الإسلام يطمع في السلطنة:

«قال له السلطان محمد بن قلاوون رحمه الله: إنني أُخبرتُ أنك قد أطاعك الناس، وأن في نفسك أخذ الملك.

فلم يكترث به، بل قال له بنفس مطمئنة، وقلب ثابت، وصوتٍ عالٍ سمعه كثير ممن حضر:

أنا أفعل ذلك!! والله إن مُلكك ومُلك المُغْل لا يساوي عندي فِلْسَيْن»[2].

○ ومن ذلك أسلوب تربيته لتلاميذه في عدم الإكثار من المباح:

«قال ابن القيم رحمه الله: قال لي يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ في شيء من المباح:

---

(١) الوافي بالوفيات: ٧/ ٢٢ عن المنجد: ٥٠ـ ٥١.

(٢) الأعلام العلية: ص ٧٤.

هذا ينافي المراتب العالية، وإن لم يكن تركه شرطاً في النجاة»[1].

○ **ومن صور فراغه عن ملاذ النفس: من اللباس الجميل والمأكل الطيب والراحة الدنيوية:**

«أن والدته طبخت يوماً قرعيّة ولم تذقها أولاً، وكانت مرة، فلما ذاقتها تركتها على حالها، فطلع إليها وقال: هل عندك ما آكل؟.

قالت: لا، إلا أنني طبختُ قرعاً كان مُراً.

فقال: أين هو؟ فأرته المكان الذي فيه تلك القرعية فأحضرها وقعد أكلها إلى أن شبع، وما أَنكر شيئاً منها»[2].

وخلاصة الأمر في هذا أن شيخ الإسلام جرى على طريقة واحدة من اختيار الفقر، والتقلل من الدنيا، ورد ما يفتح به عليه، هذا مع الانقطاع إلى الزهد والعبادة، والاشتغال بالله تعالى، والتجرد من أسباب الدنيا»[3].

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٢٦.
(٢) الوافي بالوفيات للصفدي: عن المنجد: ص ٢٧.
(٣) الرد الوافر: ص ٩٥، العقود الدرية: ص ١٣.

٤ ـ كثرة عبادته وابتهاله وتعظيمه لحرمات الله:

لقد شهد المعاصرون والمطلعون على أحوال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بأنه كان له القدح المعلى من الاجتهاد في العبادة، وكثرة الابتهال والاستعانة بالله، وتعظيمه لحرمات الله، مما جعله يندمج مع هذه العبادة إلى حد لم يكن أحد من أصحابه والمقربين منه يجرؤ على إشغاله عنها، أو أن يقطعه عن هذا الاندماج.

وفي ذلك يقول الحافظ الذهبي رحمه الله:

«... إنه دائم الابتهال، كثير الاستغاثة والاستعانة به، قوي التوكل، ثابت الجأش، له أوراد وأذكار يُدمنُها»(١).

وقال أيضاً:

«ولم أرَ مثله في ابتهالاته، واستعانته بالله وكثرة توجهه»(٢).

وقال أيضاً:

«... كان في ليله منفرداً عن الناس كلهم، خالياً بربه عزّ وجلّ، ضارعاً إليه، مواظباً على تلاوة القرآن، مكرراً لأنواع التعبد الليلية والنهارية، وكان إذا دخل في الصلاة ترتعد فرائصه وأعضاؤه حتى يميل يمنة ويسرة»(٣).

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٤، الدرية اليتيمية: عن العلماء والعزاب: ص ١٦٩.

(٢) الوافي بالوفيات: ٧/ ١٧، الدرر الكامنة: ١/ ١٥٤، الكواكب الدرية: ص ١٤٥.

(٣) الكواكب الدرية: ص ١٥٦.

وقال الحافظ ابن عبد الهادي رحمه الله:

«... ولم يزل على ذلك خلفاً صالحاً سلفياً متألهاً عن الدنيا، صَيِّناً تقياً، براً بأمه، ورعاً عفيفاً، عابداً ناسكاً، صواماً قواماً، ذاكراً لله تعالى في كل أمر وعلى كل حال، رجَّاعاً إلى الله تعالى في سائر الأحوال والقضايا، وقافاً عند حدود الله تعالى وأوامره ونواهيه، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر بالمعروف، لا تكاد نفسه تشبع من العلم، فلا تروى من المطالعة ولا تمل من الاشتغال، ولا تكلُّ من البحث، وقلَّ أَن يدخل في علم من العلوم من باب من أبوابه إلاّ ويفتح له من ذلك الباب أبواب، ويستدرك مستدركات في ذلك العلم على حُذَّاق أهله، مقصوده الكتاب والسُّنّة»[١].

ويقول الحافظ عمر بن علي البزار رحمه الله:

«أما تعبده رضي الله عنه، فإنه قَلَّ أن سُمع بمثله، لأنه كان قد قطع جُلَّ وقته وزمانه فيه، حتى أنّه لم يجعل لنفسه شاغِلة تشغله عن الله تعالى، ما يُرادُ له لا من أهل ولا من مال»[٢].

وقال أيضاً:

«.. وكان قد عُرفت عادته لا يكلِّمه أحدٌ بغير ضرورة بعد صلاة الفجر، فلا يزال في الذكر يُسمع نفسه، وربما يَسمَعُ ذِكْرَه من إلى

(١) العقود الدرية: ص ٥.

(٢) الأعلام العلية: ص ٣٦.

جانبه، مع كونه في خلال ذلكَ يُكثر من تقليب بصره نحو السماء، هكذا دأبه حتى ترتفع الشمس ويزول وقتَ النهي عن الصلاة»[1].

○ **نماذج من عباداته وابتهالاته:**

لقد تعددت النماذج وكثرت في حياته رحمه الله تعالى، فمن ذلك:

ما ذكره عنه ابن القيم رحمه الله في مجالس ذكره حيث قال:

«.. وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ مرة، صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إليّ وقال هذه غدوتي، ولو لم أَتغد الغداء سقطت قوتي..

وقال لي مرة: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر»[2].

ـ ومن ذلك كثرة استغفاره ليفتح عليه في فهم المسائل العلمية:

«قال رحمه الله: إنه ليقف خاطري في المسألة والشيء أو الحالة، فاستغفر الله تعالى ألف مرة، أو أكثر أو أقل، حتى ينشرح الصدر، وينحل إشكال ما أشكل.

---

(١) الأعلام العلية ص ٣٨.

(٢) الوابل الصيب: ص ٦٣.

قال: وأكون إذ ذاك في السوق أو المسجد أو الدرب أو المدرسة، لا يمنعني ذلك من الذكر والاستغفار إلى أن أنال مطلوبي»[1].

ويقول رحمه الله تعالى:

«ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثم اسأل الله الفهم، وأقول: يا معلم آدم وإبراهيم علمني، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها، وأُمَرِّغ وجهي في التراب وأسأل الله تعالى وأقول: يا معلم إبراهيم فهمني»[2].

ـ ومن ذلك أنه كان يعتبر كثرة توجهه وذكره لله، وتفكره فيما يرضيه سبيله للشفاء من مرضه:

«قال ابن القيم رحمه الله: وسمعت شيخنا أبا العباس بن تيمية يقول ـ وقد عرض له بعض الألم، فقال له الطبيب:

أضر ما عليك الكلام في العلم والفكر فيه والتوجه والذكر.

فقال: ـ ألستم تزعمون أن النفس إذا قويت وفرحت أوجب فرحها له قوة تعين بها الطبيعة على دفع العارض، فإنه عدوها، فإذا قويت عليه قهرته؟.

فقال الطبيب: بلى.

---

(١) العقود الدرية: ص ٦، الكواكب الدرية: ص ١٤٥.

(٢) العقود الدرية: ص ٢٦.

فقال: إذا اشتغلت نفسي بالتوجه والذكر والكلام في العلم، وظفرت بما يشكل عليها منه فرحت به وقويت، فأوجب ذلك دفع العارض»[1].

ـ أما شدة هيبته لله تعالى، فكان فيها على حالٍ عظيم، وهذا الحافظ البزار يصف حالته فيقول:

«... وكان إذا أحرم بالصلاة تكاد تنخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام، فإذا دخل في الصلاة ترتعد أعضاؤه حتى يُميله يمنةً ويُسرةً وكان إذا قرأ يمد قراءته مدّاً كما صح في قراءة رسول الله ﷺ، وكان ركوعه وسجوده وانتصابه عنهما، من أكمل ما ورد في صلاة الفرض، وكان يخفف جلوسَهُ للتشهد الأول خفّة شديدة، ويجهر بالتسليمة الأولى حتى يُسمعَ كلَّ من حضر»[2].

ـ ومن ذلك أنه كان يقدم بين يدي نجواه وتوجهه صدقه ليكون أوعى للقبول:

قال ابن القيم رحمه الله: «... وكان رحمه الله يتحرى التصدق بين يدي الصلاة والدعاء ما أمكنه، لأنه إذا استحبت الصدقة بين يدي مناجاة النبي ﷺ، فاستحبابها بين يدي مناجاة الله عند الصلوات والدعاء أولى»[3].

---

(١) مفتاح دار السعادة ٢/ ١٧٠ـ ١٧١.

(٢) الأعلام العلية: ٣٦ـ٣٧.

(٣) مفتاح دا رالسعادة: ٢/ ٣٨٧.

ـ ومن ذلك ما كان ينعم به شيخ الإسلام من نعمة فقر التذلل لخالقه، وعزة عبوديته لله سبحانه، والذي كان يبرز في مناجاته وتذلله رحمه الله:

يقول ابن القيم رحمه الله:

«ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ من ذلك أمراً لم أُشاهده من غيره، وكان يقول كثيراً؛ ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا فيَّ شيء.

وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المُكَدِّي وابن المكدِّي[1]
وهكذا كان أبي وجَدِّي

وكان إذا أثني عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً.

وبعث إليّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه، وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

أنا الفقيرُ إلى رب البرياتِ
أنا المُسَيْكينُ في مجموع حالاتي
أنا الظلومُ لنفسي وهي ظالمتي
والخيرُ إنْ يأتنا من عنده يأتي

---

(١) المُكَدِّي: الذي يلح في المسألة، وتمثله به رحمه الله دلالة على افتقاره إلى الله وإظهاراً لذله وانكساره له سبحانه وتعالى.

لا أَستطيعُ لنفسي جَلبَ منفعةٍ

ولا عن النفس لي دفع المضراتِ

وليس لي دونه مولى يُدبِّرني

ولا شفيع إذا حاطت خطيئاتي

إلا بإذنٍ من الرحمن خالقنا

إلى الشفيع كما قد جاء في الآياتي

ولستُ أملكُ شيئاً دونه أبداً

ولا شريك أنا في بعض ذرات

ولا ظهيرَ لهُ كي يستعينَ بهِ

كما يكون لأربابِ الولاياتِ

والفقرُ لي وصفُ ذاتٍ لازمٌ أبداً

كما الغنى أبداً وصف له ذاتي

وهذه الحالُ حالُ الخلقِ أجمعهم

وكلُّهم عندَه عبدٌ له آتي

فمنْ بغى مطلباً من غير خالقه

فهو الجهولُ الظلومُ المشركُ العاتي

والحمدُ للّهِ مِلء الكون أجمعهِ

ما كان منه وما من بعد قد يأتي

(ثم الصلاة على المختارِ من مُضَرِ
خيرُ البريةِ من ماضٍ ومن آتي)[1]

ـ برنامج قضاء الوقت عند شيخ الإسلام:

وأما عن برامج حياته اليومية، وأعماله المعتادة التي يقضيها في العبادة فقد ذكر معاصروه ومن عايشه منهم ولازمه ملازمة لصيقة، أقوالاً تدل بمجموعها على الكيفية التي كان شيخ الإسلام يرتب فيها حياته اليومية: «فهو قد قطع جل وقته وزمانه فيه، حتى أنه لم يجعل لنفسه شاغِلة تشغله عن الله تعالى، ما يُراد له لا من أهل ولا من مال.

وكان في ليله منفرداً عن الناس كلهم، خالياً بربه عزّ وجلّ، ضارعاً مواظباً على تلاوة القرآن العظيم، مكرراً لأنواع التعبدات الليلية والنهارية وكان إذا ذهب الليل وحضر مع الناس بدأ بصلاة الفجر يأتي بسنتها قبل إتيانه إليهم، وكان إذا أحرم بالصلاة تكاد تتخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيره الإحرام، فإذا دخل في الصلاة ترتعد أعضاؤه حتى يميله يمنةً ويُسرةً.

فإذا فرغ من الصلاة، أثنى على الله عزّ وجلّ، هو ومن حضر بما ورد في قوله: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام تباركت

---

(١) مدارج السالكين: (١/ ٥٧٨ـ ٥٧٩)، وما بين قوسين في الشعر زيادة من العقود الدرية (ص ٣٧٥).

يا ذا الجلال والإكرام، ثم يُقبل على الجماعة، ثم يأتي بالتهليلات الواردات حينئذٍ، ثم يسبح الله، ويحمده ويكبره ثلاثاً وثلاثين، ويختم المائة بالتهليل، وكذا الجماعة، ثم يدعو الله تعالى له ولهم وللمسلمين، يفتتحه ويختمه بالصلاة على النبي ﷺ، ثم يشرع في الذكر.

وكان إذا صلى الفجر يجلس في مكانه، حتى يتعالى النهار جداً، يقول: هذه غدوتي لو لم أَتغد هذه الغدوة سقطت قواي.

وكان قد عُرِفَتْ عادتُه لا يُكلِّمُه أَحدٌ بغير ضرورة بعد صلاة الفجر، فلا يزال في الذكر يُسمِعُ نفسه، وربما يَسمَعُ ذِكرَه من إلى جانبه، مع كونه في خلال ذلك يُكثر من تَقلِيب بصره نحو السماء، هكذا دأبه حتى ترتفع الشمس ويزول وقتُ النهي عن الصلاة.

ثم إنه كان يركع ـ أي يصلي الضحى ـ، فإذا أراد سماع حديث في مكان آخر، سارع إليه من فوره، مع مَنْ يصحبه.

وإذا رأى مُنكراً في طريقه أزاله، أو سمع بجنازة سارع إلى الصلاة عليها أو تأسف على فواتها، وربما ذهب إلى قبر صاحبها بعد فراغه من سماع الحديث، فصلى عليه.

ثم يعود إلى مسجده، فلا يزال تارة في إفتاء الناس، وتارةً في قضاء حوائجهم حتى يُصلي الظهر مع الجماعة، ثم كذلك بقية يومه.

وكان مجلسُه عاماً للكبير والصغير، والجليل، والحقير، والحر، والعبد، والذكر، والأُنثى، قد وسع على كل من يَردُ عليه من الناس، يرى كلٌ منهم في نفسه أن لم يُكرم أحداً بقدره.

ثم يصلي المغرب، ثم يتطوع بما يَسّرَه الله، ثم يُقرأ عليه من مؤلفاته، فيفيد بالطرائف، ويمد باللطائف، حتى يُصلّي العشاء، ثم بعدها كما كان من الإقبال على العلوم، إلى أن يذهب هويٌ من الليل طويل، وهو في خلال ذلك كله، في النهار والليل، لا يزال يذكرُ الله تعالى، ويوحدُه ويستغفره، وكان رضي الله عنه كثيراً ما يرفعُ طرفَه إلى السماء، لا يكاد يفتر من ذلك، كأنه يرى شيئاً يثبته بنظره، فكان هذا دأبه وديدنه رحمه الله تعالى»[1].

٥ ـ تواضعه وحلمه وعفوه عن الآخرين وصفحه:

إن التواضع وهضم النفس من خصائص رجال الله الخاصة، وهو المنصب الأعلى في الدين، أفضل من ألف فضيلة وألف كرامة، ولا يبلغ الإنسان هذه المنزلة، إلا أن تموت الأنانية، ويتزكى قلبه من جميع الشوائب والعلائق، وقد كان شيخ الإسلام متحلياً بهذه الفضيلة الكبرى على فضائله العلمية، وسموه الديني،

(١) الكواكب الدرية: ص ١٥٦، الوابل الصيب: ص ٦٣، الأعلام العلية: ٣٦ـ ٤٠.

وأقوال من عاصروه، وما جاء عنه رحمه الله، تشهد بما كان يتصف به من التواضع والربانية وهضم النفس[1].

قال الحافظ الذهبي رحمه الله:

«انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل، والزهد والورع، والشجاعة والكرم، والتواضع والحلم، والأناة والجلالة والمهابة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع الصدق والأمانة، والعفة والصيانة...»[2].

وقال رحمه الله:

«وملبوسه كآحاد الفقهاء، فَرجية ودَلَق، وعمامة تكون قيمة ثلاثين درهماً ومداس ضعيف الثمن، وشعره مقصوص»[3].

وقال الحافظ البزار رحمه الله:

«وأما تواضعه فما رأيت ولا سمعتُ بأحد من أهل عصره مثله في ذلك، كان يتواضع للكبير والصغير، والجليل والحقير، والغني الصالح والفقير، وكان يُدْني الفقير الصالح ويُكرمه ويؤنسه ويباسطه بحديثه المستحلى، زيادة على مثله من الأغنياء، حتى أَنه ربما خدمه بنفسه، وأعانه بحَمْل حاجته، جَبْراً لقَلْبه، وتقرباً بذلك إلى ربه.

---

(١) الحافظ أحمد بن تيمية للندوي: ص ١٦٤.

(٢) العقود الدرية: ص ٩، الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٢.

(٣) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٦.

وكان لا يسأمُ ممن يستفتيه أو يسأله، بل يُقبل عليه ببشاشة وجه ولين عريكة، ويقفُ معه حتى يكون هو الذي يفارقه، كبيراً كان أو صغيراً، رجلاً أو امرأةً، حراً أو عبداً، عالماً أو عامياً، حاضراً أو بادياً، ولا يجبهه ولا يُحرجهُ ولا يُنَفِّرُهُ بكلام يوحشه، بل يجيبه ويفهِّمُهُ ويُعَرِّفُه الخطأ من الصواب بلطف وانبساط.

وكان يلزم التواضع في حضوره مع الناس ومغيبه عنهم، في قيامه وقعوده، ومشيه ومجلسه، ومجلس غيره»[1].

وقال أيضاً:

«كان رضي الله عنه متوسطاً في لباسه وهيئته، لا يلبس فاخر الثياب بحيثُ يُرمق ويمد النظر إليه، ولا أطماراً، ولا غليظةً تُشهر حال لابسها ويُميَّزُ من عامة الناس بصفةٍ خاصة يراه الناسُ فيها من عالم وعابد، بل كان لباسه وهيئته كغالب الناس ومتوسطهم، ولم يكن يلزم نوعاً واحداً من اللباس فلا يلبَسُ غيره بل كان يلبس ما اتفق وحصل، ويأكل ما حضر، وكانت بذاذة الإيمان عليه ظاهرة، لا يُرى متصنعاً في عِمامة ولا لباس ولا مشية، ولا قيام ولا جلوس، ولا يتهيأ لأحد يلقاه، ولا لمن يَرِدُ عليه من بلد»[2].

---

(١) الأعلام العلية: ٥٠ ـ ٥١.

(٢) الأعلام العلية: ٥٣.

ومن أحواله وأقواله رحمه الله تعالى والتي تدل على هذا الخلق أنه كان لا يرى لنفسه على أحد حقاً، ولا يطالب بشيء، ولا يعاتب أحداً ولا ينتقم لنفسه في أي حال.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى:

«سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول:

العارف لا يرى له على أحد حقاً، ولا يشهد على غيره فضلاً، ولذلك لا يعاتب ولا يطالب ولا يضارب»[1].

وأما حاله مع أعدائه وخصومه فعجيبة:

قال ابن القيم رحمه الله:

وما رأيته يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم.

وجئت يوماً مبشراً له بموت أكبر أعدائه، وأشدهم عداوة وأذى له، فنهرني وتنكر لي واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزاهم، وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه»[2].

وها هو يتحسر على وفاة الشيخ العلاَّمة ذو الفنون صدر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن مكي الشافعي العثماني المعروف بابن المرحل، وبابن الوكيل رحمه الله تعالى والذي كان

(١) مدارج السالكين: ١/ ٤٩٦.

(٢) مدارج السالكين: ٢/ ٣٤٥.

يعد في خصوم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، بل كان من ألد خصومه ومنافسيه:

يقول ابن العماد الحنبلي في ترجمة ابن المرحل رحمهم الله جميعاً:

«.. ولما بلغت وفاته ابن تيمية قال: أحسن الله عزاء المسلمين فيك يا صدر الدين»[1].

ومن ذلك عفوه وتسامحه وصفحه عن خصومه حين قدر عليهم، وحكمه السلطان في أمرهم:

«يقول ابن القلانسي: أن ابن تيمية حدثه قال:

إن السلطان استفتاه في قتل بعض القضاة بسبب ما كانوا تكلموا فيه، وأخرج فتاوي بعضهم بعزله من الملك ومبايعة الجاشنكير وأنهم قاموا عليك وآذوك أنت أيضاً، وأخذ يحثه بذلك على أن يفتيه في قتل بعضهم.

ففهمت قصده بذلك، فأخذت في تعظيم أولئك العلماء والقضاة، وأُنكر أن ينال أحداً منهم بسوء، وقال له:

إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم.

فقال: إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مراراً.

---

(١) شذرات الذهب: ٦/ ٤٢.

فقلت له: من آذاني فهو في حل، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه، وأنا لا أنتصر لنفسي، وما زلت به حتى حلم عنهم السلطان وصفح.

ويقول ابن كثير:

«كان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول: ما رأينا مثل ابن تيمية، حرضنا عليه فلم نقدر عليه، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا»[(١)].

٦ ـ ثباته وجرأته في قول الحق، وعدم مداهنته:

كان رحمه الله تعالى ذا شخصية قوية، ونفس لا تهاب الصعاب، فقد كان يقف أمام السلاطين والظلمة ينصحهم ويخوفهم، ويحذرهم برباطة جأش يهابه كل من حضر، لا يخاف في الله لومة لائم.

ولقد كان يتمتع برباطة الجأش، ورسوخ الجنان، ويقف صلباً راسخاً لا يتزعزع عند الخطوب التي يتزلزل عندها أقوياء الرجال، قوي القلب منشرح الصدر، مسرور النفس.

يقول ابن القيم رحمه الله:

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ٥٤، العقود الدرية: ٢٨٢ـ ٢٨٣.

«وعلم الله، ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق.

وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسرهم نفساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه فما هو إلا أن نراه، ونسمع كلامه، فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبواباً في دار العمل، فأتاهم من روحها ونسيمها، وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها»[(١)].

ويقول خادمه إبراهيم بن أحمد الغياني رحمه الله:

«... ثم بعد أيام جاء عند الشيخ ـ يعني ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ شمس الدين بن سعد الدين الحراني، وأخبره أنهم يسفرونه إلى الإسكندرية، وجاءت المشايخ التدامرة[(٢)] وأخبروه بذلك، وقالوا له: كل هذا يعملون حتى توافقهم، وهم عاملون على قتلك أو نفيك أو حبسك.

---

(١) الوابل الصيب: ص ٦٩ـ ٧٠، ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٤٠٢ـ٤٠٣.

(٢) التدامرة: نسبة إلى تدمر في الشام.

فقال لهم: «أنا إن قتلت كانت لي الشهادة، وإن نفوني كانت لي هجرة، ولو نفوني إلى قبرص لدعوت أهلها إلى الله وأجابوني، وإن حبسوني كان لي معبداً وأنا مثل الغنمة كيفما تقلبت، تقلبت على صوف».

فيئسوا منه وانصرفوا.. ثم ذكر أنه لما ركب مع نائب السلطان متوجهاً إلى الإسكندرية فقال له إنسان: «يا سيدي هذا مقام الصبر».

فقال له: بل هذا مقام الحمد والشكر، والله إنه نازل على قلبي من الفرح والسرور شيء لو قسم على أهل الشام ومصر لفضل عنهم، ولو أن معي في هذا الموضع ذهباً وأنفقته ما أديت عشر هذه النعمة التي أنا فيها»[١].

ويقول الذهبي رحمه الله:

«.. وكان قَوَّالاً بالحق، نَهَّاءً عن المنكر، لا تأخذه في الله لومه لائم، ذا سطوة وإقدام، وعدم مداراة..»[٢].

ومن تلك المواقف الجريئة في الصدع والجهر به دون أن يهاب ولا يخاف إلا الله، موقف حثه السلطان الناصر على القدوم إلى الشام ومجابهة التتار.

---

(١) ناحية من حياة شيخ الإسلام لإبراهيم بن أحمد الغياني: ص ٣٠ـ ٣٢.

(٢) ثلاث تراجم نفيسة من كتاب ذيل تاريخ الإسلام ص ٢٣.

«... فقد سافر الشيخ مرة على البريد إلى الديار المصرية يستنفر السلطان عند مجيء التتار سنة من السنين، وتلا عليه آيات الجهاد، وقال:

إن تخليتم عن الشام ونصرة أهله، والذب عنهم، فإن الله تعالى يقيم لهم من ينصرهم غيركم، ويستبدل بكم سواكم، وتلا قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨] وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٩] وبلغ ذلك الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد ـ وكان هو القاضي حينئذٍ ـ فاستحسن ذلك، وأعجبه هذا الاستنباط، وتعجب من مواجهة الشيخ للسلطان بمثل هذا الكلام»(١).

ومن تلك المواقف الجريئة في الجهر بالحق، ما جابه به السلطان الناصر محمد بن قلاوون حين رد عليه في قوله أنه يطمع في الملك:

فقد وشي بالشيخ إلى السلطان الناصر، فأحضره بين يديه، ومن جملة ما قال له الناصر: أُخبرت أنك أطاعك الناس، وأن في

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٦، البداية: ١٤/ ١٥، شذرات: ٥/ ٤٥٥.

نفسك أخذ المُلك. فرد عليه بنفس مطمئنة، وقلب ثابت، وبصوت عالٍ سمعه كثير ممن حضر: أنا أفعل ذلك؟ والله إن ملكك وملك المُغْل لا يساوي عندي فلسين.

فتبسم السلطان لذلك، وأجابه في مقابلته بما أوقع الله له في قلبه من الهيبة العظيمة: إنك والله لصادق، وإن الذي وشى بك إليّ كاذب»[1].

ومن تلك المواقف الجريئة، ما قابل به السلطان الناصر رحمه الله في أمر أهل الذمة، وخوف الكثير من الفقهاء عن قول كلمة الحق في أمرهم:

«ثم إن الوزير أنهى إلى السلطان أن أهل الذمة قد بذلوا للديوان في كل سنة سبعمائة ألف درهم، زيادة على الحالية، على أن يعودوا إلى لبس العمائم البيضاء، المعلمة بالحمرة والصفرة والزرقة، وأن يُعْفَوا من هذه العمائم المصَبَّغة كلها بهذه الألوان، التي ألزمهم بها ركن الدين الجاشنكير. فقال السلطان للقضاة ومن هناك: ما تقولون»؟

فسكت الناس وكان فيهم قضاة مصر والشام وكبار العلماء منهما ومنهم ابن الزملكاني.

فلما رآهم الشيخ تقي الدين سكتوا جثا على ركبتيه، وشرع

(١) الأعلام العلية ص: ٧٢.

يتكلم مع السلطان في ذلك بكلام غليظ، ويردُّ ما عرضه الوزير عنهم رداً عنيفاً، والسلطان يسكته بترفق وتؤدة وتوقير.

فبالغ الشيخ في الكلام، وقال ما لا يستطيع أحداً أن يقوم بمثله، ولا بقريب منه، حتى رجع السلطان عن ذلك، وألزمهم بما هم عليه، واستمروا على هذه الصفة.

فهذه من حسنات الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله ورضي الله عنه آمين»[1].

ومن عباراته التي قالها للسلطان في أثناء حديثه:

«حاشاك أن يكون أول مجلس جلسته في أُبهة الملك تنصر فيه أهل الذمة لأجل حطام الدنيا الفاني، فاذكر نعمة الله عليك إذ ردَّ مُلكك إليكَ، وكبت عدوك، ونصرك على أعدائك، والذي فعله الجاشنكير كان من مراسيمك، لأنه إنما كان نائباً لك»[2].

ومن ذلك ما واجه به قطلوبك المنصوري الكبير أحد كبار مماليك السلطان الناصر، والذي كان ظالماً متعدياً لا يدفع لأحد ثمن ما يشتريه منه إلا بعسر وحيل، فجاء أحد التجار فشكى لشيخ الإسلام ابن تيمية ظلمه وجبروته وأكله لحقه وقد جاء في ذلك.

---

(١) العقود الدرية: ص ٢٨١، البداية والنهاية: ١٤/ ٥٤.

(٢) البداية والنهاية: ١٤/ ٥٤.

«.. أن ابن تيمية دخل عليه مع تاجر يشفع له في قضاء حقه.

فقال له قطلوبك: إذا رأيت الأمير بباب الفقير فنعم الأمير ونعم الفقير، وإذا رأيت الفقير بباب الأمير، فبئس الأمير وبئس الفقير ـ أنا الذي أريدُ أجيء إليك لأنك رجل زاهد ـ.

فقال له ابن تيمية: ـ قطلوبك! لا تعمل علي دركواناتك ـ كان فرعون أنحس منك، وموسى خيراً مني، وكان يأتي إلى بابه كل يوم ـ مرات ـ يأمره بالإيمان، وأنا آمرك أن تدفع لهذا حقه.

فلم يسعه إلا امتثال أمره، ووفى الرجل حقه»[(١)].

ومن أعظم تلك المواقف الجريئة: موقفه العظيم من «قازان» سلطان التتار ـ مع ما اشتهر به ذلك السلطان من الجبروت والتسلط والظلم وسفك الدماء، فقد جاءه مع مجموعة من أهل العلم وجابهه بكلام شديد، كان له وقع السحر في قلب قازان مما جعله يلبي للشيخ مطالبه التي جاء من أجلها وسأذكر هذه القصة مفصلة في موطن آخر حين نتحدث عن مواقفه العامة وجهاده رحمه الله تعالى[(٢)].

---

(١) الدرر الكامنة: ٣/ ٣٣٧ـ٣٣٨، الوافي بالوفيات للصفدي: ٧/ ١٦، فوات الوفيات: ١/ ٧٦.

(٢) البداية والنهاية: ١٤/ ٧.

٧ ـ موضوعيته وإنصافه:

إن العدل والإنصاف من لوازم الإيمان ومقتضياته، وبه قامت السموات والأرض، وهو نظام كل شيء، وأساس المجتمعات الإنسانية، وهو مما اتفق أهل الأرض على مدحه وصحته، والثناء على أهله والحث على صحبتهم، وبه أمرنا رب العزة والجلال، وحثنا على التعامل به مع القريب والبعيد، والعدو والصديق.

ولقد كان هذا الخلق من الأخلاق الكريمة التي تحلى بها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ونال منه خطأً وافراً، ونصيباً كبيراً، ومما يدل على عظم هذا الخلق في قلب شيخ الإسلام رحمه الله ما جاء عنه من أقوال:

قال رحمه الله تعالى:

«والله قد أمرنا ألا نقول إلا الحق، وألا نقول عليه إلا بعلم، وأمرنا بالعدل والقسط، فلا يجوز لنا إذا قال يهودي أو نصراني ـ فضلاً عن الروافض ـ قولاً فيه حق أن نتركه، بل لا نرد ما فيه من باطل دون ما فيه من الحق».

وقال رحمه الله تعالى:

«وليس مما أمر الله به رسوله، ومما يرتضيه عاقل أن نقابل الحجج القوية بالمعاندة والجحد، بل قول الصدق والتزام العقل لازم عند جميع العقلاء، وأهل الإسلام أحق بذلك من غيرهم، إذ

هم ـ ولله الحمد ـ أكمل الناس عقولاً، وأتمهم إدراكاً، وأصحهم ديناً، وأشرفهم كتاباً، وأفضلهم نبياً، وأحسنهم شريعة».

وعن منهجه في التعامل مع أهل العلم والفضل بعد جيل الصحابة رضوان الله عليهم قال رحمه الله:

«ومعلوم أننا إذا تكلمنا فيمن هو دون الصحابة، مثل الملوك المختلفين على الملك، والعلماء والمشايخ المختلفين في العلم والدين، وجب أن يكون الكلام بعلمٍ وعدلٍ، لا بظلم وجهل، وإن العدل واجب كل أحد، وعلى كل أحد في كل حال، والظلم محرمٌ مطلقاً لا يباح بحال قط، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟﴾ [المائدة: ٨]، وهذه الآية نزلت بسبب بغضهم للكفار، وهو بغض مأمور به، فإذا كان البغض الذي أمر الله به قد نهى صاحبه أن يظلم من أبغضه، فكيف بمن يبغض مسلماً بتأويل وشبهة أو بهوى النفس؟ فهو أحق أن لا يظلم، بل يعدل عليه»(١).

وعند الحديث عن نفسه في أسلوب تعامله مع مخالفيه وخصومه قال رحمه الله:

«هذا وأنا في سعة صدر لمن يخالفني، فإنه وإن تعدى حدود الله فيَّ بتكفير، أو تفسيق، أو افتراء أو عصبية جاهلية: فأنا لا أتعدى حدود الله فيه، بل أضبط ما أقوله، وأفعله، وأزنه بميزان

---

(١) منهاج السُّنَّة النبوية: ٥/ ١٢٦.

العدل، وأجعله مؤتماً بالكتاب الذي أنزله الله، وجعله هدى للناس، حاكماً فيما اختلفوا فيه، قال الله تعالى:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وذلك أنك ما جزيت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم﴾ [النحل: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠][(١)].

وعن مواقف الإنصاف التي تعامل بها رحمه الله، والتي كانت ضمن هذا الخلق الكريم الذي تخلق به:

○ **موقفه من الصوفية:**

يقول رحمه الله تعالى:

---

(١) مجموع الفتاوى: ٣/ ٢٤٥.

«فطائفة ذمت الصوفية والتصوف، وقالوا أنهم مبتدعون خارجون عن السُّنَّة، ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف، وتبعهم في ذلك طائفة من أهل الفقه والكلام.

وطائفة غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق، وأكملهم بعد الأنبياء، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم.

والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطىء، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب، ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاصٍ لربه.

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم، كالحلاج مثلاً وإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه وأخرجوه عن الطريق، مثل الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره، كما ذكر ذلك أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية، وذكره الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخ بغداد»[1].

---

(١) مجموع الفتاوى: ١١/ ١٧.

ـ ومن ذلك أيضاً كلامه في العلماء بإنصاف بذكر حسناتهم إلى جانب ما يراه من سيئات، ففي معرض حديثه عن الحنابلة رحمهم الله:

قال رحمه الله: «وسنتكلم على هذا بما ييسره الله، متحرين للكلام بعلم وعدل»[1].

وكلامه في الفرق وتشعب المذاهب على الرغم من كرهه لها، فهو لا يقبل من كلامها إلا ما وافق السُّنَّة، وما جاءت به الآيات الكريمات، ويذكر حسناتها وآراءها الصحيحة بقوله رحمه الله:

«وكذلك متكلمة أهل الإثبات، مثل الكلابية والكرامية والأشعرية إنما قُبلوا وأُتبعوا واستُحمِدوا إلى عموم الأمة بما أثبتوه من أصول الإيمان من إثبات الصانع وصفاته، وإثبات النبوة، والرد على الكفار من المشركين وأهل الكتاب وبيان تناقض حججهم، وكذلك استُحمِدوا بما ردوه على الجهمية والمعتزلة والرافضة والقدرية من أنواع المقالات التي يخالفون فيها أهل السُّنَّة والجماعة، فحسناتهم نوعان: إما موافقة أهل السُّنَّة والحديث، وإما الرد على من خالف السُّنَّة والحديث ببيان تناقض حججهم»[2].

---

(١) نقض المنطق: ص ١٣٦.

(٢) نقض المنطق: ص ١٠ ـ ١١.

- ومن ذلك مدحه لصلاح الدين الأيوبي رحمه الله ووصفه له بأنه من ملوك أهل السُّنَّة مع أنه أشعري. ومخالف لشيخ الإسلام رحمه الله:

فقال رحمه الله: «ولما قدم أبو عمرو عثمان بن مرزوق إلى ديار مصر وكان ملوكها في ذلك الزمان مظهرين للتشيع، وكانوا باطنية ملاحدة، وكان بسبب ذلك قد كثرت البدع وظهرت بالديار المصرية، أمر أصحابه أن لا يصلوا إلا خلف من يعرفونه لأجل ذلك، ثم بعد موته فتحها ملوك السُّنّة مثل صلاح الدين وظهرت فيها كلمة السُّنّة المخالفة للرافضة، ثم صار العلم والسُّنّة يكثر بها ويظهر»[1].

- ومن ذلك قوله الذي قاله للسلطان الناصر رحمه الله حين أراد قتل العلماء الذين خالفوه وتسببوا في سجنه رحمه الله، فأنصفهم وتعامل معهم بعدل وعلم بعيداً عن الهوى الشخصي حيث قال للسلطان:

«إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم، وقد أثر ذلك في قاضي المالكية ابن مخلوف رحمه الله فقال:

ما رأينا مثل ابن تيمية، حرضنا عليه فلم نقدر عليه، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا»[2].

---

(١) مجموع الفتاوى: ٣/ ٢٨١.

(٢) البداية والنهاية: ١٤/ ٥٤، العقود الدرية: ص ٢٨٢_٢٨٣.

ـ وقد كان في حكمه على المبتدعة باختلاف مللهم ضمن ما اقتضته الشريعة، وما يؤيده الواقع الماثل للعيان بعيداً عن الأهواء الشخصية، فكان يعطي كل ذي حق حقه، ولهذا نراه يعترف بفضلهم ومحاسنهم في قوله:

«والرافضة فيهم من هو متعبد متورع زاهد، ولكن ليس في كل مثل غيرهم من أهل الأهواء.

فالمعتزلة أعقل فهماً وأعلم وأدين، والكذب والفجور فيهم أقل منه في الرافضة، والزيدية من الشيعة خير منهم وأقرب إلى الصدق والعدل والعلم، وليس في أهل الأهواء أصدق ولا أدين من الخوارج في هذا، فأهل السنّة يسمعون فيهم العدل والإنصاف ولا يظلمونهم، فإن الظلم حرم مطلقاً كما تقدم، بل أهل السنّة لكل طائفة من هؤلاء خير من بعضهم البعض، بل هم للرافضة خير وأعدل من بعض الرافضة لبعض».

ـ وها هو يذكر الإمام الغزالي رحمه الله وينصفه بقوله:

«وهذا أبو حامد الغزالي ـ مع فرط ذكائه وتألهه ومعرفته بالكلام والفلسفة وسلوكه طريق الزهد والرياضة والتصوف ـ ينتهي في هذه المسائل إلى الوقف والحيرة ويحيل في آخر أمره على طريقة أهل الكشف، وإن كان بعد ذلك رجع إلى طريقة أهل الحديث، وصنف «إلجام العوام عن علم الكلام»[١].

---

(١) نقض المنطق: ص ٦٠.

وكثيرة هي مواقفه المنصفة بحق مخالفيه، وتعامله معهم بعلم وعدل، لا يمنعه مخالفته لهم أن يستفيد من جوانب الحق والصواب الموجودة عندهم، وأن يستشهد بها في مصنفاته ومؤلفاته، وأن يدعم بها ما جاء به من الحق.

٨ ـ شجاعته المفرطة مع قوة الصبر والاحتمال:

لقد نال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى من خلق الشجاعة والصمود أمام الموت، وما ينزل من المصائب والبلاء حظاً وافراً جعله مثار دهشة معاصريه من أهل العلم، وقادة الجيش المملوكي وضباطه، فإن ما تمتع به من رباطة جأش، وثبات قلب، أمام خطر التتار الذي داهم المسلمين في عصره، فأذهل قادتهم وعامتهم، جعل منه موطن القدوة في الشجاعة، فإليه كان العامة يلجأون ليبعث الثبات في قلوبهم، ويصبرهم ويشجعهم على مجابهة الأخطار.

وقد وصفه معاصروه رحمهم الله تعالى بأوصاف تبعث على الدهشة من هذا الخلق العظيم الذي كان يتمتع به، في وقت شاع فيه الخوف وسيطر على قلوب الكثيرين من أهل العلم والسياسة في عصره.

يقول الإمام الذهبي رحمه الله فيه:

«... هذا مع ما كان عليه من الكرم الذي لم أُشاهد مثله

قط، والشجاعة المفرطة التي يضرب بها المثل..»[١].

وقال رحمه الله أيضاً.

«... وأما شجاعته فبها تضرب الأمثال، وببعضها يتشبه أكابر الأبطال»[٢].

وقال أيضاً:

«... كان من بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين، والزهاد الأفراد، والشجعان الكبار، والكرماء الأجواد..»[٣].

وقال الحافظ سراج الدين رحمه الله:

«وكان إذا ركب الخيل يجول في العدو كأعظم الشجعان، ويقوم كأثبت الفرسان وينكى العدو من كثرة الفتك بهم ويخوض بهم خوض رجل لا يخاف الموت»[٤].

وقال الحافظ الصفدي رحمه الله:

«هذا إلى كرم يضحك البرق منه على غمامه، وشجاعة يفر منها قسورة، وإقدام يتأخر عنه عنترة، دخل على محمود غازان وعلمه بكلام فيه غلظة وقوة، وأسمعه مقالاً لا تحمله الأبوة من البنوة»[٥].

---

(١) ثلاث تراجم نفيسة من ذيل تاريخ الإسلام: ص ٢٣.

(٢) العقود الدرية: ص ١١٨.

(٣) تذكرة الحفاظ: ص ١٤٩٦.

(٤) الكواكب الدرية: ص ١٦١.

(٥) أحيان العصر: عن المنجد ص: ٥١.

- ومن مواقفه الشجاعة التي تعد في حياته شامة مميزة، وعلامة متميزة، موقفه في مجابهة قازان سلطان التتار بكلام شديد أثر في نفسه، فلبى مطالب شيخ الإسلام كاملة، ويصف ابن فضل الله العمري رحمه الله تعالى ذلك الموقف بقوله:

«... جلس الشيخ إلى السلطان محمود غازان حيث تجم الأُسْدُ في آجامها، وتسقط القلوب دواخل أجسامها، وتجد النار فتوراً في ضرمها، والسيوف فرقاً في قرمها، خوفاً من ذلك السبع المغتال، والنمرود المحتال، والأجل الذي لا يُدفع بحيلة محتال، فجلس إليه، وأوما بيده إلى صدره، وواجهه ودرأ في نحره، وطلب منه الدعاء فرفع يديه ودعا دعاء منصف أكثره عليه، وغازان يُؤَمِّنُ على دعائه»[1].

وأما عن شجاعته في الميدان، والتي فاق فيها على سائر أقرانه، بل وبرز فيها على الشجعان المعروفين في زمانه الذين امتهنوا القتال وصاروا سادته وجنده».

«قال أحد أمراء الشام: قال لي الشيخ - يوم اللقاء، ونحن بمرج الصفر، وقد تراءى الجمعان -: يا فلان، أوقفني موقف الموت.

قال: فسقته إلى مقابلة العدو، وهم منحدرون كالسيل، تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم.

---

(١) تاريخ ابن الوردي: ٢/ ٤١١، انظر المنجد: ص ٢١.

ثم قلت له: يا سيدي، هذا موقف الموت، وهذا العدو قد أقبل تحت هذه الغبرة المنعقدة، فدونك وما تريد.

قال: فرفع طرفه إلى السماء، وأشخص بصره، وحرك شفتيه طويلاً، ثم انبعث وأقدم على القتال، وأما أنا، فخيل إليّ أنه دعا عليهم، وأن دعاءه استجيب منه في تلك الساعة.

قال: ثم حال القتال بيننا والالتحام، وما عدت رأيته حتى فتح الله ونصر، وانحاز التتار إلى جبل صغير، عصموا نفوسهم به من سيوف المسلمين تلك الساعة وكان آخر النهار.

قال: وإذا أنا بالشيخ وأخيه يصيحان بأعلى صوتيهما، تحريضاً على القتال، وتخويفاً للناس من الفرار.

فقلت: يا سيدي، لك البشارة بالنصر، فإنه قد فتح الله ونصر، وها هم التتار محصورون بهذا السفح، وفي غد - إن شاء الله تعالى - يؤخذون عن آخرهم.

قال: فحمد الله تعالى، وأثنى عليه بما هو أهله، ودعا لي في ذلك الموطن دعاءً وجدت بركته في ذلك الوقت وبعده»[1].

وقد كان لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الأثر الكبير في حسن الإعداد لمعركة مرج الصفر (شقحب)، حيث أسهم إسهاماً كبيراً في إعداد المتطوعين، وحض أمراء المسلمين وملوكهم على الجهاد وصد هجمات التتار، وكان له الدور الكبير في حض

---

(١) العقود الدرية: ص ١٧٨.

السلطان الناصر على القتال، ولم يقف عند التحريض فقط، وإنما أسهم بسيفه وماله ونفسه في هذه المعركة.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى:

«... وذلك أنه ندبه العسكر الشامي أن يسير إلى السلطان يستحثه على السير إلى دمشق، فسار إليه، فحثه على المجيء إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر، فجاء هو وإياه جميعاً، فسأله السلطان أن يقف معه في معركة القتال، فقال له الشيخ:

السُّنّة أن يقف الرجل تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم، وحرض السلطان على القتال، وبشّره بالنصر، وجعل يحلف بالله الذي لا إله إلاّ هو إنكم منصورون عليهم في هذه المرة.

فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً. وأفتى الناس بالفطر مدة قتالهم، وأفطر هو أيضاً، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده، ليعلمهم أن إفطارهم ليتقووا على القتال أفضل، فيأكل الناس، وكان يتأول في الشاميين قوله ﷺ: «إنكم ملاقوا العدو غداً، والفطر أقوى لكم». فعزم عليهم في الفطر عام الفتح، كما في حديث أبي سعيد الخدري[1].

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ٢٥ـ٢٦.

وقد كانت شجاعته وجرأته تبرز بوضوح وجلاء عندما كانت تنزل المصائب والمحن، فمن ذلك ما واجه به القضاة في عام ٧٠٧هـ:

«فقد صدر مرسوم السلطان بحبس ابن تيمية لنيله من الصوفية وكلامه في شأنهم، وطلب من القضاة والفقهاء الإفتاء في شأنه بالحبس، ولكن لم يجد الفقهاء للشريعة مأَخذاً عند الرجل حتى يفتوا في أمره بالحبس، وتحير أمرهم في ذلك، ولما وجد ابن تيمية الحيرة بادية على وجوهم تقدم بنفسه إلى الحبس قائلاً:

«أنا أمضي إلى الحبس وأتبع ما تقتضيه المصلحة»[(١)].

ولا شك أن هذا الموقف منه شجاعة بالغة، وأدب جم في التعامل مع الفقهاء والقضاة، فهو حين قال هذا وفعله فقد أراد بذلك أن يرفع الحرج عنهم. ويزيل الحيرة التي وقعوا فيها، ولذلك نرى فيه الإقدام والشجاعة والجرأة، ونجد التجرد من النزعة الشخصية حين قدم المصلحة العامة على مصلحته الشخصية.

هذه المواقف الشجاعة والجريئة التي ذكرت، وغيرها الكثير مما ورد وما سيرد في طيات فصول هذا الكتاب، ترسم لنا صورة واضحة عما كان يتمتع به شيخ الإسلام من شجاعة فائقة، وختاماً فهذا الحافظ أبو حفص البزار رحمه الله يذكر شيخ الإسلام بقوله:.

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ٤٤.

«كان رضي الله عنه، من أشجع الناس وأقواهم قلباً، ما رأيت أحداً أثبت جأشاً منه، ولا أعظم عناءً في جهاد العدو منه، كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده، ولا يخاف في الله لومه لائم»[1].

٩ ـ هيبته:

الهيبة منحة من الله سبحانه يمنحها لبعض خلقه فيكون في الشخص قوة روح وقوة شخص، وتنبعث منه قدرة على التأثير في نفوس سامعيه، ويكون لكلامه روعة، ولنظراته نفاذ إلى النفس، وقد يفقد الشخص حريته بين يديه من غير سلطان قاهر، ولا قوة مادية مجبرة ملزمة، بل الإلزام ينبعث من النفس. وقد آتى الله ابن تيمية تلك القوة الروحية، ولعل من أسبابها صفاته التي ذكرناها، ومقدرته التي بيناها، ولكن ليست هذه الصفات وحدها مكونة لها، بل لا بد من العطاء الإلهي، والمنحة الربانية، وأن قادة الأفكار الذين يوجهون الناس توجيهاً فكرياً يكونون ممن آتاهم الله تلك الموهبة، فيسيرون بها الناس طائعين مأخوذين بروعة القائد، مشدوهين بعظمة نفسه، فيلقون معه الحتوف راضين، ولله في خلقه شؤون.

ولقد كان يحس بهيبته مخالفوه من العلماء، فكانوا إذا

---

(١) الأعلام العلية: ص ٦٧.

أرادوا أمراً دبروه بليل، وبيتوه، ثم لم يلقوه بل يشكونه، ليتقوا لقاءه، وإن أصر السلطان أو من له الأمر على أن يلتقي بهم ويجادلوه فإن النتيجة ألا ينالوا منه شيئاً لقوة حجته، ولهيبته أيضاً»[1].

ـ ومن مظاهر هيبته ما كان يظهر على أخيه العالم الفاضل أبو الفرج زين الدين عبد الرحمن بن عبد الحليم ابن تيمية رحمه الله من تعظيم له ومهابة:

قال الحافظ أبو حفص البزار رحمه الله تعالى:

«... وما رأيت أحداً كان أشد تعظيماً للشيخ من أخيه هذا، أعني القائم بأوده، وكان يجلس بحضرته كأن على رأسه الطير، وكان يهابه كما يهاب سلطاناً، وكنا نعجب منه في ذلك ونقول:

من العرف والعادة أن أهل الرجل لا يحتشمونه كالأجانب، بل يكون انبساطهم معه فضلاً عن الأجنبي، ونحن نراك مع الشيخ كتلميذ مبالغ في احتشامه واحترامه.

فيقول: إني أرى منه أشياءً لا يراها غيري، أوجبت عليَّ أن أكون معه كما ترون»[2].

«ومن مظاهر هيبته أن الملوك والأمراء، والتجار والكبراء، كانوا طوع أمره، خاضعين لقوله وفعله، وادِّينَ أَن يتقربوا إلى قلبه

---

(١) ابن تيمية لمحمد أبو زهرة: ص ١٠٩ـ ١١٠.

(٢) الأعلام العلية: ص ٥٤ـ ٥٥.

مهما أمكنهم، مظهرين لإجلاله، أو أن يؤهل كلاً منهم في بذل ماله».

ومن ذلك أن السلطان غازان سلطان التتار لما ظهر على دمشق المحروسة جاءه ملك الكرج وبذل له أموالاً كثيرة جزيلة على أن يمكنه من الفتك بالمسلمين من أهل دمشق، ووصل الخبر إلى الشيخ، فقام من فوره وشجع المسلمين ورغبهم في الشهادة، ووعدهم على قيامهم بالنصر والظفر والأمن وزوال الخوف.

فانتدب منهم رجالٌ من وجوههم وكبرائهم وذوي الأحلام منهم، فخرجوا معه إلى حضرة السلطان غازان، فلما رآهم السلطان قال: من هؤلاء؟.

فقيل: هم رؤساء دمشق، فأذن لهم فحضروا بين يديه.

فتقدم الشيخ رضي الله عنه أولاً، فلما أن رآه أوقع الله له في قلبه هيبة عظيمة، حتى أدناه وأجلسه.

وأخذ الشيخ في الكلام معه أولاً في عكس رأيه عن تسليط المخزولِ ملك الكُرج على المسلمين، وضمن له أموالاً، وأخبره بحُرمة دماء المسلمين، وذكره ووعظه، فأجابه إلى ذلك طائعاً، وحُقنت بسببه دماء المسلمين، وحُمِيَتْ ذراريهم، وصين حريمهم»[1].

---

(١) الأعلام العلية: ص ٤٦، ٦٩.

١٠ ـ كرمه وجوده:

إن الإيثار أعلى مراتب الجود والكرم، وهو ضد الشح، فالمؤثِر على نفسه تاركٌ لما هو محتاجٌ إليه، والشحيح حريصٌ على ما ليس بيده، فإذا حصل بيده شيءٌ شح عليه، وبخل بإخراجه، فالبُخْلُ ثمرة الشح، والشحُّ يأمر بالبخل، كما قال النبي ﷺ: «إياكم والشح، فإنَّ الشحَّ أَهلكَ مَنْ كان قَبلكُم، أمرهم بالبُخلِ فبخلُوا، وأَمرهم بالقطيعةِ فقطعوا»[(١)].

فالبخيل من أجاب داعي الشح، والمؤثِرُ من أجاب داعي الجود، كذلك السخاءُ عما في أيدي الناس هو السخاء، وهو أفضلُ من سخاء البذل.

قال عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله ـ: سخاءُ النفس عما في أيدي الناس أفضل من «سخاء النفس بالبذل».

وهذا المنزلُ هو منزلُ الجود والسخاء والإحسان[(٢)].

وقد بلغ كرم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله منزلة كان يضرب بها المثل، ويتطلع للوصول إليها كرام الناس، وقد وصف مترجموه هذا الكرم وأجادوا في ذلك. وأثنوا على جوده وإنفاقه ثناءً ما عليه من مزيد.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: ١٦٩٨، والحاكم: ١/ ١١ وصححه ووافقه الذهبي من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وهو صحيح كما قالا.

(٢) تهذيب مدارج السالكين: ٢/ ٦٤١.

قال الحافظ ابن فضل الله العمري رحمه الله:

«كانت تأتيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة والأنعام والحرث، فيهب ذلك بأجمعه، ويضعه عند أهل الحاجة في موضعه، لا يأخذ منه شيئاً إلا ليهبه، ولا يحفظه إلا ليذهبه»[١].

وقال الصفدي رحمه الله:

«... هذا إلى كرم يضحك البرق منه في غمامه، وجودٍ ما صلح حاتم أن يكون في فص خاتمه..»[٢].

وقال الذهبي رحمه الله:

«... كان من بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين، والزهاد الأفراد، والشجعان الكبار، والكرماء الأجواد...»[٣].

وقال أيضاً رحمه الله:.

«... فكان لا يُشقُ فيه غباره، و يُلحقُ شأوه، هذا مع ما كان عليه من الكرم الذي لم أُشاهد مثله قطُّ، والشجاعة المفرطة التي يضرب بها المثل...» إلى أن قال: «.. وأنه بحر لا ساحل له، وكنز لا نظير له، وأن جُودَه حاتمي وشجاعته خالديه...»[٤].

---

(١) الكواكب الدرية: ص ١٥٨.

(٢) أعيان العصر: عن المنجد ص ٥١.

(٣) تذكرة الحفاظ: ص ١٤٩٦.

(٤) ثلاث تراجم نفيسة: ص ٢٣، ٢٥.

وقال الحافظ أبو حفص البزار رحمه الله:

«كان رضي الله عنه مجبولاً على الكرم، لا يتطبعه ولا يتصنعه، بل هو له سجيةٌ، وأنه ما شد على دينار ولا درهم قط، بل كان مهما قَدِرَ على شيء من ذلك يجود به كُلّه، وكان لا يردُّ من يسأله شيئاً يقدر عليه من دراهم ولا دنانير، ولا ثياب ولا كتب، ولا غير ذلك»(١).

ومن مواقف جوده وكرمه التي ذكرت عنه رحمه الله تعالى:

قال ابن القيم رحمه الله: «كان ـ رحمه الله ـ يتحرى التصدق بين يدي الصلاة والدعاء ما أمكنه، لأنه إذا استحبت الصدقة بين يدي مناجاة النبي ﷺ، فاستحبابها بين يدي مناجاة الله عند الصلوات والدعاء أولى»(٢).

ومن ذلك ما ذكره العالم الفاضل المقرىء أبو محمد عبد الله بن أحمد بن سعيد حيث قال: «كنت يوماً جالساً بحضرة شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه، فجاء إنسان فسلم عليه، فرآه الشيخ محتاجاً إلى ما يعتَمُّ به، فنزع الشيخ عمامته من غير أن يسأله الرجل ذلك فقطعها نصفين، واعتم بنصفها، ودفع النصف الآخر إلى ذلك الرجل، ولم يحتشم للحاضرين عنده»(٣).

---

(١) الأعلام العلية: ص ٦٣.

(٢) مفتاح دار السعادة: ٢/ ٣٧٨.

(٣) الأعلام العلية: ص ٦٣.

وقال الحافظ ابن فضل الله العمري: «كان يتصدق، حتى إذا لم يجد شيئاً نزع بعض ثيابه فيصل به الفقراء»[1].

ومن مواقف الإيثار والكرم المحرجة أن يعامل المرء أعداءه ومعارضيه، برحابة الصدر، بل بالعفو عنهم، والإحسان إليهم، وفوق ذلك بالدعاء والنصح، وهذا منصب خطير لا يناله إلا من تجاوز حدود الكبر والأنانية ونسي نفسه، وأنعم الله عليه بنعمائه، ورزقه من السكينة والسرور ما يذوب أمامه كل عداء ومعارضة فيجد قلبه عامراً بدافع النصح والرثاء لأعدائه، وقد تحلى شيخ الإسلام بذلك حين عفا عن العلماء الذين آذوه وتسببوا في سجنه، ولم يكتف بالعفو بل أثنى عليهم أمام السلطان، وشفع لهم ومنعه من قتلهم، فلم يتمالك القاضي ابن مخلوف المالكي الذي كان من أشد معارضيه إلا أن قال: «ما رأيت كريماً واسع الصدر مثل ابن تيمية فقد أثرنا الدولة ضده، ولكنه عفا عنا بعد المقدرة، حتى دافع عن أنفسنا وقام بحمايتنا».

فمكانة العفو والإحسان، والشفقة والرحمة مع الأعداء، أرفع وأسمى من مكانة الإيثار المالي والمادي بكثير، إنها مكانة لا يسعد بها إلا الأولياء والصديقون، وقد كان لابن تيمية قدم راسخة في هذه المكانة..»[2].

---

(١) الكواكب الدرية: ص ١٥٧.

(٢) ابن تيمية: للندوي: ص ١٦٢ـ١٦٣ بتصرف.

وحين ذكر الإمام ابن القيم مراتب الجود في مدارج السالكين ذكر منها:

«الرابعة: الجود بالعلم وبذله، وهو أعلى مراتب الجود، والجود به أفضل من الجود بالمال، لأن العلم أشرف من المال.

والناس في الجود به على مراتب متفاوته، وقد اقتضت حكمة الله وتقديره النافذ أن لا ينفع به بخيلاً أبداً.

ومن الجود به: أن تبذله لمن لم يسألك عنه، بل تطرحه عليه طرحاً.

ومن الجود بالعلم: أن السائل إذا سألك عن مسألة، استقصيت له جواباً شافياً، لا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا «نعم» أو «لا» مقتصراً عليها.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ في ذلك أمراً عجيباً.

كان إذا سئل عن مسألة حُكمية، ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة إذا قَدِرَ، ومأخذ الخلاف، وترجيح القول الراجح، وذكر متعلقات المسألة التي ربما تكون أنفع للسائل من مسألته، فيكون فرحه بتلك المتعلقات واللوازم: أعظم من فرحه بمسألته،

وهذه فتاويه ـ رحمه الله ـ بين الناس، فمن أحب الوقوف عليها رأى ذلك»[1].

١١ ـ قوه فراسته:

إن الذين يتولون إصلاح الجماهير يجب أن يكون لهم من قوة الفراسة، ونفاذ البصيرة ما يمكنهم من أن يدركوا خلجات القلوب من العيون، وحركات النفوس من غضون الوجوه، ليستطيعوا أن يخاطبوا الوجدان، ويصيبوا المشاعر بما يريدون، وقد أعطى الله شيخ الإسلام حظاً وافراً من الإدراك الروحي، والإحساس النفسي، ولذلك ما خطب جماعة إلا استرعى انتباهها، وأصاب مشاعرها بما يقول إلا من ركب العناد رأسه. وجمع به شماس نفسه، فإن منافذ الإدراك عنده تسد، فإن لم يصل القول الحق إليه فإن ذلك يكون من نقص فيه، لا من نقص القائل.

وقد كان لقوة عقله ـ رحمه الله ـ ونفاذ بصيرته، وحدة مداركه مع قوة الإحساس ينفذ نظره إلى قرارات النفوس فيدركها، وإلى بواطن الأمور فيكشفها، فكان الألمعي يظن الظن كأنه قد رأى وسمع، وبدت فراسته واضحة في كل أمر تولاه»[2].

---

(١) تهذيب مدارج السالكين: ٢/ ٦٤٤.

(٢) ابن تيمية لأبي زهرة: ص ١٠٦ـ١٠٧ بتصرف.

وقد شهد معاصروه، وتلاميذه ومحبوه، بوقائع عديدة حدثت كخرق للعادة والكرامة، واعترف بها المتأخرون، وقالوا لا يمكن إنكارها لكثرة ما عرفت ونقلت، يقول العلاَّمة بدر الدين العيني، صاحب عمدة القارىء شرح صحيح البخاري في تقريظ الرد الوافر:

«وهذا الإمام مع جلالة قدره في العلوم نقل عنه على لسان جم غفير من الناس كرامات ظهرت منه بلا التباس».

ونظراً إلى كل ذلك قال العلاَّمة علي بن سلطان محمد القاري الهروي المتوفى بمكة المكرمة سنة ١٠١٤هـ، في ـ كتابه المرقاة شرح المشكاة ـ[(١)].

«ومن طالع شرح منازل السائرين تبين له أنهما ـ يعني شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ـ كانا من أكابر أهل السُّنَّة والجماعة، ومن أولياء هذه الأمة»[(٢)].

ومن مظاهر فراسته رحمه الله تعالى ما ذكره الإمام ابن القيم رحمه الله حيث قال:

«ولقد شاهدتُ من فراسة شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أُموراً عجيبة وما لم أشاهده منها أعظم وأعظم، ووقائع فراسته تستدعي سِفراً ضخماً. أخبرَ أصحابَه بدخول التتار الشام سنة تسع

(١) المرقاة شرح المشكاة: ٤/٤٢٧.

(٢) ابن تيمية للندوي: ص ١٦٨ـ١٦٩.

وتسعين وستمائة، وأن جيوش المسلمين تُكسر، وأن دمشق لا يكون بها قتلٌ عام، ولا سبيٌ عام، وأن كَلَب الجيش وحِدَته في الأموال، وهذا قبل أن يهِمَّ التتار بالحركة.

ثم أخبر الناس والأُمراء سنة اثنتين وسبع مائة لما تحرك التتار وقصدوا الشام، أَنَّ الدائرة والهزيمة عليهم، وأَنَّ الظفَرَ والنصر للمسلمين. وأقسم على ذلك أكثر من سبعين يميناً، فيقال له: قُلْ إن شاء الله. فيقول: تحقيقاً لا تعليقاً. وسمعته يقول ذلك. قال: فلما أكثروا علي. قلت: لا تُكثروا، كتب الله تعالى في اللوح المحفوظ: أنهم مهزومون في هذه الكرة، وأن النصر لجيوش الإسلام قال: واطعمتُ بعض الأمراء والعسكر حلاوة النصر قبل خروجهم إلى لقاء العدو. وكانت فراسته الجزئية في خلال هايتن الواقعتين مثل المطر.

ولما طُلب إلى الديار المصرية، وأُريد قتله ـ بعدما أُنضجت له القدور، وقُلِّبت له الأُمور: ـ اجتمع أصحابُه لوداعه، وقالوا: قد توارت الكتب بأَنَّ القومَ عاملونَ على قتلك.

فقال: والله لا يصلون إلى ذلك أبداً،، قالوا: أَفَتُحبس؟ قال: نعم، ويطول حبسي، ثم أَخرج وأتكلم بالسُّنَّة، على رؤوس الناس. سمعته يقول ذلك.

ولما تولى عدوه ـ الملقب بالجاشنكير ـ المُلك أخبروه بذلك. وقالوا: الآن بلغ مراده منك، فسجدَّ لله شكراً وأطال، فقيل

له: ما سببُ هذه السجدة؟ فقال: هذه بدايةُ ذُله ومفارقة عِزه من الآن، وقرب زوال أمره، فقيل: متى هذا؟ فقال: لا تربطُ خيول الجند على القرط حتى تُغلب دولته، فوقع الأمرُ مثل ما أخبر به. سمعت ذلك منه.

وقال مرة: يدخل عليَّ أصحابي وغيرهم، فأرى في وجوههم وأعينهم أموراً لا أذكرها.

فقلت له أو غيري ـ لو أخبرتهم؟ فقال: أَتريدون أن أكون معرفاً كمعرف الولاة؟

وقلت له يوماً: لو عاملتنا بذلك، لكان أدعى إلى الاستقامة والصلاح. فقال: لا تصبرون معي على ذلك جمعة، أو قال: شهراً.

وأخبرني غير مرة بأمور باطنة تختص بي مما عزمتُ عليه، ولم ينطق به لساني.

وأخبرني ببعض حوادث كبار، تجري في المستقبل، ولم يعين أوقاتها، وقد رأيت بعضها وأنا أنتظر بقيتها.

وما شاهد كبارُ أصحابه من ذلك أضعاف أضعاف ما شاهدته، والله أعلم[1].

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٥٥٢ـ ٥٥٣.

وقد ذكر الحافظ أبو حفص البزار رحمه الله في كتابه الأعلام العلية مجموعة من هذه الحوادث[1]، أذكر منها هذه الحادثة:

«وحدثني الشيخ الصالح المقرىء أحمد ابن الحريمي أنه سافر إلى دمشق، قال: فاتفق أني لما قدمتها لم يكن معي شيءٌ من النفقة البتة، وأنا لا أعرف أحداً من أهلها، فجعلت أمشي في زقاق منها كالحائر، فإذا بشيخ قد أقبل نحوي مسرعاً فسَلَّم، وَهشَّ في وجهي، ووضع في يدي صُرَّة فيها دراهم صالحة، وقال لي: انفق هذه الآن وخلي خاطرك مما أنتَ فيه، فإن الله لا يُضيّعك. ثم رُدَّ على أثره كأنه ما جاء إلاّ من أجلي، فدعوت له وفرحتُ بذلك.

وقلت لبعض من رأيته من الناس: من هذا الشيخ؟

فقال: وكأنك لا تعرفه، هذا ابنُ تيمية، لي مدة طويلة لم أره اجتاز بهذا الدرب.

وكان جلُّ قصدي من سفري إلى دمشق لقاءه. فتحققتُ أن الله أظهره علي وعلى حالي، فما احتجت بعدها إلى أحدٍ مدة إقامتي بدمشق، بل فتح الله عليَّ من حيث لا أحتسب، واستدللتُ

(١) الأعلام العلية: ص ٥٦ ـ ٦٢.

فيما بعد عليه، وقصدتُ زيارته والسلام عليه، فكان يكرمني ويسألني عن حالي، فأحمد الله تعالى إليه»[١].

١٢ ـ تعظيمه للسُّنَّة ونصرته لها:

لقد سلك سبيل التمسك بالكتاب والسُّنَّة الجيل الأول من الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وتابعهم على ذلك جيل التابعين وأَئمة الهدى، فكانوا لا يقدمون على الكتاب والسُّنَّة في أي مسألة رأياً شخصياً، أو احتمالاً عقلياً، ولا عصبية مذهبية، واستمروا على ذلك فترة من الزمن.

ثم جدت بعد ذلك فتن وأحداث سياسية فرقت الناس شيعاً ومذاهب وفرقاً، وأخذت هذه المذاهب والفرق تتجادل فيما بينها وتتناحر، حتى وصل بهم الأمر إلى ترك الكتاب والسُّنَّة ورميها وراء ظهورهم، ورغم هذا الحال المحزن إلا أنه لم يخل أي عصر من العصور من أئمة هدى يدعون الناس إلى العودة إلى المنبع الأصيل. والتمسك بالكتاب والسُّنَّة والعودة إليهما، وبيان أن العلاج الوحيد لهذه الأمة للخروج مما هي فيه من فرقة وتمزق هو في التمسك بهما، والاعتصام بحبل الله والبعد عن الأفكار الدخيلة، والمذاهب الهدامة التي ليس لها أدنى صلة بهذا الدين.

---

(١) الأعلام العلية: ص ٥٧.

ولما كان القرن السابع الهجري كان الظلام الدامس قد اشتد، والتناحر والعصبية المذهبية المقيتة قد بلغت أوجها، في هذا الوسط المحزن للأمة الإسلامية وقف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله شامخاً كالشم الرواسي، ينادي ويعمل للعودة إلى المنبع الأصيل لهذا الدين من خلال العودة إلى الكتاب والسُّنَّة، والتخلي عن العصبية المذهبية المقبتة، فتعرض في سبيل دعوته إلى محن وخطوب جسيمة في نفسه، إلا أنه صبر واحتسب، فكان لهذا الصبر والاحتساب ثمار إيجابية من خلال نهضة علمية أحدثت حراكاً في ذلك الواقع، وكان له دور كبير حتى هذه الأيام.

وقد تحدث معاصروه عن شدة تعظيمه للسُّنَّة ونصرته لها، وتحمله الأذى في سبيل الدعوة لها:

قال الحافظ المزي رحمه الله:

«ما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسُنَّة رسوله، ولا أتبع لها منه»[(١)].

وقال الحافظ ابن الزملكاني رحمه الله.

«ما رأينا في عصرنا هذا من يستجلي النبوة المحمدية وسننها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل، يشهد القلب الصحيح أن هذا هو الاتباع حقيقة»[(٢)].

---

(١) الرد الوافر: ص ١٢٩، فوات الوفيات عن العلماء العزاب: ص ١٧٤، العقود: ص٧.

(٢) مقدمة علم الحديث لابن تيمية: ص ٥٤.

وقال الحافظ الذهبي رحمه الله:

«ولقد نصر السُّنَّة المحضة، والطريقة السلفية، واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمورٍ لم يُسبق إليها، وأَطلق عباراتٍ أحجم عنها الأولون والآخرون، وهابوا وجسر هو عليها، حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياماً لا مزيد عليه. وبدعوه وناظروه وكابروه، وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي، بل يقول الحقَّ المُرَّ الذي أَدى إليه اجتهادُه وحِدَّةُ ذهنه وسعةُ دائرته في السنن والأقوال، وجرى بينه وبينهم حملاتٌ حربية، ووقعات شامية ومصرية»(١).

وقال أيضاً:

«وأوذي في ذات الله من المخالفين، وأهين في نصر السُّنَّة المحضة، حتى أعلى الله مناره، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له، وكبت أعداءه، وهدى به رجالاً كثيرة من أهل الملل والنحل، وجبل قلوبَ الملوك والأُمراء على الانقياد له غالباً، وعلى طاعته، وأحيا به الشام بل الإسلام بعد أن كاد ينثلم خصوصاً في كائنة التتار»(٢).

○ مظاهر تعظيمه للسُّنَّة:

وقد برزت مظاهر تعظيم السُّنَّة في جوانب عدة في حياة

(١) الدرة اليتيمية في السيرة التيمية: عن العلماء العزاب ص ١٦٩.

(٢) معجم شيوخ الذهبي: ٦/ ٨١.

شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أذكر بعضها على سبيل التمثيل لذلك، وليس على سبيل الحصر.

١ ـ شدة تعظيمه للنبي ﷺ وحبه له:

وقد أشار إلى ذلك تلميذه أبو حفص البزار رحمه الله في قوله:

«وكان لا يذكر رسول الله ﷺ قطُّ، إلاّ ويُصلي ويُسَلِّم عليه، ولا والله ما رأيتُ أحداً أشدَّ تعظيماً لرسول الله ﷺ، ولا أَحرصَ على اتباعه ونَصْر ما جاء به منه، حتى إذا كان أورد شيئاً من حديثه في مسألة، ويرى أنه لم ينسخه شيءٌ غيره من حديث يعمل به، ويقضي ويفتي بمقتضاه، ولا يلتفت إلى قول غيره من المخلوقين كائناً من كان، وقال رضي الله عنه: كلُّ قائل إنما يحتجُّ لقوله لا به، إلا الله ورسوله»[١].

٢ ـ عنايته بحفظ الحديث ونسخه:

عني شيخ الإسلام رحمه الله بالحديث النبوي، وسمع الكتب الستة والمسند للإمام أحمد مرات، ومعجم الطبراني الكبير، وما لا يحصى من الكتب، ونسخ الأجزاء، ودار على الشيوخ، وخرج، وانتقى، وبرع في الرجال والطبقات وعلل

(١) الأعلام العلية: ص ٢٨ـ٢٩.

الحديث وفقهه، وحصل ما لم يحصله غيره، وصار من أئمة النقد، فقل من يحفظ ما يحفظ من الحديث معزواً إلى أصوله وصحابته، وكان شديد الاستحضار للسُّنَّة النبوية وقت إقامة الدليل، وفاق الناس في معرفة الفقه واختلاف المذاهب وفتاوى الصحابة والتابعين بحيث إذا أفتى لم يلتزم بمذهب بل بما يقوم دليله عليه.

كتب الحافظ ابن سيد الناس في جواب سؤالات الدمياطي في حق ابن تيمية: ألفيته ممن أدرك من العلوم حظاً، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظاً»[1].

وقال الذهبي في تاريخه الكبير بعد ترجمة طويلة: بحيث يصدق عليه أن يقال: «كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث».

وسأذكر المزيد من الأقوال في سعة اطلاعه في معرفة السُّنَّة، وعلومها في فصل خاص عن ابن تيمية محدثاً.

٣ ـ استقلاله في الأخذ للفقه من الكتاب والسُّنَّة:

درس شيخ الإسلام كتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ وآثار السلف الصالح بكل شمولية وعمق، ثم اختار ما ترجح لديه بالكتاب

---

(١) الشهادة الزكية: ص ٢٦.

والسُّنَّة وجهر به من دون أن يبالي بالذي قال خلافه من الأئمة السابقين فهو تابع للدليل، يدور معه حيثما دار.

قال ابن الوردي رحمه الله:

«.. له باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين، قل أن يتكلم في مسألة إلا ويذكر فيها مذاهب الأربعة، وقد خالف الأربعة في مسائل معروفة، وصنف فيها واحتج لها بالكتاب» إلى أن قال: «وبقي سنين، لا يفتي بمذهب معين، بل بما قام الدليل عليه عنده، ولقد نصر السُّنَّة المحضة، واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها، وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون، وهابوا وجسر هو عليها حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياماً لا مزيد عليه، وبدعوه وناظروه وكابروه، وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي، بل يقول الحق المر الذي أدى إليه اجتهاده وحدة ذهنه، وسعة دائرته في السنن والأقوال»[١].

وسأذكر مزيداً من أقوال أهل العلم التي تدل على أنه كان مستقلاً في استدلالاته الفقهية، وأنه كان يستمدها من الكتاب والسُّنَّة مباشرة، ومخالفته للأئمة الأربعة في مسائل عديدة في فصل ابن تيمية فقيهاً.

---

(١) تاريخ ابن الوردي: ٢/ ٤٠٦، ٤١٣.

٤ ـ دعوته للرجوع إلى الكتاب والسُّنَّة:

نهج شيخ الإسلام نهجاً علمياً عاد بالإسلام إلى العهد الأول في عقائده وأصوله وفروعه، وإذا استيقن أنما ذهب إليه هو ما كان عليه الصحابة دافع عنه بالحجة والبرهان واستخدم في هذا السبيل كل ما أوتي من القدرة العلمية، فأثار إعجاب أهل العلم في عصره، وأغضب أهل البدعة، واحتسب الأجر فيما يناله من الأذى في هذا السبيل.

يقول رحمه الله تعالى:

«وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً، يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ، في شيء من سنته، دقيق أو جليل، فإنهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول ﷺ، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك، إلا رسول الله ﷺ»[١].

وقال أيضاً:

«وليس لأحد أن يعارض الحديث الصحيح عن النبي ﷺ بقول أحد من الناس، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما لرجل سأله عن مسألة فأجابه فيها بحديث، فقال له: قال أبو بكر وعمر،

---

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام: ص ١٠.

فقال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ وتقولون قال أبو بكر وعمر»[1].

٥ ـ محاربته للأفكار والعقائد والمذاهب الزائغة:

اختص شيخ الإسلام في عصره بكشف المذاهب الزائغة عن الدين بحرب ضروس كشف فيها أستارهم. وكل هدفه هو أن يعيد للإسلام نضارته، ويدحض الباطل ويكشف زيغه، من خلال كشف زيغ الفرق الباطلة التي أرادت أن تشوه العقائد الأساسية للإسلام وشريعته السمحاء، وهاجم جميع الفرق والمذاهب المنحرفة عن الكتاب والسُّنّة القائمة في عصره.

وفي ذلك يقول الحافظ البزار رحمه الله تعالى:

«وأما ما خصه الله تعالى به من معارضة أهل البدع في بدعهم، وأهل الأهواء في أهوائهم، وما ألفه في ذلك في دحض أقوالهم وتزييف أمثالهم وأشكالهم، وإظهار عوارهم وانتحالهم وتبديد شملهم، وقطع أوصالهم، وأجوبته عن شبههم الشيطانية، ومعارضتهم النفسانية للشريعة الحنيفية المحمدية بما منحه الله تعالى من البصائر الرحمانية، والدلائل النقلية والتوضيحات العقلية، حتى انكشف قناع الحق، وبان فيما جمعه في ذلك وألفه

---

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام: ص ٥٤.

الكذب من الصدق، حتى لو أن أصحابها أحياء ووقفوا لغير الشقاء، لأذعنوا له بالتصديق ودخلوا في الدين العتيق»[1].

هذه بعض الصفات التي كان يتمتع بها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، تعطينا صورة واضحة عن شخصية هذا الإمام الجليل، وتؤكد التطابق والتكامل بين قوله وفعله. وبين سلوكه وما جاءت به الشريعة الإسلامية، وتبين أن ابن تيمية رحمه الله كان نعم النموذج للعالم العامل بأحكام الدين.

---

(١) الأعلام العلية: ص ٧٦ وما بعدها.

الفصل الخامس

ابن تيمية
ومنهجه في الدعوة والإصلاح
بين النظرية والتطبيق

جاء شيخ الإسلام ابن تيمية إلى الدنيا في فترة فقد فيها المسلمون أو كادوا يفقدون معالم الطريقة التي تهديهم إلى الحق، في غمرة من المحن، واشتداد من الخطوب والبلاء، فنهض بعبء الإصلاح للواقع المرير الذي تمر به الأمة الإسلامية، فبعث الحياة في الفكر الإسلامي بعد جمود أصابه، وأيقظ حياة كادت معالمها المشرقة أن تختفي بعد أن عمها الركود.

جاء رحمه الله إلى الحياة على فترة من المصلحين في تاريخ الإسلام، وكان المجتمع الإسلامي فيها قد وصل إلى صورة يعجز القلم عن تصوير ما كان يغمر هذا المجتمع من الانحلال الاجتماعي، والتحلل السياسي، والتفتت المذهبي، مجتمع فرقه الهوى، ومزقه الترف البطين، واستولت على سياسته قيادات حاكمة عاشت لشهواتها الداعرة في ظل الجهالة الجاهلة،

واستحوذ البلاء على كل جانب، وصبت عليه المحن القواصم صباً. وأحاطت به الرزايا العواصف، فعصفت بمقوماته، حتى أفقدته الإحساس بالمقاومة، فهو يبصر ولا يعي، ويسمع ولا يفقه، ويساق فلا يدري»[١].

مثل هذه الأوضاع السياسية السيئة التي هاجم فيها التتار بلاد المسلمين واكتسحوا العالم الإسلامي، والأوضاع الاقتصادية المنهارة، والأوضاع الاجتماعية المتردية، تحتاج إلى داعية لبق يستطيع أن يراعي الظروف، ويقدرها قدرها، ويدرسها جيداً قبل أن يقوم بنشاطه الإصلاحي، لأن السير في تيار مضاد لها يؤدي بتلك الحركة وذلك السير إلى التعويق والتعطيل، إن لم يؤد إلى ضياع الجهد وتفويت الفرصة.

وقد كان ابن تيمية رحمه الله ذلك الداعية اللبق، والمصلح الفذ الذي استطاع أن يحدث حراكاً قوياً في بيئة عصره الراكدة، ساعده في ذلك بيت علم ودين، نشأ فيه وترعرع، وخصال وقدرات حباه الله إياها مثل الاطلاع الواسع، والحافظة الخارقة، والجرأة في قول الحق وتبنيه، وصبر وجلد على تحمل المسؤوليات والتبعات والمحن والبلاء الذي نزل به، ونفسه راضية عما يصيبه في ذات الله عزّ وجلّ ونصرة دينه وسُنَّة

(١) مجلة الوعي الإسلامي، السنة الثامنة، العدد ٨٨ لعام ١٣٩٢هـ، نموذج من دعاة الإصلاح: ص ٦٤ـ ٦٥.

نبيه ﷺ، وتجرد من أهواء النفس، وسعة صدر وعفو عن الآخرين، وتخلٍ عن شهوات الدنيا ومطامعها، وزهد وورع وعبادة ونسك، كل ذلك جعل منه وهيأه بعد توفيق الله وهدايته ليكون مصلحاً مجرداً لتلك الأوضاع البائسة التي كان يحياها المسلمون في ذلك الزمان.

فقد قام شيخ الإسلام لنصرة دين الله عزّ جلّ، وإعادة الثقة إلى نفوس المسلمين ومحاربة الخوف والجزع الذي ملأ تلك النفوس، وإعادة بناء ما تهدم أو كاد يتهدم من بناء فكري أو سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي للأمة الإسلامية، وقد بذل كل ما في وسعه لتحقيق ذلك، وسأعالج في هذا الفصل بعض جوانب منهجه النظري في الدعوة والإصلاح، وأبين الممارسة العملية لما كان يدعو الناس إليه رحمه الله تعالى.

أ ـ أسس المنهج الدعوي عند ابن تيمية:

وفق الله تعالى ابن تيمية للعمل على إحياء الدعوة إلى الحق في نفوس الناس في عصره، وإزالة ما علق بأحوالهم من سحب قاتمة أخفت مبادىء الإسلام السمحة عن كثير من الناس، فوضع لنفسه أسساً لحركته الدعوية في أوساطهم ينطلق من خلالها حتى يصل إلى مبتغاه في إعادة ثقة الناس في ربهم، ويربط المنقطع من صِلاتِهم بينهم وبين خالقهم، ويأخذ بأيديهم إلى عز الدنيا وسعادة الآخرة، ومن هذه الأسس المعتمدة عنده:

١ ـ التمسك بالكتاب والسُنّة:

كان رحمه الله من أحرص الناس على التمسك بالكتاب والسُّنَّة، والدعوة إلى اتباعهما، والأعراض عما خالفهما، وكان من اتبع الناس في سلوكه للكتاب والسُّنَّة.

يقول عنه الحافظ المزي رحمه الله:.

«ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسُنّة رسوله ولا أتبع لهما منه».

وقال الحافظ أبو حفص البزار رحمه الله:

«كان إذا وضح له الحق يعض عليه بالنواجذ، والله ما رأيت أحداً أشد تعظيماً لرسول الله ﷺ ولا أحرص على اتباعه ونصر ما جاء به ـ منه، وكان إذا أورد شيئاً من حديثه في مسألة ويرى أنه لم ينسخه شيء غيره من حديث، يعمل ويقضي ويفتي بمقتضاه، ولا يلتفت إلى قول غيره من المخلوقين كائناً من كان، وإذا نظر المنصف إليه بعين العدل يراه واقفاً مع الكتاب والسُّنَّة لا يميله عنهما قول أحد كائناً من كان، ولا يرقب في الأخذ بمعلومهما أحداً، ولا يخاف في ذلك أميراً، ولا سلطاناً ولا سيفاً، ولا يرجع عنهما لقول أحد، وهو متمسك بالعروة الوثقى.

وما سمعنا أنه اشتهر عن أحد منذ دهر طويل، ما اشتهر عنه من كثرة متابعته للكتاب والسُّنَّة، والإمعان في تتبع معانيهما، والعمل بمقتضاهما، ولهذا لا يرى في مسألة أقوالاً للعلماء إلا

وقد أفتى بأبلغها موافقة للكتاب والسُّنَّة، وتحري الأخذ بأقومها من جهة المنقول والمعقول»[1].

ومن أقواله في ذلك رحمه الله:

«... إن طاعة الله ورسوله موجبة للسعادة، وأن معصية الله موجبة للشقاوة وهذا يبين أن مع طاعة الله ورسوله لا يحتاج إلى طاعة إمام أو قياس، ومع معصية الله ورسوله لا ينفع طاعة إمام أو قياس.

ودليل هذا الأصل كثير في الكتاب والسُّنَّة، وهو أصل الإسلام «شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله» وهو متفق عليه بين الذين أوتوا العلم والإيمان قولاً واعتقاداً، وإن خالفه بعضهم عملاً وحالاً، فليس عالم من المسلمين يشك في أن الواجب على الخلق طاعة الله ورسوله، وأن ما سواه إنما تجب طاعته حيث أوجبها الله ورسوله.

وفي الحقيقة فالواجب في الأصل إنما هو طاعة الله، لكن لا سبيل إلى العلم بمأموره وبخبره كله إلا من جهة الرسل، والمبلغ عنه إما مبلغ أمره وكلماته فتجب طاعته وتصديقه في جميع ما أمر وأخبر، وأما ما سوى ذلك فإنما يطاع في حال دون حال..»[2].

ومن هذا يتبين أنه كان يرى ضرورة اتباع كتاب الله وسُنّة رسول الله ﷺ، وطاعة الله ورسوله طاعة كاملة، وأنه لا معصوم

---

(١) الأعلام العلية: ص ٢٨ـ٢٩، ٧٨ـ٧٩.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٩/ ٦٨ـ٦٩.

بعد الرسول ﷺ ولا تجب طاعة أحد بعده في كل شيء، فالاتباع المطلق دائر مع الرسول وجوداً وعدماً.

٢ ـ حرصه على وحدة الأمة، واجتماع الكلمة، وائتلاف القلوب:

وقد برز هذا الحرص منه رحمه الله من خلال أمور عدة أبرزها:

○ بيانه لأهمية اجتماع الكلمة ومكانتها الكبيرة في دين الله تعالى حيث قال رحمه الله:

«وتعلمون أن من القواعد العظيمة، التي هي من جماع الدين، تأليف القلوب، واجتماع الكلمة، وصلاح ذات البين، فإن الله تعالى يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١] ويقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] ويقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف، وتنهى عن الفرقة والاختلاف، وأهل هذا الأصل: هم أهل الجماعة، كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة، وجماع السُّنَّة: طاعة الرسول ﷺ...»[(١)].

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٥١.

○ **اختياره أن يبدأ من أصل اجتماع الكلمة، وائتلاف القلوب حيث قال:**

«وأول ما أبدأ به من هذا الأصل، ما يتعلق بي، فتعلمون ـ رضي الله عنكم ـ أني لا أحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين ـ فضلاً عن أصحابنا ـ بشيء أصلاً، لا باطناً ولا ظاهراً، ولا عندي عتب على أحد منهم، ولا لوم أصلاً، بل لهم عندي من الكرامة، والإجلال والمحبة، والتعظيم أضعاف أضعاف ما كان، كل بحسبه، ويخلو الرجل أما أن يكون مجتهداً مصيباً، أو مخطئاً، أو مذنباً، فالأول: مأجور مشكور والثاني مع أجره على الاجتهاد، فمعفو عنه، مغفور له، والثالث: فالله يغفر لنا وله، ولسائر المؤمنين، فنطوي بساط الكلام المخالف لهذا الأصل»[(١)].

○ **ويحذر رحمه الله من أشد الأخطار فتكاً في العلاقات الاجتماعية بين الأحباب والإخوان، والتي تمزق صفوفهم، وتفرق كلمتهم ألا وهو التقول على الآخرين بغير حق، والإكثار من لومهم وتقريعهم، وإشاعة الكلام السيء عنهم فيقول:**

«... فنطوي بساط الكلام المخالف لهذا الأصل، كقول القائل: فلان قصر، فلان ما عمل، فلان أوذي الشيخ بسببه، فلان كان سبب هذه القضية، فلان كان يتكلم في كيد فلان، ونحو هذه

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٥٢ـ٥٣.

الكلمات، التي فيها مذمة لبعض الأصحاب، والإخوان فإني لا أُسامح من آذاهم من هذا الباب ولا حول ولا قوة إلا بالله.

بل مثل هذا يعود على قائله بالملام، إلا أن يكون له من حسنة وممن يغفر الله له إن شاء، وقد عفا الله عما سلف»[1].

○ **ويحذر من أن يتخذ من شدته في بعض الأحيان مع بعض الناس، وإغلاظ القول لهم لسبب معين يرى أنه فيه مصلحة عامة للمؤمنين ـ فقد حذر أن يتخذ هذا منهجاً وديدناً للنيل من المخالفين، فيقول رحمه الله:**

«وتعلمون أيضاً: أن ما يجري من نوع تغليظ، أو تخشين على بعض الأصحاب والإخوان، ما كان يجري بدمشق، ومما جرى الآن بمصر، فليس ذلك غضاضة ولا نقصاً في حق صاحبه، ولا حصل بسبب ذلك تغير منا، ولا بغض، بل هو بعدما عومل به من التغليظ والتخشين، أرفع قدراً، وأنبه ذكراً، وأحب وأعظم، وإنما هذه الأمور هي من مصالح المؤمنين، التي يصلح الله بها بعضهم ببعض، فإن المؤمن للمؤمن كاليدين، تغسل إحداهما الأخرى، وقد لا ينقلع الوسخ إلا بنوع من الخشونة، لكن ذلك يوجب من النظافة والنعومة ما نحمد معه ذلك التخشين.

وتعلمون: أنا جميعاً، متعاونون على البر والتقوى، واجب

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٥٣.

علينا نصر بعضنا بعضاً، أعظم ما كان، وأشد، فمن رام أن يؤذي بعض الأصحاب، أو الإخوان، لما قد يظنه من نوع تخشين ـ عومل به بدمشق، أو بمصر الساعة، أو غير ذلك ـ فهو الغالط وكذلك من ظن أن المؤمنين يبخلون عما أمروا به من التعاون والتناصر، فقد ظن ظن سوء وأن الظن لا يغني من الحق شيئاً» وما غاب عنا أحد من الجماعة، أو قدم إلينا الساعة، أو قبل الساعة إلا ومنزلته عندنا اليوم أعظم مما كانت، وأجل وأرفع..» «فلا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه علي، أو ظلمه وعدوانه، فإني قد أحللت كل مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي، والذين كذبوا وظلموا فهم في حل من جهتي، وأما ما يتعلق بحقوق الله، فإن تابوا تاب الله عليهم، وإلا فحكم الله نافذ فيهم، فلو كان الرجل مشكوراً على سوء عمله، لكنت أشكر كل من كان سبباً في هذه القضية، لما يترتب عليه من خير الدنيا والآخرة، لكن الله هو المشكور على حسن نعمه وآلائه، وأياديه التي لا يقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له»[1].

○ **ويختار أيضاً لنفسه في سعيه لتوحيد كلمة المسلمين، وحرصه على ائتلاف صفهم، أن يلتمس العذر لمن أخطأ منهم حتى يعرف**

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٥٣-٥٦.

خطأه، ويحذر تحذيراً شديداً من إيذاء أحد من الناس أخطأ في حقه مجتهداً معذوراً في اجتهاده فيقول رحمه الله:

«وتعلمون ـ رضي الله عنكم ـ: أن ما دون هذه القضية من الحوادث يقع فيها اجتهاد الآراء، واختلاف الأهواء، وتنوع أحوال أهل الإيمان، وما لا بد منه ـ من نزغات الشيطان ما لا يتصور أن يعرى عنه نوع الإنسان، وقد قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا * لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(١) [الأحزاب: ٧٢ ـ ٧٣].

«فلا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه عليّ، أو ظلمه وعدوانه، فإني قد احللت كل مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي، والذين كذبوا وظلموا فهم في حل من جهتي»(٢).

وقد تجلى حرصه هذا يوم أن عفا وصفح عمن آذوه حين أمكنه السلطان منهم، وأراد منه أن يفتيه بقتلهم، ولكنه أجابه بقوة وجرأة العالم الذي يعرف الحق بقوله: «إنك إن قتلتهم فلن تجد مثلهم»، ثم صفح وعفا عنهم وجعلهم في حل مما فعلوه في حقه.

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٥٤ـ٥٥.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٥٥.

٣ ـ مراعاته لفقه الأولويات والتدرج في التربية:

كان السلف الصالح رضوان الله عليهم يعرفون جيداً من خلال فهمهم الصحيح لهذا الدين كيف يرتبون أولوياتهم، وكيف ينظمون حياتهم من خلال هذا الترتيب، فإذا ظهر من بينهم من لم يفقه جيداً كيفية ترتيب الأولويات سارعوا إليه بالنصيحة، فيبينون له أن النصوص الشرعية قد تتعارض ـ في الظاهر ـ أمام المسلم في وقت من الأوقات ولكن بالرجوع إلى سلم الأولويات يسهل التعرف على الأهم فالمهم، وعلى الأولى فالأَولى ولكن نتيجة لغياب الفهم الصحيح للإسلام والفقه الجيد للأولويات فإن هذا يعد من أهم الأسباب التي أدت إلى وجود الخلافات التي ظهرت بين المسلمين.

ولا شك أن ترتيب الأولويات عند المسلم وتقدير الأهم فالمهم فالأقل أهمية ليس من شأن عوام المسلمين، بل هي مهمة العلماء الثقات في هذه الأمة ولهذا قال الأستاذ عبد الوهاب خلاف رحمه الله تعالى:

«إن تقدير الضرورة التي يعدل به عن حكم النص، وتقدير المصلحة التي يبنى عليها الحكم فيما لا نص فيه يجب أن يكونا من اختصاص الجماعة التشريعية في الأمة المكونة من العدول ذوي البصيرة النافذة بأحكام الشريعة ومصالح الدنيا، ولا يوكل أمر واحد منهما إلى فرد أو أفراد، فإن الهوى قد يغلب على

العقل فيقدر الكمالي ضرورياً، ويقدر المتوهم قطعياً، ويقدر المفسدة مصلحة»[1].

وقد كان شيخ الإسلام رحمه الله تعالى من أعظم الشخصيات على مدار التاريخ الإسلامي التي فهمت مقاصد الشريعة وضوابطها، وترتيب أولوياتها في العمل بشكل صحيح، إضافة إلى ما أعطاه الله تعالى من غزارة العلوم والمعارف، وسعة الاطلاع على أمور الشريعة واختلاف المذاهب وأقوال الأئمة، مما أكسبه قدرة كبيرة على ترتيب الأولويات لعمله الدعوي وجهده الإصلاحي. ولذلك أخذ فقه الأولويات أهمية بالغة عنده رحمه الله، وسأقوم بإبراز بعض جوانب هذا الاهتمام منه بهذا الفقه، وجعله أساساً من أسس منهجه الدعوي والإصلاحي:

○ أهمية فهم مقاصد الشريعة:

قال رحمه الله: «من استقرأ الشريعة في مواردها ومقاصدها وجدها مبنية على قوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

(١) مصادر التشريع الإسلامي فيما لا نص فيه لعبد الوهاب خلاف: ص ١٠٣، من فقه الأولويات: ص ٨ ـ ٩.

فكل ما احتاج الناس إليه في معاشهم، ولم يكن سببه معصية - هي ترك واجب أو فعل محرم - لم يحرم عليهم لأنهم في معنى المضطر الذي ليس بباغ ولا عاد»[1].

○ **دقته في ترتيب الأولويات:**

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله من فقه شيخ الإسلام العميق للإسلام ودقته في ترتيب الأولويات فيقول:

«سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان معي، فقلت له: إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء تصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال فدعهم»[2].

ومن ذلك ما ذكره ابن كثير رحمه الله بقوله:

«وقد تكلم الناس في كيفية قتال هؤلاء التتار من أي قبيل هو؟ فإنهم يظهرون الإسلام، وليسوا بُغاة على الإمام، فإنهم لم يكونوا في طاعته ثم خالفوه.

فقال الشيخ تقي الدين: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على عليّ ومعاوية، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما، وهؤلاء

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٣/ ٢٩٤.

(٢) إعلام الموقعين: ٣/ ٣.

يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة، فتفطن العلماء والناس لذلك.

وكان يقول للناس: إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني، فتشجع الناس في قتال التتار، وقويت قلوبهم ونياتهم»[1].

ومن ذلك ما ذكره ابن كثير رحمه الله أيضاً في تشجيع شيخ الإسلام على الإفطار في رمضان للتقوي بذلك على لقاء التتار وقتالهم فقال:

«... وأفتى الناس بالفطر مدة قتالهم، وأفطر هو أيضاً، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده، ليعلمهم أن إفطارهم ليتقووا على القتال أفضل، فيأكل الناس، وكان يتأول في الشاميّين قوله ﷺ: «إنكم ملاقوا العدو غداً، والفطر أقوى لكم» فعزم عليهم في الفطر عام الفتح، كما في حديث أبي سعيد الخدري»[2].

ومن ذلك ما ذكره ابن كثير أيضاً من أن ابن تيمية رحمه الله رفض أن يقف تحت راية السلطان في معركة شقحب لأن الأولوية عنده أن يقف تحت راية جيش الشام حيث قال ابن كثير رحمه الله:

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ٢٤.

(٢) البداية والنهاية: ١٤/ ٢٥-٢٦.

«وذلك أنه ندبه العسكر الشامي أن يسير إلى السلطان يستحثه على السير إلى دمشق فسار إليه، فحثه على المجيء إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر، فجاء هو وإياه جميعاً، فسأله السلطان أن يقف معه في معركة القتال، فقال له الشيخ: السُنة أن يقف الرجل تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم، وحرض السلطان على القتال، وبشره بالنصر...»[1].

○ جواز ترك واجب لفعل الأوجب، أو السكوت عن مفسدة لدفع الأفسد:

قال رحمه الله:

«فإذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما فقدم أوكدهما، لم يكن الآخر في هذا الحال واجباً، ولم يكن تاركه لأجل فعل الأوكد تارك واجب في الحقيقة، وكذلك إذا اجتمع محرمان لا يكون ترك أعظمهما إلا بفعل أدناهما، لم يكن فعل الأدنى في هذا الحال محرماً على الحقيقة وإن سمي ذلك ترك واجب، وسمي هذا فعل محرم باعتبار الإطلاق لم يضر، ويقال في مثل هذا: ترك الواجب لعذر، وفعل المحرم للمصلحة الراجحة أو الضرورة أو لدفع ما هو أحرم»[2].

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ٢٥ـ٢٦.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٠/ ٥٧.

○ **تأليف القلوب أولى من الخلاف في أمور الشرع الفرعية:**

ذكرت سابقاً حرصه الشديد على جمع كلمة المسلمين، وتوحيد رايتهم، وتأليف قلوبهم، وحين نتحدث عن فقه الأولويات عنده سنجده يحرص على هذا الهدف، ويبين سبل تحقيقه ولو أدى ذلك إلى ترك بعض المستحبات، أو ترك الخلاف في أية مسألة فرعية من أمور الدين، ويذكر نماذج من اجتماع القلوب مع الخلاف في الرأي.

ـ ترك بعض المستحبات لتأليف القلوب:

فيقول رحمه الله:

«ويستحب للرجل أن يقصد إلى تأليف هذه القلوب بترك هذه المستحبات، لأن مصلحة التأليف في الدين أعظم من مصلحة فعل مثل هذا.

كما ترك النبي ﷺ تغيير بناء البيت، لما رأى في إبقائه من تأليف القلوب، وكما أنكر ابن مسعود على عثمان إتمام الصلاة في السفر ثم صلى خلفه متماً وقال: الخلاف شر»[1].

ـ والخلاف في فروع العقيدة لا يفرق:

وهو في إطار تحديد الأولويات فإنه يعتبر أن الخلاف في المسائل الفرعية الخفية الدقيقة في أمور العقيدة ينبغي ألا يحدث

---

(١) القواعد النورانية الفقهية: ص ٤٣ـ ٤٤.

بين المسلمين فرقة ونفرة، ولا يجوز أن تتخذ شعار محنة وفتنة، بل ينبغي للألسن أن تكف وللقلوب أن تجتمع، وللنفوس أن تصفو، حيث ذكر في رسالته التي وجهها إلى أهل البحرين حين اختلفوا في مسألة فرعية من مسائل العقيدة وهي «رؤية الكفار ربهم»، وتنازعوا وتفرقت كلمتهم، حتى تهاجروا وتركوا الصلاة وراء بعضهم البعض، قال رحمه الله:

«والذي أوجب هذا (كتابة الرسالة) أن وفدكم حدثونا بأشياء من الفرقة والاختلاف بينكم، حتى ذكروا أن الأمر آل إلى قريب المقاتلة وذكروا أن سبب ذلك الاختلاف في «رؤية الكفار ربهم» وما كنا نظن أن الأمر يبلغ بهذه المسألة إلى هذا الحد، فالأمر في ذلك خفيف، وإنما المهم الذي يجب على كل مسلم اعتقاده: أن المؤمنين يرون ربهم في الدار الآخرة في عرصة القيامة وبعدما يدخلون الجنة»، إلى أن قال: «فبالجملة فليس مقصودي بهذه الرسالة الكلام المستوفى لهذه المسألة، فإن العلم كثير، وإنما الغرض بيان أن هذه المسألة ليست من المهمات التي ينبغي كثرة الكلام فيها، وإيقاع ذلك إلى العامة والخاصة، حتى يبقى شعاراً، ويوجب تفريق القلوب وتشتت الأهواء»(١).

---

(١) مجموع الفتاوى: ٦/ ٤٨٥، ٥٠٢.

ـ والخلاف في فروع الفقه لا يفرق:

ولئن كان الخلاف في فروع العقيدة لا يفرق كلمة المسلمين، فإن الخلاف في فروع الفقه والأحكام يجب أن لا يفرق من باب أولى حيث قال رحمه الله:

«وأما الاختلاف في الأحكام فأكثر من أن ينضبط ولو كان كلما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة»(١).

واستنكر استنكاراً شديداً ما يجري من تقاطع وتدابر نتيجة للخلاف في بعض مسائل الفقه الفرعية فقال:

«فأما صفة الصلاة: فمن شعائرها مسألة البسملة، فإن الناس اضطربوا فيها نفياً وإثباتاً، في كونها آية من القرآن، وفي قراءتها، وصنفت من الطرفين مصنفات، يظهر في بعض كلامها نوع جهل وظلم، مع أن الخطب فيها يسير».

وأما التعصب لهذه المسائل ونحوها فمن شعائر الفرقة والاختلاف الذي نهينا عنه، إذ الداعي لذلك هو ترجيح الشعائر المفرقة بين الأمة وإلا فهذه المسائل من أخف مسائل الخلاف جداً، لولا ما يدعو الشيطان من إظهار شعار الفرقة»(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٤/ ١٧٣.

(٢) القواعد النورانية الفقهية: ص ٤٢.

ـ خلاف دون تهاجر:

قال رحمه الله:

«وليست هذه المسألة فيما علمت مما يوجب المهاجرة والمقاطعة، فإن الذين تكلموا فيها قبلنا عامتهم أهل سُنَّة واتباع، وقد اختلف فيها من لم يتهاجروا ويتقاطعوا، كما اختلف الصحابة رضي الله عنهم والناس بعدهم في رؤية النبي ﷺ ربه في الدنيا، وقالوا فيها كلمات غليظة، كقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية»[١]، ومع هذا فما أوجب هذا النزاع تهاجراً ولا تقاطعاً. وكذلك ناظر الإمام أحمد أقواماً من أهل السُّنَّة في «مسألة الشهادة للعشرة بالجنة» حتى آلت المناظرة إلى ارتفاع الأصوات، وكان أحمد وغيره يرون الشهادة، ولم يهجروا من امتنع من الشهادة، إلى مسائل نظير هذه كثيرة»[٢].

ـ خلاف في ظلال المحبة:

قال رحمه الله:

«قد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله تعالى في قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٢٣٤ ومسلم: ١٧٧.

(٢) مجموع الفتاوى: ٦/ ٥٠٢، ٥٠٣.

﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين.

نعم من خالف الكتاب المستبين والسُّنَّة المستفيضة أو ما أجمع عليه سلف الأمة خلافاً لا يعذر فيه فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع»(١).

○ اختلاف درجة العمل باختلاف الظروف:

قال رحمه الله:

«العمل الواحد يكون فعله مستحباً تارة، وتركه تارة باعتبار ما يترجح من مصلحة فعله وتركه بحسب الأدلة الشرعية، والمسلم قد يترك المستحب إذا كان في فعله فساد راجح على مصلحة، كما ترك النبي ﷺ بناء البيت على قواعد إبراهيم، وقال لعائشة: لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لنقضت الكعبة، ولألصقتها بالأرض، ولجعلت لها بابين، باب يدخل الناس منه، وباب يخرجون منه، فترك النبي ﷺ هذا الأمر الذي كان عنده أفضل الأمرين للمعارض

(١) مجموع الفتاوى: ٢٤/ ١٧٢.

الراجح وهو حدثان عهد قريش بالإسلام لما في ذلك من التنفير لهم، فكانت المفسدة راجحة على المصلحة.

ولذلك استحب الأئمة: أحمد وغيره أن يدع الإمام ما هو عنده أفضل، إذا كان فيه تأليف المأمومين. مثل أن يكون عنده فصل الوتر أفضل، بأن يسلم في الشفع، ثم يصلي ركعة الوتر، وهو يؤم قوماً لا يرون إلا وصل الوتر، فإذا لم يمكنه أن يتقدم إلى الأفضل كانت المصلحة الحاصلة بموافقته لهم بوصل الوتر أرجح من مصلحة فصله مع كراهتهم للصلاة خلفه...، إلى أن قال (.. فهذه الأمور وإن كان أحدها أرجح من الآخر، فمن فعل المرجوح فقد فعل جائزاً وقد يكون فعل المرجوح أرجح للمصلحة الراجحة، كما يكون ترك الراجح أحياناً لمصحلة راجحة وهذا واقع في عامة الأعمال، فإن العمل الذي هو في جنسه أفضل وقد يكون في مواطن غيره أفضل منه»[1].

○ **مخالفة الكفار في الهدي الظاهر:**

قال رحمه الله:

«إن المخالفة لهم لا تكون إلا بعد ظهور الدين وعلوه، كالجهاد وإلزامهم بالجزية والصغار، فلما كان المسلمون في أول الأمر ضعفاء لم يشرع المخالفة لهم، فلما كمل الدين وظهر وعلا

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٤/ ١٩٥ـ١٩٨.

شرع ذلك، ومثل ذلك اليوم: لو أن المسلم بدار حرب أو دار كفر غير حرب، لم يكن مأمور بالمخالفة لهم في الهدي الظاهر لما عليه في ذلك من الضرر، بل قد يستحب للرجل أو يجب عليه أن يشاركهم أحياناً في هديهم الظاهر إذا كان في ذلك مصلحة دينية من دعوتهم إلى الدين والاطلاع على باطن أمرهم لإخبار المسلمين بذلك أو دفع ضررهم عن المسلمين ونحو ذلك من المقاصد الصالحة.

فأما في دار الإسلام والهجرة التي أعز الله فيها دينه وجعل على الكافرين بها الصغار والجزية: ففيها شرعت المخالفة، وإذا ظهرت الموافقة والمخالفة لهم باختلاف الزمان ظهر حقيقة الأحاديث من هذا»[١].

٤ ـ شمولية منهجه الدعوي والإصلاحي:

اتسم منهجه الدعوي رحمه الله بالشمولية، حيث غطى جوانب الحياة المختلفة، فقد كان شيخ الإسلام رحمه الله تعالى ذا عقلية متفتحة، عبقري الذاكرة، متقد الذهن رحب الأفق، ينظر إلى الأشياء بفراسة المؤمن، ويرى من خلالها ما قد يحدث في مستقبل الأيام، فكان يستعين في حياته بحسن صلته بالله، يقضي في الدعوة إلى الله نهاره، ويفرغ ليله لعبادة ربه، فألهمه الله رشده،

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ص ١٧٦ـ ١٧٧.

وأيقظ قلبه، ونور بصيرته، وأزاح عنه الحجب التي حالت بين الناس ورؤية الحقيقة، فانكشفت له الخفايا، ورأى ما لم يره غيره من أحوال المسلمين، فعزم على التغيير، وصمم عى الإصلاح، وكان ثمرة ذلك كله هذا المنهج المتكامل الذي امتد إلى جوانب الحياة المختلفة، فأصلح فاسدها، وقوم معوجها، وأحياها بروح الإسلام الحنيف(١).

وقد امتدت جهوده الإصلاحية رحمه الله لتغطي جميع جوانب الحياة فمنها:

○ **الجانب السياسي:**

وقد اتجه جهده الإصلاحي إلى جانبين هامين في هذا الباب:

- بناء تصور شرعي صحيح لمفهوم الحكم:

وذلك من خلال توضيح حقيقة هامة هي أنه لا يكفي أن تكون الدولة قوية في إدارتها فقط، وإنما يجب أن تنسجم هذه الإدارة مع المفاهيم الشرعية والقواعد الثابتة في كتاب الله تعالى وسُنّة رسوله ﷺ.

فكتب رحمه الله كتابيه الحسبة والسياسة الشرعية اللذين ضمنهما الكثير من آرائه حول حقوق الراعي والرعية، وكيف

---

(١) استمرارية الدعوة: ص ٩٤.

قامت الدولة الإسلامية، ونظام الشورى، ونظام الحسبة، ومحاربة الرشوة التي كانت منتشرة في عصره بين موظفي جهاز الدولة[1].

ولتحقيق هدفه هذا بادر بإقامة علاقات متينة مع السلطان، فوجهه وأرشده، وبين له بعض ما خفي عليه، وطالبه بإصلاح ما أفسده الولاة والأمراء، وتولى بعض التغييرات بنفسه، أو أزال المنكر بيده»[2].

ـ سعيه لإقامة حكومة قوية:

وفي سبيل ذلك أقام أيضاً علاقات قوية مع أمراء المماليك، والسلطان الناصر، وحاول إقناعهم بمنهج الكتاب والسُّنّة في الحكم، حتى قيل في عدد منهم أنهم من تلاميذه وأتباعه أمثال:

زين الدين كاتوبغا المنصوري الذي كان حاكم حماة، وأرغون الناصري الذي تولى منصب نائب السلطان في مصر وحلب ودمشق، والأمير سلار نائب السلطان الناصر، والأمير حسام الدين مهنا ابن عيسى الطائي ملك العرب، الذي أخرج شيخ الإسلام من السجن سنة ٧٠٧هـ معظماً له ومكرماً، والسلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي عاد للسلطنة سنة

---

(١) استمرارية الدعوة: ص ٩٤ـ ٩٥، دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٨٦.

(٢) استمرارية الدعوة: ص ٩٥.

٧٠٩هـ بعدما قتل الجاشنكير الجركسي، وكان أول عمل له إطلاق سراح ابن تيمية من منفاه في الإسكندرية»[١].

○ الجانب الاقتصادي:

فبعد أن تراجع التتار، وكان قد انتشر في عهدهم كثير من المفاسد تولى شيخ الإسلام محاربة الفساد بنفسه، حيث لم يكن في دمشق حاكم ولا مسؤول من قبل السلطان فنصب نفسه حاكماً في البلاد، وتولى قطع دابر هذا الفساد، وكانت الحانات قد انتشرت، والخمارات قد شاعت، وكانت تلك الحانات، وهذه الخمارات من أهم الموارد المالية للحاكم السابق، ولكن ابن تيمية لم يقرها مهما كانت تدر من الأموال فإنها أموال محرمة لا تصلح أن تكون مورداً لبيت مال المسلمين، فقام ومن معه من المتطوعة بإغلاق الحانات، وتكسير أواني الخمر، وإراقة الخمور، ولو أدى ذلك إلى حرمان الدولة من مصدر مهم من مصادر تمويلها[٢].

وكان سكان جبال الجرد وكسروان قد ساعدوا التتر على غزو الشام ولما رجع جيش الشام مهزوماً انقضوا عليه، وسلبوا ما كان معه من الأسلحة والأموال والخيول، وقتلوا كثيراً من

---

(١) دعوة شيخ الإسلام: ١/ ٨٦ـ ٨٧، وشذرات الذهب: ٦/ ٥، ٢٧٧، ١٩، ١١٢، ١٣٤.

(٢) رجال الفكر والدعوة: ٢/ ص ٥٤، استمرارية الدعوة: ٩٥.

المسلمين ولما هدأت الأحوال، عزم ابن تيمية على تأديب هؤلاء الفسقة المتمردين، فخرج في خلق كثير من المتطوعة والحوارنة، واقتحموا علهيم بلادهم، واستتاب رؤساءهم وألزمهم برد الأموال التي سلبوها من المسلمين، وفرض عليهم أموالاً كثيرة يحملونها إلى بيت مال المسلمين[١].

وحين توجه التتار إلى بلاد الشام مرة أخرى، ذهبت أحلام الناس، وانخلعت قلوبهم، وبدأوا يفكرون في الهرب والفرار من الشام، نشط رحمه الله في إلقاء الدروس، يثبت الناس، ويزيل الخوف من النفوس، وأخبرهم بأن الفرار عار، وطرح عليهم نظرية اقتصادية أعتقد أنه لم يسبق إليها، وذلك حين قال لهم: إن ما ننفقه من أجرة الفرار، لو أُنفق على المجاهدين يشترون به السلاح، ويستعينون به على قتال الأعداء، لكان أحب إلى الله، وأعظم أجراً، وأدعى إلى انتصار المسلمين المجاهدين، فاستقرت النفوس وسكنت الأحوال»[٢].

○ **الجانب التربوي والفكري:**

ونظراً لأهمية هذا الجانب فقد كثف شيخ الإسلام جهوده لتعميق مفاهيم الفكر الصحيح، وتوضيح معالمه التي غطى عليها

---

(١) استمرارية الدعوة: (ص ٩٥ـ٩٦).

(٢) رجال الفكر والدعوة: ٢/٥٦، استمرارية الدعوة: ص ٩٦.

ران التقليد، وسفسطة المتكلمين، وأصحاب الفرق الضالة، ولذلك اتجه نحو جانبين هامين:

- إصلاح العقيدة وتجديد معالمها:

وقد شغلت هذه القضية جانباً كبيراً من تفكيره، واستحوذت على جهود كبيرة منه، لأنها الهدف الأول لبعثة الأنبياء والرسل، ولأنها تشكل أساس العمل في المنهج الإسلامي، ونظراً لما أصاب صفاء العقيدة من شبه بسبب كثرة التيارات الكلامية التي خاضت فيه بالحق والباطل. ولذلك فقد ركز جهوده على بيان خطأ المتكلمين في معالجة قضايا العقيدة من خلال التصور والمنهج، حيث لم يقوموا بواجب بيان أصول العقيدة الصحيحة التي جاء بها الدين ولم يكفوا المسلمين مؤونة الرد على الملحدين، فلا الإسلام نصروا، ولا أعداءه كسروا، ويضع بالمقابل منهج السلف في إثبات قضايا العقيدة لأنهم يتبعون طريقة القرآن في الاستدلال، ويجرون النصوص على ظاهرها اللائق بالحقائق الغيبية من غير تكييف ولا تأويل»[1].

- تجديد العلوم الشرعية من خلال موقفه من الاجتهاد والتقليد:

اعتمد شيخ الإسلام في بداية انطلاقته العلمية على القواعد التي كان يرتكز عليها أهل الحديث في الاجتهاد من خلال التعامل

---

(١) تكامل المنهج المعرفي عند ابن تيمية: ص ٨٩ـ ٩١.

مع الكتاب والسُّنّة وتقديمهما على غيرهما، ثم فتاوى الصحابة يتخير منها ما يعتقد أنه الأقرب إلى الكتاب والسُّنّة، ولا يلجأ إلى القياس إلا عند الضرورة وحين يفتقد النص الصحيح أو الحسن.

وقد اعتمد في البداية على المذهب الحنبلي ونصره على غيره حين رآه الأقرب إلى السُّنَّة والأثر، تأسياً بعائلته وآبائه وأجداده، ولكنه ما لبث أن شب عن طوق التقليد فانتهى إلى التمسك بمطلق نص الوحي ما دام ثابتاً عن المعصوم، لا يعدل عنه إلى قول أحد كائناً من كان.

وفي دعوته إلى فتح باب الاجتهاد ونبذ التقليد فقد سلك رحمه الله تعالى منهجاً متزناً نرى ذلك من خلال أقواله حيث قال رحمه الله:

«وتقليد العاجز عن الاستدلال للعالم يجوز عند الجمهور»[1].

ويقول رحمه الله:

«واتباع شخص لمذهب شخص بعينه لعجزه عن معرفة الشرع من غير جهته إنما هو مما يسوغ له ليس هو مما يجب على كل أحد إذا أمكنه معرفة الشرع بغير ذلك الطريق.

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٩/ ٢٦٢.

بل كل أحد عليه أن يتقي الله ما استطاع، ويطلب علم ما أمر الله به ورسوله، فيفعل المأمور، ويترك المحظور، والله أعلم»[١].

ويوضح الأسباب أو المبررات التي تبيح التقليد للأئمة فيقول رحمه الله:

«لما كان من الأحكام ما لا يعرفه كثير من الناس، رجع الناس في ذلك إلى من يعلمهم ذلك، لأنه أعلم بما قاله الرسول ﷺ وأعلم بمراده، فأئمة المسلمين الذين اتبعوهم وسائل وطرق وأدلة بين الناس وبين الرسول ﷺ، يبلغونهم ما قاله ويفهمونهم مراده بحسب اجتهادهم واستطاعتهم، وقد يخص الله هذا العالم من العلم والفهم ما ليس عند الآخر، وقد يكون عند ذلك مسألة أخرى من العلم ما ليس عند هذا»[٢].

وعن اتجاهات الناس ومذاهبهم في الاجتهاد والتقليد يقول رحمه الله:

«من غالية المتكلمة والمتفقهة من يوجب النظر والاجتهاد في المسائل الفرعية على كل أحد حتى على العامة، وهذا ضعيف، لأنه لو كان طلب علمها واجباً على الأعيان، فإنما يجب مع القدرة.

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٠/ ٢٠٩.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٠/ ٢٢٤.

والقدرة على معرفتها من الأدلة التفصيلية تتعذر أو تتعسر على أكثر العامة.

وبإزائهم من اتباع المذاهب من يوجب التقليد فيها على الجميع من بعد الأئمة: علمائهم، وعوامهم والذي عليه جماهير الأمة أن الاجتهاد جائز في الجملة، والتقليد جائز في الجملة، لا يوجبون الاجتهاد على كل أحد، ويحرمون التقليد ولا يوجبون التقليد على كل أحد، ويحرمون الاجتهاد وأن الاجتهاد جائز للقادر على الاجتهاد، والتقليد جائز للعاجز عن الاجتهاد»[1].

وقد اختار رحمه الله أن ينطلق مع الدليل حيث كان، ويدور مع نصوص الكتاب والسُّنّة في العقائد والأحكام حيث دارا، من دون أن يتقيد بمذهب معين، وصرح بذلك قائلاً:

مع أني في عمري إلى ساعتي هذه، لم أدْعُ أحداً قط في أصول الدين إلى مذهب حنبلي وغير حنبلي، ولا انتصرت لذلك، ولا أذكره في كلامي، ولا أذكر إلا ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها. وقد قلت لهم غير مرة: أنا أمهل من يخالفني ثلاث سنين إن جاء بحرف واحد عن أحد من أئمة القرون الثلاثة يخالف ما قلته فأنا أقر بذلك، وأما ما أذكره فأذكره عن أئمة القرون الثلاثة بألفاظهم، وبألفاظ من نقل إجماعهم من عامة الطوائف»[2].

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٠/ ٢٠٣ـ ٢٠٤.

(٢) مجموع الفتاوى: ٣/ ٢٢٩.

وفي سبيل تحقيق ذلك عقد الدروس، وفتح المدارس، وألقى المحاضرات، وأفسح المجال للعقول تبحث وتناقش، وتطرق باب الاجتهاد المغلق لتفتحه، وتبلغ فيه أقصى ما يمكن أن يبلغه العقل البشري من النتائج، مع أنه حدد لهذا العقل دوره ووزنه في الشرع، في وقت غالى أناس في العقل فجعلوه الأصل، والشرع تابعاً، وأهمل أناس العقل ولم يقيموا له وزناً، وفي ذلك يقول رحمه الله:

«العقل شرط في معرفة العلوم، وكمال وصلاح الأعمال، وبه يكمل العلم والعمل، لكنه ليس مستقلاً بذلك، فهو غريزة في النفس، وقوة فيها، بمنزلة قوة البصر التي في العين، فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن، كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار.

وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن إدراكها، وإن عزل بالكلية: كانت الأقوال والأفعال مع عدمه: أموراً حيوانية، قد يكون فيها محبة ووجد وذوق كما قد يحصل للبهيمة فالأحوال الحاصلة مع عدم العقل ناقصة، والأقوال المخالفة للعقل باطلة، والرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه، لم تأت بما لم يعلم بالعقل امتناعه.

لكن المسرفون فيه قضوا بوجوب أشياء وجوازها، وامتناعها، لِحُجَجٍ عقلية بزعمهم اعتقدوها حقاً، وهي باطل، وعارضوا بها النبوات وما جاءت به.

والمعرضون عنه صدقوا بأشياء باطلة، ودخلوا في أحوال، وأعمال فاسدة، وخرجوا عن التمييز الذي فضل الله به بني آدم على غيرهم.

وقد يقترب من كل من الطائفتين بعض أهل الحديث: تارة بعزل العقل عن محل ولايته، وتارة بمعارضة السنن به»(١).

○ **الجانب العسكري والجهادي:**

وقد أولى شيخ الإسلام رحمه الله هذا الجانب اهتماماً كبيراً، نظراً لما كانت تتعرض له الأمة الإسلامية من هجمات متوالية من التتار، والصليبيين، وحلفاءهم من أهل الجبل والنصيرية، فقد حث على الجهاد، ورغَّب فيه، وبيَّن أجر المجاهدين، وما أعده الله للشهداء من النعيم المقيم، وقد ذكرت جانباً كبيراً من حثه على الجهاد في كتابي الذي قمت فيه بتحقيق ثلاث رسائل في الحث على الجهاد لشيخ الإسلام ابن تيمية بالمشاركة مع أحد الأخوة الأحبة جزاه الله خيراً، ومن خلال الممارسة الميدانية التي قام بها بنفسه ومعه جماعة من المتطوعين من تلاميذه ومحبيه ومن تلك الإنجازات التي حققها في هذا الميدان:

---

(١) مجموع الفتاوى: ٣/ ٣٣٨ـ٣٣٩.

○ الحيلولة بين قازان ودخول دمشق، وتخليص الأسارى المسلمين من أيدي أتباعه من التتار، وجرأته في مخاطبته وذلك في عام: ٦٩٩هـ:

وها هو الشيخ ابن الأنجا الذي رافق ابن تيمية رحمهما الله، وحضر معه إلى قازان يتحدث عن هذا اللقاء فيقول:

«كنت حاضراً مع الشيخ فجعل يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل وغيره، ويرفع صوته على السلطان في أثناء حديثه حتى جثا على ركبتيه، وجعل يقرب منه في أثناء حديثه، حتى لقد قرُب أن تلاصق ركبته ركبة السلطان، والسلطان مع ذلك مقبل عليه بكليته، مُصغَ لما يقول، شاخص إليه لا يعرض عنه، وأن السلطان من شدة ما أوقع الله له في قلبه من المحبة والهيبة، سأل من يخصه من أهل حضرته؛ من هذا الشيخ؟ وقال ما معناه: إني لم أر مثله ولا أثبت قلباً منه، ولا أوقع من حديثه في قلبي، ولا رأيتني أعظم انقياداً مني لأحدٍ منه، فأخبرَ بحاله، وما هو عليه من العلم والعمل.

فقال الشيخ للترجمان: قل لقازان: أنت تزعم أنك مسلم، ومعك قاضي وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا فغزوتنا، وأبوك وجدك كانا كافرين، وما عَمِلا الذي عملت: عاهدا فوفيا، وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت وجُرت».

فخرج من بين يديه مكرماً معززاً قد صنع له الله بما طوى

عليه نيته الصالحة من بذله نفسه في طلب حقن دماء المسلمين، فبلغه ما أراده. وكان ذلك أيضاً سبباً لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم، وردهم على أهلهم وحفظ حريمهم، وهذا من أعظم الشجاعة والثبات، وقوة الجأش.

وكان يقول: لن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه، فإن رجلاً شكى إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة، فقال: لو صححت لم تخف أحداً، أي خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك[1].

وأخبر قاضي القضاة أبو العباس: أنهم لما حضروا مجلس قازان، قدم لهم طعام فأكلوا منه، إلا ابن تيمية: فقيل لم لا تأكل؟ فقال: كيف آكل من طعامك، وكله مما نهبتهم من أغنام الناس طبختموه بما قطعتم من أشجار الناس، ثم إن قازان طلب منه الدعاء، فقال في دعائه: اللهم إن كنت تعلم أنه إنما قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وجاهد في سبيلك فأن تؤيده وتنصره، وإن كان للملك والدنيا، والتكاثر فأن تفعل به، وتصنع، فكان يدعو عليه، وقازان يؤمن على دعائه، ونحن نجمع ثيابنا خوفاً أن يقتل فيطرس بدمه، ثم لما خرجنا قلت له: كدت تهلكنا معك، ونحن ما نصحبك من هنا. فقال: وأنا لا أصحبكم، فانطلقنا عصبة،

---

(١) الأعلام العلية: ص ٧٠ـ ٧٢، الكواكب الدرية: ٢٥ـ ٢٦، عن ابن تيمية للندوي ص ٥٠ ـ ٥١.

وتأخر فسمعت به الخواتين والأمراء، فأتوه من كل فج عميق، وصاروا يتلاحقون به ليتبركوا برؤيته، فما وصل إلا في نحو ثلاث مائة فارس في ركابه، وأما نحن فخرج علينا جماعة فشلحونا»[1].

- لما جاوز قازان المغولي بجيشه الفرات عام ٧٠٠هـ، وقصد حلب وأخذ الناس يتركون البلاد طلباً للنجاة من شراسة المغول، قام شيخ الإسلام بحثِّ الناس على الجهاد واجتمع بالأمراء، وذهب إلى القاهرة، يسأل السلطان محمد بن قلاوون الدفاع عن الشام، وقال لهم فيما قال:

- إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته، أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن، ولم يزل بهم حتى جردت العساكر إلى الشام»[2].

- وفي عام ٧٠٢ هـ حين جاء التتار مرة ثالثة، كان شيخ الإسلام في الصف الأول من المعركة، وقاتل قتال الشجعان الكبار، ووضع نفسه موضع الموت في ميدان المعركة، وأصدر فتوى بالإفطار للمقاتلين، وكان لوجوده الأثر الكبير في الانتصار في معركة شقحب[3].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) البداية والنهاية: ١٤/ ١٥، شذرات الذهب: ٥/ ٤٥٥.

(٣) شذرات الذهب: ٦/ ٤، البداية والنهاية: ١٤/ ٢٥-٢٦.

ـ ومن ذلك قتاله لطائفة النصيرية أهل الجبل وكسروان في عامي ٦٩٩هـ و٧٠٥هـ الذين كانوا يتعاونون مع الصليبيين والمغول، فاستتاب خلقاً منهم، وألزمهم شرائع الإسلام، وقد حصل بسبب حضوره هذه الغزوة خير كثير، وأبان عن علم وشجاعة لا نظير لهما، وقد امتلأت قلوب حساده غماً وهماً»[١].

○ الجانب الأخلاقي:

فقد كان يحث أصحابه على التحلي بأخلاق الإسلام من الصفح والعفو ومعاملة الناس بالحسنى، والحرص على وحدة جماعة المسلمين، وائتلاف قلوبهم، واتحاد كلمتهم، وقد ذكرت طائفة من أقواله فيما سبق عند حديثي عن حرصه على وحدة الجماعة، وممارسته الجانب السلوكي الإسلامي في تعامله مع الآخرين وصفحه وتسامحه مع من آذوه، ورفضه أن يؤذى أحد من المسلمين بسببه.

كان هذا الشمول في منهجه رحمه الله دليلاً على ما وهبه الله عزّ وجلّ من بعد النظر، ودقة الفهم، ورحابة الأفق، وعلى أنه كان بجدارة مجدداً للقرن الثامن الهجري».

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ٣٥.

وبعد حديثنا عن هذا الجانب من جوانب منهجه الإصلاحي والدعوي أكون قد أبرزت أهم جوانب منهجه الدعوي والإصلاحي، والله أعلم.

ب ـ العمل الجماعي، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وموقعهما في منهجه الإصلاحي:

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو جوهر العبادة حيث أن التعريف الشامل للعبادة هي كل ما يحبه الله تعالى من الأقوال والأفعال، وبالتالي فهي الهدف الذي خلق الله الإنسان من أجله، وهي الأمانة التي عجزت السموات والأرض والجبال عن حملها وحملها الإنسان، ولما للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهمية فقد احتل مكاناً بارزاً في منهجه الدعوي، وسأبرز هذه الأهمية من خلال كلامه ومواقفه، وأوضح أبرز مظاهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عنده وهو العمل الجماعي:

ـ أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال رحمه الله:

«إن كان صلاح العباد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن صلاح المعاش والعباد في طاعة الله ورسوله، ولا يتم ذلك إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبه صارت هذه الأمة خير أمة أُخرجت للناس، قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

﴿تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقال تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وقال تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١] وقال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، فأخبر الله تعالى أن العذاب لما نزل نجى الذين ينهون عن السوء، وأخذ الظالمين بالعذاب الشديد(١).

وقال رحمه الله:

«فمعلوم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإتمامه بالجهاد هو من أعظم المعروف الذي أمرنا به، ولهذا قيل: ليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر.

وإذا كان هو من أعظم الواجبات والمستحبات، فالواجبات والمستحبات لا بد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة، إذ بهذا بعثت الرسل، وأنزلت الكتب، والله لا يحب الفساد، بل كل ما أمر الله به فهو صلاح»(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/٣٠٦.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٨/١٢٦.

وعن مراتبه يقول رحمه الله:

«وذلك يكون تارة بالقلب، وتارة باللسان، وتارة باليد، فأما القلب فيجب بكل حال، إذ لا ضرر في فعله، ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن، كما قال النبي ﷺ: «وذلك أدنى ـ أو ـ أضعف الإيمان».. وهنا يغلط فريقان من الناس:

فريق يترك ما يجب من الأمر والنهي تأويلاً لهذه الآية، كما قال أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه في خطبته: إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] وإنكم تضعونها في غير موضعها، وإني سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه.

والفريق الثاني: من يريد أن يأمر وينهى إما بلسانه وإما بيده مطلقاً، من غير فقه وحلم وصبر ونظر فيما يصلح من ذلك وما لا يصلح، وما يقدر عليه وما لا يقدر.

فيأتي بالأمر والنهي معتقداً أنه مطيع في ذلك لله ورسوله، وهو معتد في حدوده»[1].

ـ آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال رحمه الله:

«فلا بد من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما، ولا

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ١٢٧ـ١٢٨.

بد من العلم إلى المأمور والمنهي، ومن الصلاح أن يأتي بالأمر والنهي بالصراط المستقيم، وهو أقرب الطرق إلى حصول المقصود.

ولا بد في ذلك من الرفق كما قال النبي ﷺ: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه ولا كان العنف في شيء إلا شانه»[1] وقال: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف»[2].

ولا بد أيضاً أن يكون حليماً صبوراً على الأذى، فإنه لا بد أن يحصل له أذى. فإن لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح، كما قال لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]. ولهذا أمر الله الرسل. وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بالصبر.. فلا بد من هذه الثلاثة: العلم، والرفق، والصبر.

العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده، وإن كان كل من الثلاثة مستصحباً في هذه الأحوال.

وهذا كما جاء في الأثر عن بعض السلف ورووه مرفوعاً، ذكره القاضي أبو يعلى في المعتمد: «لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان: فقيهاً فيما يأمر به، فقيهاً فيما ينهى عنه، رفيقاً

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٥٩٤.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٦٠٢٤، ومسلم: ٢١٦٥.

فيما يأمر به رفيقاً فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به، حليماً فيما ينهى عنه».

- العمل الجماعي مظهر من مظاهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إن العمل الجماعي مطلوب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي في أمور الدعوة إلى الله عزّ وجلّ، ولا يسع الفرد المسلم إلا أن يعمل مع جماعة مؤمنة لاعلاء كلمة الله تعالى ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله:

«يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس، حتى قال النبي ﷺ: إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم» رواه أبو داود، من حديث أبي سعيد، وأبي هريرة(١).

وروى الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو، أن النبي ﷺ قال: «لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم» فأوجب ﷺ تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر، تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع، ولأن

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ١٣٦-١٣٧.

الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة»[1].

ـ حث الإسلام على العمل الجماعي في كل الأمور:

وأفضل الأعمال ـ في كل الأمور ـ ما كان جماعياً فصلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد، والحج لا يكون إلا مع جماهير المسلمين، والجمعة لا تصح إلا في جماعة، ومع أن المحاسبة على الطاعات والمعاصي فردية، إلا أن الفضل والثواب يزداد فيها عند عملها مع جماعة، مما يدل على فضل الجماعة في الإسلام، والنظر الدقيق لجميع العبادات في الإسلام يجد المنحى الجماعي فيها واضحاً، وأمر الجماعة أوسع من أن يكون في العبادات فقط، بل هو سُنَّة الله في خلقه، وهو أمر تدعو له مصلحة الدين والدنيا، ولذلك كانت الروح الجماعية واضحة في المعاملات والعادات[2] وفي توضيح أهمية العمل الجماعي في كل الأمور يقول شيخ الإسلام رحمه الله:

«وكل بني آدم لا تتم مصلحتهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بالاجتماع والتعاون والتناصر، فالتعاون والتناصر على جلب منافعهم، والتناصر لدفع مضارهم، ولهذا يقال: الإنسان مدني

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٣٩٠.

(٢) مسافر على طريق الدعوة: ص ٦٦.

بالطبع، فإذا اجتمعوا فلا بد لهم من أمور يفعلونها يجلبون بها المصلحة، وأمور يجتنبونها لما فيها من المفسدة، ويكونون مطيعين للآمر بتلك المقاصد، والناهي عن تلك المفاسد، فجميع بني آدم «لا بد لهم من طاعة آمر وناه»[1].

ويقول رحمه الله:

«ولهذا أمر النبي ﷺ أمته بتولية ولاة أمور عليهم، وأمر ولاة الأمور أن يردوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، وأمرهم بطاعة ولاة الأمور في طاعة الله تعالى، ففي سنن أبي داود عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم»... فإذا كان قد أوجب في أقل الجماعات وأقصر الاجتماعات أن يولي أحدهم: كان هذا تنبيهاً على وجوب ذلك فيما هو أكثر من ذلك»[2].

ـ الإمارة ركن من أركان العمل الجماعي:

والجماعة لا تتحقق إلا بأمير أو قائد، وقد جرت سُنَّة الله تعالى في كل خلقه بذلك، وذكرت أقوال شيخ الإسلام في تولية ولاة الأمور على الناس ووظيفتهم في إقامة العدل بينهم، وإذا كانت هذه القضية سُنَّة كونية في سائر الخلائق من قطعان الماشية

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٦٢.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٦٤ـ ٦٥.

التي تنقاد خلف واحد منها، وأسراب الأسماك في البحر، والطيور في الهواء، والنحل، والنمل وكيف ترتب إجراء مصالحها وهي في جماعاتها وأسرابها بناءً على هذه السُّنَّة، فلا بد أن تجري هذه السنة الكونية على البشر بكل أجناسهم ومذاهبهم، إذ لا بد من التعاون والتناصر، ولا بد لهذا من أمر ونهي اللذين هما ركن الإمارة ومقصد التأمير، وفي ذلك يقول رحمه الله: «وكل بشر على وجه الأرض فلا بد له من أمر ونهي، ولا بد أن يأمر وينهى، حتى لو أنه وحده لكان يأمر نفسه وينهاها، إما بمعروف وإما بمنكر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ...﴾ [يوسف: ٥٣] وبنو آدم لا يعيشون إلا باجتماع بعضهم مع بعض، وإذا اجتمع اثنان فصاعداً فلا بد أن يكون بينهما ائتمار بأمر، وتناهٍ عن أمر، ولهذا كان أقل الجماعة في الصلاة اثنين، كما قيل: الاثنان فما فوقهما جماعة:.. وأما الأمور العادية ففي السنن أنه ﷺ قال: «لا يحل لثلاثة يكونون في سفر إلا أمروا عليهم أحدهم»[(١)].

ـ الطاعة ركن العمل الجماعي الثاني:

فإذا كانت الإمارة هي الأساس لفكرة العمل الجماعي والجماعة، فلا مبرر لوجودها ما لم يكن لها طاعة، والطاعة في الشريعة لا تكون إلا في المعروف، ولقد جاءت الأحاديث

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ١٦٨-١٦٩.

مستفيضة في وجوبها سواء أكانت في السفر الحقيقي كما وردت، وتقاس عليها الأعمال الدعوية لتحقيق طاعة الله تعالى، أم ما ورد في غيره حتى تجري جميع الأمور على نسق واحد، ورأي واحد، ومع هذا فقد وردت الآيات والأحاديث في طاعة الأمير ووجوبها صراحة في الأعمال الدعوية.

يقول رحمه الله تعالى في ذلك:

«وأولوا الأمر: أصحاب الأمر وذووه، وهم الذين يأمرون الناس، وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة وأهل العلم والكلام، فلهذا كان أولوا الأمر صنفين: العلماء والأمراء، فإذا صلحوا صلح الناس، وإذا فسدوا فسد الناس، كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه للأحمسية لما سألته: ما بقاؤنا في هذا الأمر؟ قال: ما استقامت لكم أئمتكم، ويدخل فيهم الملوك والمشايخ وأهل الديوان، وكل من كان متبوعاً فإنه من أولي الأمر، وعلى كل واحد من هؤلاء أن يأمر بما أمر الله به، وينهى عما نهى الله عنه، وعلى كل واحد ممن عليه طاعته أن يطيعه في طاعة الله، ولا يطيعه في معصية الله»[1].

○ شيخ الإسلام يقود عملاً جماعياً ويمارس العلم الجماعي:

وكل من يدرس بإمعان سيرة شيخ الإسلام رحمه الله سيجد

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ١٧٠.

أنه لم يكتف بالتنظير ووضع الأسس الشرعية للعمل الجماعي، وبيان محاسنه وفضائله، وحث الإسلام عليه، بل سيجد أنه كان قائد جماعة تلتزم بأمره، وتعمل بمشورته وتصدر عن رأيه، وتعيش معه سراءه وضراءه، ويأخذها الظلمة بما ينقمون على الشيخ، وتحارب تحت لوائه، وتتواصل معه بكل أنواع الصلات[1] والدليل على ذلك ما كتبه شيخ الإسلام وهو في سجن الإسكندرية في رسالته التي أرسلها إلى جماعته حيث يقول فيها:

«﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ [الضحى: ١١]، والذي أُعرف به الجماعة أحسن الله إليهم في الدنيا وفي الآخرة وأتم عليهم نعمته الظاهرة والباطنة فإني - والله العظيم الذي لا إله إلا هو - في نعم من الله ما رأيت مثلها في عمري كله، وقد فتح الله سبحانه وتعالى أبواب فضله، ونعمته وخزائن جوده، ورحمته ما لم يكن بالبال ولا يدور في الخيال..، الخ[2] وبعد أن يسترسل الشيخ ما بين نعم الله على العبد المؤمن إذا ابتلاه يقول:

«وأنا في هذا المكان أعظم قدراً وأكثر عدداً ما لا يمكن حصره، وأكثر ما ينقص عليَّ الجماعة!! فأنا أحب لهم أن ينالوا من اللذة والسرور والنعيم ما تقر به أعينهم، وأن يفتح لهم من

---

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية والعمل الجماعي لعبد الرحمن عبد الخالق: ص ٩.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٣٠.

معرفة الله وطاعته والجهد في سبيله ما يصلون به إلى أعلى الدرجات..»[1].

ويقول رحمه الله:

«والمقصود إخبار الجماعة بأن نعم الله علينا فوق ما كانت بكثير كثير، ونحن بحمد الله في زيادة من نعم الله وإن لم يمكن خدمة الجماعة باللقاء فأنا داع لهم بالليل والنهار، قياماً ببعض الواجب من حقهم، وتقرباً إلى الله تعالى في معاملته فيهم»[2].

ثم يوجه إليهم رحمه الله لا أقول موعظته بل (أوامره) على حد تعبيره حيث قال:

«والذي آمر به كل شخص منهم أن يتقي الله ويعمل لله مستعيناً بالله، مجاهداً في سبيل الله، ويقصد بذلك أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، ويكون دعاؤه وغيره بحسب ذلك، كما أمر الله به ورسوله»[3].

- جماعة الشيخ تمارس تغيير المنكر باليد أحياناً:

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله في أحداث سنة (٦٩٩هـ) (وفي يوم الجمعة سابع عشر رجب أعيدت الخطبة بدمشق

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٤١.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٤٤.

(٣) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٤٤-٤٥، شيخ الإسلام ابن تيمية والعمل الجماعي: ص ٩-١٠.

لصاحب مصر، ففرح الناس بذلك، وكان يُخطبُ لقازان بدمشق وغيرها من بلاد الشام مائة يوم سواء.

وفي بُكرة يوم الجمعة المذكور دار الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله، وأصحابه على الخمارات والحانات، فكسروا آنية الخمور، وشققوا الظروف، وأراقوا الخمور، وعزروا جماعة من أهل الحانات المتخذة لهذه الفواحش، وفرح الناس بذلك»[1].

وهذا نص واضح أن الشيخ رحمه الله كان يخرج هو وأصحابه فيكسرون آنية الخمور، ويشققوا الظروف (وهي القرب وأمثالها التي فيها) ويريقونها، وأنهم كانوا يعزرون أصحابها، والتعزير يقتضي الضرب ونحوه، فأي مثال أبلغ من هذا أنه كان للشيخ جماعة وأنصار وأصحاب وأعوان يقتدون بفعله ويأتمرون بأمره.

ولا شك أنه لم يكن كل الناس موافقين لما يقوم به شيخ الإسلام، وإلى أنه مجرد عالم محتسب ليس موظفاً عند الدولة، ولا هو تابع لأحد الأمراء، فكيف يمارس هذه السلطات ولذلك حسده الكثير من المشايخ العاطلين عن العلم والفضل والعمل، وكذلك الأوباش من أهل الفسق ثاروا عليه كما يروي ابن كثير (في أحداث عام ٧٠١هـ) حيث قال:

«وفي هذا الشهر (شوال) ثار جماعة من الحسدة على

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ١١.

الشيخ تقي الدين وشكوا منه أنه يقيم الحدود ويعزر ويحلق رؤوس الصبيان، وتكلم هو أيضاً فيمن يشكو منه ذلك، وبيَّن خطأهم، ثم سكنت الأمور»[١].

وفي هذا النص دليل على أن الشيخ رحمه الله كان يرى مشروعية إقامة الحدود، وتعزير الخارجين على حكم الكتاب والسُّنّة، ولا شك أن الشيخ رحمه الله كان يفعل ذلك مستنداً إلى قبوله لدى عامة الناس، وإلى جماعته وكثرة أتباعه، وكذلك إلى هيبته عند بعض ذوي السلطان ممن كانوا على مذهب أهل السُّنّة والجماعة أو يميلون إلى ذلك»[٢].

ـ بعض مواقفه في تغيير المنكر:

وسأذكر فيما يلي بعض مواقفه في تغيير المنكر على سبيل الاختصار:

ـ فمن ذلك أن شيخ الإسلام استحضر محمد الخباز البلاسي، فاستتابه عن أكل المحرمات، ومخالطة أهل الذمة، وكتب عليه مكتوباً أن لا يتكلم في تعبير المنامات ولا في غيرها مما لا علم له به، وكان ذلك في سنة ٧٠٤هـ[٣].

ـ ومن ذلك أنه في رجب من سنة (٧٠٤هـ) أحضر إلى

(١) المصدر السابق: ١٤/ ١٩.
(٢) ابن تيمية والعمل الجماعي: ١٣ـ ١٤.
(٣) البداية والنهاية: ١٤/ ٣٣.

الشيخ تقي الدين بن تيمية شيخ كان يلبس دلقاً كبيراً متسعاً جداً يسمى المجاهد إبراهيم القطان، فأمر الشيخ بتقطيع ذلك الدلق، فتناهبه الناس من كل جانب، وقطعوه حتى لم يدعوا منه شيئاً وأمر بحلق رأسه، وكان ذا شعر، وقلم أظفاره وكانت طوالاً جداً، وحف شاربه المسبل على فمه المخالف للسُّنّة، واستتابه من كلام الفحش، وأكل ما يغير العقل من الحشيشة، وما لا يجوز من المحرمات وغيرها.

ـ ومن ذلك في هذا الشهر بعينه راح الشيخ تقي الدين بن تيمية إلى مسجد النارنج، وأمر أصحابه ومعهم حجارون بقطع صخرة هناك بنهر قلوط تُزار ويُنذر لها، فقطعها وأراح المسلمين منها، ومن الشرك بها، فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرها عظيماً»[1].

ـ ومن ذلك تكسيره لأصنام الباب الصغير في «درب النافدانيين»، وصنم قبة اللحم، وصنم فراش الطاحون، وصنم «حجارين حجر» وغير ذلك مما أزاح عن صدور المسلمين شبهات كادت تفتك بإيمانهم وعقيدتهم[2].

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ٣٣ـ ٣٤، ناحية من حياة شيخ الإسلام: ص ١٧، ذيل طبقات الحفاظ: ص ٢٠١.

(٢) لمعرفة تفاصيل ذلك انظر: ناحية من حياة شيخ الإسلام: ص ١٠ـ١٩، شذرات الذهب: ٦/ ٩، وغيرها.

- ومن ذلك مناقشته لطائفة الأحمدية وإنكاره عليهم ما يأتون به من البدع والخرافات، والحيل والبهتان حتى قال الشيخ صالح المنيج: نحن أحوالنا إنما تنفق عند التتر ليست تنفق عند الشرع، وقد ألزموا أحكام الشرع وعدم الخروج عن الكتاب والسُّنّة، وأظهر الله السُّنّة على يديه وأخمد بدعتهم ولله الحمد والمنّة[1].

- ومن ذلك توسطه لدى السلطان ليبطل ما ضُرب على أهل الشام من ضرائب على الأملاك والأوقاف، فتألم الناس لذلك تألماً عظيماً، فأخبر شيخ الإسلام السلطان بذلك وتوسط لإلغاء الضرائب وعزل الوالي ففعل السلطان ووافق على وساطة شيخ الإسلام[2].

وغير هذه المواقف كثير في حياته رحمه الله تعالى وأحسن مثوبته.

جـ - مواصفات الداعية الناجح ومدى انطباقها على شيخ الإسلام ابن تيمية:

إن الدعوة إلى الله تعالى ومنهجه القويم، مهمة كلف الله تعالى بها الممتازين من البشر، والموهوبين من الخلق، ولا يقوى

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ٣٥.

(٢) البداية والنهاية: ١٤/ ٦٢.

على تحملها إلا عظماء النفوس، ورجحاء العقول وأقوياء الهمم والعزائم، ولذلك فقد كانت مهمة الدعوة إلى الله مهمة الأنبياء والمرسلين وورثتهم الشرعيين من أهل العلم والخير والفكر والرشاد، ونحوهم من أصفياء الخلق، ولأن رسالة الدعوة إلى الله بهذه الخطورة، وتتميز بهذه الأهمية العظيمة فقد كان من البدهي أن يتصف من يقوم بها من الدعاة بصفات تؤهلهم للقيام بهذا الدور وأداءه بشكل ناجح، والسير بدعوة الله إلى الأمام.

ولا شك أن شيخ الإسلام قد نال من هذه الصفات حظاً وافراً، أهله ليكون نموذجاً حياً للدعاة إلى الله في عصر الركود الفكري والجمود الديني، وفي هذا الجانب نجد في ابن تيمية شخصية عريضة المعالم، عميقة الغور، صنعها الله على عين الإسلام في بدئه غريباً، وفي قوته مؤيداً رهيباً، وفي سماحته رغيباً أريباً، وفي عدله حكيماً لبيباً، وفي رحمته مواسياً حبيباً، وفي آدابه وشرائعه معلماً نجيباً»[1].

ومن أبرز تلك الصفات التي أهلته لذلك:

١ ـ قوة الصلة بالله تعالى:

إن الصلة بالله تعالى تعد الدعامة الأولى في أخلاق الدعاة،

---

(١) ابن تيمية نموذج من دعاة الإصلاح: محمد صادق عرجون/ مجلة الوعي الإسلامي السنة الثامنة/ عدد ٨٨/ ص ٦٤.

والمرتكز الركين الذي ينطلقون منه في حركتهم بدعوتهم، وهذا يقتضي معرفة حسنة به سبحانه وتعالى، لأن المعرفة الصحيحة بالله تعالى هي أساس الدعوة، فكلما ضعفت معرفة الداعية بالله تعالى لم يمكنه ذلك من تحمل تكاليف الدعوة إلى الله، ولنلق نظرة على حياة شيخ الإسلام لنستشف من خلالها هذا الجانب الذي ظهر فيه بقوة.

فرغم انشغال ابن تيمية رحمه الله الدائب في مدارسة العلم، وعمله المتواصل في تربية الناس وإصلاح ما فسد من أحوالهم، وجهاده المتواصل بقلبه وقلمه ولسانه ويده عن حياض الإسلام، فقد كان دائم الصلة بربه عزّ وجلّ، حتى كان إذا أغلق عليه فهم مسألة، أو غاب عنه رؤية الحق فيها، يذهب إلى مسجد مهجور، ويضع جبهته على التراب ويردد قوله: «يا معلم إبراهيم فهمني»[(١)].

وكان يقول: إنه ليقف خاطري في المسألة والشيء أو الحالة التي تشكل عليّ، فاستغفر الله تعالى ألف مرة أو أكثر أو أقل، حتى ينشرح الصدر، وينحل الإشكال، قال: وأكون إذ ذاك في السوق أو المسجد أو الدرب أو المدرسة، لا يمنعني ذلك من الذكر والاستغفار حتى أنال مطلوبي»[(٢)].

---

(١) العقود الدرية: ص ٢٦.

(٢) العقود الدرية: ص ٥ـ٦.

فهذه الحالات الروحية السامية هي التي كانت تجعله يشعر دائماً بأنه في كنف الله، وهي التي كانت تسيطر على حياته كلها حتى يرى أن اللذة الحقيقية، والفرحة الدائمة، والسرور الذي لا ينقطع، إنما هو في معرفة الله سبحانه وتعالى، وتوحيده والإيمان به، وانفتاح الحقائق الإيمانية والمعارف القرآنية.

يقول رحمه الله:.

«فإن اللذة والفرح والسرور وطيب الوقت والنعيم الذي لا يمكن التعبير عنه إنما هو في معرفة الله سبحانه وتوحيده والإيمان به، وانفتاح الحقائق الإيمانية والمعارف القرآنية كما قال بعض الشيوخ: لقد كنت في حال أقول فيها: إن كان أهل الجنة في هذه الحال أنهم لفي عيش طيب، وقال آخر: لتمر على القلب أوقات يرقص فيها طرباً، وليس في الدنيا نعيم يشبه نعيم الآخرة، إلا نعيم الإيمان والمعرفة»[١].

وكان يقول:

«وليس للقلوب سرور ولا لذة تامة إلا في محبة الله، والتقرب إليه بما يحبه، ولا تمكن محبته إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه، وهذا حقيقة لا إله إلا الله»[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٣١.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٣٢.

وكان رحمه الله يرى أن هذه المحبة هي جنة الدنيا ونعيمها، وأن من حرم هذه الجنة لم يدخل جنة الآخرة، فكان يقول: إن في الدنيا جنة، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة»[١].

ولهذا لم يكن يعبأ بالسجن، ولا يجزع من الحبس، بل كان يرحب به إذا حصل، لأنه يفرغه للعبادة والذكر، والاجتهاد في التبتل والخشوع، وكان يعتقد أن المحبوس حقيقة هو المحبوس عن ذكر الله، ويقول في ذلك: المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه»[٢].

ولأهمية الصلة بالله تعالى في منهج الدعوة إلى الله فقد كان شيخ الإسلام يراعيه في نفسه ويأمر به جماعته وتلاميذه، فقد قال الحافظ الذهبي رحمه الله في وصف شيخ الإسلام.

«إنه دائم الابتهال، كثير الاستغاثة، قوي التوكل، ثابت الجأش، له أوراد وأذكار يدمنها بكيفية وجمعية»[٣].

ولهذا كان إذا دخل في الصلاة ترتعد فرائصه وأعضاؤه حتى يميل يمنة ويسرة.

---

(١) الوابل الصيب: ص ١٠٥.
(٢) الوابل الصيب: ص ١٠٥.
(٣) العقود الدرية: ص ١١٨.

٢ ـ الاستبحار العلمي والثقافي:

ومن تلك الصفات التي أهلته ليكون نموذجاً يحتذى في الدعوة إلى الله، الاستبحار العلمي وسعة الاطلاع، فقد تميز رحمه الله بسعة معارفه في جميع فنون المعارف التي كانت معروفة في عصره، وكان كثير منها قد استوى في ذروته ونضجت مباديه وأصوله، فقرأها وهضمها، ونقدها وزيف الباطل منها، وانتفع بما فيها من حق وخير.

ولقد صادف ذلك عنده تبحره في علوم الإسلام والعربية بما لم يعرفه التاريخ العلمي في الإسلام لفرد غيره، منذ أن قام بنهضته الإصلاحية داعياً إلى الله، مبلغاً رسالة الإسلام كما فهمها من الكتاب والسُّنّة وأقاويل الصحابة والتابعين، وقد اعترف بفضله وقوته في العلوم والمعارف، الفطاحل من معاصريه الذين كان لهم في مجال الفكر الإسلامي القدح المعلى، والذين تعتبر شهادتهم مفخرة في حياة هذا الإمام الداعية المجاهد، يقول فيه الإمام ابن دقيق العيد، وكان قد اجتمع به وسئل عنه (رأيت رجلاً العلوم كلها بين عينيه، يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريد) ويقول عنه ابن سيد الناس: (كاد يستوعب السنن والآثار حفظاً، أن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر في الحديث فهو صاحب علمه ودرايته، أو حاضر بالملل والنحل لم تر أوسع من نحلته في ذلك ولا أرفع من دلالته، برز

في كل علم على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عيناه مثل نفسه) ويقول فيه الزملكاني: (كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه من قبل، ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه، ولا تكلم في علم من العلوم سواء أكان من علوم الشرع أم غيرها إلا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه»[١].

والحق أن الاستبحار العلمي والفكري والثقافي المطلوب بقوة وإلحاح يرتكز على القواعد المعرفية التالية بشكل أساسي:

- المعرفة الحسنة بعلوم الكتاب والسُّنّة.
- الاطلاع على التاريخ الإسلامي والإنساني.
- دراسة اتجاهات علوم النفس وفروعها المتعددة.
- الاطلاع على علوم الكون والجغرافية والحياة.
- التعرف الواعي على شتى المذاهب الفلسفية.
- الإلمام بعلوم اللغة والأدب العربي.

(١) من نماذج الدعاة لمحمد صادق عرجون/ مجلة الوعي الإسلامي/ عدد ٨٨/ السنة الثامنة/ ص ٦٨.

وقد أوتي شيخ الإسلام رحمه الله منها حظاً وافراً، وقد ذكرنا الكثير عن معارفه وعلومه في ثنايا هذا الكتاب بما يغني عن إعادة بعضه هنا.

٣ ـ الإخلاص للفكرة والمبدأ:

إن الإخلاص الكامل للمبدأ هو سر نجاح وتألق الدعوات والحركات الإصلاحية، وذلك لأن صلاح النية وإخلاص الفؤاد لرب العالمين يرتفعان بمنزلة العمل الدنيوي البحت، فيجعلانه عبادة متقبلة، ولأن خبث الطوية يهبط بالطاعات المحضة فيقلبها إلى معاصي شائنة فلا ينال المرء منها بعد التعب في أدائها إلا الفشل والخسائر.

وقد ذكرت في أخلاقه وسجاياه في سجية وخلق الإخلاص، علامات كثيرة تدل على مدى صفاء قلبه، وإخلاصه في دعوته، فقد كثر خصومه واشتد عليه منهم الأذى، وبلغوا منه في محنته كل مبلغ إلا أن يسكتوه عن قولة الحق جهيرة مسموعة، وكثيراً ما تمكن من رد عدوانهم عليه، ولكنه يكرم ولم يؤذ أحداً منهم بل إنه كان يدافع عنهم، ويلتمس لهم الأعذار، وقد كتب إلى جماعته وتلاميذه يحذرهم أن يصيب أحداً ممن آذوه سوء منهم، وبين لهم شدة محبته لهم فقال: «لا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه عليّ، أو ظلمه لي وعدوانه عليّ، فإني قد أحللت كل مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد لكل

مؤمن من الخير ما أُريده لنفسي، والذين كذبوا وظلموا هم في حل من جهتي» بل لقد سما ابن تيمية بنفسه لأرفع المنازل حين أراد السلطان أن ينتصف له من خصومه ويوقع الأذى بهم، إلا أنه دافع عنهم وطلب من السلطان أن يعفو عنهم، وقد أثر هذا الموقف فيهم فعبروا عن ذلك بقول ابن مخلوف رحمه الله: «ما رأينا مثل ابن تيمية، حرضنا عليه، فلم نقدر، وقدر علينا وصفح وحاج عنا».

ولا شك أن هذا من أرفع ما عرف في أخلاق الدعاة إلى الله تعالى، وهو خلق رَبّىٰ عليه سيدُنا رسولُ الله ﷺ الطليعةَ من الرعيل الأول الذين سبقوا إلى الإسلام، فاحتملوا الأذى في سبيل عقيدتهم ودينهم»[1].

٤ ـ الشجاعة والثبات على الحق:

إن الإسلام يمقت الجبن والخوف والتردد، ويمجد الشجاعة والعزم والإقدام، فالرسالات العظيمة والمبادىء الكبيرة لا ينتصر لها، ولا يزيدها وضوحاً وألقاً وإغراءً باعتناقها، إلا ذوو الشجاعة والعزم من الناس، وأما الجبن فهو سلوك يذوي بالمبادىء ويدفن الحق تحت الثرى، كما أنه يمكن للظلم وما يستتبعه من مآرب خسيسة ونزوات دنيا وهبوط إنساني.

(١) من نماذج الدعاة/ مجلة الوعي الإسلامي/ عدد ٨٨/ السنة الثامنة/ ص ٩١.

ولقد تميز رحمه الله تعالى بالشجاعة الفائقة، وجرأته في الحق والجهر به، لا يخاف وعيداً وترهيباً، ولا يتلمظ إلى وعد وترغيب، وصبره واحتماله الأذى مما لم يعرف لأحد سوى أفراد من إبطال الإسلام، فقد عرف هذا الإمام منذ أحس بالمسؤولية الإيمانية وواجباتها وهو لا يزال في ميعة الشباب أنه مسؤول عن دينه، وأمته التي تخوض المحن والبلايا، فلا بد أن يكون طليعة لها، وقائداً دينياً يقودها إلى طريق عودتها إلى حقيقة إسلامها، تلك الحقيقة التي أضلتها في غمرة المحن والجهالات والأساطير والخرافات، فدرس وبحث وتعمق وتضلع، ونهض ليقوم بالعبء وحيداً، ولداته وأقرانه من حوله رضوا بالمقام في دنياهم، يدفعون عن أنفسهم شر المحن والبلايا سلباً، وحسب الفاضلين منهم أن يحتلوا كراسي التدريس في مدارس العلم المنتشرة في عواصم الإسلام، ولا عليهم أن يكون المجتمع على مستوى ما يدرسون له من علم ومعارف تبين حقائق الإسلام وشرائعه، ولكن ابن تيمية أبى أن يكون شغله فقط في التدريس في المدارس والمساجد، لأنه رأى أن دينه يكلفه تكليفاً ويدفعه دفعاً إلى أن يطبق علمه لإصلاح واقع الناس، ولا سيما في عقيدتهم لأن العقيدة هي الأساس لوزن كل عمل يصدر من المكلفين.

وقد شاهد في المجتمع أموراً أنكرها علمه ومعرفته، فجاهر بإنكارها، واشتد في دحض الأباطيل التي كان يراها منسوبة إلى الإسلام، والإسلام منها بريء، واجتهد في أمور ظهر له فيها من اجتهاده مخالفة من سبقه من الأمة، فأعلن ذلك وجاهر به، ولم يبال بصيحات المقلدين المتعصبين، ولا بقعقعة العامة، ولا ببطش الملوك والسلاطين، ولم يتهيب للألقاب والسمعة، ووقف مع اجتهاده يناضل عنه ويجادل الذين يجادلونه، ويقرع الحجة بالحجة، ويرد الشبهة بالدليل مع ثبات جأش، وقوة يقين، لا يهون ولا يستكين، وقد أتعب خصومه، وكانوا من ذوي السمعة العلمية من عصره، وذوي السلطان في الدولة، فعقدوا له مجالس المناظرة فكان يحضرها بمفرده، وكان خصومه كثرة في العدد، وقوة في التناصر بمكانتهم، فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً يتآمرون عليه، وكتبوا مرات يشكونه للسلطان، فحبس وأطيل حبسه، ولكن علمه لم يحبس، فكتب وأعلن عن آرائه، وخرج من الحبس فعاد إلى التدريس، واستشرى الخصام بينه وبين عدد من الطوائف من فقهاء إلى صوفية، إلى فلاسفة، إلى شيعة باطنية رافضة، إلى ملاحدة لا يؤمنون بالنبوة والرسالة ولكنهم ينتسبون إلى الإسلام، فلما عجزوا عن مجابهته، آذوه وحرضوا عليه الغوغاء فنالوا منه بأيديهم. وأبى على أنصاره ومريديه أن يشتبكوا معهم لدفع عدوانهم، وترجمته

مليئة بالقصص والحوادث التي وقعت له بسبب آرائه العلمية، ولكنه خرج منها كلها أشجع ما يكون»[1].

وقد ذكرت طرفاً من مواقفه الشجاعة، وجرأته في الصدع بالحق والثبات عليه، في أثناء حديثي عن أخلاقه وسجاياه رحمه الله.

٥ ـ دقة الفهم للدين والفقه بالواقع:

إن الداعية لا يعتبر جاداً وصادقاً في دعواه إن لم يبذل الجهد المطلوب، ويثابر على فهم حقيقة الدين وجوهره، واستيعاب نصوصه ومقاصده على الوجه المرتجى، ويستطيع أيضاً أن يفهم أحوال المدعوين، وأنماط المتغيرات، والمستجدات في حياتهم وواقعهم، لأن المداخل الصحيحة لتغيير واقع الناس لا يكون إلا بدراسة مشاكلهم، وأن يسهم بإخلاص في حل بعض جوانبها، وأن يظهر الداعية همة مشاركة المدعوين همومهم وأعباء ما يعانون من ظروف الحياة وأثقالها، وذلك بقصد صادق وعزيمة قوية، كي لا يشعر هؤلاء المدعوون بتكلف أو بقلة صدق في سلوك الداعية.

فالداعية الحكيم النابه هو الذي يحسن تشخيص الأدواء والعلل، ثم يضع لها الدواء المناسب من المظان المعصومة،

---

(١) من نماذج الدعاة/ محمد صادق عرجون/ ص ٨٩ـ ٩٠.

فيسوق من الحق الإلهي ما يقوِّمُ العوج الإنساني بلباقة وفقه، ويرسل من العظات ما يكون دواء حاسماً لما يحسه الناس في أنفسهم من حيرة واضطراب[1].

ولقد كان ابن تيمية رحمه الله تعالى ذلك الداعية العالم المتمتع بدقة الفهم للدين، فقد ألان الله له العلوم كما ألان لداود الحديد كما قال ابن الزملكاني، وأُوتي من الفهم والفقه بالواقع ومشاكل الناس وهمومهم، وعلل واقعهم وأمراضهم، ما جعله يستطيع تشخيص الدواء الناجع للأمراض الموجودة، ويحسن تقديم العلاج، فهو قد درس كل المذاهب الكلامية التي استفحل خطرها في واقع المسلمين فأفسدت صفاء عقيدتهم، وشغلتهم بما فتت صفوفهم، وفرق كلمتهم، وقد وصل إلى سبر غورها ومعرفة أسرارها، ورد على كل صغيرة وكبيرة من أباطيلها، وبين زيفها بالأدلة والبراهين القاطعة، وخلف الكثير من المصنفات التي عالجت جميع جوانب الحياة الإسلامية، مبيناً عللها وأدواءها، وقدم العلاج الناجع لها.

٦ ـ الاهتمام بأوضاع المسلمين ومعايشة الأحداث:

إن الداعية الحق يستحيل أن يعيش في غيبوبة عما يحدث للمسلمين، ولذلك فإن أوضاع وأحوال المسلمين يجب أن تكون

---

(١) مع الله: لمحمد الغزالي ص ١٩٥.

من صميم منهجه الدعوي الذي لا يتأثر بالنوازل والمتغيرات، ولقد كانت عين شيخ الإسلام مفتوحة على كل شؤون المسلمين، وعلى ما يعانون في مواطنهم الأصلية، يشاركهم في آلامهم وآمالهم، يعيش هموم مجتمعه وأحلامه، وَيُوِجِّهُ المسلمين في السراء والضراء، والمنشط والمكره، والعسر واليسر، فهو حين حاصر التتار دمشق عام ٦٩٩هـ خاف أهل البلد وهرب الأمراء والحكام والعلماء والأعيان، وأصبحت دمشق بلا قائد ولا نظام، وخرج المجرمون والمفسدون من سجونهم فعاثوا في الأرض فساداً، وهنا وقف ابن تيمية رحمه الله موقف الأبطال الشجعان فجمع كبار من بقي في البلد، واتفق معهم على ضبط الأمور في البلد، وذهب لمقابلة قازان، وطلب منه فك الحصار عن البلد، وأخذ الأمان منه لأهلها.

وما جمعه للمتطوعين وتدريبهم على السلاح، ومشاركته في معركة شقحب، ومتابعته لكثير من الأمور في شتى بلاد المسلمين إلا دليلاً عملياً على ذلك.

٧ ـ الزهد في الدنيا:

ومن الخصال التي تضع القبول للداعية في قلوب الناس زهده في الدنيا، وتباعده عن طلبها، تباعداً يفرغ فيه عقله وقلبه وجوارحه إلى العلم والمعرفة، ولقد اتفق أهل عصر ابن تيمية على وصفه بالزهد وعدم الطمع بملذات الدنيا، فلم يعرف عنه

أنه اشتغل بعمل من أعمال الدنيا، ليكسب منه مالاً، أو يقتني ضياعاً، ولا عرف عنه أنه تولى عملاً من أعمال الدولة، يتقاضى عليه أجراً، ولكنه أعطى حياته وجهده للدعوة إلى الله تعالى، من طريق العلم، يقول صاحب الكواكب الدرية «ما خالط الناس في بيع ولا شراء، ولا معاملة ولا تجارة، ولا مشاركة ولا مزارعة، ولا عمارة، ولا كان ناظراً لوقف، أو مباشراً لمال.. ولا كان مدخراً ديناراً ولا درهماً، ولا طعاماً ولا متاعاً، وإنما كانت بضاعته مدة حياته وميراثه بعد وفاته ـ رضي الله عنه ـ العلم اقتداءً بسيد المرسلين الذي قال «العلماء ورثة الأنبياء والأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ولكن ورثوا العلم، فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر»[(١)].

د ـ مجالات عمل دعوة ابن تيمية:

وجد شيخ الإسلام مجالات العمل كثيرة ومتشعبة، ووجد الميدان خالياً من الفرسان وأعداء الله يصولون ويجولون فيه وكل شيء حوله يحتاج إلى إصلاح: العامة في حاجة إلى التربية والتعليم، والعلماء في حاجة إلى التذكير والإيقاظ، والحكام في حاجة إلى الاستنهاض والاستنفار، والأعداء من التتار والصليبين يعيثون في الأرض فساداً، دون أن يجدوا مواجهة أو مقاومة.

(١) من نماذج الدعاة: لعرجون: ص ٩١.

لمس تعدد الميادين، ولكنها لم تفل من عزمه، ورأى انفساح المجالات، ولكنها لم توهن من قوته، وتأكد من شراسة الأعداء ولكنه أصر على المقاومة والتحدي، وهو موقن أن الله لن يتخلى عنه، ما دام يعمل في سبيل الدعوة، ويكافح من أجل نصرة الإسلام، ويستعين على هذا العمل الشاق المضني بذكرالله وطاعته، فقد كان يظل في مصلاه من بعد صلاة الصبح إلى وقت الضحى يذكر الله، وكان يقول: هذا غذائي، وإني إذا لم اتغذ بهذا الغذاء سقطت قواي.

لم يضيع رحمه الله وقتاً، أو ينتظر معيناً، فقد كان يؤمن بأن الوقت هو الحياة، وأن كل لحظة تمر دون عمل فهي خسارة لا يمكن تعويضها، لأن ما يمضي من الحياة لا يمكن استرجاعه، ويؤمن بأن الله هو المعين، وأن ما دونه إنما هي أسباب ظاهرة يسخرها لمن يشاء من عباده، والعون والنصر في الحقيقة من الله ـ عزّ وجلّ ـ[1].

١ ـ إصلاح العامة:

وقد حرص رحمه الله على إصلاح العامة من خلال تعليمهم الصحيح من أمور دينهم، فقد قام يشرح أمور الإسلام وشرائعه، وحرص في أثناء ذلك على تقديم بعض الأولويات. فقد

---

(١) استمرارية الدعوة. د. محمد السيد الوكيل: ٧٨ـ٧٩.

كان يقوم على شرح المفاهيم الأساسية للإسلام من خلال غرس العقيدة الصحيحة في قلوب السامعين، وبيان شبهات المنحرفين والرد عليها، ويشرح أحكام العبادة الصحيحة ويعلمها لهم رائدهُ في ذلك التمسك بما جاء في الكتاب والسُّنّة الصحيحة، ويعلمهم أحكام الجهاد فقهاً وتطبيقاً من خلال قيامه بحمل السلاح والتدريب عليه، ويشاركهم في أعمال الخير التي تعود بالنفع على الأمة.

ولكنه في طيات أحاديثه هذه كان لا ينسى التركيز على مفهوم الإسلام الشامل الذي يشمل كل جوانب الحياة، ويركز هذا المفهوم في نفوس الناس حوله، ويوقظ ضمائرهم لكي تتفاعل مع هذا المفهوم، وتتحرك للعمل، وتنهض بهم للجهاد في سبيل الله، واستطاع رحمه الله بعد جهود شاقة أن يصل إلى ما يريد، وكانت صحوة[1] حركت الساكن، وأيقظت النائم، وأحدثت حراكاً وسط سكون وجمود ثقيلين على نفوس الدعاة المخلصين.

وقد كان رحمه الله شديد الحرص على وحدة كلمة المسلمين، وائتلاف قلوبهم، وعلى تقديم كل ما ينفع الناس، عظيم الإحسان، يبذل نفسه ليدفع الأخطار عن أمته، وليس موقفه مع قازان، وقتاله لأهل الجبل، ونصرته للمظلومين وتحصيله لحقوقهم، وغير ذلك من المواقف التي يشعر أنها تدفع مفسدة

(١) استمرارية الدعوة: ص ٧٨ـ ٨٠ بتصرف.

عن المسلمين، أو تجلب منفعة ومصلحة لهم إلا فعلها أو حرص على القيام بها بنفسه رحمه الله.

٢ ـ إصلاحه للعلماء:

وذلك من خلال تذكيرهم بالقيام بواجباتهم التي كلفهم رب العزة بالقيام بها، فقد كان العلماء كثيرون ولكنهم في مجال العلم للدعوة والإصلاح لم يكن يميزهم عن العامة إلا علماً ملأ عقولهم، ولكنه لم يحرك وجدانهم، ومناصب شغلت حياتهم ولكنها شلت حركتهم، وقرب من السلطان والحكام أورثهم فخراً وتيهاً، ولكنه أسكت ألسنتهم، فلم يكونوا خيراً من العامة في شيء.

وقد كانت كلمة هؤلاء العلماء متفرقة، والنزاع والفرقة قد ملأت قلوبهم وأسباب ذلك تعود إلى الأمور التالية:

ـ التعصب المذهبي المقيت الذي سيطر على العقول، فأصابها بالعجز عن النظر في الأدلة لاتباع الحق.

ـ الاتجاه السياسي الذي زاد من تمزيق وحدتهم، وتوسيع هوة الخلاف بينهم، حيث عمدت الدولة إلى تعيين قاض لكل مذهب، وكأنها تقرهم على التعصب والاختلاف، وكان كل وزير يصطفى لنفسه عالماً منهم يقربه ويدنيه، وقد يغضب عليه لأمر ما فيقصيه وينفيه، حتى أصبح العلماء «لعباً في أيدي الحكام، لا يرون فيهم جلال العلم، ولا يجدون فيهم هيبة العلماء.

ـ ميل كثير منهم إلى تبني آراء المنحرفين من الصوفية، الذين كانوا يؤمنون بوحدة الوجود، ويقولون بنظرية الحلول والاتحاد.

كان العلماء في ذلك الحين لا يُرى لهم أثر على أرض الواقع، وقد أحسن العلاَّمة السيد أبو الحسن الندوي في وصف حالهم حيث قال:

«وكان العلماء لا يعيرون الأمور المخالفة للشرع أهمية في بعض الأحيان، كما كانوا يخافون من المعارضة والإنكار في حين آخر»[١].

رأى ابن تيمية رحمه الله هذه المواقف المخزية من العلماء، كما رأى بعينيه قعود بعضهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فطالبهم بالقيام بواجبهم نحو الإسلام والمسلمين[٢] وحضهم على أن يحسنوا تمثيل الإسلام بحق، بعيداً عن المصلحة الذاتية، والهوى الشخصي.

وقد رغب رحمه الله في إبعاد العلماء عن السلطان واستعطافه للحصول على المناصب، مبدياً اعتراضه على تقبيل الأيادي والانحناء بين أيديهم من أجل حَفنةٍ من المال تجري بين أيديهم.

---

(١) ابن تيمية للندوي: ٦٢.

(٢) استمرارية الدعوة: ص ٨٤.

وقد ضاق رحمه الله ذرعاً بهذا الصنف من العلماء، فبلغ مبلغاً عظيماً في التحذير من مثل هؤلاء العلماء، الذين أصبحوا أغنياء في رشوة أصحاب الحاجات الذين توسطوا لهم عند السلطان، ووصلوا إلى حد إباحة الرشوة لقضاء الحاجة.

وقد جلجل صوته بالمسجد يقول: «يجب أن يولَّى في كل مرتبة أَصلحُ مَنْ يقدر عليه، وأن يرزق أحق المسلمين، وأنفعهم للمسلمين».

وقد تجاوب معه قسم منهم فأحسنوا القيام بواجباتهم، وأسهموا معه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بفريضة الجهاد لإعلاء كلمة الله، وَجُوبِهَ من القسم الآخر بحسد وضغينة، ودس وتدبير مؤامرات، وإلقاءِ تُهم وافتراءات، وكيد له عند الحكام حتى يلقوه في غياهب السجون، من أجل أن يسجنوا كلمته، ولكنهم لم يستطيعوا سجن الكلمة رغم أنهم استطاعوا سجن الجسد بكيدهم المدبر بليل، ورغم هذا لم ينثن رحمه الله عن عزمه في القيام بالنصح لهم، وحب الخير وتمنيه لهم، ثم عفوه عنهم وتسامحه معهم حين قدر عليهم.

٣ ـ إصلاح الحكام والأمراء:

أقام شيخ الإسلام رحمه الله علاقات قوية ومتينة مع السلطان والأمراء في عصره، وكان منهم من يحبه ويحترمه

ويوقره، ويعجبهم فيه نهيه عن المنكر، وغيرته على سُنّة رسول الله ﷺ، وحرصه على إحيائها.

ورغم هذه المودة والعلاقة المتينة إلا أنه كان زاهداً فيما بين أيديهم، فلم يطلب لذاته شيئاً، ولم يطمع يوماً في منصب، وكان يرفض عطاياهم.

وكان رحمه الله يدعو الناس إلى طاعة أولي الأمر أينما كانوا، فإذا عصى هؤلاء الولاة فلا طاعة لهم من الرعية، وقد أحبه المماليك وهم حكام البلاد في تلك الأيام، لأنه لا يؤمن بالقول أنهم عبيد ولا بد أن يعتقوا، ولم ينس قول أحد الصحابة الذي قال: موالينا أمراؤنا، وكان شرط شيخ الإسلام في طاعتهم الاستقامة، فقد دعا إلى طاعتهم واشترط استقامتهم.

وكان يرى أن المماليك محاربين شجعان، يذود كلٌّ منهم عن ثغور أُمة الإسلام، فكان له احترام كبير ووقار شديد ومهابة عظيمة في أوساط المماليك.

وما جاء هذا الشعور المتبادل بين ابن تيمية والمماليك إلا لردهم التتار والصليبين، وهم أشد أعداء الإسلام في العصر الذي عاش فيه ابن تيمية.

بل ذهب المماليك إلى أبعد من ذلك تجاوباً مع الإمام الجريء ابن تيمية عندما أقروا عمله، وأعلنوا رغبتهم في إغلاق أماكن اللهو والحانات، وأوكار الفساد، والدعوة إلى تكوين شباب

إسلامي قوي غير متخنث ولا متشبه بالنساء، ولا مفسد في الأرض»[1].

ورغم علاقة الود المتبادلة هذه، فقد كان أعداؤه وحساده من العلماء والعامة على حد سواء، يثيرون عليه الحكام بشتى الوسائل، وكان الأمراء أو السلطان يحضرون ابن تيمية في مجالسهم للمحاكمة، ويناقشونه فيما اتهم به، وفي كل مرة تثبت براءته، ويخرج من المجلس منتصراً، ولكن ضغط هؤلاء الحساد يستمر قوياً مؤثراً، ما يضطر الحكام إلى الأمر بحبسه واعتقاله برغم شهادة العلماء بعدم إدانته.

ولقد كانت هذه الشكاوى التي يتقدم بها خصومه من أهم الأسباب التي جعلت الحكام يتعرفون على ابن تيمية رحمه الله، ويسمعون منه عن قرب، وكان ممن عرفه وأحبه السلطان الناصر محمد بن قلاوون من خلال هذه المجالس، ومن جهاده معه في حرب التتار، فأحبه وقدره ولمس إخلاصه ووفاءه لدينه ووطنه، ومع حبه له، وتقديره لجهوده، كان يأمر بحبسه تحت ضغط الأعداء الذين لم يستطع مقاومتهم.

ولم تمنع هذه الظروف المحيطة بابن تيمية رحمه الله من أن يطالب الحكام بالقيام بما يجب عليهم نحو دينهم أولاً، ووطنهم ثانياً، ورعاياهم ثالثاً.

---

(١) ابن تيمية العالم الجريء: عبد المنعم الهاشمي ص ٣٠ـ ٣١.

فذهب ليستحث السلطان على مواجهة التتار وشدد عليه في الكلام، وكان من ضمن ما قاله له: (لو قدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهله وجب عليكم النصر، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه، وهم رعاياكم وأنتم مسؤولون عنه) ثم قال له: (إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطاناً يحميه ويحوطه، ويستغله في وقت الأمن)(١).

- ومن ذلك حثه السلطان على تجريد حملة لمحاربة أهل الجبل من النصيرية والباطنية والحاكمية والإسماعيلية، وأخبره بغدرهم وخيانتهم، وما فعلوه بالمسلمين من أنواع الفساد، وما كانوا يعاونون به الأعداء ضد المسلمين، وحرضه على قتالهم ليمنع عن المسلمين شرهم.

- ومن ذلك محاربته لبعض العادات الجاهلية مثل الأخذ بالثأر، وحثه السلطان أن يطبق القصاص الشرعي العادل، وتنفيذ السلطان لما طلبه منه.

- ومن ذلك محاربته لظاهرة الرشوة المنتشرة بين الأمراء وأصحاب المناصب في الدولة، وحثه السلطان على الكتابة لعماله أن لا يولى أحد بمال أو رشوة، وتنفيذ السلطان لما طلبه منه.

وبهذا يتبين لنا أن شيخ الإسلام لم يجامل أحداً في الحق، عدواً كان أو صديقاً، عالماً أو حاكماً، بل كان يدعو الناس جميعاً

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ٣٣.

إلى الحق، وإلى مقاومة الباطل والتصدي له، حتى يقضي عليه، وكان كل همه إقامة الإسلام والشريعة في نفوس الناس، كما جاء به رسول الله ﷺ، وإعادة دولة الإسلام قوية فتية كما كانت في عهد الخلفاء الراشدين»[1].

هـ ـ عقبات في طريق ابن تيمية الإصلاحي ووسائله في التغلب عليها:

ليس هناك داعية منذ خلق الله الخلق، وإلى آخر داعية، إلا وتواجهه الصعوبات والعقبات، فطريق الدعاة هو طريق الجنة، وطريقها محفوف بالمكاره.

ثم إن العقبات في طريق الدعاة: هي المؤشر على سلامة المسيرة، وإن الصعوبات التي تواجههم، هي الضوء الأخضر الذي يمنحهم إجازة الاستمرار في الطريق، ولذلك فإن العقبات في طريق ابن تيمية ليست نقصاً في حقه، ولا عيباً فيما يدعو إليه، لأن الدعاة يرون هذه العقبات، لازمة من لوازم الدعوة لا تنفك عنها، ولا تخلو منها، ولذلك فهم مطمئنون على سلامة المسيرة ما داموا يجدون الصعوبات، ويواجهون العقوبات.

والعقبات التي تواجه الدعاة في كل زمان ومكان واحدة، غير أن الأسلوب الذي تؤدى به قد يختلف تبعاً لاختلاف

---

(١) استمرارية الدعوة: ص ٨٤ـ٨٦.

المنكرين. وإن القرآن الكريم ليعبر عن هذه العقبات المتكررة في وجه كل داعية، بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢ ـ ٥٣][1].

○ عقبات في طريق ابن تيمية رحمه الله:

ومن تلك العقبات التي واجهته رحمه الله تعالى ما يلي:

١ ـ الإيذاء:

والإيذاء بمعناه العام: يراد به كل ما يلحق بالإنسان من الضرر، ولكنه إذا أطلق يراد به الضرر اليسير، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗى﴾ [آل عمران: ١١١] أي لن يضروكم إلا بكلام قبيح تسمعونه منهم، وقد لقي رحمه الله تعالى لونين من الأذى.

ـ **اللون الأول:** الأذى النفسي من خلال اتهامه بالتجسيم، أو الرمي بالكفر والضلال، أو افتراء الكذب عليه، كما فعل علاء الدين البخاري حين رمى كل من يطلق على ابن تيمية شيخ الإسلام فهو كافر، مما دفع ابن ناصر الدين الدمشقي كتابه «الرد الوافر» دافع فيه عن شيخ الإسلام ورد على علاء الدين البخاري المذكور كلامه وتجنيه، والحق أن الأذى النفسي الذي يلحق

(١) المصدر السابق: ص ١٠٠ـ١٠١.

بالإنسان في رميه بالكفر والإلحاد والتشبيه والتجسيم أذىً كبير، وله في النفس وقع مؤثر جداً.

ـ **الثاني**: الأذى الجسدي: من خلال الاعتداء عليه بالضرب من العامة نتيجة لتحريض حساده من أهل العلم كما حصل معه حين اعتدى عليه جماعة من الغوغائية في حي الحسينية بالقاهرة، وقد تجمع جماعة من محبيه من أهل الحسينية ليثأروا له، ولكن الشيخ ردهم ولم يأذن لهم بذلك وقال لهم:

«إما أن يكون الحق لي، أو لكم، أو لله، فإن كان الحق لي فهم في حل منه، وإن كان لكم فإن لم تسمعوا مني ولا تستفتوني فافعلوا ما شئتم، وإن كان الحق لله، فالله يأخذ حقه إن شاء كما يشاء».

وفي أثناء المناقشة حضر وقت العصر فذهب ليصلي في الجامع، فنهوه عن ذلك حتى لا يؤذى ثانية، فلم يلتفت إلى قولهم، ومضى إلى المسجد، وتبعته جماعة كبيرة من الغاضبين له»[1].

٢ ـ وقوف العلماء ضده:

فقد وقف بعض العلماء ضده واتهموه بالخروج على مذهب أهل السُّنّة وما أجمع عليه علماء الأمة، ولهؤلاء العلماء

---

(١) العقود الدرية: ٢٨٦ـ٢٨٨.

ثقلهم ومكانتهم في المجتمع، فإذا عادوا أحداً وقف العامة معهم، لثقتهم فيهم، لأنهم رؤساء هذا الأمر والقائمون عليه، وبحسبك أن يقول العلماء إن فلاناً خارج على الدين، أو تنكب طريق السابقين، فذلك وحده يكفي لإعلان الحرب على من يتهم بذلك.

ومن جهة أخرى فقد كان اتهام العلماء له، ووقوفهم ضده، دافعاً للحكام على معاداة ابن تيمية، ونحن نعلم أن الحكام عادة هم الذين يدفعون العلماء إلى مثل هذه المواقف ممن يريدون القضاء على سمعتهم، والتشكيك في إخلاصهم، أما أن يتطوع العلماء من تلقاء أنفسهم لتشويه سمعة عالم جليل، وإثارة الدولة ضده، فذلك لا يكون إلا نتيجة حقد دفين، وغل ملأ الصدور والقلوب»[1].

وقد ذكر العلاَّمة السيد أبو الحسن الندوي حفظه الله تعالى الأسباب الرئيسية لمعارضة معارضيه وخصومه له:

ومن أهم هذه الأسباب علو شأن شيخ الإسلام، وجلالة قدره، وبلوغه في العلم والفقه والاستنباط مبلغاً عجز عنه علماء عصره، والواقع أن شيخ الإسلام كان قد سبق زمانه، وفاق بعبقريته وعقليته الجبارة أقرانه، فكانت لديه مقدرة عجيبة في البحث والتنقيب واستخراج النكات البديعة واستنباط القواعد والأحكام من النصوص، حيث كان يتغلغل في أعماقها وسبر

---

(١) استمرارية الدعوة: (ص ١٠٢).

أغوارها، ويخرج منها ببديعة لم تمر على بال هؤلاء، فحسدوه وأرادوا الحط من قدره، قال ابن كثير رحمه الله: وكان للشيخ تقي الدين من الفقهاء جماعة يحسدونه لتقدمه عند الدولة وانفراده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الناس له ومحبتهم له، وكثرة اتباعه وقيامه في الحق وعلمه وعمله.

وقال الأستاذ أبو زهرة رحمه الله: إن المشاهد قديماً وحديثاً أن الرجل الذي يختلف الناس في شأنه بين أعلاء وإهواء لا بد أن يكون رجلاً كبيراً في ذات نفسه عظيماً في خاصة أمره، له عبقرية استرعت الأنظار واتجهت إليها الأبصار، فيكون له الوالي الموالي، والعدو المتربص المؤاخذ الذي يتبع الهفوة ويحصي السقطات، وكذلك كان ابن تيمية رضي الله عنه قد كان عظيماً في ذات نفسه اجتمعت له صفات لم تجتمع في أحد من أهل عصره، وهذه الميزة أدركها البعض فعظموا شأن الشيخ، وجحدها البعض واستيقنتها أنفسهم، فطعنوا فيها»[١].

ولخص الآلوسي رحمه الله الأسباب في المعارضة فقال:

هم على أقسام: فمنهم من شنع لداء المعاصرة، ومنهم لشهرة كاذبة من غير تحقيق، ومنهم لمخالفته في العقيدة، ومنهم حباً في ابن عربي وأتباعه، ومنهم اقتداء بشيخه المنافس له، وقد قال بهاء الدين السبكي قولته المشهورة: ما يبغض ابن تيمية إلا

---

(١) انظر المزيد من أسباب المعارضة عند الندوي: ابن تيمية: ص ١٣٩ـ ١٥٣.

جاهل أو صاحب هوى، فالجاهل ما يدري ما يقول، وصاحب الهوى يصده هواه عن الحق»[1] وحين يقارن العلامة الشاه ولي الله الدهلوي رحمه الله بين علم شيخ الإسلام وبين علم معاصريه المخالفين له يقول:

«إن الفقهاء المخالفين له لم يكن علمهم عشر العشير بالنسبة إليه»[2].

- أهم الافتراءات التي رموه بها:

إن الخصوم يتسترون خلف التهم والافتراءات التي رموه بها ليخفوا الأسباب الحقيقية لعدائهم له، وليتخذوها ذريعة لتحقيق أهدافهم، ومن أهم هذه الافتراءات:

- التجسيم: لأنه أثبت من الصفات لله تعالى ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ.

- بمنع زيارة قبر النبي ﷺ وغيره من الأنبياء، وقد بيَّن شيخ الإسلام في عدد من كتبه بأنهم حرفوا كلامه، والذي يراه أنه لا يجوز شد الرحال إلى القبر، وهناك فرق بين زيارة القبر وشد الرحال إليه، فالأول مأمور به شرعاً، والثاني منهي عنه.

---

(١) الندوة العالمية: ص ١٢٥.

(٢) الندوة العالمية: ص ٢١٣.

● اتهامه بإهانة الأنبياء والصالحين: لأنه لا يرى التوسل بذواتهم وأشخاصهم وجاههم ومرتبتهم.

● اتهامه بالخروج على الإجماع: لأنه ينتقد المذاهب في ضوء الأدلة، ويذهب إلى ما يؤديه إليه اجتهاده، بدون أن يتقيد بمذهب معين[١].

وقد تناول شيخ الإسلام هذه القضايا بالبحث والرد والمناقشة في ضوء أدلة الكتاب والسُّنّة.

٣ ـ السجن والاعتقال:

وقد كان نصيب ابن تيمية رحمه الله منه وافراً، فقد سجن في مصر، ونفي إلى الإسكندرية، وكذلك سجن بالشام، وظل حبيس القلعة حتى مات وهو في سجنه، وقد سجن رحمه الله عدة مرات منها:

ـ سنة ٦٩٣ هـ اعتقله نائب السلطنة لمدة قليلة، بسبب قيامه على عساف النصراني الذي شتم النبي ﷺ، ثم أطلق معززاً مكرماً.

ـ سنة ٧٠٥ هـ حين نوقش في أمر العقيدة في دمشق واتفق على أن معتقده سلفي جيد، وأن عقيدته سنية خالصة كما قال ابن رجب والذهبي، ولكن هذا لم يعجب أعداءه في مصر

---

(١) دعوة شيخ الإسلام: ١/ ٩٧ـ٩٨.

فاستدعوه إلى القاهرة لمناقشته وحكم خصمه ابن مخلوف بسجنه في برج القلعة في يوم ٢٦ رمضان سنة ٧٠٥هـ وبقي في السجن إلى ربيع الأول ٧٠٧هـ حتى أخرجه حسام الدين مهنا بن عيسى أمير العرب.

- سنة ٧٠٧ هـ حين شكاه بعض الصوفية ولم يثبت عليه شيء، وفوضت الدولة أمره إلى الفقهاء والقضاة، وقد تحيروا في أمر سجنه، فمضى إلى السجن بنفسه.

- سنة ٧٠٨ هـ أراد أعداؤه أن يتخلصوا منه فنفوه إلى الإسكندرية وسجنوه هناك حيث بقي في السجن حتى خرج في ٨ شوال سنة ٧٠٩هـ حين أفرج عنه السلطان بعد عودته إلى السلطنة بعد قتله بيبرس الجاشنكير.

- سنة ٧١٨ هـ ورد مرسوم سلطاني يمنعه من الفتوى في مسألة الحلف بالطلاق بالتكفير، وعقد له مجلس بدار السعادة، ومنع من ذلك، ثم عقد له مجلس سنة ٧١٩هـ تأكيداً للمنع، ولكنه لم ينته عما رآه حتى عقد له مجلس ثالث، وحكم عليه بالسجن. وحبس بالقلعة في دمشق.

- سنة ٧٢٠ هـ حبس لأجل إفتائه في مسألة الطلاق مرة أخرى، ومنع بسببه من الفتيا مطلقاً، وقد حكم عليه بالسجن عدوه نجم الدين بن صَعُرَّى، فوضع في السجن خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً وأخرج يوم الإثنين في عاشوراء من سنة ٧٢١هـ.

- سنة ٧٢٢ هـ حبس في مسألة شد الرحال إلى الأضرحة والقبور، حيث ورد فيه مرسوم بعدما وشى به إلى السلطان أهل البدع والأهواء.

- سنة ٧٢٦ هـ وهذا آخر ما وقع لشيخ الإسلام من الحكم بالسجن، وسببه أيضاً مسألة شد الرحال إلى الأضرحة والقبور، وبقي فيه حتى توفي رحمه الله سنة ٧٢٨هـ وقد حرف أعداؤه كلامه، وغيروا ألفاظه، وشنعوا عليه بما لم يقل[1].

٤ - إنزال الأذى بتلاميذه ومحبيه:

إن شيخ الإسلام رحمه الله كان يعيش في كثرة من الاتباع والأنصار والأصحاب، وأنهم قاموا معه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد واللسان، وقد أصابهم من الأذى بعض ما أصاب الشيخ حيث عُزِّرُوا وسُجِنُوا، وأن الشيخ رحمه الله كان له من الهيبة والقوة والسلطان ما يستطيع به أن يذهب بنفسه ليخرج أصحابه من السجن!!، ولا شك أن جماعة الشيخ كانت تلاقي العنت والمشقة وذلك نتيجة طبيعية لما يلقى شيخ الإسلام رحمه الله.

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر: البداية والنهاية: ١٤/ ٥٤، ٨٧، ٩٣، ٩٧، ١١٣، ٣٣٥، مجموع الفتاوى: ٣/ ١٦٠-٢٠١، الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٦-٤٠٣، فوات الوفيات عن المنجد: ص ٦٧ العقود الدرية مواطن مختلفة.

- فمن ذلك ما قاله ابن كثير رحمه الله:

«وكان للشيخ تقي الدين من الفقهاء جماعة يحسدونه لتقدمه عند الدولة وانفراده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطاعة الناس ومحبتهم له وكثرة أتباعه وقيامه في الحق، وعلمه وعمله، ثم وقع بدمشق خبط كثير وتشويش بسبب غيبة نائب السلطنة وطلب القاضي جماعة من أصحاب الشيخ وعزر بعضهم ثم اتفق أن الشيخ جمال الدين المزي الحافظ قرأ فصلاً بالرد على الجهمية من كتاب أفعال العباد للبخاري، تحت قبة النسر بعد قراءة ميعاد البخاري بسبب الاستسقاء، فغضب بعض الفقهاء الحاضرين وشكاه القاضي الشافعي ابن صعري، وكان عدو الشيخ فسجن المزي، فبلغ الشيخ تقي الدين، فتألم لذلك وذهب إلى السجن فأخرجه منه بنفسه، وراح إلى القصر فوجد القاضي هناك فتقاولا بسبب الشيخ جمال الدين المزي..»(١).

- ومن ذلك ما ذكره رحمه الله في أحداث سنة (٧٢٦ هـ) حيث قال:

«وفي يوم الأربعاء منتصف شعبان أمر قاضي القضاة الشافعي في حبس جماعة من أصحاب الشيخ ابن تيمية في سجن الحكم، وذلك بمرسوم من نائب السلطنة وإذنه له فيه فيما تقتضيه

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ٣٧.

الشريعة في أمرهم!!، وعزر جماعة منهم على دواب، ونودي عليهم ثم أطلقوا سوى شمس الدين محمد بن قيم الجوزية فإنه حبس بالقلعة»[1].

وقال: وفي يوم الأربعاء عشر ذي القعدة درَّس بالحنبلية برهان الدين أحمد بن هلال الزرعي الحنبلي بدلاً من شيخ الإسلام ابن تيمية وحضر عنده القاضي الشافعي وجماعة من الفقهاء وشق ذلك على كثير من أصحاب الشيخ تقي الدين!!»[2].

٥ ـ مصادرة ما لديه من الكتب وأدوات الكتابة:

وهذه العقبة ـ أو العقوبة في ظن خصومه ـ من أشد العقبات أثراً على نفس الشيخ رحمه الله، حين جرد من أحب شيء إلى نفسه، وهو مدارسة العلم، وتسجيل أفكاره التي تعن له، حتى يعفي عليها النسيان، ولا يخرج على الحاقدين بجديد ينغص حياتهم، ويظهر ضلالهم، ويفضح عوارهم.

وكان سبب ذلك أن القاضي عبد الله بن الأخنائي كتب في موضوع زيارة القبور وخاصة قبر رسول الله ﷺ بما يخالف عقيدة ابن تيمية، فرد عليه ابن تيمية وهو في الحبس برسالة أثبت فيها أن هذا القاضي المالكي قليل البضاعة في العلم ضعيف الحجة، يقول

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ١٢٣.

(٢) البداية والنهاية: ١٤/ ١٢٤.

بما لم يقل علماء السلف، فغضب القاضي، واشتكى إلى السلطان، فأصدر السلطان مرسوماً بمصادرة جميع ما عند الشيخ من أدوات الكتابة والكتب حتى لا يبقى عنده ما يستعين به في التأليف والكتابة:

وفي غرة رجب ٧٢٨ هـ أرسلت جميع مسوداته وأوراقه من المحبس إلى المكتبة العادلية الكبرى، وكان ذلك نحو ستين مجلداً من الكتب، وأربع عشرة ربطة كراريس التي كان يشتغل بها دراسة وتأليفاً»[١].

○ وسائله في مواجهة هذه العقبات:

لقد كان ما يملكه رحمه الله تعالى في مواجهة هذه المحن المتتالية ما كان يملكه النبيون والدعاة من قبله، حيث كان له فيهم أسوة حسنة، فقد كان يملك الصبر، والالتجاء إلى الله تعالى، والاستعانة به، وكثرة الذكر، والإلحاح في الدعاء، ثم أخلاق أهل الإيمان في العفو عمن ظلموه، والاستغناء بكتاب الله وحفظه له عن مصادرة الكتب:

ـ فأما لجوء شيخ الإسلام إلى الله واستعانته به وكثرة ذكره لله سبحانه.

فقد وصف الإمام ابن القيم رحمه الله حاله فقال:

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ١٣٤، فوات الوفيات عن المنجد: ص ٦٩.

«سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة ـ يعني بها: جنة الإيمان بالله وبما جاء به سيدنا رسول الله ـ من لم يدخلها ـ أي يتصف بها في الدنيا ـ لا يدخل جنة الآخرة.

وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؛ أنا جنتي وبستاني في صدري ـ يعني بذلك إيمانه وعلمه ـ أين رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلتُ مِلءَ هذه القلعة ذهباً ما عَدَل عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك. ما شاء الله، وقال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه، ولما دخل القلعة وصار من داخل سورها نظر إليه وقال: (فضرب بينهم بسورٍ له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب).

وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً،

وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسرهم نفساً، تلوحُ نضرةُ النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت مِنّا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه، فيذهب عنا ذلك كله، وينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها»[(١)].

- وقد كتب رحمه الله يخبر عن حالته من داخل السجن فقال مخبراً عن سبب المحنة التي وقعت عليه فقال:

«والذي سعى فيه حزب الشيطان لم يكن مخالفة لشرع محمد ﷺ وحده، بل مخالفة لدين جميع المرسلين: إبراهيم، وموسى، والمسيح ومحمد خاتم النبيين صلى الله عليهم أجمعين.

وكانوا قد سعوا في أن لا يظهر من جهة حزب الله ورسوله خطاب ولا كتاب، وجزعوا من ظهور الإخنائية، فاستعملهم الله تعالى، حتى أظهروا أضعاف ذلك وأعظم، وألزمهم بتفتيشه ومطالعته، ومقصودهم إظهار عيوبه، وما يحتجون به، فلم يجدوا فيه إلا ما هو حجة عليهم. وظهر لهم جهلهم، وكذبهم وعجزهم،

---

(١) الوابل الصيب: ص ٤٤، العلماء العزاب: ١٧٦ـ١٧٧.

وشاع هذا في الأرض، وأن هذا مما لا يقدر عليه إلا الله، ولم يمكنم أن يظهروا علينا عيباً في الشرع والدين، بل غاية ما عندهم، أنه خولف مرسوم بعض المخلوقين، والمخلوق كائناً من كان، إذا خالف أمر الله تعالى ورسوله ﷺ، لم يجب بل ولا تجوز طاعته، في مخالفة أمر الله ورسوله ﷺ باتفاق المسلمين»[1].

ثم يبين رحمه الله حالته أمام ما نزل من المحنة فيقول:

«ونحن لله الحمد والشكر في نعم متزايدة، متوافرة، وجميع ما يفعله الله فيه نصر الإسلام، وهو من نعم الله العظام.

ونحن ولله الحمد، على عظيم الجهاد في سبيله، بل جهادنا في هذا مثل جهادنا يوم قازان، والجبلية، والجهمية، والاتحادية وأمثال ذلك، وذلك من أعظم نعم الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون»[2].

- ويتجلى خلق الرضا بقدر الله وشكره على نعمه بما قاله رحمه الله:

«ونحن ولله الحمد والشكر، في نعم عظيمة، تتزايد كل يوم، ويجدد الله تعالى من نعمه نعماً أخرى، وخروج الكتب كان من أعظم النعم فإني كنت حريصاً على خروج شيء منها، لتقفوا

---

(١) العقود الدرية: ٣٦٤ـ ٣٦٥، مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٥٨.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٥٧، ٥٩، العقود الدرية: ٣٦٤، ٣٦٦.

عليه، وهم كرهوا خروج الإخنائية، فاستعملهم الله تعالى في إخراج الجميع، وإلزام المنازعين بالوقوف عليه، وبهذا يظهر ما أرسل الله به رسوله من الهدى ودين الحق.

فإن هذه المسائل كانت خفية على أكثر الناس. فإذا ظهرت فمن كان قصده الحق هداه الله، ومن كان قصده الباطل قامت عليه حجة الله، واستحق أن يخذله الله ويخزيه..

وأنا طيب وعيناي طيبتان أطيب ما كانتا، ونحن في نعم عظيمة لا تحصى ولا تعد، والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، ثم ذكر كلاماً، وقال:

كلُّ ما يقضيه الله تعالى فيه الخير والرحمة والحكمة ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٢] ، القوي العزيز، ولا يدخل على أحدٍ ضرر إلا من ذنوبه ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩] فالعبد عليه أن يشكر الله ويحمده دائماً على كل حال، ويستغفر من ذنوبه، فالشكر يوجب المزيد من النعم، والاستغفار يدفع النقم، ولا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له «إن أصابته سرَّاءَ شكر، وإن أصابته ضراء صَبَر، فكان خيراً له»(١).

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٤٧ـ٤٨، العقود الدرية: ٣٦٦ـ٣٦٧.

ـ وأما إقباله على قراءة القرآن بعد إخراج كتبه، فقد قال ابن عبد الهادي رحمه الله:

«ولما أخرج ما عنده من الكتب والأوراق، حمل إلى القاضي علاء الدين القونوي، وجعل تحت يده في المدرسة العادلية.

وأقبل الشيخ بعد إخراجها على العبادة والتلاوة والتذكر والتهجد حتى أتاه اليقين.

وختم القرآن مدة إقامته بالقلعة ثمانين، أو إحدى وثمانين ختمة في آخر ختمة إلى آخر اقتربت الساعة ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ ثم كملت عليه بعد وفاته وهو مُسَجَّى.

كان كل يوم يقرأ ثلاثة أجزاء، يختم في عشرة أيام، هكذا أخبرني أخوه زين الدين»(١).

ـ أما عن عفوه عمن ظلموه:

فقد كان رحمه الله عظيماً حقاً، لا يعلق بقلبه أي درن من حقد أو ضغينة، وقد تجلى ذلك في عفوة عمن ظلموه، وصفحه بطيب نفس عن كل مسلم ناله منه أذى، فقد جاءه نائب دمشق في مرضه الأخير، واستأذن في الدخول عليه ليعوده فأذن له، فلما

---

(١) العقود الدرية: ص ٣٦٨.

جلس أخذ يعتذر ويلتمس منه أن يعفو عنه إذا كان قد وقع منه تقصير أو أذى في حقه، فأجابه الشيخ:

«إني قد أحللتك وجميع من عاداني وهو لا يعلم أني على الحق، وأحللت السلطان المعظم الملك الناصر من حبسه إياي، لكونه فعل ذلك مقلداً معذوراً، ولم يفعله لحظ نفسه، وقد أحللت كل أحد مما بيني وبينه إلا من كان عدواً لله ورسوله ﷺ»[١].

و ـ بعض آرائه في فقه الدعوة:

وسأعرض هنا بعض آرائه رحمه الله تعالى في الدعوة إلى الله تعالى، وبعض مفاهيمها، وفقه الدعوة إلى الله تعالى:

١ ـ الدعوة إلى الله تعالى وظيفة الرسل وأتباعهم:

«والرسول ﷺ قام بهذه الدعوة، فإنه أمر الخلق بكل ما أمر الله به، ونهاهم عن كل ما نهى الله عنه، أمر بكل معروف، ونهى عن كل منكر»[٢].

«وكل ما أحبه الله ورسوله من واجب ومستحب، من باطن وظاهر، فمن الدعوة إلى الله: الأمر به، وكل ما أبغضه الله ورسوله: من باطن وظاهر: فمن الدعوة إلى الله: النهي عنه، لا تتم الدعوة إلى الله إلا بالدعوة إلى أن يفعل ما أحبه الله، ويترك ما

---

(١) ابن تيمية للندوي: ١١٤، ابن تيمية لأبي زهرة: ص ٩٠، الإعلام العلية: ٨٢.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٥/ ١٦١.

أبـغـضـه الله، سـواء كـان مـن الأقـوال أو الأعـمـال الـباطـنـة أو الظاهرة»[1].

٢ ـ واجب الأمة تجاه الدعوة إلى الله:

«فالدعوة إلى الله واجبة على من اتبعه ﷺ، وهم أمته يدعون إلى الله، كما دعا إلى الله، وكذلك يتضمن أمرهم بما أمر به، ونهيهم عما ينهى عنه، وإخبارهم بما أخبر به، إذاً الدعوة تتضمن الأمر، وذلك يتناول الأمر بكل معروف، والنهي عن كل منكر»[2].

وهذا الواجب واجب على مجموع الأمة، وهو الذي يسميه العلماء فرض كفاية، إذا قام به طائفة منهم سقط عن الباقين، فالأمة كلها مخاطبة بفعل ذلك، ولكن إذا قامت به طائفة سقط عن الباقين»[3].

«فمجموع أمته تقوم مقامه في الدعوة إلى الله، ولهذا كان إجماعهم حجة قاطعة، فأمته لا تجتمع على ضلالة، وإذا تنازعوا في شيء، ردوا ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله ﷺ.

وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره، فما قام به غيره أسقط عنه، وما عجز: لم يطالب به.

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٥/ ١٦٤.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٥/ ١٦٥.

(٣) مجموع الفتاوى: ١٥/ ١٦٥.

وأما ما لم يقم به غيره، وهو قادر عليه فعليه أن يقوم به، ولهذا يجب على هذا أن يقوم بما لا يجب على هذا، وقد تقسطت الدعوة على الأمة بحسب ذلك تارة، وبحسب غيره أخرى، فقد يدعو هذا إلى اعتقاد الواجب، وهذا إلى عمل ظاهر واجب، وهذا إلى عمل باطن واجب، فتنوع الدعوة يكون في الوجوب تارة، وفي الوقوع أخرى.

وقد تبين بهذا أن الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم، لكنها فرض على الكفاية، وإنما يجب على الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره، وهذا شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبليغ ما جاء به الرسول ﷺ، والجهاد في سبيل الله، وتعليم الإيمان والقرآن»[١].

٣ ـ فقه ظهور الإسلام:

«ذكر تعالى أنه نزل الكتاب والميزان، وأنه أنزل الحديد لأجل القيام بالقسط، وليعلم الله من ينصره ورسله، ولهذا كان قوام الدين بكتاب يهدي، وسيف ينصر، وكفى بربك هادياً ونصيراً»[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٥/ ١٦٦.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٠/ ١٣.

«إذا ظهر العلم بالكتاب والسُّنَّة، وكان السيف تابعاً لذلك، كان أمر الإسلام قائماً»[1].

٤ ـ القدوة في التربية:

قال في شرح معنى (كونوا ربانيين):

«قال مجاهد: هم الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره، فهم أهل الأمر والنهي».

وذلك هو المنقول عن السلف في الرباني: نقل عن علي قال: هم الذين يغذون الناس بالحكمة ويربونهم عليها، وعن ابن عباس قال: هم الفقهاء المعلمون، قلت: أهل الأمر والنهي هم الفقهاء المعلمون، وقال قتادة وعطاء: هم الفقهاء العلماء الحكماء، قال ابن قتيبة: «واحدهم رباني، وهم العلماء المعلمون» ثم قال «منسوبون إلى التربية»[2].

٥ ـ فقه العلم لإعادة الإسلام إلى الحياة:

«كثير من الناس إذا رأى المنكر، أو تغير كثير من أحوال المسلمين، جزع وكلَّ وناح كما ينوح أهل المصائب، وهو منهي عن هذا، بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بأن الله مع الذين اتقوا» إلى أن يقول:

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٠/ ٣٩٣.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٨/ ٢٩٧.

«وقوله ﷺ: «ثم يعود غريباً كما بدأ»: أعظم ما تكون غربته إذا ارتد الداخلون فيه عنه، وقد قال تعالى: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ فهؤلاء يقيمونه إذا ارتد عنه أولئك».

«كذلك بدأ غريباً ولم يزل يقوى حتى انتشر، فلهكذا تغرب في كثير من الأمكنة والأزمنة ثم يظهر، حتى يقيمه الله عزّ وجلّ»[(١)].

٦ ـ من مواصفات طائفة أهل الحق:

«وليس لأولياء الله تعالى شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات فلا يتميزون بلباس دون لباس إذا كان كلاهما مباحاً، ولا بحلق شعر أو تقصيره أو ظفره إذا كان مباحاً كما قيل: كم من صديق في قباء: وكم من زنديق في عباء، بل يوجدون في جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور، فيوجدون في أهل القرآن وأهل العلم، ويوجدون في أهل الجهاد والسيف، ويوجدون في التجار والصناع، والزراع..»[(٢)].

---

(١) مجموع الفتاوى: ١/ ٦٣.

(٢) مجموع الفتاوى: ١١/ ١٩٤.

٧ ـ العلم الدعوي الناجح ومواصفاته:

«إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، إذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة وذلك تحقيق قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾»[1] [الكهف: ١١٠].

«وهذان الوصفان ـ وهما إسلام الوجه لله والإحسان ـ هما الأصلان المتقدمان، وهما كون العلم خالصاً لله، صواباً موافقاً للسُّنّة والشريعة، وذلك أن إسلام الوجه لله هو متضمن القصد والنية لله.. والعمل الصالح هو الإحسان، وهو فعل الحسنات، وهو ما أمر الله به، والذي أمر الله به هو الذي شرعه الله، وهو الموافق لسُنّة رسوله، فقد أخبر الله تعالى أنه من أخلص قصده لله، وكان محسناً في عمله، فإنه مستحق للثواب سالم من العقاب»[2].

٨ ـ نية العمل المحركة:

«ولما كان العمل لا بد فيه من شيئين: النية والحركة، كما قال النبي ﷺ «أصدق الأسماء حارث وهمام» فكل أحد حارث

---

(١) مجموع الفتاوى: ١/ ٣٣٣.

(٢) مجموع الفتاوى: ١/ ٣٣٤، ٢٨/ ١٧٧.

وهمام له عمل ونية، لكن النية المحمودة التي يتقبلها الله، ويثيب عليها، أن يراد الله بذلك العمل، والعمل المحمود: الصالح، وهو المأمور به»[1].

٩ ـ من صفات الداعية الناجح:

«فلا بد من هذه الثلاثة: العلم والرفق والصبر.. العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده.. وإن كان كل من الثلاثة مستصحباً في جميع الأحوال»[2].

١٠ ـ الاستعانة بالمباحات على مصاعب الدعوة:

«وكما أن العقوبات شرعت داعية إلى فعل الواجبات، وترك المحرمات، فقد شرع أيضاً كل ما يعين على ذلك، فينبغي تيسير طريق الخير والطاعة، والإعانة عليه، والترغيب فيه بكل ممكن، مثل أن يبذل لولده وأهله أو رعيته ما يرغبهم في العمل الصالح، من مال أو ثناء أو غيره، ولهذا شرعت المسابقة بالخيل، والإبل، والمناضلة بالسهام، وأخذ الجعل عليها، لما فيه من الترغيب في إعداد القوة ورباط الخيل للجهاد في سبيل الله»[3].

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ١٣٥.
(٢) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ١٣٧.
(٣) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٣٧٠.

١١ ـ الإيمان أساس حمل الدعوة:

«إن الإيمان الذي يحمل صاحبه إلى سبيل الدعوة إلى الله، إيمان قد اقترن بحمل رسالة يعيش صاحبها من أجلها، ويناضل في سبيلها، ويموت لتحيا، أما الإيمان الذي لا يحمل صاحبه على الجهاد في سبيل الدعوة إلى الله، فهو إيمان خلا من معنى حمل رسالة الإيمان»[١].

(١) رسائل السجن: محمد العبدة: ص ٦٤.

الفصل السادس

وفاتـه

○ مرض شيخ الإسلام:

قال ابن فضل الله العمري في ترجمته لابن تيمية:

«وكان قبل موته قد منع الدواة والقلم، وطبع على قلبه منه طابع الألم، فكان ذلك مبدأ مرضه، ومنشأ عَرَضه، حتى نزل قفار المقابر، وترك فقار المنابر، وحل ساحة ربه وما يحاذر، وأخذ راحة قلبه من اللائم والعاذر»(١).

○ مدة مرضه رحمه الله:

وكانت مدة مرضه بضعة وعشرين يوماً، وأكثر الناس ما علموا بمرضه، واستمر به الحال حتى وافاه الأجل»(٢).

(١) الشهادة الزكية: ص ٦٦.

(٢) العقود الدرية: ٣٦٨.

○ **تاريخ وفاته:**

يقول عامة المؤرخين أنه توفي رحمه الله في ٢٠/ من شهر ذي القعدة/ سنة ٧٢٨هـ إلا المقريزي وتبعه ابن حجر يقولان أنه في ٢٢/ من شهر ذي القعدة/ ٧٢٨هـ.

○ **ردة فعل الناس على وفاته:**

«وقد اتفق موته في سحر ليلة الإثنين، فذكر ذلك مؤذن القلعة على المنارة بها، وتكلم بها الحراس على الأبرجة، فما أصبح الناس إلا وقد تسامعوا بهذا الخطب الجسيم، فبادر الناس إلى الاجتماع حول القعلة من كل مكان أمكنهم المجيء منه، حتى من الغوطة والمرج، وفتح باب القلعة لمن يدخل من الخواص والأصحاب والأحباب، واجتمع حشد عظيم من الخاصة والعامة يدخلون إليه أفواجا يزورونه، ومنهم من كان يقبل رأسه وناصيته التي كانت تنصب على الأرض ساعات طوالاً أمام ربه.

وبدأ الناس يختمون القرآن قبل غسله، وأذن للنساء بعد الرجال فزرنه ولم يبق عند الغسل إلا من كان عليه أن يغسله»(١).

«واجتمع الناس بالقلعة والطريق إلى جامع دمشق، وامتلأ الجامع، وصحنه وباب البريد، وباب الساعات»(٢).

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ١٣٥ـ ١٤٠.

(٢) البرزالي في تاريخه: الشهادة الزكية ص ٦٤.

○ **من تولى غسله وتكفينه:**

«ثم شرعوا في غسل الشيخ، وخرجتُ إلى مسجد هناك، ولم يدعوا عنده إلا من ساعد في غسله، منهم شيخنا الحافظ المزي وجماعة من كبار الصالحين الأخيار، أهل العلم والإيمان»[1].

○ **نقل الجنازة من القلعة إلى المسجد:**

وصلي عليه أولاً بالقلعة، وتقدم في الصلاة عليه أولاً الشيخ محمد بن تمام وأخرجت الجنازة بعد الصلاة وغصت الطرق كلها ما بين القلعة والمسجد بالناس حتى حضرت الجنازة في الساعة الرابعة من النهار أو نحو ذلك ـ يعني قبل الظهر ـ ووضعت في الجامع، والجند قد أحتاطوا بها يحفظونها من الناس من شدة الزحام، وتزايد الزحام إلى حد لا يبلغ الإحصاء والتقدير، وقد صاح بين هذا الزحام صائح يقول: «هكذا تكون جنائز أئمة السُّنَّة»! فتباكى الناس وضجوا عند سماع هذا الصارخ، ووضع الشيخ في موضع الجنائز مما يلي المقصورة، وجلس الناس من كثرتهم وزحمتهم على غير صفوف بل مرصوصين رصاً لا يتمكن أحد من السجود إلا بكلفة، وذلك قبل أذان الظهر بقليل، وجاء

(١) البداية والنهاية: ١٤/١٣٨.

الناس من كل مكان، ونوى خلق الصيام لأنهم لا يتفرغون في هذا اليوم لأكل ولا لشرب، وكثر الناس كثرة لا تحد ولا توصف.

○ **صلاة الجنازة عليه في المسجد:**

وصلي عليه عقيب الظهر في المسجد الأموي، وقد صلى عليه الشيخ علاء الدين الخراط رحمه الله، ثم خرج الناس من كل مكان من أبواب الجامع، وقد تضاعف اجتماع الناس إلى أن ضاقت الرحاب والأزقة والأسواق بأهلها ومن فيها، وأغلقت الأسواق والمتاجر والمطاعم، والناس في بكاء وتهليل في مخافتة كل واحد بنفسه، وفي ثناء وتأسف والنساء فوق الأسطحة من هناك إلى المقبرة يبكين ويدعين ويقلن: هذا العالم.

○ **حمل الجنازة من المسجد إلى المقبرة:**

ثم حمل بعد أن صلي عليه على الرؤوس والأصابع، واشتد الزحام وعلت الأصوات بالبكاء والنحيب والترحم عليه والثناء والدعاء له، وألقى الناس على نعشه مناديلهم وعمائهم وثيابهم، وفارقت النعال والقباقيب الأرجل والأقدام وسقطت المناديل والعمائم عن الرؤوس والناس لا يلتفتون إليها لشغلهم بالنظر إلى الجنازة، وصار النعش على الرؤوس تارة يتقدم وتارة يتأخر، وتارة يقف حتى تمر الناس.

وعظم الأمر بسوق الخيل وتضاعف الخلق وكثر الناس، ووضعت الجنازة هناك، وتقدم للصلاة عليه هناك أخوه زين الدين عبد الرحمن، وحُمل إلى مقبرة الصوفية حيث دفن إلى جانب أخيه شرف الدين عبد الله رحمهما الله تعالى، وكان دفنه قبل العصر بيسير، وذلك من كثير من يأتي ويصلي عليه.

○ عدد من حضر جنازته:

لم يتخلف عن الحضور إلا من هو عاجز عن الحضور، ويحزر الرجال الذين حضروا الجنازة ما بين ستين ألفاً إلى مئتي ألف، عدا النساء يقدر الحاضرات منهن خمسة عشر ألف امرأة، عدا من كن على الأسطحة والغرف، ولم يعهد مثل هذا الزحام في تاريخ دمشق، ويمكن أن يكون ذلك في زمن بني أمية حين كان الناس كثيرين وكانت دمشق دار الخلافة[(١)].

قال أحد من حضر الجنازة:

وكنت أنا قد صليت عليه في الجامع، وكان لي مستشرف على المكان الذي صُلي فيه عليه بظاهر دمشق، فأحببت أن أنظر إلى الناس وكثرتهم، فأشرفت عليهم حال الصلاة، وجعلت انظر

---

(١) انظر مزيداً من التفاصيل في البداية والنهاية: ١٤/ ١٣٥ـ ١٤٩، العقود الدرية: ٣٨٥ـ ٣٩٠، الشهادة الزكية: ٦٣ـ ٦٩، الأعلام العلية: ٨١ـ ٨٧، الذيل: ٢/ ٤٠٧ وغيرها من المصادر التي ترجمت له.

يميناً وشمالاً ولا أرى أواخرهم، بل رأيتُ الناس قد طبقوا تلك الأرض كلها»[1].

○ من تخلف عن جنازته:

قال البرزالي: «ولا يمكن أحدٌ حصر من حضر الجنازة، وتقريب ذلك أنه عبارة عمن أمكنه الحضور من أهل البلد وحواضره، ولم يتخلف من الناس إلا القليل من الصِّغار والمخدَّرات، وما علمتُ أحداً من أهل العلم إلا النفر اليسير تخلف عن الحضور في جنازته، وهم ثلاثة أنفس: وهم ابن جملة، والصدر، والقحفازي، وهؤلاء كانوا قد اشتهروا بمعاداته من الناس خوفاً على أنفسهم، بحيث أنهم علموا متى خرجوا قتلوا وأهلكهم الناس، وتردد شيخنا الإمام العلاَّمة برهان الدين الفزاري إلى قبره في الأيام الثلاثة، وكذلك جماعة من علماء الشافعية، وكان برهان الدين الفزاري يأتي راكباً على حماره وعليه الجلالة والوقار رحمه الله»[2].

○ صلاة الغائب عليه في بلاد الإسلام:

قال ابن رجب: «وصلي عليه صلاة الغائب في غالب بلاد الإسلام القريبة والبعيدة، حتى في بلاد اليمن والصين، وأخبر

---

(١) الأعلام العلية: ص ٨٤.

(٢) البداية والنهاية: ١٤/ ١٤٠.

المسافرون أنه نودي بأقصى الصين للصلاة عليه يوم الجمعة: الصلاة على تُرجمان القرآن»[1].

وقال أبو حفص البزار: «وما وصل خبر موته إلى بلد ـ فيما نعلم ـ إلا وصلي عليه في جميع جوامعه، خصوصاً أرض مصر، والشام، والعراق، وتبريز، والبصرة، وقراها، وغيرها»[2].

○ هيبة جنازته:

ولم يُر لجنازة أحد ما رئي لجنازته من الوقار والهيبة والعظمة والجلالة، وتعظيم الناس لها، وتوقيرهم إياها، وتفخيمهم أمر صاحبها، وثنائهم عليه بما كان عليه من العلم والعمل والزهادة والعبادة والإعراض عن الدنيا، والاشتغال بالآخرة، والفقر، والإيثار، والكرم والمروءة، والصبر والثبات، والشجاعة والفراسة، والإقدام، والصدع بالحق، والإغلاظ على أعداء الله وأعداء رسوله، والمنحرفين عن دينه، والنصر لله ولرسوله ولدينه ولأهله، والتواضع لأولياء الله والتذلل لهم، والإكرام والإعزاز لجنابهم، وعدم الاكتراث بالدنيا وزخرفها، ونعيمها ولذاتها وشدة الرغبة في الآخرة والمواظبة على طلبها، حتى تسمع ذلك ونحوه من الرجال والنساء والصبيان.

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ٤٠٧.

(٢) الأعلام العلية: ٨٥، تذكرة الحفاظ للذهبي: ١٤٩٦، ١٤٩٧.

وكل منهم يثني عليه بما يعلمه من ذلك»[1].

○ **من رثاه من العلماء:**

وقد رثاه كثير من الفضلاء بقصائد متعددة أذكر أشهرهم رحمهم الله جميعاً:

- الحافظ شمس الدين الذهبي.
- الحافظ ابن فضل الله العمري.
- الحافظ ابن الوردي الشافعي.
- الشيخ علاء الدين بن غانم.
- الحافظ ابن عبد الهادي.
- المحدث تقي الدين أبو عبد الله محمد بن سلمان الجعبري.

وقد ذكر ابن عبد الهادي الكثير من هذه القصائد في العقود الدرية[2].

وقد جمع محمد بن إبراهيم الشيباني أسماء المشايخ وطلاب العلم الذين رثوا ابن تيمية بعد وفاته[3].

وبعد هذا فقد ثوى ذلك العالم إلى رحمة ربه ورضوانه بعد أن جاهد أكثر من ثلاثين سنة، من يوم أن بزغ نجمه عالماً بين

---

(١) الأعلام العلية: ٨٤ـ ٨٥.

(٢) العقود الدرية: ص ٣٩٣ـ إلى آخر الكتاب.

(٣) أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام: ص ٩٥ـ ٩٧.

العلماء إلى أن فاضت روحه إلى العليم الحكيم الذي أحاط بكل شيء علماً، فمن وقت أن ظهرت رسالة الحموية، وهو في نضال علمي، يتخلله نضال الحرب والسيف، وهو في الحالين كالجوهر الجيد الذي لا يزيده الاحتكاك إلا لمعاناً وصقلاً، وهو يعلو من أوج إلى أوج، ومن درجة إلى درجة، حتى أخذ بفضله المخالف والموافق، إلا من لم يذق بشاشة الإسلام، ولم يشرب حبه، فقد بغض إليه، كما بغض المخلصون للمنافقين، ولقد كان كل الذين ناوءوه وحاربوه كالفقاقيع تظهر ثم تبتلعها الأمواج، أما هو فكان معدناً خالصاً، لا زال اسمه يرن، وسيستمر بين الخالدين. إلى يوم القيامة»(١).

---

(١) ابن تيمية لأبي زهرة: ص ٩٢.

الفصل السابع

مكانته العلمية وثناء الأئمة عليه

تبوأ الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى مكانة مرموقة في قلوب الناس في عصره، ونال مكانة رفيعة عند الأئمة والعلماء، ودام ذكره في الأجيال التي جاءت بعده إلى يومنا هذا، وهو جدير بهذا الثناء الطيب والذكر الحسن، والذي يدل على عاجل بشرى المؤمن، فقد قدَّم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى خدمات عظيمة للإسلام وأهله في عصره، ودفع عنهم بلسانه وقلمه وسيفه الخطر الداهم الذي كان يتهددهم من التتار وغيرهم.

ولما رأى المعاصرون من العلماء والمتأخرون منهم تبحره في العلوم، وجمعه للصفات العالية، والمميزات البارزة لم يلبثوا أن وصفوه بأسمى الصفات، فاعتبروه نادرة الزمان، إمام المحققين، آخر المجتهدين، وآية من آيات الزمان، وشهدوا بأنه على السُّنَّة المحضة، والطريقة السلفية في العقائد والأحكام، وأثنوا عليه بما لا مزيد عليه، وأنزلوه في المنزلة التي يستحقها بين العلماء، ودفعوا عنه كل شبهة نسبت إليه زوراً وبهتاناً، وردوا عن عرضه ما قاله الحاسدون الذين دبروا له المؤامرات، وكادوا له

عند الحكام، لأنهم عجزوا عن مواجهته في ميدان المناظرة، فلجأوا إلى سلاح السلطة ليعتقلوا كلمته، ولذلك ستجد فيما نعرضه من أقوال العلماء الكبار، ما يثبت مكانته العالية، وقدمه الراسخة في ميدان العلم، وإن كانت إمامة الشيخ رحمه الله وتقدمه في العلم مما لا يحتاج إلى الاستدلال لإثباتها كما يقول الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله وغيره من أهل العلم.

ولذلك قال الإمام الشوكاني رحمه الله المتوفى ١٢٥٠هـ ما نصه:

«فنشر الله من فوائده ما لم ينشر بعضه لأحد من معاصريه، وترجمه أعداؤه فضلاً عن أصدقائه بتراجم لم يتيسر لهم مثلها، ولا ما يقاربها لأحد من الذين يتعصبون لهم، ويدأبون في نشر فضائلهم، ويطرؤون في إطرائهم، وجعل الله له من ارتفاع الصيت، وبُعد الشهرة ما لم يكن لأحد من أهل عصره حتى اختلف من جاء بعد عصره في شأنه واشتغلوا بأمره، فعاداه قوم، وخالفهم آخرون.

والكل معترفون بقدره، ومعظمون له، وخاضعون لعلومه، واشتهر بينهم غاية الاشتهار، حتى ذكره المترجمون له في تراجمهم فيقولون: وكان من المائلين إلى ابن تيمية، أو المائلين عنه»[1].

---

(١) طلب العلم للشوكاني: ص ١٤.

ولا شك أن المكانة التي كان يتمتع بها شيخ الإسلام في قلوب الناس، والعلماء أهل الصلاح والخير، ومشاعل النور والعلم، لتعطي دلالة كبيرة على صلاحه وعلى درجته، وفي هذا يقول الأستاذ العلاَّمة أبو الحسن الندوي حفظه الله:

«إن ثناء حشد من الناس على رجل لا يعتبر دليلاً على قبوله عند الله، واستقامته وعلو منزلته، أما إذا شهد له رجال العلم والبصيرة، وأصحاب الصلاح والتقوى في عصره، فلا شك أنه يعتبر دليلاً على قبوله وعلو منزلته، ولا بد من أن يتصف أتباعه ومحبوه، وجلساؤه بالصلاح والسداد، وحسن الاعتقاد والتقوى والإهتمام بالآخرة، ويمتازوا عن أبناء عصرهم في تدينهم، وحسن سيرتهم، وهذا كان شأن شيخ الإسلام ابن تيمية، فقد شهد بفضله وصحة اعتقاده، وسلامة عقيدته، ومكانته العالية، كبار رجال العلم والبصيرة، وأصحاب الصلاح والرشد في عصره، واعترفوا بعلو منزلته في ذلك، فمدحوه وأثنوا عليه»[1].

وقد جمع الله عز وجل بشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أموراً كانت متفرقة، وهدى الله به قلوباً كانت زائغة، ودانت لمكانته قلوب الملوك والأمراء، وما ذلك إلا للعلوم التي وهبها الله له، ولنصرته للحق ودفاعه عنه، وفي ذلك قال الإمام الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى:

---

(١) ابن تيمية: للندوي: ص ١٦٧.

«وأوذي في ذات الله من المخالفين، وأُهين في نصر السُّنَّة المحضة، حتى أعلى الله مناره، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له، وكبت أعداءه، وهدى به رجالاً كثيرة من أهل الملل والنحل، وجبل قلوب الملوك والأمراء على الانقياد له غالباً، وعلى طاعته، وأحيا به الشام بل الإسلام بعد أن كاد ينثلم خصوصاً في كائنة التتار»(١).

○ موقف المعارضين له:

وبالرغم من معارضة البعض له، ومناوئتهم لفكره، إلا أنهم كانوا يعترفون بعلمه وفضله، وهذا دأب أهل العلم الصادقين المنصفين، وفي ذلك قال الشيخ الإمام محمد أبو زهرة رحمه الله تعالى:

«لقد أجمع الذين عاصروه على قوة فكره، وسعة علمه، وأنه بعيد المدى، عميق الفكرة، يستوي في ذلك الأولياء والأعداء، فإن تلك القوة الفكرية هي التي أثارت الأولياء لنصرته، وأثارت الأعداء لعداوته، ولو كان هيناً في ذاته أو فكره، ما تحركت مناوأة المناوئين، وما استعانوا بالقوة المانعة عن القول، وقد عجزوا عن مجاراته، فالجميع إذن مقر بقوة عقله وعلمه، ويستوي في ذلك العدو والولي، وما بين هؤلاء وهؤلاء، ولكن موضع الخلاف بين

---

(١) المعجم المختص بالشيوخ للذهبي: ٦/ ٨١.

الأعداء والأولياء هو في الموافقة على الرأي الذي كان ينادي به، لا في قدر المنادي وقوته في العلم والفكر، وإذا كان الناس قد غضوا من قدره كعالم جليل، فليس ذلك من صميم قلوبهم إن كانوا عالمين، بل من الهوى الذي يغلب الفكر والعقل، وليس هذا شأن علماء الدين، أما الجاهلون فلا عبرة بقولهم إن أيدوا أو خالفوا، فقولهم لم يدخل في الحساب... ونستطيع أن نقول أن كل علماء عصره علموا قدر علمه، حتى من ناوأه وحاول إيذاءه، لأنه قد ضاق صدره حرجاً بمخالفته، وما يأتي به من جديد، وإن كان يستمد من القديم قوته، فلم يوافق عليه»[١].

وفي تحديد طبيعة المعارضين له وتصنيفهم يقول الأستاذ الندوي حفظه الله:

«وأما معارضوه فقد كان معظمهم ممن يتزلفون إلى الدولة، ويطلبون الدنيا، ويطمعون في الجاه والمنصب دائماً ـ إلا من عارضه لسوء تفاهم، أو اختلفوا معه في أصول بعض المسائل العلمية فحسب، وما من عام إلا وقد خص منه البعض ـ يقول مؤلف الكواكب الدرية:

«قالوا ومن أمعن النظر ببصيرته، لم ير عالماً من أهل أي بلد شاء موافقاً له إلا ورآه من اتبع علماء بلده للكتاب والسُّنّة،

(١) ابن تيمية: لأبي زهرة: ٩٣ـ ٩٤.

وأشغلهم بطلب الآخرة والرغبة فيها، وأبلغهم في الإعراض عن الدنيا، والإهمال لها، ولا يرى عالماً مخالفاً له، منحرفاً عنه إلا وهو من أكبرهم نهمة في جمع الدنيا، وأكثرهم رياءً وسمعة والله أعلم»[1].

وسنذكر فيما يلي طرفاً من ذكر العلماء له، وثناء أكابرهم عليه، على سبيل الاختصار، لأن حصر أسماء من أثنوا عليه من الصعوبة بمكان ويحتاج إلى سفر ضخم، وهذا المكان لا يستطيع استيعابه وله وقت ومكان آخر بعون الله تعالى.

أولاً: ثناء معاصريه وكبار أهل العلم وتبجيلهم له

○○ شيخ الإسلام عمدة الفقهاء والمحدثين ابن دقيق العيد (ت ٧٠٢هـ):

قال بعد أن سمع كلام ابن تيمية في تحريض أعيان القاهرة على قتال التتار:

«ما كنت أظن أن الله بقي يخلق مثلك» وقال:

«لمَّا اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً العلوم كلها بين عينيه، يأخذ منه ما يريد، ويدع ما يريد»[2].

---

(١) ابن تيمية: الندوي: ص ١٦٧ـ١٦٨.

(٢) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ١٩٢، الكواكب الدرية: ورقة ٣ أ، الرد الوافر: ص ١١١، الشهادة الزكية: ص ٢٩.

○ **الإمام العلاَّمة قاضي القضاة محمد بن علي ابن الزملكاني الشافعي (ت ٧٢٧هـ) قال فيه:**

«لم ير من خمسمائة سنة ـ أو قال أربعمائة سنة ـ الشك من الناقل وغالب ظنه أنه قال: من خمسمائة أحفظ منه»(١).

وقال: «هو بارع في فنون عديدة من الفقه والنحو والأصول، ملازم لأنواع الخير وتعلم العلم، حسن العبارة، قوي في دينه، صحيح الذهن، قوي الفهم»(٢).

وقال: «كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك، ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه ـ ولا تكلم في علم من العلوم، سواء أكان من علوم الشرع أم غيرها إلا فاق فيه أهله، والمنسوبين إليه، وكانت له اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين»(٣).

وقال ابن كثير رحمه الله: بأنه وجد بخط ابن الزملكاني ثناءً على شيخ الإسلام، وكتب على تصنيف له هذه الأبيات:

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٣، الرد الوافر: ص ١٠٨، الشهادة الزكية: ص ٣٥.

(٢) الرد الوافر: ص ١٠٩، العقود الدرية.

(٣) العقود الدرية: ص ٧ـ٨، الرد الوافر: ١٠٧، ١٠٩، ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٢، المختصر في أخبار البشر لابن الوردي: ٢/ ٤٠٦.

مـــاذا يـــقــول الـــواصـــفــون لـــه
وصــفــاتــه جـلــت عــن الــحـصــر
هـــــو حـــــجـــــة لله قـــاهـــرة
هــو بــيــنــنــا أعــجــوبــة الــدهــر
هـــو آيـــة فـــي الـــخـــلـــق ظـــاهـــرة
أنـــوارهـــا أربـــت عـــلـــى الـــفـــجـــر»[1]

وكتب بخطه على كتاب بيان الدليل على إبطال التحليل لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله التقريظ التالي:

«من مصنفات سيدنا وشيخنا وقدوتنا الشيخ السيد الإمام العالم العلامة، الأوحد البارع، الحافظ، الزاهد، الورع، القدوة الكامل العارف، تقي الدين، شيخ الإسلام ومفتي الأنام، سيد العلماء، قدوة الأئمة الفضلاء، ناصر السُّنّة، قامع البدعة، حجة الله على العباد، رادِّ أهل الزيغ والعناد، أوحد العلماء العاملين آخر المجتهدين أبي العباس: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني، حفظ الله على المسلمين طول حياته، وأعاد عليهم من بركاته»[2] وله فيه غير هذا الثناء الكثير[3].

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٢، تاريخ ابن الوردي: ٢/ ٤١٠، العقود الدرية: ص ٩، الرد الوافر: ص ١٠٨، ١٦٢، البداية والنهاية: ١٤/ ١٤٢، ١٤٣.

(٢) العقود الدرية: ص ٨، الرد الوافر: ص ١٠٨، الشهادة الزكية: ص ٣٧.

(٣) انظره في مواطنه من كتب التراجم.

○ **العلاَّمة الفقيه الأصولي الإمام أحد الأئمة المجتهدين شيخ الإسلام تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي (ت ٧٥٦هـ):**

كتب إليه الحافظ الذهبي رحمه الله يعاتبه على ما صدر منه في حق ابن تيمية رحمه الله، فكتب الجواب يعتذر عن تلك الحادثات:

● أما قول سيدي في الشيخ، فالمملوك يتحقق كبير قدره، وزخارةَ بحره، وتوسُّعَه في العلوم الشرعية والعقلية، وفرطَ ذكائه واجتهاده، وبُلوغَه في كلٍ من ذلك المبلغَ الذي يتجاوزُ الوصف.

والمملوك يقول ذلك دائماً، وقَدْرُه في نفسي أكبرُ من ذلك وأجل، مع ما جمعه الله له من الزهادة، والورع، والديانة، ونصرةِ الحق، والقيام فيه، لا لغرضٍ سواه، وجريِهِ على سَنَن السلف، وأَخذِه من ذلك المأخذ الأوفى، وغرابةِ مثلِهِ في هذا الزمان، بل من أزمان»[1].

وقد أكد الحافظ الذهبي رحمه الله صحة هذه الحادثة، وجزم بها الإمام ابن حجر العسقلاني في كتابه الدرر الكامنة.

○ **الإمام العلاَّمة علم القراء، أستاذ النحاة أثير الدين أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) اجتمع به حين سافر ابن تيمية رحمه الله إلى مصر لحض السلطان والأمراء على الجهاد فقال فيه:**

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٢ـ ٣٩٣، الشهادة الزكية: ص ٥٨، الرد الوافر: ص ١٠٠ شذرات الذهب: ٦/ ٨٣، الدرر الكامنة: ١/ ١٦٩.

«ما رأت عيناي مثل ابن تيمية»[1].

ثم مدحه أبو حيان ـ على البديهة ـ في المجلس فقال:

لما أتينا تقي الدين لاحَ لنا
داعٍ إلى الله فردٌ ما لَهُ وَزَرُ[2]

على مُحَيّاه من سيما الأُولى صحبوا
خير البريَّةِ نُورٌ، دونَهُ القمرُ

حَبْرٌ[3] تسربل منه دهره حِبَرا[4]
بَحْرٌ تقاذفَ من أمواجِهِ الدُّرَرُ

قام ابنُ تيميةٍ في نَصْرِ شرعتنا
مقامَ سَيِّد تَيْمٍ إذ عَصَتْ مُضَرُ

فأظهرَ الحقَّ إذ آثاره دُرِسَتْ
وأَخمَدَ الشرَّ إذ طارت له الشَّرَرُ

كُنَّا نُحدِّثُ عن حَبْرٍ يجيء ـ فها
أنت ـ الإمامُ الذي قد كانَ يُنْتَظَرُ[5]

---

(١) الرد الوافر: ١١٩، الشهادة الزكية: ص ٣١، تاريخ ابن الوردي: ٢/ ٤١٠.

(٢) الوزر: المعين والمساعد.

(٣) الحَبرُ: العالم.

(٤) حِبرا: جمع حبره وهو ثوب من قطن أو كتان مخطط.

(٥) تاريخ ابن الوردي: ٢/ ٤١٠، الدرر الكامنة: ١/ ١٦٢-١٦٣، ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٩٢ الشهادة الزكية: ص ٣٢، إنباء الغمر: ٢/ ٣٣٤، النجوم الزاهرة: ١١/ ١٠٠، ١٢١، نفخ الطيب ٢/ ٥٧٨، الرد الوافر: ١١٩-١٢٠، ديوان أبي حيان: ص ٤٤٧ بتحقيق الدكتور أحمد مطلوب.

وقال الشيخ زين الدين ابن رجب في كتابه: «الطبقات» عن هذه الأبيات: ويقال إنَّ أبا حَيَّان لم يَقُلْ أبياتاً خيراً منها ولا أَفحل»[(١)].

وقال ابن فضل الله العمري رحمه الله: ثم دار بينهما كلامٌ، فيه ذكر سيبويه، فقال ابنُ تيمية: فيه كلاماً، نافَرهُ عليه أبو حيان، وقطعَهُ بسببه، ثم عادَ من أكثر الناس ذمَّاً له، واتخذه له ذنباً لا يُغفر»[(٢)].

○○ الإمام العلاَّمة قاضي القضاة علم المناظرين، بهاء الدين محمد بن عبد البر أبو البقاء السبكي الشافعي (ت ٧٧٧هـ):

«والله يا فلان ما يبغض ابن تيمية إلا جاهل أو صاحب هوى، فالجاهل: لا يدري ما يقول، وصاحب الهوى: يصدُّهُ هواه عن الحق بعد معرفته به»[(٣)].

○○ الفقيه العلاَّمة القاضي زين الدين علي بن مخلوف المالكي (ت ٧١٦هـ:

قال: «ما رأينا مثل ابن تيمية، حرضنا عليه فلم نقدر عليه، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا»[(٤)].

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٢.

(٢) تاريخ ابن الوردي: ٢/ ٤١٠.

(٣) الرد الوافر: ص ٩٩، الشهادة الزكية: ٥٧ـ٥٨.

(٤) البداية والنهاية: ١٤/ ٥٤، ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٤٠٠.

○○ الإمام الحافظ، الفقيه العالم الأديب البارع أبو الفتح محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري الشافعي (ت ٧٣٤هـ):

«قال رحمه الله في ترجمته لابن تيمية ـ بعد أن ذكر ترجمة الحافظ «المزي»: وهو الذي حداني على رؤية الشيخ الإمام. شيخ الإسلام: تقي الدين، أبي العباس، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية:

فألفيته: ممن أدرك من العلوم حظاً، وكاد أن يستوعب السنن والآثار حفظاً، إن تكلم في التفسير، فهو حاملُ رايته، أو أفتى في الفقه، فهو مدرك غايته، أو ذاكر في الحديث، فهو صاحب علمه، وذو روايته، أو حاضر بالملل والنحل، لم يُرَ أوسع من نحلته في ذلك، ولا أرفع من درايته.

برز في كل فنٍ على أبناء جنسه، ولم تر عينُ من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه.

كان يتكلم في التفسير فيحضر مجلسه الجمّ الغفير.. إلى أن دبّ إليه من أهل بلده داءُ الحسد..»[1].

وقد روى عنه حديثاً فقال:

---

(١) المعجم المختص بالمحدثين للذهبي: ص ٢٥، الرد الوافر: ٥٨ـ ٥٩، الشهادة الزكية: ٢٦ـ ٢٧، وذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٠، العقود الدرية: ص ١٠، الدرر الكامنة: ١/ ١٦٦ـ ١٦٧.

«قرأت على الشيخ الإمام، حامل راية العلوم، ومدرك غاية الفهوم، تقي الدين أبي العباس..»[1].

○○ الإمام الحافظ الثقة الحجة، مؤرخ الشام، وأحد محدثي الإسلام فقيه المحدثين علم الدين القاسم بن محمد البرزالي الإشبيلي، صاحب التاريخ الخطير والمعجم الكبير (ت ٧٣٨هـ):

ذكر البرزالي رحمه الله في معجم شيوخه الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله فقال: «... الإمام المجمع على فضله ونُبلِهِ ودينه، قرأ القرآن وَبَرَعَ فيه، والعربية، والأصول، وَمَهَر في علمي التفسير والحديث، وكان إماماً يُلْحق غبارُه في كل شيء، وبلغ رتبة الاجتهاد، واجتمعت فيه شروط المجتهدين...»[2].

○○ العلاَّمة المتفنن في العلوم عمر بن مظفر بن عمر، أبي الفوارس ابن الوردي الحلبي، الشافعي (ت ٧٤٩هـ):

قال في رحلته ـ لما ذكر علماء دمشق ـ:

«وتركتُ التَعَصُّبَ والحميَّةَ، وحضرت مجالس ابن تيمية، فإذا هو بيت القصيدة، وأول الخريدة[3]، علماء زمانه فَلكٌ، هو قُطْبُهُ، وجِسْمٌ، هو قلبه، يزيدُ عليهم زيادة الشمس على البدر،

---

(١) الرد الوافر: ص ٦٠، الشهادة الزكية: ص٢,.

(٢) الرد الوافر: ص ٢١٨، الشهادة الزكية: ص ٤٨، العقود الدرية: ص ١٢.

(٣) الخريدة: اللؤلؤة البكر قبل ثقبها.

والبحر على القَطر.

بحثت بين يديه يوماً، فأصبتُ المعنى، فكنَّاني، وَقَبَّل بين عيني اليمنى، فقلت:

إنَّ ابـــنَ تـــيـــمـــيـــة فـــي
كـــلِّ الـــعـــلـــوم واحـــدُ
أحـــيـــيـــت ديـــنَ أحـــمـــد
وشـــرعَـــهُ يـــا أَحـــمـــدُ[1]

○○ الإمام القدوة العارف العالم الرباني عماد الدين أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الواسطي الحزامي ابن شيخ الحزاميين (ت ٧١١هـ):

له في شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله رسالة لطيفة يثني عليه فيها، ويوصي أصحابه وأهل العلم في دمشق بمعرفة حقه اسمها «التذكرة والاعتبار والانتصار للأبرار في الثناء على شيخ الإسلام والوصاية به»[2] أقطف منها هذه الزهرة، حيث قال:

«واعلموا ـ رحمكم الله ـ أن هنا من[3] سافر إلى الأقاليم، وعرف الناس وأذواقهم وأشرف على أغلب أحوالهم، فوالله، ثم

---

(١) تاريخ ابن الوردي: ٢/ ٤٠٧، الشهادة الزكية: ص ٣٠، الكواكب الدرية: ورقة ٣ أ.

(٢) طبعت بتحقيق د. عبد الرحمن بن عبد لجبار الفريوائي، وصدرت عن دار العاصمة للنشر والتوزيع في الرياض.

(٣) يريد نفسه رحمه الله.

والله، ثم والله لم يُر تحت أديم السماء مثل شيخكم، علماً وعملاً وحالاً وخلقاً واتباعاً وكرماً وحلماً في حق نفسه، وقياماً في حق الله عند انتهاك حرماته، أصدق الناس عقداً، وأصحهم علماً وعزماً، وأنفذهم وأعلاهم في انتصار الحق وقيامه همة، وأسخاهم كفاً، وأكملهم اتباعاً لنبيه ﷺ.

ما رأينا في عصرنا هذا من تستجلى النبوة المحمدية وسنتها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل، بحيث يشهد القلب الصحيح أن هذا هو الاتباع حقيقة»[١].

ثانياً: ثناء تلاميذه ومن هو في درجتهم عليه، وتقديرهم له

○○ حافظ الإسلام محدث الأعلام الحبر النبيل شيخ المحدثين جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المزي الشافعي (ت ٧٤٢هـ):

قال رحمه الله:

«ما رأيت مثله» ولا رأى هو مثل نفسه، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ، ولا أتبع لهما منه»[٢].

وقال أيضاً:

«ابن تيمية» لم يُرَ مثله منذ أربعمائة سنة»[٣].

(١) التذكرة والاعتبار ص ٣٧، الرد الوافر: ١٣٠، العقود الدرية: ص ٣١١ـ٣١٢.

(٢) الشهادة الزكية: ص ٤٥، الرد الوافر: ٢٣٠، العقود الدرية: ص ٧.

وقال: قاضي القضاة صالح بن عمر البلقيني الشافعي: لقد افتخر قاضي القضاة ـ تاج الدين السبكي ـ في ترجمة أبيه ـ الشيخ تقي الدين السبكي ـ في ثناء الأئمة عليه بقوله:

«أن الحافظ المزي لم يكتب بخطه لفظة «شيخ الإسلام» إلاَّ لأبيه، وللشيخ تقي الدين ابن تيمية، وللشيخ شمس الدين ابن أبي عمر الحنبلي»[(١)].

وقال البلقيني رحمه الله:

«فلولا أن ابن تيمية في غاية العلو في العلم والعمل، ما قرن ابن السبكي أباه معه في هذه المنقبة، ولو كان ابن تيمية مبتدعاً أو زنديقاً ما رضي أن يكون أباه قريناً له»[(٢)].

○○ الإمام، الحافظ الهمام، مؤرخ الإسلام، ناقد المحدثين، وإمام المعدلين والمجرحين، والمعتمد عليه في المدح والقدح: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ):

وقد ترجم الذهبي رحمه الله لشيخ الإسلام تراجم عديدة في عدة مواضع من كتبه، وأثنى عليه ثناءً حسناً، وهي تراجم

---

(١) الشهادة الزكية: ص ٤٥، الرد الوافر: ٢٣٠.

(٢) الشهادة الزكية: ص ٤٩، طبقات الشافعية الكبرى: ٦/ ١٦٨، الرد الوافر ص٢٥٠.

(٣) الرد الوافر: ص ٢٥٠.

أشهر من أن تذكر، وأكثر من أن تحصر كما قال ابن ناصر الدين الدمشقي في كتابه الرد الوافر[1].

وقد أوردت مقاطع من ثناء الإمام الذهبي على شيخ الإسلام في مواطن مختلفة من هذا الكتاب حيث اقتضى التنويه على ذلك، ولكني سأورد هذه المقتطفات إضافة إلى كل ما سبق، ومن أراد المزيد فيستطيع أن يرجع إليها في مظانها من الكتب المشار إليها:

قال رحمه الله تعالى مثنياً على شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«شيخنا وشيخ الإسلام، وفريد العصر علماً ومعرفة وشجاعة، وذكاءً، وتنويراً إلهياً، وكرماً ونصحاً للأمة، وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر... وهو أكبر من أن ينبه على سيرته مثلي.

فلو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله، وأنه ما رأى مثل نفسه في العلم»[2].

«الشيخ الإمام العلاَّمة، الحافظ، الناقد، الفقيه، المجتهد، المفسر البارع، شيخ الإسلام، علم الزهاد، نادرة العصر.. كان من

---

(١) الرد الوافر: ص ٧٢.

(٢) شذرات الذهب: ٦/ ٨١ـ ٨٢، ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٨٩، الدرر الكامنة: ٩/ ٦٨ـ ١٦٩، الرد الوافر: ص أ ٧، العقود الدرية: ص ١١٨، الشهادة الزكية: ٤٢.

بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين، والزهاد الأفراد، والشجعان الكبار، والكرماء الأجواد، أثنى عليه الموافق والمخالف، وسارت بتصانيفه الركبان»[1].

«ولم يَخلُفْ بعده مثله في العلم ولا مَن يقاربه»[2].

«هو بحر لا ساحل له، وكنز لا نظير له»[3].

«الشيخ الإمام العالم، المفسر، الفقيه، المجتهد، الحافظ، المحدث، شيخ الإسلام، نادرة العصر، ذو التصانيف الباهرة، والذكاء المفرط»[4].

«كان آية في الذكاء، وفي سرعة الإدراك، رأساً في معرفة الكتاب والسُّنَّة والاختلاف، بحراً في النقليات، هو في زمانه فريد عصره علماً وزهداً وشجاعة وسخاء، وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر وكثرة تصانيف»[5].

«كان إماماً متبحراً في علوم الديانة، صحيح الذهن، سريع الإدراك، سيال الفهم، كثير المحاسن، موصوفاً بفرط الشجاعة

---

(١) تذكرة الحفاظ: ص ١٤٩٦.

(٢) المعجم المختص بالشيوخ: ١/ ٥٧.

(٣) ثلاث تراجم نفيسة: ص ٢٥.

(٤) ثلاث تراجم نفيسة: ص ٢١ـ ٢٢.

(٥) فوات الوفيات عن المنجد: ص ٦٢، العقود الدرية: ص ٣٩ـ ٤٠، الكواكب الدرية: ٤ب ـ ٥أ.

والكرم، فارغاً عن شهوات المأكل والملبس والجماع، لا لذة له في غير نشر العلم وتدوينه، والعمل بمقتضاه»[1].

وغير هذا الثناء الكثير الكثير.

٥٥ الإمام العلاَّمة، أحد المحققين، علم المصنفين، نادرة المفسرين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) قال فيه:

«شيخ الإسلام والمسلمين، القائم ببيان الحق، ونصرة الدين، الداعي إلى الله ورسوله، المجاهد في سبيله، الذي أضحك الله به من الدين ما كان عابساً، وأحيى من السُّنَّة ما كان دارساً، والنور الذي أطلعه الله في ليل الشبهات، فكشف به غياهب الظلمات، وفتح به من القلوب ـ مقفلها ـ. وأزاح به عن النفوس ـ عللها ـ، فقمع به زيغ الزائغين، وشَكَّ الشاكين، وانتحال المبطلين، وصدقت به بشارة رسول رب العالمين: يقول ﷺ: إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» وبقوله: «يحمل هذا العلم، من كل خلف عُدُولُهُ، ينفون عنه، تحريف الغالين، وانتحال المبطلين».

وهو الشيخ العلاَّمة، الزاهدُ، العابدُ، الخاشعُ، الناسكُ، الحافظ، المتبع تقي الدين، أبو العباس..»[2].

(١) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٠.

(٢) الشهادة الزكية: ص ٣٤، الرد الوافر: ١٢٢ـ ١٢٣.

○○ الإمام العلاَّمة الحافظ ثقة المحدثين عمدة المؤرخين، علم المفسرين، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي الشافعي (ت ٧٧٤هـ):

ترجم لشيخ الإسلام مراراً كثيرة لا تحصى. وقد قال:

«وبالجملة كان ـ رحمه الله ـ من كبار العلماء، وممن يخطىء ويصيب، ولكن خطأه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في بحر لُجي، وخطؤه أيضاً مغفور له كما في صحيح البخاري، إذا اجتهد الحاكم فصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر(١) فهو مأجور..»(٢).

○○ الإمام العلاَّمة، الحافظ، الناقد، ذو الفنون، عمدة المحدثين، شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي الحنبلي (ت ٧٤٤هـ):

كتب في ترجمة شيخ الإسلام والثناء عليه كتابه الرائع «العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية»، ومن جملة ما قاله:

«الشيخ، الإمام، العالم العامل، الرباني، إمام الأئمة، وعلاَّمة الأمة، ومفتي الفرق، وبحر العلوم، سيد الحفاظ، وفارس المعاني

---

(١) أخرجه البخاري: ١٣/ ٣١٧، ومسلم برقم: ١٧١٦ من حديث عمرو بن العاص.

(٢) الرد الوافر: ص ١٦٦، البداية والنهاية: ١٤/ ١٤٠.

والألفاظ، فريد العصر، ووحيد الدهر، شيخ الإسلام، بركة الأنام، علاَّمة الزمان، وترجمان القرآن، وعلم الزمان، وأوحد العباد، قامع المبتدعين، وآخر المجتهدين، تقي الدين، أبو العباس.

«.. كان بحراً لا تكدره الدلاء، وحبراً يقتدي به الرجال الألباء، وطغت بذكره الأمصار، وضنت بمثله الأعصار»(١).

٥٥ القاضي الفاضل، البارع، النبيل، العالم، الأصيل، أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العدوي العمري، الشافعي:

ترجم لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ترجمة حافلة في كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» ذكر فيها ما نصه:

«أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، العلاَّمة، الحافظ، المجتهد، المفسر، شيخ الإسلام، نادرة العصر، علم الزهاد.

هو البحر من أي النواحي جئته، والبدر من أي الضواحي رأيته، رضع ثدي العلم منذ فطم، وطلع وجهُ الصباح ليحاكيه فلطم، وقطع الليل والنهار ردائين، اتخذ العلم والعمل صاحبين، إلى أن أنسى السَّلفَ بهداه...

جاء في عصر مأهول بالعلماء، مشحون بنجوم السماء، تموج في جوانبه بحور خضارم، وتطير بين خافقيه نسور قشاعم..

---

(١) العقود الدرية: ص ١٨، الشهادة الزكية: ص ٥٢ـ ٥٣، الرد الوافر: ٦٤ـ ٦٥.

إلا أن شمسه طمست تلك النجوم، وبحره طم على تلك الغيوم، وابتلع غديره المطمئن جداولها.

كان إماماً في التفسير، وعلوم القرآن، عارفاً بالفقه، واختلاف الفقهاء والأصوليين، والنحو وما يتعلق به، واللغة، والمنطق، وعلم الهيئة، والجبر، والمقابلة، وعلم الحساب، وعلم أهل الكتابين، وعلم أهل البدع، وغير ذلك من العلوم النقلية والعقلية.

وما تكلم معه فاضل ـ في فن من الفنون ـ إلا ظن أن ذلك الفن فنه»[١].

٥٥ الإمام الحافظ المؤرخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي الشافعي (ت ٧٦٤هـ):

قال فيه وقد ترجمه ترجمة وافية في كتابه الوافي بالوفيات[٢].

«الشيخ الإمام العالم العلاَّمة المفسر الفقيه المجتهد، الحافظ، المحدث شيخ الإسلام، نادرة العصر، ذو التصانيف والذكاء، والحافظة المفرطة تقي الدين أبو العباس..»[٣].

---

(١) الشهادة الزكية: ٥٥ـ ٥٦، الرد الوافر: ١٤٧ـ ١٤٨.
(٢) الوافي بالوفيات: ٧/ ١٥ـ ٣٣.
(٣) ٧/ ١٥.

«وعلى الجملة فما رأيت ولا أرى مثله في اطلاعه وحافظته، ولقد صَدّقَ ما سمعنا به عن الحفاظ الأُول، وكانت همته عليَّة إلى الغاية..»[1].

«.. وكان إذا تكلم أغمض عينيه، وازدحمت العبارة على لسانه، فرأيتَ العجب العجيب، والحَبْرَ الذي ما له مُشاكل في فنونه ولا ضريب، والعالمَ الذي أخذ من كل شيء بنصيب سهمه للأغراض مصيب، والمُناظرَ الذي إذا جال في حومة الجدال رمى الخصوم من مباحثه باليوم العصيب:

وعاينت بدراً لا يرى البدر مثله

وخاطبت بحراً لا يرى العِبْرَ عائمُهْ»[2]

○○ العالم الفاضل المحدث البارع، المؤرخ، جمال المؤرخين، شمس الدين محمد بن يحيى بن مفلح المقدسي الصالحي (ت ٧٥٩هـ):

كتب بخطه في طبقة سماع «الجزء الحسن بن عرفة»:

«الشيخ، الإمام، العالم، العلاَّمة، الأوحد، البارع، الحجة، الحافظ، الزاهد، العابد، الورع، شيخ مشايخ الإسلام، بقية الأئمة

---

(١) الوافي بالوفيات: ٧/ ٢٢.

(٢) المصدر السابق: ٧/ ١٩.

الأعلام، إمام الأئمة، قدوة الأمة، علاَّمة الزمان، فريد العصر والأوان، بحر العلوم: تقي الدين، أبو العباس أحمد..»[1].

○○ **الإمام العلاَّمة، الزاهد، القدوة، الحافظ، الحجة، واعظ المسلمين، مفيد المحدثين زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥هـ):**

ترجم لشيخ الإسلام ترجمة ضافية في كتابه «ذيل طبقات الحنابلة» قال في مقدمتها:

«الإمام الفقيه، المجتهد، المحدث، الحافظ، المفسر، الأصولي، الزاهد، تقي الدين أبو العباس، شيخ الإسلام، وعلم الأعلام، وشهرته تغني عن الإطناب في ذكره، والإسهاب في أمره..»[2].

○○ **الإمام العلاَّمة الحافظ الكبير الحجة عمدة العلماء الأيقاظ، محدث الفقهاء، وفقيه المحدثين صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلدي العلائي (ت ٧٦١هـ):**

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

«قرأت بخط الحافظ صلاح الدين العلائي في ثبت شيخ شيوخنا الحافظ بهاء الدين عبد الله بن محمد بن خليل ما نصه:

---

(١) الشهادة الزكية: ص ٦٠.

(٢) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٨٧، الرد الوافر: ١٨٩، االشهادة الزكية: ص ٥٠.

شيخنا وسيدنا وإمامنا فيما بيننا وبين الله تعالى، شيخ التحقيق السالك بمن اتبعه أحسن طريق، ذي الفضائل المتكاثرة والحجج القاهرة، التي أقرت الأمم كافة أن هممها عن حصرها قاصرة، ومتعنا الله بعلومه الفاخرة، ونفعنا به في الدنيا والآخرة، وهو الشيخ الإمام العالم، الرباني، والحبر البحر، القطب النوراني، إمام الأئمة، بركة الأمة، علاَّمة العلماء، وارث الأنبياء، آخر المجتهدين أوحد علماء الدين، شيخ الإسلام، حجة الأعلام قدوة الأنام، برهان المتعلمين، قامع المبتدعين، سيف المناظرين بحر العلوم، كنز المستفيدين، ترجمان القرآن، أعجوبة الزمان، فريد العصر والأوان، تقي الدين إمام المسلمين، حجة الله على العالمين، اللاحق بالصالحين، والمشبه بالماضين، مفتي الفرق، ناصر الحق، علاَّمة الهدى، عمدة الحفاظ، فارس المعاني والألفاظ، ركن الشريعة، ذو الفنون البديعة أبو العباس ابن تيمية»[1].

وبهذا يعلم كذب المقولة أن النصيحة الذهبية نقلت بخط العلائي، فها هو العلائي رحمه الله يثني كل هذا الثناء على شيخ ابن تيمية رحمه الله، فكيف ينقل ما نسب للذهبي أنه قاله في ابن تيمية زوراً وبهتاناً على الذهبي رحمه الله.

---

(١) الدرر الكامنة: ١/ ١٦٩ـ ١٧٠.

وانظر أيضاً ما كتبه العلائي رحمه الله في انتقاءه وسماعه لأحاديث من جزء الحسن بن عرف على شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب الرد الوافر[1].

ثالثاً: ثناء الأكابر الآخرين

٥٥ الإمام الحافظ، المحدث، الفقيه، أمير المؤمنين في الحديث، قاضي القضاة أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي (ت ٨٥٢هـ):

«قال في تقريظه «الرد الوافر» لابن ناصر الدين الدمشقي رحمه الله تعالى: «وشهرة إمامة الشيخ تقي الدين ابن تيمية أشهر من الشمس، وتلقيبه «بشيخ الإسلام» في عصره، باقٍ إلى الآن على الألسنة الزكية، ويستمر غداً كما كان بالأمس، ولا ينكر ذلك إلا من جهل مقداره، أو تجنب الإنصاف، فما أغلط من تعاطى ذلك وأكثر عتاده، فالله تعالى المسؤول أن يقينا شرور أنفسنا وحصائد ألسنتنا بمنه وفضله.

.. فكيف وقد شهد له بالتقدم في العلوم، والتمييز في المنطوق والمفهوم، أئمة عصره من الشافعية وغيرهم! فضلاً عن الحنابلة»[2].

---

(١) الرد الوافر: ص ١٧٤.

(٢) الرد الوافر: ص ٢٤٨، الشهادة الزكية: ص ٧٢ـ ٧٤.

ووصفه في كتابه فتح الباري بصفة «العلاَّمة»[1].

○○الإمام الهمام، شيخ الإسلام، صاحب تحرير الكلام، وإمام الحنفية في زمانه بدر الدين محمود بن أحمد العيني (ت ٨٥٥هـ):

قال في تقريظه لكتاب «الرد الوافر لابن ناصر الدين الدمشقي رحمهما الله تعالى:

«.. وهو الإمام، الفاضل، البارع، التقي، النقي، الورع، الفارس في علمي الحديث والتفسير، والفقه، والأصول بالتقرير والتحرير، والسيف الصارم على المبتدعين، والحبر القائم بأمور الدين، والأمار بالمعروف، والناهي عن المنكر، ذو همة وشجاعة وإقدام فيما يروع ويزجر، كثير الذكر، والصوم، والصلاة والعبادة، خشن العيش، والقناعة من دون طلب الزيادة»[2].

○○ الإمام العلاَّمة، الحافظ، المجتهد، شيخ الإسلام عمر بن رسلان بن نصير بن صالح البلقيني (ت ٨٠٥هـ):

«.. عالم زمانه، والفائق على أقرانه، والذاب عن شريعة المصطفى باللسان والقلم، والمناضل عن الدين الحنيفي، وكم أبدى من الحكم.

---

(١) فتح الباري: ٦/ ٢٨٩.

(٢) الشهادة الزكية: ص ٧٧، الرد الوافر: ٢٦١ـ ٢٦٢.

صاحب المصنفات المشهورة، والمؤلفات المأثورة، الناطقة بالرد على أهل البدع والإلحاد، القائلين بالحلول والاتحاد، ومن هذا شأنه كيف لا يلقب بشيخ الإسلام؛ وينوه بذكره بين العلماء الأعلام، ولا عبرة بمن يرميه بما ليس فيه، أو ينسبه بمجرد الأهواء إلى قول غير وجيه، فلم يضره قول الحاسد والباغي، والجاحد والطاغي:

وما ضرَّ نور الشمس إن كان ناظراً
إليه عيون لم تزل دهرها عميا
حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه
فالقوم أعداء له وخصومُ

أعاذنا الله من حسدٍ يَسدُّ باب الإنصاف، ويصد عن جميل الأوصاف».

«.. ولقد افتخر قاضي القضاة، تاج الدين السبكي - رحمه الله تعالى - في ترجمة أبيه الشيخ «تقي الدين السبكي» في ثناء الأئمة عليه: بأن الحافظ المزي لم يكتب بخطه لفظة «شيخ الإسلام» إلا لأبيه، وللشيخ تقي الدين ابن تيمية، وللشيخ شمس الدين ابن أبي عمر، فلولا أَنَّ ابن تيمية في غاية العلو في العلم والعمل، ما قرن ابنُ السبكي أباه معه في هذه المنقبة التي نقلها، ولو كان ابن تيمية مبتدعاً، أو زنديقاً، ما رضي أن يكون أبوه قريناً له»[1].

(١) الشهادة الزكية: ص ٤٦، الرد الوافر: ص ٢٤٩.

○○ **الإمام الحافظ المحدث جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الشافعي (ت ٩١١هـ):**

قال في ترجمته في طبقات الحفاظ:

«ابن تيمية الشيخ الإمام العلاَّمة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع شيخ الإسلام، علم الزهاد، نادرة العصر، تقي الدين أبو العباس أحمد بن المفتي شهاب الدين عبد الحليم ابن الإمام المجتهد شيخ الإسلام مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحراني أحد الأعلام.

.. وعنيُ بالحديث، وخرج وانتقى، وبرع في الرجال، وعلل الحديث وفقهه، وفي علوم الإسلام، وعلم الكلام، وغير ذلك، وكان من بحور العلم ومن الأذكياء المعدودين، والزهاد، والأفراد..»[(١)].

○○ **العلاَّمة علي بن سلطان محمد القاري الهروي (ت ١٠١٤هـ):**

قال رحمه الله:

«ومن طالع شرح منازل السائرين تبين له أنهما ـ يعني ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ـ كانا من أكابر أهل السُّنّة والجماعة، ومن أولياء هذه الأمة»[(٢)].

---

(١) طبقات الحفاظ ص: ٥٢٠ـ ٥٢١.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٤/ ٤٢٧.

○○ المؤرخ الفقيه الأديب أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ):

قال في ترجمته:

«شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس.. بل المجتهد المطلق»[1].

وترجم له ترجمة حافلة.

○○ الإمام الفقيه المحدث شيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ):

«فنشر الله من فوائده ما لم ينشر بعضه لأحد من معاصريه، وترجمه أعداؤه فضلاً عن أصدقائه بتراجم لم يتيسر لهم مثلها، ولا ما يقاربها لأحد من الذين يتعصبون لهم، ويدأبون في نشر فضائلهم، ويطرؤون في إطرائهم، وجعل الله له من ارتفاع الصيت، وبُعد الشهرة ما لم يكن لأحد من أهل عصره حتى اختلف من جاء بعد عصره في شأنه، واشتغلوا بأمره، فعاداه قوم، وخالفهم آخرون.

والكل معترفون بقدره، ومعظمون لأمره، وخاضعون لعلومه، واشتهر هذا بينهم غاية الاشتهار، حتى ذكره المترجمون

(١) شذرات الذهب: ٦/ ٨٠.

لهم في تراجمهم فيقولون: وكان من المائلين إلى ابن تيمية، أو المائلين عنه»[1].

وبعد كل هذا الثناء عليه، وهو ليس كل ما قيل في الثناء عليه يتبين لنا صدق العبارة التي قالها الشيخ الإمام محمد أبو زهرة رحمه الله حيث قال:

«ولو أَحصيت أو حاولت أن تحصي أقوال الذين قدروه حق قدره، وعرفوا حقيقة أمره، واعترفوا بمنزلته لضاق مجلد ضخم من أن يسعها، ويحيط بها».

وكيف لا يكون الثناء عاطراً، والمكانة التي تأهل لها ووصلها جليلة وخطيرة، والعلم الذي بين جنبيه لم ينله أحد من أهل عصره، وقد عرف له ذلك أعداؤه وأصدقاؤه على حد سواء، وها هي كلمات الحافظ الذهبي والحافظ ابن حجر رحمهما الله تعالى تدل على ذلك:

فقد قال الذهبي رحمه الله:

«.. لو لاطف خصومه لكان كلمة إجماع، فإن كبارهم خاضعون لعلومه، معترفون بشغوفه، مقرون بندور خطئه، وإنه بحر لا ساحل له، وكنز لا نظير له»[2].

وقول ابن حجر رحمه الله:

---

(١) طلب العلم للشوكاني: ص ١٤.

(٢) الدرر الكامنة: ١/ ١٦١.

«ولقد قام على الشيخ تقي الدين جماعة من العلماء مراراً بسبب أشياء أنكروها عليه من الأصول والفروع...

.. ومع ذلك فكلهم معترف بسعة علمه، وكثرة ورعه وزهده، ووصفه بالسخاء والشجاعة، وغير ذلك من قيامه في نصر الإسلام والدعاء إلى الله تعالى في السر والعلانية»(١).

وكيف لا يقرون بعلمه وفضله وقد حوى من العلوم ما لم يتيسر لغيره، ينتقي منها ما يشاء، ويترك ما يشاء وقد نشرت أمام عينيه، وانكشفت بين يديه وما أجمل كلمات شيخ الإسلام ابن دقيق العيد رحمه الله وهو يقول:

«رأَيت رجلاً سائر العلوم بين عينيه يأخذ ما يشاء منها، ويترك ما شاء»(٢).

فرحمه الله رحمة واسعة، وأكرم نزله، ورفع عنده درجته ودرجات أهل العلم والفضل أجمعين.

---

(١) الرد الوافر: ص ٢٤٧.

(٢) شذرات الذهب: ٦/ ٨٣، ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٢، والشهادة الزكية: ص٢٩.

الفصل الثامن

«مؤلفات شيخ الإسلام وقيمتها العلمية»

كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أحد كبار العلماء الأفذاذ الذين أثروا المكتبة الإسلامية بكنوز كثيرة غاية في الجودة، وذلك في مختلف مجالات العلم الشريف، ولا شك أن التراث العلمي الذي يخلِّفه أي عالم من العلماء هو من أكبر الأدلة على علو مكانته العلمية، كما أن مصنفاته ومؤلفاته تعتبر من أصدق المصادر وأعلاها في القيمة العلمية لتدوين سيرته، وخاصة إذا كانت شخصيته العلمية بارزة وواضحة في مؤلفاته.

وقد أجمع الموافق والمخالف في الإخبار عن غزارة علوم شيخ الإسلام، وسعة اطلاعه ومعارفه، وبأنه ممن أفاد في ميدان التأليف طلبة العلم وأهله بتصانيف بديعة، غزيرة الفوائد، لم يسبق إلى مثلها، ولم يلحق في شكلها.

○ قيمة مصنفاته العلمية:

وزن العلماء كتب شيخ الإسلام ومؤلفاته، وعرفوا قيمتها، وأدركوا عظيم الفوائد المجتناة في رحابها، ولذلك أثنوا عليها وعلى مؤلفها، وذكروا سعة انتشارها.

قال الذهبي رحمه الله:

«صنف شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ التصانيف البديعة، التي سارت بها الركبان، والتي لم يسبق إلى مثلها، ولا يلحق في شكلها توحيداً، وتفسيراً، وإخلاصاً، وفقهاً، وحديثاً ولغة ونحواً، وبجميع العلوم كتبه طافحة بذلك»[1].

وقال:

«ولقد سارت بتصانيفه الركبان في فنون من العلم، وألوان، لعل تواليفه وفتاويه في الأصول والفروع، والزهد، واليقين، والتوكل، والإخلاص، وغير ذلك، تبلغ ثلاث مئة مجلد، لا بل أكثر»[2].

وقال ابن عبد الهادي رحمه الله: «ولا أعلم أحداً من متقدمي الأمة ولا متأخريها جمع مثل ما جمع، ولا صنف نحو ما صنف، ولا قريباً من ذلك، مع أن أكثر تصانيفه إنما أملاها من حفظه، وكثير منها صنفه في الحبس، وليس عنده ما يحتاج إليه من الكتب.

وممن شهد له بطول الباع في التصنيف والترتيب، وجودة العبارة والتركيب، عصريه الحافظ ابن الزملكاني رحمه الله حيث قال:

---

(١) المعجم المختص بالمحدثين: ص ٢٥، تذكرة الحفاظ: ٤/ ١٤٩٧، الرد الوافر: ص ٦٣.

(٢) ثلاث تراجم نفيسة: ص ٢٣.

«كان له اليد الطولى في حسن التصنيف، وجودة العبارة، والترتيب والتقسيم والتبيين»[1].

وكذلك محمد راغب باشا (ـ ١١٧٦هـ) وهو أحد مخالفي شيخ الإسلام حيث قال:

«ولكن يظهر للناظر فيه [أي في كتاب درء تعارض العقل والنقل] أن الرجل على علاته كيف كان شجرة في العلوم، واقتداره على إلزام الخصوم، مع ما يستفيد منه فوائد لا يستغني عن اقتنائها الطالب، ولا ينثني عن اصطياده من هو في اقتناص الشوارد راغب»[2].

ومن هذا نستطيع التبيين أن كتابات شيخ الإسلام رحمه الله كانت تتمتع بقيمة علمية عالية، فقد تعددت ألوانها في شتى المجالات، وهي تعتبر بحق من نوادر تاريخ التأليف، وقد تميزت بالقدرة العجيبة على إلزام الخصوم، وسعة الأفق الواضحة حيث دعم سعة الأفق اطلاع واسع على شتى العلوم والفنون، فما كان يفتح باباً من العلم إلا وظن من سمعه، أو قرأ له أنه لا يتقن إلا هذا الفن، ولا دخل ناحية من نواحيه إلا وفتح له فيها أبواباً من

---

(١) العقود الدرية: ص ٧ـ ٨، الرد الوافر: ١٠٧، ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٢، المختصر في أخبار البشر لابن الوردي: ٢/ ٤٠٦.

(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية: ١/ ٢٤ـ ٢٥ من سماعات النسخة (طبعة جامعة الإمام ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م).

العلم لم تكن تخطر ببال أحد، وقد تميزت هذه المؤلفات باطلاع صاحبها المدهش على الخلافيات، والقول الفصل في القضايا المختلف فيها بين الفقهاء، وقوة استحضاره للأدلة من الكتاب والسنّة وأقوال السلف الصالح، بحيث أن من يقرأها ينشرح صدره، ويطمئن قلبه لما يقرأ.

وأما عن تأثير كتبه ومصنفاته وانتشارها، فإن باحث دائرة المعارف الإسلامية يعجب من شدة تأثيرها فيقول:

«إن ابن تيمية من المؤلفين الذين لهم تأثير كبير على أهل الإسلام من الزمان الغابر إلى الآن وخاصة على أهل السُّنَّة»[(١)].

○ منهجه في مؤلفاته:

ويمكن استخلاص هذ المنهج من خلال النظر في مؤلفاته رحمه الله تعالى، والتي تبرز فيها شخصيته ومنهجه بشكل واضح جداً، ونستطيع أن نلخص هذا المنهج على شكل نقاط على النحو التالي:

١ ـ الارتباط بالحياة والواقع من خلال عيش الأحداث وتسجيلها ومناقشتها، ووضع الرأي السديد والصائب فيه، مما أكسب كتبه ومصنفاته قوة وحيوية وتأثيراً عميقاً في النفوس يندر أن تجد ذلك في كتب غيره من المؤلفين.

---

(١) الندوة العالمية عن شيخ الإسلام: ص ٢٠٧.

٢ ـ استعماله الأسلوب العلمي في إقناع الخصوم وإلزامهم الحجة من خلال الاحتجاج عليهم بكلام أئمتهم، واستخدام أساليبهم الجدلية والمنطقية مما يضيق دائرة المناظرة على الخصم.

٣ ـ الوضوح لأنها كانت في أغلب الأحيان ردوداً على مجادلات، أو نقداً لنواحي واجتهادات شرعية.

٤ ـ الأسلوب الموسوعي في جمع أطراف الفكرة الواحدة مما أكسب مؤلفاته ميزة خاصة تجعل قارئها يستغني بما فيها من معلومات قيمة عن كتب كثيرة، بل عن مكتبة ضخمة، تغني القارىء عن الرجوع إلى المصادر والمراجع حول الموضوع الذي يبحث فيه.

٥ ـ الإكثار من النقل عن الأئمة، مما أكسب مؤلفاته القوة والأصالة، ثم إلحاقه هذه النقول بتعليقاته وإيضاحاته، مع بيان المنزلة العلمية التي كان يتمتع بها هذا الإمام الذي نقل عنه، وهذا يشعر القارىء أن شيخ الإسلام كان يعرف الفضل لأهله.

٦ ـ تبرز هذه المؤلفات اطلاع شيخ الإسلام المدهش على الخلافيات، ودراساته المقارنة للمسائل التي يعرضها، مما جعل أحكامه أقرب إلى السلامة الكاملة، والدقة المتناهية، وندرة الخطأ، وجعل هذه الأحكام الأقرب إلى عقول وقلوب الناس، وكذلك الأقرب إلى إقناعهم.

٧ ـ خلو منهجه من الجفاف والتعقيد في عرض القضايا الفقهية، لأن سمة الجفاف والتعقيد كانت تسيطر على مؤلفات المتأخرين في الجانب الفقهي، فابتعد رحمه الله عنها في مصنفاته الفقهية، مما أعطى الفقه الإسلامي دفعة قوية، وقبولاً في نفوس الناس، وخاصة حين يعرض منهج السلف رحمهم الله، فالقارىء حين يقرأ يشعر بسلاسة الألفاظ، وفيضان العلم في طيات هذه المؤلفات، وهذه السمة كانت تصاحبه حتى في مجالسه العلمية.

٨ ـ القدرة على الاستنباط وتأصيل القواعد تفريع المسائل، وقوة الحُجة في المناظرة، مما أكسب كتبه قوة كبيرة، وإمتاع للقارىء عظيم.

٩ ـ المعرفة الواسعة لمقاصد الشرع، والاطلاع الكبير على روح الدين وتشريعاته وشرحِهِ الناجح لهما.

١٠ ـ الأمانة العلمية وتحري الدقة في النقل، فالنقول التي كان يوردها لم تكن في كثير من الأحيان بالمعنى وإنما كان يوردها بلفظها ونصها تماماً، مع العزو للمصدر والقائل.

١١ ـ الاستطراد في النقل أحياناً، حتى إنه أثناء إيراد كلام بعض الأئمة العلماء يذكر مسائل ليس لها علاقة مباشرة بأصل الكتاب الذي يصنفه.

١٢ ـ التجرد للحق وقبوله ممن جاء به على الرغم أنه قد يكون مخالفاً له في كثير من الأمور والمسائل العلمية، واتباعه

الموضوعية والعدالة حين يثني على من يقم بالرد عليهم، ويذكر الجوانب الإيجابية لديهم، وهذا أمر قد عرف عنه، واشتهر به، فهو لا يغمط أحداً من الآخرين حقه، ولا يهضم ما عنده من الإيجابيات.

١٣ ـ التكرار وإعادة البحث للموضوع الواحد في أكثر من موضع، ففي بعض تصانيفه يكاد ينقل كثيراً مما قال في مواطن أخرى ولعل ذلك ناتج من حرصه على التأكيد على أهمية الموضوع الذي يبحثه.

١٤ ـ سعة أفقه رحمه الله تعالى، واطلاعه المدهش على مختلف العلوم والفنون في عصره، مما جعله واثقاً مما يقول، وأكسبه ذلك قوة كبيرة في مناقشة أو بحث أية قضية لأنه يلم بها من جميع أطرافها.

١٥ ـ سرعة بديهته، وقوة استحضاره للدليل من كتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ، وأقوال السلف الصالح، فتراه يسوق الأدلة ببداهة تثير الإعجاب عند الحفاظ والمتقنين، وأهل العلم المختصين، حتى جعلت الحافظ الذهبي يعجب من ذلك فيقول: «ما رأيت أسرع انتزاعاً للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه»(١)(٢).

---

(١) الدرر الكامنة: ١/ ١٦٠.

(٢) ابن تيمية لأبي زهرة: ٥٢١ـ ٥٢٤، ابن تيمية للندوي: ١٣٣ـ ١٣٩، مقدمة الحموية: ٧٢ـ ٧٩.

ولعل الأمر الذي يؤخذ عليه في مصنفاته هو الأطناب والتطويل، والانتقال من موضوع إلى موضوع آخر لأدنى مناسبة، مما يوقع القارىء في حيرة شديدة خاصة إذا كان يجهل أسلوبه وطريقة تأليفه.

وهذا يعود إلى حدة ذهنه، وفرط ذكائه، ووفرة علمه، وحماس طبيعته، فإذا تجلد طالب العلم الصادق، ودأب على القراءة والتحصيل والغوص في معانيها عاد بدرر ثمينة ولآلىء فاخرة[1].

○ أسباب غزارة عطائه العلمي:

إن ما قام بتصنيفه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يعجز الكثيرون عن القيام به مجتمعين، ولا شك أن توفيق الله تعالى وفضله أولاً وآخراً كانا يصاحبانه، علاوة على الأسباب الفطرية والمكتسبة التي توفرت فيه رحمه الله، ولعلنا نلخص هذه الأسباب في الأمور التالية:

١ ـ البدء بالتأليف في سن مبكرة:

ابتدأ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله رحلته مع التصنيف والتأليف في سن مبكرة، وهذا مما يدل على نبوغه المبكر وطول باعه في مجال العلم، وفي هذا يقول الحافظ الذهبي رحمه الله:

---

(١) ابن تيمية للندوي: ١٣٦ـ١٣٧.

«وأفتى وله تسع عشرة سنة بل أقل، وشرع في الجمع والتصنيف من ذلك الوقت وأكب على الاشتغال»(١).

ويقول الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله:

«شرع الشيخ في الجمع والتصنيف من دون العشرين، ولم يزل في علو وازدياد من العلم والقدر إلى آخر عمره»(٢).

وإذا علمنا أنه قد عاش (٦٧) عاماً، واشتغل بالتأليف في ذلك السن المبكرة فإن ذلك يعني أنه اشتغل بالتأليف والتصنيف حوالي نصف قرن من الزمان تقريباً، وهذا يوضح لنا كثرة مؤلفاته وتصانيفه رحمه الله.

٢ ـ غزارة علومه ومعارفه:

استطاع شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن يلم بفنون الثقافة في عصره في وقت مبكر، ساعده في ذلك حافظة خارقة، فقد كان يحفظ كل ما يقع تحت عينيه، وقد ذكرت نتفاً من ذلك في فصل نشأته وطلبه للعلم، وكان مع ذلك حريصاً على الوقت جداً لا يضيع منه شيئاً أبداً، ويعزف عما ينصرف إليه أقرانه في بداية مرحلة الطلب، ولم يكفَّ عن الدراسة والقراءة والبحث والتأليف طول عمره وفي مختلف أحواله(٣).

---

(١) العقود الدرية: ص ٤.

(٢) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٨٨.

(٣) فوات الوفيات: ١/ ٦٤.

وقد مَهَرَ في سائر العلوم التي كانت معروفة في عصره من تفسير، وحديث، وتوحيد وفقه، وأصول، وتاريخ، ونحو، وصرف، وبلاغة، وجبر، ومقابلة، وحساب، ومنطق، وفلسفة، وغير ذلك من العلوم التي كانت معروفة، وكان واقفاً على أصول الديانات كاليهودية والنصرانية، وكذلك الفرق الضالة القديمة، التي كانت في عصره كالفرق الباطنية وغيرها.

وأمده الله بكثرة الكَتْب وسرعة الحفظ، وقوة الإدراك والفهم، وبطء النسيان حتى قال غير واحد من أهل العلم: إنه لم يكن يحفظ شيئاً فينساه»[(١)].

وقد ذكر أهل العلم والفضل في عصره غزارة علومه وشهدوا له ذلك: قال الحافظ ابن سيد الناس رحمه الله:

«ألفيته ممن أدرك من العلوم حظاً، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظاً، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذكر في الحديث فهو صاحب علمه وذو روايته، أو حاضر بالملل والنحل لم يَرَ أوسع من نحلته في ذلك ولا أرفع من درايته، برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عَينٌ من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه»[(٢)].

وقال الحافظ الذهبي رحمه الله:

---

(١) شذرات الذهب: ٦/ ٨١.

(٢) الدرر الكامنة: ١/ ١٥٤، الرد الوافر: ص ٢٦، العقود الدرية: ص ١٠.

«.. سمع الحديث وأكثر بنفسه من طلبه، وكتب وخرج، ونظر في الرجال والطبقات وحصَّل ما لم يحصله غيره، وبرع في تفسير القرآن، وغاص في دقيق معانيه بطبع سيال، وخاطرٍ وقاد، استنبط منه أشياء لم يسبق إليها، وبرع في الحديث وحفظه، فقلَّ من يحفظ ما يحفظ من الحديث معزُوّاً إلى أصوله وصحابته مع شدة استحضارٍ له وقت إقامة الدليل.

وفاق الناس في معرفة الفقه واختلاف المذاهب وفتاوى الصحابة والتابعين بحيث إنه إذا أفتى لم يلتزم بمذهب بل بما يقوم دليله عنده، واتقن العربية أصولاً وفروعاً واختلافاً، ونظر في العقليات، وعرف أقوال المتكلمين، ورد عليهم، ونبه على خطئهم وحذر»(١).

وقد سبق أن ذكرت نصوصاً أخرى عن ابن الزملكاني وغيره من أهل العلم ممن أثنوا على علومه وسعة معارفه، حتى خصومه كانوا يعترفون له بالتفوق في العلم والمعرفة ويقرون بأنه لا نظير له حيث قال الذهبي رحمه الله:

«لو لاطف خصومه لكان كلمة إجماع، فإن كبارهم خاضعون لعلومه معترفون بتفوقه، مقرون بندور خطئه، وأنه بحر لا ساحل له وكنز لا نظير له»(٢).

---

(١) شذرات الذهب: ٦/ ٨١، ٨٢.

(٢) الدرر الكامنة: ١/ ١٦١.

وإنَّ مما يبرز سعة علمه وغزارته وعمقه معاً هذه المؤلفات الكثيرة التي أربت وزادت عن الخمسمائة مجلد في إحدى الروايات، وهي تشهد بالخدمات العظيمة التي أداها للفكر الإسلامي.

٣ ـ سرعته في الكتابة والتأليف:

أُوتي شيخ الإسلام رحمه الله قدرة على سرعة الكتابة، وقد انعكس ذلك على غزارة إنتاجه العلمي، فكثرت مصنفاته جداً إلى حد كبير، وقد وصفه أكثر من واحد من أهل العلم بذلك:

قال الحافظ الصفدي رحمه الله:

«وكان ذا قلم يسابق البرق إذا لمع، والودق إذا قبع، يُملى على المسألة الواحدة ما شاء من رأس القلم، ويكتب الكراسين والثلاثة في قعدة واحدة، وَحَدُّ ذهنه ما كلَّ ولا انثلم»(١).

وقال أبو عبد الله بن رشيق كاتب مؤلفات شيخ الإسلام رحمهما الله:

«لو أراد الشيخ تقي الدين ـ أو غيره حصرها ـ يعني مؤلفات الشيخ ـ لما قدروا، لأنه ما زال يكتب وقد مَنَّ الله عليه بسرعة الكتابة، ويكتب من حفظه من غير نقل»(٢).

---

(١) أعيان العصر عن المنجد: ص ٥٠.

(٢) العقود الدرية: ص ٦٤.

وقال تلميذه النجيب الإمام ابن القيم رحمه الله:

«إنه كان يحرر أربعين فتوى في ساعة»[١].

وقال الحافظ الذهبي رحمه الله:

«.. ويكتب في اليوم والليلة من التفسير أو من الفقه أو من الأصلين أو من الرد على الفلاسفة الأوائل نحواً من أربعة كراريس أو أزيد، وما يبعد أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلد، وله في غير مسألة مصنف مفرد في مجلدة»[٢].

ومن أمثلة سرعته في الكتابة ما ذكره ابن عبد الهادي وابن سيد الناس رحمهما الله تعالى أنه ـ يعني شيخ الإسلام ـ كتب الرسالة الحموية سنة ثمان وتسعين وست مائة في قَعْدَة بين الظهر والعصر[٣].

وكتب الرسالة الواسطية في قعدة بعد العصر[٤].

وقد ذكر ابن عبد الهادي رحمه الله أنه كان يكتب مجلداً لطيفاً في يوم»[٥].

ومن ذلك ما ذكر عنه أنه كان جالساً في حلقته إذ جاءه

---

(١) إعلام الموقعين: ص.

(٢) تاريخ ابن الوردي: ٢/ ٤٠٦ـ ٤٠٧، فوات الوفيات: عن المنجد ص ٦٣.

(٣) العقود الدرية: ص ٦٤، ٦٧، فوات الوفيات عن المنجد ص ٦٦.

(٤) مجموع الفتاوى: ٣/ ١٦٤، والعقود الدرية: ص ٣١١.

(٥) العقود الدرية: ص ٦٤.

سؤال على لسان ذمي ينكر صاحبه القدر، وكان السؤال عبارة عن أبيات من الشعر منها:

يـا عـلـمـاء الـديـن ذمـي ديـنـكـم
تـحـيـر دلـوه بـأعـظـم حـجـة
إذا مـا قـضـى ربـي كـفـري بـزعـمـكـم
ولـم يـرضـه مـنـي فـمـا وجـه حـيـلـتـي

فلما قرأ الشيخ الأبيات فكر قليلاً، ثم أنشأ يكتب في الحال جواباً لهذا الاعتراض، وكان الطلاب يظنون أنه يكتب نثراً، ولما فرغ وقرأه من حضر من أصحابه وإذا هو نظم من الشعر، من نفس البحر والقافية الذي ورد به السؤال، يزيد على مائة بيت، وقد ذكر أنه أبرز فيها من العلوم ما لو شُرح لجاء شرحه في مجلدين كبيرين يقول في مطلعها:

سـؤالـك يـا هـذا سـؤال مـعـانـد
تـخـاصـم رب الـعـرش رب الـبـريـة
وهـذا سـؤال خـاصـم الـمـلأ الـعـلـى
قـديـمـا بـه إبـلـيـس أصـل الـبـلـيـة
ومـن يـك خـصـمـاً لـلـمـهـيـمـن يـرجـعـن
عـلـى أم رأس هـاويـاً فـي الـحـفـيـرة

إلى آخر الأبيات[١].

٤ ـ دخوله في مجادلة أهل العلم في زمانه، ومناظرة أصحاب المذاهب الفكرية والعقلية والفقهية، مما أعطاه حافزاً على التأليف والتصنيف انتصاراً لرأيه، وزاد ذلك في إنتاجه العلمي وكثرة تصانيفه.

٥ ـ خلوه عن المناصب والوظائف التي تستهلك الكثير من الوقت في حياة العالم، وتحرم الناس من فوائد علمه الغزير، أما شيخ الإسلام رحمه الله فلم يكن يرضى أن يأخذ من السلطان شيئاً، فقد كان أخوه يقوم بشؤونه وقد ذكر ابن رجب رحمه الله أنه قد عُرض عليه قضاء القضاة قبل سنة ٦٩٠هـ ومشيخة الشيوخ فلم يقبل شيئاً من ذلك»[1].

فهو لم يكن يقدم على تفرغه لطلب العلم وتحصيله، والإفادة به، شيء مهما كانت أهميته وخاصة إذا كان هذا الشيء من متعلقات الدنيا ولذاتها:

قال الحافظ البزار في ذلك:

«وما رأيناه يذكر شيئاً من ملاذ الدنيا ونعيمها، ولا كان يخوض في شيء من حديثها، ولا يسأل عن شيء من معيشتها،

---

(١) الدرر الكامنة: ١/ ١٩٦، الكواكب الدرية ص ٧٩ـ ٨٠، العقود الدرية: ص ٣٨٣ـ ٣٩٣، الأعلام العلية: ص ٢٨.

(٢) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٠.

بل جعل همَّه وحديثه في طلب الآخرة وما يقرب إلى الله تعالى»[1].

○ عدد مصنفاته رحمه الله:

ذكر العلماء أن مصنفات شيخ الإسلام رحمه الله كثيرة جداً، ومن الصعوبة حصرها، ولذلك اختلفت عباراتهم في تحديد عددها، وممن قال بصعوبة حصرها الحافظ البزار رحمه الله حيث قال:

«وأما مؤلفاته ومصنفاته، فإنها أكثر من أن أقدر على إحصائها، أو يحضرني جملة أسمائها، بل هذا لا يقدر عليه ـ غالباً ـ أحد، لأنها كثيرة جداً، كباراً وصغاراً، وهي منشورة في البلدان، فقلَّ بلد نزلته إلا ورأيت فيه من تصانيفه»[2].

وقال ابن عبد الهادي رحمه الله:

«وللشيخ من المصنفات والفتاوى والقواعد والأجوبة والرسائل وغير ذلك من الفوائد ما لا ينضبط، ولا أعلم أحداً ـ من متقدمي الأمة ولا متأخريها ـ جمع مثل ما جمع، ولا صنف نحو ما صنف، ولا قريباً من ذلك، مع أن أكثر تصاينفه إنما أملاها

(١) الأعلام العلية: ص ٣٣.

(٢) الأعلام العلية: ص ٥٣.

من حفظه، وكثير منها صنفها في الحبس وليس عنده ما يحتاج إليه من الكتب»[1].

وقال أبو عبد الله بن رشيق كاتب الشيخ:

«لو أراد الشيخ تقي الدين ـ رحمه الله ـ أو غيره حصرها ـ يعني مؤلفات الشيخ ـ لما قدروا، لأنه ما زال يكتب، وقد من الله عليه بسرعة الكتابة، ويكتب من حفظه من غير نقل»[2].

وقال ابن رجب الحنبلي رحمه الله:

«وأما تصانيفه رحمه الله فهي أشهر من أن تذكر، وأعرف من أن تنكر، سارت مسيرة الشمس في الأقطار، وامتلأت بها البلاد والأمصار، قد جاوزت حد الكثرة فلا يمكن لأحد حصرها، ولا يتسع هذا المكان لعد المعروف منها وذكرها..»[3].

وفي ذكر إعدادها تباينت العبارات، وذلك حسب ما اطلع عليه صاحب كل عبارة أو قول أو ما استطاع الوصول إليه:

فقد ذكر الإمام البرزالي «أن تصانيفه في هذا الوقت أربعة آلاف كراس أو أكثر»[4].

---

(١) العقود الدرية: ص ٢٠ـ ٢١.

(٢) العقود الدرية: ص ٤٧.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٤٠٣.

(٤) فوات الوفيات: عن المنجد ص ٦١ـ ٦٢.

وأما الحافظ الذهبي رحمه الله فقد تعددت أقواله في إعدادها، ولعل ذلك عائد إلى بداية الأمر ومنتهاه، فقد ذكر أن مصنفات شيخ الإسلام أكثر من مائتي مجلد[(١)]، وقال: أنه أثنى عليه الموافق والمخالف، وسارت بتصانيفه الركبان، ولعلها ثلاث مائة مجلد[(٢)]، وقال أيضاً: «وما أبعد أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلد»[(٣)]، وأما نهاية المطاف فقد قام بجمع مصنفات شيخ الإسلام ابن تيمية فوجدها ألف مصنف، ثم قال: رأيت له مصنفات أخر»[(٤)].

وأما تلميذه الإمام ابن القيم فقد جمع ما حضره، وذكر أنه لم يستوعب، وذكر في «أسماء مؤلفات شيخ الإسلام» حوالي (٣٣٧) مصنفاً.

والحق أن أصحاب هذه الأقوال لم يلتزموا إحصاءً دقيقاً ومستوعباً لمؤلفات شيخ الإسلام، فالكل متفقون على صعوبة حصرها، وأما الأسباب التي جعلت من الصعوبة بمكان حصر أسماء مؤلفات شيخ الإسلام فتعود إلى الأمور التالية:

---

(١) ذيل العبر: ص ١٥٨.

(٢) تذكرة الحفاظ: ٤/ ١٤٩٦ـ١٤٩٧.

(٣) العقود الدرية: ص ٢٥.

(٤) الرد الوافر: ص ٧٢.

١ ـ الفتن والامتحانات التي تعرض لها شيخ الإسلام حيث أثرت في ضياع بعض مصنفاته وكتبه يقول:

«فكثير ما يقول: قد كتبت في كذا وكذا، ويُسئل عن الشيء، فيقول كتبت في هذا، فلا يدري أين هو؟ فيلتفت إلى أصحابه، فيقول: ردوا خطي وأظهروه لينقل، فمن حرصهم عليه لا يردونه، ومن عجزهم لا ينقلونه فيذهب ولا يعرف اسمه»[(١)].

٢ ـ كان يكتب الجواب لمن سأله، فإن وجد من ينقل الجواب ويبيضه، وإلا أخذ السائل الجواب وذهب[(٢)].

٣ ـ وذكر ابن عبد الهادي أن الشيخ لما حبس تفرق أتباعه، وتفرقت كتبه، وخَوَّفوا أصحابه من أن يظهروا كتبه، وذهب كل أحد بما عنده، وأخفاه، ولم يظهروا كتبه، فبقي هذا يهرب بما عنده، وهذا يبيعه، أو يهبه، وهذا يخفيه ويودعه، حتى إن منهم من تسرق كتبه أو تجحد، فلا يستطيع أن يطلبها، ولا يقدر على تحصيلها فبدون هذا تتمزق الكتب والتصانيف[(٣)].

٤ ـ ومن ذلك أن كتب الشيخ التي كانت عنده في السجن وهي كثيرة حين صودرت توزعها أعداؤه وخصومه، فمنها ما أجبر

---

(١) العقود الدرية: ص ٢٠٧، الفتاوى: ٣/ ١٦١.

(٢) العقود الدرية: ص ٦٥.

(٣) العقود الدرية: ص ٦٥ـ ٦٦.

خصومه على إظهاره في نهاية الأمر، وأُعيد إلى أخيه زين الدين عبد الرحمن بن تيمية رحمه الله، ومنها ما جحد وأتلفه الخصوم.

ولم يقتصر الأمر على هذا في ذلك العهد فقط، وإنما تعداه إلى عصور متأخرة حيث قام بعض أعيان دمشق من خصوم الشيخ بمحاولات عديدة لإتلاف كتب الشيخ، حيث كانوا يبذلون الأموال الطائلة لشراء مؤلفات الشيخ عند من يمتلكونها. فإذا تحصل لهم ذلك قاموا بإتلافها، وتارة كانوا يلجأون إلى إرهاب من يملكونها حتى يقوموا بإتلافها، ولا شك أنها أساليب سيئة في التعامل مع المخالفين، ومقاومة الآراء بهذه الطرق، فالله حسبنا ونعم الوكيل.

لكل هذه الأسباب مجتمعة يتعذر إحصاء مصنفات الشيخ، ولهذا تباينت آراء العلماء في عددها، وقد قمت بجمع ثبت لأسماء مصنفات شيخ الإسلام ابن تيمية من الكتب والمصادر التي ذكرت ترجمته، وأسماء بعض مؤلفاته ومصنفاته، وبعد أن أنهيت هذا الثبت رأيت قائمة جمعها محققا كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» ذكرا فيها حوالي (٧٠٢) عنوان من عناوين مصنفات شيخ الإسلام فاستفدت منها، وزدت عليها حتى بلغت أسماء مصنفات شيخ الإسلام التي اجتمعت عندي (٩٢٣) إسماً.

وسأورد ثبتاً بأسماء أشهر مصنفاته، ولعلي أقوم لاحقاً في إفراد رسالة خاصة تتضمن قائمة كاملة بأسماء مؤلفات شيخ الأسلام، وقيمتها العلمية بإذن الله تعالى.

○ **أشهر مصنفاته رحمه الله:**

١ ـ إبطال الحيل. ويقع في مجلدين.
٢ ـ اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية.
٣ ـ الاستغاثة.
٤ ـ الاستقامة.
٥ ـ إقامة الدليل على إبطال التحليل.
٦ ـ اقتضاء الصراط المستقيم مخالفةُ أصحاب الجحيم.
٧ ـ أقسام القرآن.
٨ ـ الإكليل في التشابه والتأويل.
٩ ـ أمثال القرآن.
١٠ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
١١ ـ الإيمان.
١٢ ـ بغية المرتاد = السبعينية.
١٣ ـ بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية.
١٤ ـ تحريم السماع.
١٥ ـ التحفة العراقية في الأعمال القلبية.
١٦ ـ التدمرية.

١٧ ـ تعارض الحسنات والسيئات.

١٨ ـ تعليقه على فتوح الغيب لعبد القادر الكيلاني.

١٩ ـ تفسير سورة الإخلاص.

٢٠ ـ تفسير سورتي المعوذتين.

٢١ ـ تفسير سورة النور.

٢٢ ـ تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل.

٢٣ ـ جواب أهل العلم والإيمان بتحقيق ما أخبر به رسول الرحمن من أن (قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن).

٢٤ ـ الجواب الباهر في زوار المقابر.

٢٥ ـ حجاب المرأة ولباسها في الصلاة.

٢٦ ـ الحسبة في الإسلام.

٢٧ ـ الحسنة والسيئة.

٢٨ ـ حقيقة الصيام.

٢٩ ـ الحموية الكبرى.

٣٠ ـ الدرة المضيئة في فتاوى ابن تيمية (الفتاوى المصرية).

٣١ ـ دقائق التفسير ١ ـ ٦ أجزاء جمعه محمد السيد الجليند.

٣٢ ـ الرد على الأخنائي في مسألة الزيارة.

٣٣ ـ الرد على تأسيس التقديس للرازي.

٣٤ ـ رسالة إلى ملك قبرص ـ الرسالة القبرصية.

٣٥ ـ رسالة في أمراض القلوب وشفائها.

٣٦ ـ سؤال في معاوية بن أبي سفيان.

٣٧ ـ السياسة الشرعية لإصلاح الراعي والرعية.

٣٨ ـ شرح حديث أبي ذر رضي الله عنه: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي.

٣٩ ـ شرح حديث «إنما الأعمال بالنيات».

٤٠ ـ شرح حديث النزول.

٤١ ـ شرح العقيدة الأصفهانية.

٤٢ ـ شرح المحرز ـ تعليقه على كتاب المحرر في الفقه.

٤٣ ـ الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ.

٤٤ ـ الصفدية.

٤٥ ـ العبودية.

٤٦ ـ الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

٤٧ ـ الفرقان بين الحق والباطل.

٤٨ ـ في محنته بمصر/ مجلدين.

٤٩ ـ قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة.

٥٠ ـ قاعدة شريفة في المعجزات والكرامات.

٥١ ـ قاعدة في الإجماع.

٥٢ ـ قاعدة في الاستعاذة.

٥٣ ـ قاعدة في الرد على من قال بفناء الجنة والنار.
٥٤ ـ قاعدة في المحبة.
٥٥ ـ القاعدة المراكشية.
٥٦ ـ الماردينية ـ المسائل الماردينية.
٥٧ ـ معارج الوصول إلى أن أصول الدين وفروعه قد بينها الرسول.
٥٨ ـ مقدمة في أصول التفسير.
٥٩ ـ منسك شيخ الإسلام وهي نحو مجلد.
٦٠ ـ منظومة في القدر.
٦١ ـ منهاج السُّنّة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية.
٦٢ ـ مؤاخذة لابن حزم في الإجماع.
٦٣ ـ النبوات.
٦٤ ـ نقض المنطق.
٦٥ ـ الواسطة بين الحق والخلق.
٦٦ ـ الواسطية.
٦٧ ـ الوصية الصغرى.

الفصل التاسع

«ابن تيمية فقيهاً»

الفقه من علوم الإسلام التي حظيت باهتمام كبير لدى علماء الأمة الإسلامية من بداية عهدها الأول زمن الصحابة الكرام، وحتى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وذلك لجلالة قدر هذا العلم في النفوس، وعظيم النفع الذي يعود على الناس بتعلمه، ولأهميته البالغة في توجيه المسلم إلى العبادة الصحيحة التي يتوجه إلى الله تعالى بها وها هو النبي ﷺ يقول:

«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»(١).

وقد تهيأت أسباب النبوغ في هذا الباب لشيخ الإسلام، فبعد توفيق الله تعالى وفضله عليه، فقد هيأ الله تعالى له أُسرة كريمة مشتهرة بالعلم، وقد تحدثنا عن هذه الأسرة المهتمة بالعلم سابقاً، وقد وجد رعاية كريمة من والده الذي كان من كبار علماء

---

(١) أخرجه الترمذي برقم: ٢٦٤٥ بإسناد صحيح عن ابن عباس، وجاء مطولاً من حديث معاوية: وأخرجه البخاري برقم: ٣١١٦، ومسلم: ١٠٣٧، وابن ماجه: ٢٢١.

المذهب الحنبلي، فوجهه إلى الدرس والبحث والتعلم، والتلقي على كبار العلماء في دمشق، والتي كانت تزخر بعدد كبير من العلماء في ذلك الزمان، فطلب وحصل وقرأ ما لم يستطع الكثيرون قراءته، ومن هذه العلوم التي قرأها كان علم الفقه وأصوله، فدرس فيه حتى أحكمه وأتقنه، وشهد له بإتقانه كبار أهل العلم في عصره.

○ الإذن له بالفتوى:

تشربت نفس شيخ الإسلام رحمه الله بالعلوم والمعارف، ومن بينها كان علم الفقه وأصوله، ومع هذه العلوم فقد رزق نبوغاً وذكاءً حاداً، أهله للتدريس والفتوى وهو في صدر شبابه قبل أن يتم العشرين من عمره، ثم قام بوظائف أبيه العلمية بعد وفاته وله حينئذٍ عشرون عاماً تزيد قليلاً.

وقد ذكر مترجموه سن تأهله للفتوى والتدريس بأنه كان دون العشرين.

قال الحافظ الذهبي رحمه الله:

«تأهل للتدريس والفتوى، وهو ابن سبع عشرة سنة»[1].

وقال:

«.. فأفتى وله تسع عشرة سنة، بل أقل، وشرع في الجمع

---

(١) العقود الدرية: ص ٤.

والتأليف من ذلك الوقت، وأكب على الاشتغال»[1].

وقال ابن كثير رحمه الله في ترجمة أحمد بن نعمة المقدسي:

«.. وأذن في الإفتاء لجماعة من الفضلاء منهم الشيخ الإمام العلاَّمة شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية، وكان يفتخر بذلك ويفرح به ويقول:

أنا أذنت لابن تيمية بالإفتاء»[2].

○ **غزارة علومه بالفقه وأصوله واختلافاته:**

شهد له أهل العلم في عصره بغزارة علمه، وشدة إتقانه لهذا العلم وقدرته الكبيرة على استحضار الأدلة.

قال الحافظ الذهبي رحمه الله:

«وأما نقله للفقه ومذاهب الصحابة والتابعين ـ فضلاً عن المذاهب الأربعة ـ فليس له نظير»[3].

ونقل عنه ابن حجر رحمه الله قوله:

«كان يقضي منه العجب إذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف واستدل ورجح، وكان يحق له الاجتهاد لاجتماع شروطه فيه، وما

---

(١) المرجع السابق.

(٢) البداية والنهاية: ١٣/ ٣٤١.

(٣) العقود الدرية: ص ١٨.

رأيت أسرع انتزاعاً للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه..»[1].

وقال أيضاً:

«.. وفاق الناس في معرفة الفقه واختلاف المذاهب، وفتاوى الصحابة والتابعين، بحيث إذا أفتى لم يلتزم بمذهب، بل بما يقوم دليله عليه»[2].

وقال ابن كثير رحمه الله:

«.. فصار إماماً في التفسير وما يتعلق به، عارفاً بالفقه، فيقال: إنه كان أعرف بفقه المذاهب من أهلها الذين كانوا في زمانه وغيره، وكان عالماً باختلاف العلماء، عالماً في الأصول والفروع»[3].

وقال ابن الزملكاني رحمه الله:

«.. وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في سائر مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه من قبل ذلك، لا يُعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه، ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع أو غيرها إلا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه»[4].

---

(١) الدرر الكامنة: ١/ ١٦٠.

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة: ١/ ٣٨٩، شذرات الذهب: ٦/ ٨١، ٨٥.

(٣) البداية والنهاية: ١٤/ ١٤١.

(٤) تاريخ ابن الوردي: ٢/ ٤٠٨ـ٤٠٩.

وقال الصفدي رحمه الله:

«وأما المذاهب الأربعة فإليه في ذلك الإشارة، وعلى ما ينقله الإحاطة والإدارة، وأما نقل مذهب السلف وما حدث بعدهم من الخلف فذاك فنه..»[1].

وغير هذه الأقوال الكثير الذي يشهد له بأنه إذا تكلم في الفقه فهو مدرك غايته، وأنه الفارس الذي لا يشق له غبار في ميدانه.

○ تمذهبه بمذهب أحمد في بداية الأمر وترجيحه له على سائر المذاهب:

لقد كانت أول دراسات شيخ الإسلام الفقهية على المذهب الحنبلي، فتلقى الفقه الحنبلي على أبيه الذي كان شيخاً كبيراً من شيوخ المذهب الحنبلي، وقد اشترك مع أبيه وجده في كتابة أحد كتب أُصول المذهب الحنبلي، ولذلك يعده أكثر العلماء فقيهاً حنبلياً خالصاً، وقد كان شيخ الإسلام يرجح الفقه الحنبلي على غيره من المذاهب الفقهية الأخرى، وذلك بأنه كان يعتبره أقرب إلى النص حين أوضح ذلك بقوله:

«أحمد كان أعلم من غيره بالكتاب والسُّنّة، وأقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولهذا لا يكاد يوجد له قول يخالف نصاً

---

(١) أعيان العصر عن المنجد ص ٥٠.

كما يوجد لغيره، ولا يوجد في مذهبه قول ضعيف إلا وفي مذهبه قول يوافق القول الأقوى، وأكثر مفاريده التي لم يختلف فيها يكون قوله فيها راجحاً..»[1].

إلا أنه ورغم ترجيحه للمذهب الحنبلي على غيره من المذاهب الفقهية، لم يكن من المتعصبين لهذا المذهب، ولم يقبح رأياً تبناه مذهب فقهي آخر، بل ولم يدع أحداً إلى أن يتبنى المذهب الحنبلي أو غيره، حيث يقول رحمه الله:

«مع أني في عمري، إلى ساعتي هذه، لم أَدعُ أحداً قط في أصول الدين إلى مذهب حنبلي أو غير حنبلي ولا انتصرت لذلك، ولا أذكره في كلامي، ولا أذكر إلا ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها»[2].

○ تقديره للأئمة والفقهاء الآخرين:

ورغم ترجيح شيخ الإسلام رحمه الله لمذهب الحنابلة على غيره، إلا أنه كان يقدر آراء الفقهاء والعلماء الآخرين، ويعتذر لهم عن الخطأ الذي يخالفون فيه السُّنَّة، ويذكر أعذارهم في ذلك، ولذلك كانت رسالته القيمة «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» من أفضل ما أُلِّفَ في هذا الموضوع ـ يعني في الاعتذار عن الأئمة

---

(١) مجموع الفتاوى الكبرى:.

(٢) مجموع الفتاوى: ٣/ ٢٢٩.

في مخالفة بعض آرائهم مما جاء عن النبي ﷺ. ومما قال في ذلك:

«.. فيجب على المسلمين ـ بعد موالاة الله ورسوله ـ موالاة المؤمنين كما نطق به القرآن، خصوصاً العلماء الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، إذ كل أمة قبل مبعث محمد ﷺ فعلماؤها أشرارها، إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم، فإنهم خلفاء الرسول في أمته، والمحيون لما مات من سنّته، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا.

وليُعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأئمة قبولاً عاماً يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سنته دقيق ولا جليل، فإنهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول ﷺ، وعلى أن كل أحد من الناس يأخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلا بد له من عذر في تركه..»(١).

ثم يسوق شيخ الإسلام الأسباب التي يعتذر فيها عن الأئمة والفقهاء في مخالفة بعض آرائهم للسُّنّة النبوية الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ.

---

(١) رفع الملام عن الأئمة الإعلام: ص ٣.

○ **إفتاؤه على غير مذهب معين:**

إن شيخ الإسلام رحمه الله تعالى وإن كان حنبلي المذهب في بداية أمره، إلا أن ما أخذ به نفسه ـ من الرجوع إلى المعين الصافي الذي أخذ منه أئمة الفقه المعروفون ـ أداه بعد دراسات وتمحيص إلى أن يخالف مذهب الإمام أحمد بن حنبل، بل مذاهب الفقهاء الآخرين أيضاً في بعض ما ذهب إليه.

فلم يكن رحمه الله تعالى بالرجل الذي يتبع غيره في رأي له بغير بينة أو دليل، ولا بالذي يتعصب لرأي ويجمد عليه وقد بان له خطؤه، بل كان حراً في تفكيره في دائرة الكتاب والسنّة وما صح عن الصحابة من الآثار، غير متعصب إلا للحق وللحق وحده، لأنه خلع عن عنقه ربقة التقليد للغير، ولم يقيد نفسه إلا بالقرآن وسنّة الرسول ﷺ وآثار السلف الصالح، إذا تبين له صحة صدورها عنهم، وفي هذه المصادر الأولى للإسلام وشريعته كان له جولات ومجال أي مجال».

على كل هذا يجمع مؤرخوه، وبكل هذا تنطق رسائله وكتبه وآراؤه التي تفرد بها وهي غير قليلة، كما تنطق به حياته وما لقي من سجن واعتقال مرات بسبب بعض هذه الآراء حتى لحق بربه وهو سجين بقلعة دمشق»[١].

وفي تحرره وإفتاءه على غير مذهب معين مدة من الزمن،

---

(١) ابن تيمية: محمد يوسف موسى: ص ١٣٥ـ١٣٦ بتصرف.

وانطلاقه من عقال المذهبية والتعصب والجمود والتقليد يقول الحافظ الذهبي رحمه الله:

«وفاق الناس في معرفة الفقه واختلاف المذاهب وفتاوى الصحابة والتابعين بحيث أنه إذا أفتى لم يلتزم بمذهب بل بما يقوم دليله عليه»[1].

وقال ابن الوردي رحمه الله:

«.. له باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين، قل أن يتكلم في مسألة إلا ويذكر فيها ذاهب الأربعة، وقد خالف الأربعة في مسائل معروفة، وصنف فيها واحتج لها بالكتاب ثم قال: «وبقي سنين لا يفتي بمذهب معين، بل بما قام الدليل عليه عنده»[2].

وقال ابن كثير رحمه الله:

«.. ففي بعض الأحكام يفتي بما أدى إليه اجتهاده من موافقة أئمة المذاهب الأربعة، وفي بعضها يفتي بخلافهم وبخلاف المشهور في مذاهبهم، وله اختيارات كثيرة في مجلدات عديدة وأفتى فيها بما أدى إليه اجتهاده، واستدل على ذلك من الكتاب والسُّنّة وأقوال الصحابة والسلف»[3].

---

(١) شذرات الذهب: ٦/ ٨١ـ ٨٢، تاريخ ابن الوردي: ٢/ ٤٠٩، ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٨٩.

(٢) تاريخ ابن الوردي: ٢/ ٤٠٩.

(٣) البداية والنهاية: ١٤/ ٦٧.

○ **اجتماع شروط الاجتهاد فيه:**

اعترف علماء عصره ومن جاء بعدهم لشيخ الإسلام بالإمامة والاستقلال الفكري، والتبحر العلمي، وتفوقه بدرجات كبيرة على معاصريه في علوم القرآن والسنّة، واجتماع شروط الاجتهاد فيه وسأذكر تالياً من ذكر اجتماع هذه الشروط فيه، وبأنه وصل إلى درجة الاجتهاد المطلق ومخالفة كل المذاهب في آراء كثيرة تبناها ودافع عنها:

قال الحافظ البرزالي رحمه الله:

«.. كان إماماً لا يلحق غباره في كل شيء، وبلغ رتبة الاجتهاد، واجتمعت فيه شروط المجتهدين..»[1].

وقال الحافظ ابن الزملكاني رحمه الله:

«.. واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها»[2].

قل الحافظ الذهبي رحمه الله:

«.. فإن ذكر التفسير فهو حامل لوائه، وإن عُدَّ الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق»[3].

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

---

(١) العقود الدرية: ص ١٢، فوات الوفيات عن المنجد: ص ٦١، الرد الوافر: ص ٢١٨.

(٢) العقود الدرية: ص ٨، الشهادة الزكية: ص ٧٣، فوات الوفيات عن المنجد: ص ٥٩، شذرات الذهب ٦/ .

(٣) العقود الدرية: ص ص ٢٤، فوات الوفيات عن المنجد ص ٦٢.

«.. بل هو معذور لأن أئمة عصره شهدوا له: بأن أدوات الاجتهاد اجتمعت فيه، حتى كان أشد المتعصبين عليه، والقائمين في إيصال الشر إليه، وهو الشيخ كمال الدين الزملكاني شهد له بذلك، وكذلك الشيخ صدر الدين «ابن الوكيل» الذي لم يثبت لمناظرته غيره..»(١).

وقال الحافظ السيوطي رحمه الله:

«وأما بقية من جاء من المجتهدين بعد السُّبكي إلى اليوم، فلم يكن فيهم من يبلغ رتبة البُلقيني في الحديث؛ وأما قبل السُّبكي فاجتمع الاجتهاد في الأحكام والحديث لخلق؛ منهم ابن تيمية، وقبله ابن دقيق العيد، وقبله النووي، وقبله أبو شامة، وقبله ابن الصلاح، وأما في المتقدمين فكثير جداً..»(٢).

وممن وصفه بالاجتهاد أيضاً من أهل العلم والفضل رحمهم الله جميعاً:

«ابن المرحل، وابن الواني المؤذن، وابن عبد الهادي، وابن الصيرفي، وابن القيم، وأبو العباس البقاعي، وابن فضل الله العمري، وابن رجب الحنبلي، وابن كثير، وصلاح الدين العلائي، وابن اللحام، وأبو حفص البزار، وأبو حفص المراغي، وغيرهم كثير رحمهم الله جميعاً.

---

(١) الشهادة الزكية: ص ٧٣، الرد الوافر: ص ٢٤٧ـ٢٤٨.

(٢) الرد على من أخلد إلى الأرض: ص ٤٢.

ويقول الشيخ الإمام محمد أبو زهرة رحمه الله:

«إنه بلا شك من حيث أدوات الاجتهاد، والمدارك الفقهية، ومن حيث علمه بالسُّنّة واللغة ومناهج المفسرين وفهمه للقرآن، وأصول السُّنّة، وإحاطته بالحديث دراية ورواية - يوضع في الدرجة الأولى من الاجتهاد المطلق، فإن نظرنا إلى ذلك وحده فسنضعه في مرتبة المجتهدين المستقلين، ولكن نجده قد سلك في استنباطه مسلك الإمام أحمد في الجملة، متقيداً بأصوله، وفوق ذلك أن الذي انفرد به لا يعد كثيراً، بل نادراً، بل لا يكاد ينفرد كما نوهنا، فإن تقيدنا بهذه الناحية الموضوعية فإنا بمقتضى القواعد المقررة، نضعه ضمن المجتهدين في المذهب الحنبلي.

إنه بلا شك قد استوفى في شخصه كل شروط المجتهد المطلق من الأدوات والعلم والمدارك، ولكن من ناحية الموضوعات التي وصل فيها إلى نتائج مخالفة، ومن حيث منهاجه نجدها لا تخرج به عن الإطار المذهبي»[(١)].

فيما ذكرنا سابقاً يتضح لنا أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قد اجتمعت فيه شروط الاجتهاد وآلاته، وأنه قد استوفى في شخصه كل شروط المجتهد المطلق في الأدوات وفي الموضوعات، لأن كونه رحمه الله مجتهداً مطلقاً لا يعني أن

---

(١) ابن تيمية لأبي زهرة: ص ٤٣٩- ٤٤٠.

يخالف الأئمة الأربعة في كل المسائل، لأن هذا يستدعي إلى القول بأحد أمرين، إما أن تلك المذاهب غير مؤسسة على القرآن والسُّنّة، لأن شيخ الإسلام يمشي مع الدليل من الكتاب والسُّنّة حيثما وجد، أو أن يكون شيخ الإسلام لم يكمل فيه شروط الاجتهاد، ومن أهمها استيعاب القرآن والسُّنّة، حيث خالفه الأئمة الأربعة على غير بصيرة، وهذا لم يقله أحد، فترجيحه لرأي من الآراء حسب الدليل لا يعني البتة أنه مقلد للإمام الذي قال بذلك القول قبل شيخ الإسلام، أو أنه مجتهد منتسب من مجتهدي الحنابلة فقد اختار ما اختار من المسائل في الفقه بالدليل، ووافق ما وافق فيه من المسائل لأحد الأئمة الأربعة بالحجة والبرهان»[1].

والحق أن شيخ الإسلام رحمه الله قد اجتمعت فيه شروط الاجتهاد المطلق في الأدوات والموضوعات، وأفاد كثيراً جداً من أصول الإمام أحمد وفقهه، إلا أنه لم يلتزمه في آرائه وفتاويه، وإن توافق الكثير منها مع مذهب الحنابلة، إلا أنه كان مجتهداً يقول ويفتي بما قام عليه الدليل، وإن خالف مذهب إمامه أو مذاهب الفقهاء الآخرين المعروفين، ولا يهمه موافقة أو مخالفة أياً من هذه المذاهب، بحيث يصدق فيه قول الذهبي رحمه الله:

«وفاق الناس في معرفة الفقه، واختلاف المذاهب، وفتاوى

(١) بحوث الندوة العالمية: ص ١١٩.

الصحابة والتابعين، بحيث إذا أفتى لم يلتزم بمذهب، بل بما يقوم دليله عنده»[1].

○ من كتبه في الأصول والفقه:

صنف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في أصول الفقه، وفي مسائل الفقه وقد ذكر الصفدي رحمه الله مجموعة من هذه المصنفات أذكر من بينها:

أ ـ علم أصول الفقه:

«قاعدة غالبها أقوال الفقهاء ـ مجلدان»، «شمول النصوص للأحكام ـ مجلد لطيف»، قاعدة في الإجماع وأنه ثلاثة أقسام، جواب في الإجماع وخبر التواتر، قاعدة خبر الواحد يفيد اليقين، قاعدة في كيفية الاستدلال على الأحكام بالنص والإجماع، في الرد على من قال إن الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين» ثلاث مصنفات، قاعدة في تقرير القياس، قاعدة في الاجتهاد والتقليد في الأحكام ـ مجلد»، رفع الملام عن الأئمة الأعلام، قاعدة في الاستحسان، قواعد في أن المخطىء في الاجتهاد لا يأثم» مجلد، تفضيل قواعد مذهب مالك وأهل المدينة، قاعدة في تفضيل الإمام أحمد» مجلد وغيرها كثير».

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ص ٢/ ٣٨٩.

ب ـ كتب الفقه:

شرح المحرر في مذهب أحمد، شرح العمدة لموفق الدين «أربع مجلدات، الدرر المضية في فتاوى ابن تيمية، الماردانية، الطرابلسية، قاعدة في المياه والمائعات وأحكامها قواعد في الاستجمار وتطهير الأرض بالشمس والريح، مناسك الحج مجلد، وغيرها كثير جداً، وها هو الحافظ أبو حفص البزار رحمه الله تعالى يقول في كثرتها:

«وأما فتاويه ونصوصه وأجوبته على المسائل، فهي أكثر من أن أقدر على إحصائها، لكن دُوِّن بمصر منها على أبواب الفقه سبعة عشر مجلداً، وهذا ظاهر مشهور، وجمع أصحابه أكثر من أربعين ألف مسألة، وقلَّ أن وقعت واقعةٌ وسئل عنها، إلاّ وأجابَ فيها بديهة بما بَهَرَ واشتهر، وصار ذلك الجواب كالمصنف الذي يحتاج فيه غيره إلى زمن طويل ومطالعة كُتب، وقد لا يقدر مع ذلك على إبراز مثله»[1].

○ اختياراته الفقهية وأساس اختياره لها:

كان لابن تيمية رحمه الله تعالى آراء فقهية كثيرة لم يلتزم في القول أو الإفتاء بها مذهباً فقهياً معيناً، ولكن هذه الاختيارات لا تخرج عن أقوال الفقهاء الأربعة في مذاهبهم، وذلك لأنه كان

---

(١) الأعلام العلية: ص ٢٦.

يرى أن الحق في عامة هذه المسائل لا يخرج عنها ولذلك قال في ذلك:

«قول القائل: لا أتقيد بأحد هؤلاء الأئمة الأربعة، إن أراد به أنه لا يتقيد بواحد بعينه دون الباقين، فقد أحسن، بل هو الصواب من القولين، وإن أراد أني لا أتقيد بها كلها بل أُخالفها، فهو مخطىء في الغالب قطعاً، إذ الحق لا يخرج عن هذه الأربعة في عامة الشريعة.

ولكن تنازع الناس هل يخرج عنها في بعض المسائل؟ على قولين، وقد بسطنا ذلك في موضع آخر»[1].

فهو رحمه الله تعالى لم يكن يتبع إلا ما كان مقتنعاً أنه الأقرب إلى الدليل من القرآن والسُّنّة، وقد حدد الأستاذ الإمام محمد أبو زهرة رحمه الله الأسس التي بنى عليها شيخ الإسلام اختياراته فقال:

«لقد كان أساس الاختيار كما يبدو يدور حول أقطاب ثلاثة:

أولها: القرب من الآثار فهو حريص على ألا يختار غرائب الفقه، بل يختار ما له اتصال أوثق بمصدره.

ثانيها: القرب من حاجات الناس ومألوفهم وتحقيق مصالحهم والعدالة فيهم، فإنه بعد استيثاقه من الاتصال بين الحكم

---

(١) مختصر الفتاوى المصرية: ص ٦١.

والمصدر الشرعي من كتاب أو سُنّة، يختار الأعدل والذي يلائم العصر ويتفق مع الحاجات.

وثالثها: تحقيق المعاني الشرعية التي شرعت لها الأحكام، فهو على ذلك جد حريص في كل ما يختار ويفتي ويعلن من آراء[1].

○ **نماذج من اختياراته:**

جمعت اختياراته العلمية رحمه الله تعالى ضمن مجلد ملحق بالفتاوى الكبرى، وهو المجلد الرابع، وسأختار نموذجين أو ثلاثة نماذج، ومن أراد المزيد فسيجد من ذلك شيئاً كثيراً في كتب شيخ الإسلام رحمه الله.

١ ـ عدم إعطاء الزكاة للعاصي:

قال رحمه الله:

«ولا ينبغي أن تعطى الزكاة لمن لا يستعين بها على طاعة الله، فإن الله تعالى فرضها عونة على طاعته كمن يحتاج إليها من المؤمنين كالفقراء والغارمين أو لمن يعاون المؤمنين، فمن لا يصلي من أهل الحاجات لا يعطى شيئاً حتى يتوب ويلتزم أداء الصلاة»[2].

---

(١) ابن تيمية: أبو زهرة: ص ٤٠٦.

(٢) الفتاوى الكبرى: ٤/ ٤٥٦.

٢ ـ إعطاء الزكاة للوالدين:

«ويجوز صرف الزكاة إلى الوالدين وإن علوا، وإلى الولد وإن سفل، إذا كانوا فقراء، وهو عاجز عن نفقتهم، لوجود المقتضى السالم عن المعارض الممانع، وهو أحد القولين في مذهب أحمد»[١].

٣ ـ خدمة المرأة لزوجها:

«وتجب خدمة زوجها بالمعروف من مثلها لمثله، ويتنوع ذلك بتنوع الأحوال فخدمة البدوية ليست كخدمة القروية، وخدمة القوية ليست كخدمة الضعيفة، وقاله الجوزجاني من أصحابنا وأبو بكر بن أبي شيبة، ويتخرج من نص الإمام أحمد على أنه يتزوج الأمة لحاجة إلى الخدمة لا إلى الاستمتاع»[٢].

ولابن تيمية رحمه الله تعالى اختيارات كثيرة تدل على علم غزير، وأفق واسع، وإدراك لمصالح الناس، ومعرفة لمقاصد الشريعة ولبها.

○ مفرداته وغرائبه:

وبما أننا رجحنا كون شيخ الإسلام رحمه الله مجتهداً مطلقاً، يفتي بما أداه إليه اجتهاد، فهو تارة يوافق أئمة المذاهب أو

---

(١) الفتاوى الكبرى: ٢/ ٤٥٦ـ٤٥٧.

(٢) الفتاوى الكبرى: ٢/ ٥٦١.

بعضهم فيما يختاره ويتبناه، وتارة يخالفهم جميعاً أو يخالف المعروف من آرائهم ومذاهبهم، وهذا ما يسمى عند الذين ترجموا له مفرادته وغرائبه.

وقد ذكر بعض من ترجموا له هذه المفردات، أو جملة صالحة منها أسوقها فيما يلي كما أوردوها».

- اختار ارتفاع الحدث بالمياه المعتصرة، كماء الورد ونحوه.

- واختار جواز المسح على النعلين، والقدمين، وكل ما يحتاج في نزعه من الرجل إلى معالجة باليد أو بالرجل الأخرى، فإنه يجوز عنده المسح عليه مع القدمين.

- واختار أن المسح على الخفين لا يتوقف مع الحاجة، كالمسافر على البريد ونحوه، وفعل ذلك في ذهابه إلى الديار المصرية على خيل البريد، ويتوقف على إمكان النزع وتيسره.

- واختار المسح على اللفائف ونحوها.

- واختار جواز التيمم لخشية فوات الوقت في حق غير المعذور، كمن أخر الصلاة عمداً حتى تضايق وقتها، وكذا من خشي فوات الجمعة والعيدين وهو محدث، فأما من استيقظ أو ذكر في آخر وقت الصلاة، فإنه يتطهر بالماء ويصلي، لأن الوقت متسع في حقه.

- واختار أن المرأة إذا لم يمكنها الاغتسال في البيت، أو شق عليها النزول إلى الحمام وتكرهه، إنها تتيمم وتصلي.

ـ واختار أن لا حَدَّ لأقل الحيض ولا لأكثره، ولا لأقل الطهر بين الحيضتين، ولا لسن الأياس من الحيض، وأن ذلك راجع إلى ما تعرفه كل امرأة من نفسها.

ـ واختار أن تارك الصلاة عمداً: لا يجب عليه القضاء، ولا يشرع له، بل يكثر من النوافل، وأن القصر يجوز في قصير السفر وطويله [كما هو مذهب الظاهرية] وأن سجود التلاوة لا يشترط له طهارة.

ـ واختار القول بأن البكر لا تستبرأ وإن كانت كبيرة، كما هو قول ابن عمر واختاره البخاري صاحب الصحيح، والقول بأن من أَكل في شهر رمضان معتقداً أنه ليل وكان نهاراً لا قضاء عليه كما هو الصحيح عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وإليه ذهب بعض التابعين وبعض الفقهاء بعدهم.

ـ والقول بجواز المسابقة بلا محلل وإن أخرج المتسابقان.

ـ والقول باستبراء المختلفة بحيضة، وكذلك الموطوءة بشبهة والمطلقة آخر ثلاث تطليقات.

ـ والقول بإباحة وطء الوثنيات بملك اليمين.

ـ والقول بجواز طواف الحائض ولا شيء عليها إذا لم يمكنها أن تطوف طاهراً.

ـ والقول بجواز بيع الأصل بالعصير كالزيتون بالزيت، والسمسم بالسيرج.

- والقول بجواز بيعُ ما يتخذ من الفضة للتحلي وغيره كالخاتم ونحوه بالفضة متفاضلاً وجعل الزائد في الثمن في مقابلة الصنعة.

- والقول بأن المتمتع يكفيه سعي واحد بين الصفا والمروة، كما هو في حق القارن والمفرد، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما.

- والقول الذي مال إليه أخيراً بتوريث المسلم من الكافر الذمي، وله في ذلك بحث طويل.

- والقول بعدم وقوع الطلاق بالحلف به إذا حنث، وليس على الحالف حينئذٍ إلا كفارة اليمين، وقد جرى له بسبب هذا الرأي مِحن وقلاقل معروفة.

- والقول بأن الطلاق الثلاث بلفظ واحد لا يقع إلا واحدة، وهذا الحكم هو الذي كان عليه العمل أيام الرسول وأبي بكر وصدراً من خلافة عمر(١)!.

هذه مجموعة من اختيارات شيخ الإسلام وغرائبه ومفاريده التي خالف فيها فقهاء المذاهب الأربعة المعروفة، أو خالف على الأقل المشهور من أقوال الفقهاء، وهي تدل على باع طويل في

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٤٠٦ـ ٤٠٧، شذرات الذهب: ٦/ ٨٤ـ ٨٥.

الاجتهاد، وعلى شجاعته في الجهر بما يراه حقاً ولو حصل له من وراءه بلاء ومحن.

○ سبب قلة مفاريده وغرائبه:

ويجيب الشيخ أبو زهرة رحمه الله على هذا التساؤل بقوله:

«لقد جاء ابن تيمية بعد أن اتسع الفقه وكثرت الفتاوى فيه، وانفتح باب التخريج على مصراعيه، فقد جاء في آخر القرن السابع وأول القرن الثامن الهجري، وكانت أكثر فتاويه واستنباطاته واختياراته، واجتهاده في أول القرن الثامن جاء بعد أن لم يترك الأول للآخر شيئاً، فقد دون قبل عصره فقه الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب، كما دون الفقه الظاهري والفقه الشيعي بكل مذاهبه وفقه الإباضية، وقد كثر المجتهدون والمخرجون في كل مذهب من المذاهب، يجتهدون على أصول الإمام، أو يخرجون على أقواله للواقعات التي تقع بين الناس، وللحوادث التي تحدث، ولم يكتف أصحاب كل مذهب ومعتنقيه بالافتاء في الحوادث الواقعة بل أفتوا في الحوادث المتوقعة، بل قدروا كل ما يتصور في العقل وقوعه، بل تجاوزوا في القرن الرابع والخامس والسادس الحد في التصور والتقدير، فتصوروا ما لا يؤيده الواقع، وأخذوا يفتون فيه كأنه وقائع ابتلي بها الناس، فقد اتسع الفقه التقديري، حتى أفتوا في المعقول الذي يقع، ثم مما يجري في الخيال ولا يقع.

وإذا أضيف ذلك إلى الوقائع التي تصدوا للإفتاء فيها كانت كثيرة بسبب اختلاف الأزمان. واختلاف الأعراف في البلدان، فقد صارت البلاد الإسلامية تمتد من الصين في الشرق إلى جنوب أوروبا بل ما يقرب من وسط أوروبا في الغرب، ولكل إقليم أحداثه، ولكل بلاد عاداتها، ولكل مصر عرفه، وقد تفتقت عقول العلماء تحت سلطان المذاهب التي استنبطت فخرجوا وأفتوا، ويندر أن تكون واقعة في عصر ابن تيمية لم يكن قد وقع مثلها، فيما وراء النهر، أو العراق، أو خراسان، أو فارس، أو مصر والشام، أو المغرب والأندلس، ودونت الفتوى في كتب مذهب من المذاهب الإسلامية أو أكثر من هذه المذاهب.

ويخطىء من يقول أن التابعين لمذهب من المذاهب كانوا يسيرون فيه جامدين، بل أنهم كانوا يحيون المذهب، ويُجدِّدونه في كل عصر من العصور بما جدَّ من ألوان فكرية، ويفتون فيما يقع من الحوادث بما يتفق مع الحال، ويصلح المآل، وأحياناً كانوا يخالفون إمامهم، ويقولون هذا اختلاف زمان لا اختلاف برهان، ولو كان الإمام في عصرنا لقال مثل قولنا، ألم تر المالكية والشافعية أفتوا في القرن الرابع بميراث ذوي الأرحام، واختاروا طريقة الحنابلة، وخالفوا بذلك الإمامين مالكاً والشافعي، وكان وجه المخالفة فساد بيت المال في عصرهم، وأنه لم يعط ذوي الحقوق حقوقهم، فأفتوا بما يتفق مع الحال، ولم يتقيدوا

بالنصوص عن الإمامين الجليلين، وعلموا أن الإمامين لو كانا في عصرهم لقالا مثل مقالهم، وقبسا من أقرب المذاهب إلى الأثر وهو مذهب أحمد.

جاء ابن تيمية فوجد تلك الأقوال الكثيرة، وتلك الفتاوى المختلفة في ثمانية مذاهب من المذاهب الإسلامية الكبرى، وهي مذاهب الأربعة، والشيعة الإمامية والزيدية والظاهرية والأباضية، وكل مذهب هو في ذاته مجموعة من المناهج، بل المذاهب، فما كان من المعقول أن يأتي بجديد لم يسبق به في أي مذهب أو أي رأي من هذه الآراء المختلفة، فما ترك الأول للآخر شيئاً حتماً وصدقاً، فلا يعيبه أنه لا يجتهد في مسألة إلا وجد لقوله نظيراً في فقه الشيعة أو الظاهرية ونحوهم..»[(١)].

○ قيمة اختياراته ومفرادته العلمية:

ويجيب على هذه القضية الأستاذ أبو الحسن الندوي حفظه الله حيث يقول:

«وسبب آخر لمعارضته هو بعض تحقيقاته وترجيحاته التي ينفرد به، وينشق فيها عن جماعة الأئمة الأربعة والمذاهب المشهورة في بعض الأحيان، أن هذه التفردات لا تبعث وحشة واستنكاراً في نفوس من لهم اطلاع واسع على تاريخ الفقه

---

(١) ابن تيمية لأبي زهرة: ص ٤٤٠ـ ٤٤١.

والخلافيات وأقوال الأئمة والمجتهدين ومسائلهم أنهم يعرفون جيداً أن تفردات الأئمة المشهورين والأولياء المقبولين ومسائلهم الغريبة إذا جمعت تتضاءل أمامها هذه التفردات وتبدو لهم كل شيء، ويتضعضع اعتقادهم بالتفرد الذي يعتبرونه مضاداً للقبول ومنافياً للحق، ويشترطون لعظمته وولايته أن لا يكون له رأي أو تحقيق يعارضان الآراء والتحقيقات المشهورة.

أما الذين يملكون نظرة واسعة حول الخلافيات أو أنهم يسمحون بالتفرد والشذوذ للمتقدمين لكنهم لا يرون في ذلك مندوحة للمعاصرين مهما بلغوا من التفوق والكمال شأواً بعيداً، فقد أصبح لهم هذا التفرد أيضاً مبعثاً للمخالفة وفساد العقيدة والضلال، ودليلاً على خرق الإجماع، وما أعدل وأجمل كلام الحافظ ابن حجر العسقلاني وأبعد من الإفراط والتفريط في هذا الموضوع، أنه يقول:

«فالذي أصاب فيه وهو الأكثر يستفاد منه ويترحم عليه بسببه، والذي أخطأ فيه لا يقلد فيه بل هو معذور»[1].

وخلاصة القول أن شيخ الإسلام رحمه الله كان فقيهاً لا يجارى لغزارة علومه، ومجتهداً مطلقاً يتبع الدليل ولو خالف فيما يقول المذاهب المعروفة، وجريئاً في تبني ما يرى أنه الحق والصواب، يصيب ويخطىء كأي مجتهد من المجتهدين، فهو

---

(١) ابن تيمية للندوي: ص ١٤٣ـ ١٤٤.

مأجور على كلا الوجهين، فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، وهو معذور في خطأه لأنه بذل وسعه في البحث عن القول الصواب، وقد استطاع رحمه الله أن يحرك الراقد من الأمور العلمية في عصره، ويثير حراكاً علمياً لا زلنا نلمس آثاره حتى يومنا هذا، ولولا أن الرجل كبير في علمه وفهمه وفقهه، لما أثيرت حوله كل هذه الضجة ولما خاصمه من خاصمه، ووافقه من وافقه، لأن الصغير يعيش صغيراً ويموت صغيراً، ولا يحرك من ساكن الأمور في حياته شيئاً، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة، وعوض المسلمين عنه كل الخير.

الفصل العاشر

ابن تيمية المحدث
وعلوم الحديث والسُّنّة

لقد اتفق أهل العلم والفضل من معاصري شيخ الإسلام، وممن جاء بعدهم على غزارة علومه، وتفوقه في مختلف العلوم والفضل والزهد والورع والخلق، ولقد منح الله تعالى لابن تيمية حافظة واعية ضابطة، وقدرة على الحفظ لا تجارى، وعمقاً في الفهم، وحضور البديهة، والاستقلال الفكري في شخصه، مع صدقه وإخلاصه ومتابعته للحق، وسعيه للوصول إليه، مع تجرد من أهواء النفس، وقدرة بيانية رائعة، وجرأة وشجاعة منقطعة النظير في الصدع بالحق إذا تبين له.

ومن تلك العلوم التي أتقنها شيخ الإسلام رحمه الله وشكلت دعامة أساسية لفقهه وآرائه، العلم بالسُّنّة الشريفة وعلومها، حتى أصبح ممن يدور عليهم علمها في عصره، وحتى شهد له أهل عصره من الحفاظ والمحدثين بطول الباع فيها، بل وشهدوا له باستيعابها حفظاً ومعرفة، رواية ودراية.

○ **عنايته بالحديث ومصنفاته أثناء الطلب:**

عني شيخ الإسلام بالحديث، وسمع المسند مرات، والكتب الستة، ومعجم الطبراني الكبير، وما لا يحصى من الكتب والأجزاء، وقرأ بنفسه، وكتب بخطه جملة من الأجزاء، وشيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ، وأول كتاب حفظه في الحديث «الجامع بين الصحيحين» للإمام الحميدي. وقلَّ كتاب من فنون العلم إلا وقف عليه، وكان الله قد خصه بسرعة الحفظ والإبطاء في النسيان، وقوة الإدراك والفهم، حتى قال عنه غير واحد: أنه لم يكن يحفظ شيئاً فيسناه، وقد لازم السماع سنين، وقرأ الغيلانيات في مجلس، ونسخ وانتقى، وكتب الطباق والإثبات، ونسخ سنن أبي داود رحمه الله»[(١)].

○ **سعة اطلاعه وعلمه بالسُّنّة:**

وفي سعة اطلاعه وعلمه بالسُّنّة، وقدرته على استحضار نصوصها وآثارها قال الحافظ أبو حفص البزار رحمه الله:

«أما معرفته وبصره بسُّنّة رسول الله ﷺ، وأقواله وأفعاله وقضاياه، ووقائعه وغزواته، وسراياه وبعوثه، وما خصه الله تعالى من كراماته ومعجزاته، ومعرفته بصحيح المنقول عنه وسقيمه، وبقية

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٨٧، العقود الدرية: ص ٣، تاريخ ابن الوردي: ٢/ ٤٠٦، الأعلام العلية: ص ١٨، الدرر الكامنة: ١/ ١٤٤ـ ١٤٥.

المنقول عن الصحابة رضي الله عنهم، في أقوالهم وأفعالهم وقضاياهم وفتاويهم وأحوالهم، وأحوال مجاهداتهم في دين الله، وما خُصوا به من بين الأمة، فإنه كان رضي الله عنه من أضبط الناس لذلك، وأعرفهم فيه، وأسرعهم استحضاراً لما يريده منه، فإنه قلَّ أن ذَكرَ حديثاً في مصنف، أو فتوى، أو استشهد به، أو استدلّ به، إلا وعزاه في أي دواوين الإسلام هو، ومن أي قسم من الصحيح، أو الحسن، أو غيرهما، وذكر اسم راويه من الصحابة، وقلَّ أن يُسألَ عن أثرٍ إلا وبيَّنَ في الحالَ حاله، وحال أمره، وذاكره.

ومن أعجب الأشياء في ذلك، أنه في محنتهِ الأولى بمصر، لما أُخذ وسجن، وحيل بينه وبين كتبه، صنف عدة كتب صغاراً وكباراً، وذكر فيها ما احتاج إلى ذكره من الأحاديث والآثار، وأقوال العلماء وأسماء المحدثين والمؤلفين ومؤلفاتهم وعزا كل شيء من ذلك إلى ناقليه وقائليه بأسمائهم، وذكر أسماء الكتب التي ذكر فيها، وأي موضع هو منها، كُلُّ ذلك بديهة من حفظه، لأنه لم يكن عنده حينئذٍ كتاب يطالعه. ونُقّبت واختُبِرَت واعتُبرت فلم يوجد فيها بحمد الله خلَلَ ولا تغيُّر»[1].

ويقول المستشرق هنري لاوست في سعة معرفته بالحديث وعلومه:

«.. أما علوم الحديث فقد تعمق ابن تيمية في تحصيلها

(١) الأعلام العلية: ص ٢١ـ٢٢.

على اختلاف أشكالها، فهو يعرف علم نقد الرجال، وعلم مصطلح الحديث الذي يتناول دراسة الأحاديث في سندها ومتنها، وكتب الحديث مألوفة عنده..»[1].

وعن شدة تفاعله مع السُّنّة التي يحفظها، وتأثيرها في منهجه وطريقة تفكيره يقول هنري لاوست:

«وكان إعجابه بالحديث قد خلق عنده مقدرة على النقد، فتحدث أحياناً بحرية فكرية متسمة بالتحفظ ولكنها قوية، عن المراجع الراسخة في الإسلام...»[2].

○ ثناء العلماء عليه في علمه بالحديث:

لقد أثنى العلماء على شيخ الإسلام ومعرفته بالحديث ثناءً جميلاً ليس عليه من مزيد، ولم ينل مثل هذا الثناء أو يضاهيه كثير من الحفاظ المتقنين لهذا الفن، وسأذكر بعض ثناءهم عليه في هذا الباب:

○ قال الحافظ ابن سيد الناس رحمه الله:

«.. ألفيته ممن أدرك من العلوم حظاً، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظاً.... أو ذاكر في الحديث فهو صاحب علمه وذو روايته»[3].

---

(١) شرائع الإسلام: ١١/ ٨٣.

(٢) شرائع الإسلام: ١/ ٨٣.

(٣) العقود الدرية: ص ١٠، الدرر الكامنة: ١/ ١٥٦، ذيل طبقات الحنابلة: ١/ ٣٩٠ وغيرها.

وقال: «... أما الحديث فكان حامل رايته، حافظاً له، مميزاً بين صحيحه وسقيمه، عارفاً برجاله متضلعاً في ذلك»[1].

○ **الحافظ المزي رحمه الله قال:**

«ما رأيت مثله، ولا رأى هو مثل نفسه، ما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسُنّة رسوله، ولا أتبع لهما منه»[2].

○ **أما الحافظ الذهبي رحمه الله فقد أثنى عليه ثناءً حاراً في أكثر من موضع حيث قال:**

«وله خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم، ومعرفة بفنون الحديث، وبالعالي والنازل، وبالصحيح والسقيم، مع حفظه لمتونه الذي انفرد به، فلا يبلغ أحد في العصر رتبته، ولا يقاربه، وهو عجب في استحضاره، واستخراج الحجج منه، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة والمسند، بحيث يصدق عليه أن يقال: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث»[3].

«وسماعاته من الحديث كثيرة، وشيوخه أكثر من مائتي شيخ، ومعرفته بالتفسير إليها المنتهى، وحفظه للحديث ورجاله، وصحته، وسقيمه فما يلحق فيه»[4].

---

(١) العقود الدرية: ص ١٢.

(٢) العقود الدرية: ص ٧، الرد الوافر: ص ١٢٩.

(٣) العقود الدرية: ص ٢٠.

(٤) العقود الدرية: ص ٥٣، الشهادة الزكية: ص ٤٠، الرد الوافر: ص ٦٨-٦٩.

«.. فإنني ما رأيت أحداً أسرع انتزاعاً للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه، ولا أشد استحضاراً لمتون الأحاديث، وعزوها إلى «الصحيح» أو إلى «المسند» أو إلى «السنن» منه، كأَن الكتاب والسُّنَن نصب عينيه، وعلى طرف لسانه»[١].

«ولما كان معتقلاً بالإسكندرية، التمس منه صاحب «سبتة» أن يجيز له مروياته، وينص على أسماء جلة منها، فكتب في عشر ورقات جملة من ذلك بأسانيدها من حفظه، بحيث يعجز أن يعمل بعضه أكبر محدث يكون»[٢].

«وبرع في الحديث وحفظه، فقل من يحفظ من الحديث معزواً إلى أصوله وصحابته، مع شدة استحضار له وقت إقامة الدليل..»[٣].

○ **العالم الفاضل ابن فضل الله العمري رحمه الله قال:**

«... وكان حافظة للحديث، مميزاً بين صحيحه وسقيمه، عارفاً برجاله، متضلعاً من ذلك، وله تصانيف كثيرة، وتعاليق مفيدة، وفتاوى مشبعة في الفروع والأصول، والحديث، وردَّ البدع بالكتاب والسُّنّة»[٤].

---

(١) ثلاث تراجم نفيسة: ص ٢٣.

(٢) الشهادة الزكية: ص ٤١، العقود الدرية ص ٢٤.

(٣) شذرات الذهب: ص ٦/ ٨١ـ ٨٢.

(٤) الشهادة الزكية: ص ٥٦، تاريخ ابن الوردي: ٢/ ٤٠٩.

○ **الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله قال:**

«ولقد كان عجيباً في معرفة علم الحديث، فأما حفظ متون الصحاح، وغالب متون السنن والمسند، فما رأيت من يدانيه في ذلك أصلاً»[1].

○ **الحافظ الصفدي رحمه الله قال:**

«كأن السُّنّة على رأس لسانه، وعلوم الأثر مُساقة في حواصل جنانه، وأقوال العلماء مجلوة نصب عيانه، لم أرَ أنا ولا غيري مثل استحضاره، ولا مثل سبقه إلى الشواهد وسُرعة إحضاره، ولا مثل عزوه الحديث إلى أصله الذي فيه نقطة مداده»[2].

○ **الحافظ ابن الوردي رحمه الله قال:**

«وكانت له خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم، ومعرفةٌ بفنون الحديث، وبالعالي والنازل، والصحيح والسقيم، مع حفظه لمتونه الذي انفرد به، وهو عجيب في استحضاره واستخراج الحجج منه، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة والمسند، بحيث يصدق عليه أن يقال: كل حديث لا

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩١.

(٢) أعيان العصر عن المنجد: ص ٤٩.

يعرفه ابن تيمية فليس بحديث. ولكن الإحاطة لله، غير أنه يغترف فيه من بحر وغيره من الأئمة يغترفون من السواقي»[١].

○ **الحافظ أبو حفص البزار رحمه الله قال:**

«أما معرفته بصحيح المنقول وسقيمه، فإنه في ذلك من الجبال التي لا ترتقى ذروتها، ولا يُنال سنامها، قلَّ أَن ذُكر له قول إلا وقد أحاط علمه بمبتكره، وذاكره، وناقله، وأثره، أو راوٍ إلا وقد عرف حاله من جرح وتعديل، بإجمال وتفصيل»[٢].

○ **العلاَّمة الحافظ العيني رحمه الله قال:**

«كان من العلم والدين والورع على جانب عظيم، وكان ذا فنون كثيرة، ولا سيما علم الحديث، والفقه، والتفسير وغير ذلك»[٣].

○ **الحافظ ابن حجر رحمه الله قال:**

«سمع من ابن عبد الدائم، والقاسم الإربلي، والمسلم بن علان، وابن أبي عمر، والفخر، في آخرين، وقرأ بنفسه، ونسخ سنن أبي داود، وحصل الأجزاء، ونظر في الرجال، والعلل، وتفقه، وتمهر، وتقدم وصنف ودرس وأفتى، وفاق الأقران، وصار

---

(١) تاريخ ابن الوردي عن المنجد: ص ١٩.

(٢) الأعلام العلية: ص ٣٠.

(٣) الرد الوافر: ص ٢٦٤.

عجباً في سرعة الاستحضار، وقوة الجنان، والتوسع في المنقول والمعقول، والاطلاع على مذاهب السلف والخلف»[(١)].

○ **وقال ابن عبد الهادي رحمه الله:**

«... وأما الحديث فكان حافظاً له، مميزاً بين صحيحه وسقيمه، عارفاً برجاله متضلعاً في ذلك»[(٢)].

وجاء غير هذا الثناء الكثير على أَلسِنَة أهل العلم وحفاظ الزمان الذي عاش فيه شيخ الإسلام، أو الأزمنة التي جاءت بعد ذلك.

○ **مكانته بين نقاد الحديث والمتكلمين في الرجال:**

لشيخ الإسلام ابن تيمية قدم راسخة في علم الحديث، ونقد الرجال تجريحاً وتعديلاً. وتصحيحاً للأحاديث وتضعيفاً، وسنلحظ ذلك في الأمور التي سنذكرها لاحقاً.

أما عن نقده للرجال، وكلامه فيهم جرحاً وتعديلاً، فقد عده العلماء من المتكلمين في الرجال، فها هو الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى قد عده في الطبقة الثانية والعشرين من المتكلمين في الرجال، وممن يعتمد قوله في الجرح والتعديل[(٣)].

---

(١) الدرر الكامنة: ١/ ١٤٤ـ ١٤٥.

(٢) العقود الدرية: ص ٣٧٢.

(٣) ذكر من يعتمد قوله في الجرح والتعديل للذهبي، ضمن أربع رسائل في علوم الحديث: ص ٢١٢.

وعده ابن ناصر الدين الدمشقي في طبقات النقاد الذين يتكلمون في الرجال وذكره في طبقة الحافظ المزي والبرزالي والذهبي وغيرهم رحمهم الله جميعاً[1].

وذكره السخاوي في رسالته «المتكلمون في الرجال» في الطبقة السادسة والعشرون من المتكلمين في الرجال[2].

○ منهجه في النقد:

تميز شيخ الإسلام رحمه الله تعالى بميله إلى نقد المتون، وهذا الفن لم يتمكن منه كثير من أهل العلم. وذلك لصعوبة مسلكه، وقد وجد شيخ الإسلام من نفسه القدرة على اقتحام هذا الميدان، مع اشتغاله بأحوال الرواة ومروياتهم، واعتبارها في الشواهد والمتابعات، ولذلك فإن ما ظهرت نكارته من الأحاديث والمتون، واتضح كذبه لا سيما ما جاء في أكاذيب الشيعة وبعض أهل الأهواء، فإن شيخ الإسلام يكتفي غالباً في نقد متنه دون الرجوع إلى إسناده، لأن كذبه ظاهر.

ومن المعلوم أن الناقد قد يصيب، وقد يخطىء ويسهو كما لا يخفى على من مارس هذا الفن.

(١) الرد الوافر: ص ٤٦.
(٢) رسالة المتكلمون في الرجال للسخاوي، ضمن أربع رسائل في علوم الحديث: ص ١٢١.

ومن هنا حكم على بعض الأحاديث بالوضع والضعف والنكارة وقد رأى بعض أهل العلم صحتها أو حسنها.

ومن هنا نقد الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله شيخ الإسلام في رده بعض الأحاديث في أثناء رده على الرافضة.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

«إنه تحامل في مواضع كثيرة، ورد أحاديث موجودة، وإن كانت ضعيفة بأنها مُختَلَقَة».

وجاء هذا النقد في إطار حديثه عن نقد شيخ الإسلام لأحاديث ابن مطهر الحلي، وتقييم الحافظ ابن حجر لما نقده شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب «منهاج السُّنَّة» وبناءً على كلام الحافظ ابن حجر، عد الشيخ عبد الحي العكنوي شيخ الإسلام ابن تيمية في الطبقة المتشددة من النقاد، وحمل كلام ابن حجر فيه أكثر مما يحتمل، ونسي أن نقد الحافظ كان موجهاً إلى شدة شيخ الإسلام في حكمه على الأحاديث في كتابه «منهاج السُّنّة»، وذلك حين صرح أن أغلب أحاديث المنهاج من قبيل الموضوعات والواهيات، وقد أقره الحافظ الذهبي في المنتقى على ما قال.

وبهذا يتبين لنا أن كلام العكنوي رحمه الله ليس دقيقاً حين وصف شيخ الإسلام بالتشدد بناءً على كلام ابن حجر رحمه الله، وذلك لأن كلام ابن حجر خاص بكتاب منهاج السُّنّة، ولا يعمم أو لا يصلح ليكون حجة لتعميم الحكم.

وعند البحث والتدقيق واستقراء الأحكام التي أصدرها شيخ الإسلام رحمه الله على الأحاديث يتبين لنا أنه كان يسير على طريقة الإمام أحمد والبخاري وغيرهما من الطبقة المتوسطة، ويكثر من الثناء عليهم في طيات كلامه، ويرجع إلى أقوالهم في الجرح والتعديل.

ويتبين لنا أيضاً أن منهجه رحمه الله كان التوسط والعدل في جميع شؤونه الدينية والدنيوية، والبحث عن أعذار العلماء فيما وقعوا فيه من مخالفة للنصوص، ويعطي كل واحد حقه من مدح، أو ذم، ولا يحب الظلم أبداً.

ثم هناك قضية هامة يجب الالتفات إليها وهي أن الناقد مهما وصف بالتوسط، أو التشدد، أو التساهل فلا يكون على حالة واحدة دائمة في إصدار الأحكام على الرواة ومروياتهم وذلك لأسباب مختلفة.

ومع كل هذا فإننا لا نعطي العصمة لشيخ الإسلام، فهو كغيره من العلماء الجهابذة، يعتريهم من الخطأ والنسيان الذي لا يحط من قدرهم ومكانتهم وحفظهم(١).

○ نماذج من أحكامه على الأحاديث:

ولا بد لنا أن نعرض نماذج من أحكامه رحمه الله تعالى

(١) لسان الميزان: ٦/ ٣١٩، الدرر الكامنة: ٢/ ٧١.

على الأحاديث، وما أكثر هذه الأحكام، وسأختار مجموعة منها فيما يلي:

١ ـ «إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور».

حكمه: هذا الحديث كذب مفترى على النبي ﷺ بإجماع العارفين بحديثه، وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه غير مشروع. (مجموع الفتاوى: ١/ ٣٥٦).

٢ ـ «أمر بريرة أن تعتد بثلاث حيض».

حكمه: هذا حديث معلول، فإن عائشة رضي الله عنها قد ثبت عنها من غير وجه أن العدة عندها ثلاثة أطهار، وأنها إذا طعنت في الثلاثة حلت، فكيف تروي عن النبي ﷺ أنه أمرها أن تعتد بثلاث حيض. (مجموع الفتاوى: ٣٢/ ١١١ ـ ١١٢).

٣ ـ «إن الله ينزل عشية عرفة على جمل أورق يصافح الركبان ويعانق المشاة».

حكمه: هذا الحديث رواه أهل البدع في الصفات، مما نعلم باليقين القاطع أنه كذب وبهتان، بل كفر شنيع (مجموع الفتاوى: ٣/ ٣٨٥ ـ ٣٨٩).

٤ ـ «أن ركانة طلق امرأته البتة، فقال له النبي ﷺ: آلله ما أردت إلا واحدة؟ فقال: أردت بها واحدة، فردها رسول الله ﷺ.

حكمه: ضعفه الأئمة الأكابر كالإمام أحمد بن حنبل، والبخاري، وأبي عبيد. وابن حزم وغيرهم، وإن رواته قوم مجاهيل لم تعرف عدالتهم وضبطهم. (مجموع الفتاوى: ٣٣/ ١٥).

٥ ـ «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين، وكنت نبياً وآدم لا ماء ولا طين».

حكمه: هذا اللفظ كذب باطل ولكن اللفظ المأثور الذي رواه الترمذي وغيره أنه قيل: يا رسول الله! متى كنت نبياً؟ قال: وآدم بين الروح والجسد (الرد على البكري: ٤، ١١، ومجموع الفتاوى: ١٨/ ٣٧٩).

٦ ـ «قال لأبي هريرة ألك قميصان؟ بع واحد وكل به بطيخاً أصفر».

حكمه: الأحاديث المتقدمة في البطيخ كلها مختلقة لم يُرغب النبي ﷺ في أكل البطيخ، وجميع ما يروى من هذا الجنس فهو كذب. (مجموع الفتاوى: ٣٢/ ٢١٣).

٧ ـ «سئل عن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه قال: سأله بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين أن يتوب عليه، فتاب عليه».

حكمه: هذا الحديث كذب موضوع باتفاق أهل العلم. (منهاج السُّنّة: ٧/ ١٣٠ ـ ١٣٢).

٨ ـ «خلق الله من نور وجه علي سبعين ألف ملك يستغفرون له ولمحبيه إلى يوم القيامة».

حكمه: رواه أخطب خوارزم ـ كما قال الرافضي، وأخطب خوارزم هذا له مصنف في هذا الباب، فيه من الأحاديث المكذوبة ما لا يخفى كذبه، وليس هو من علماء الحديث، وهذا الحديث من المكذوبات. (منهاج السُّنّة: ٥/ ٣٦، ٢٤٢).

٩ ـ «نهى عن صوم رجب».

حكمه: ليس بالقوي. [اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ٦٢٥ ـ ٦٢٦).

١٠ ـ «نية المرء خير من عمله».

حكمه: هذا الأثر رواه أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب الأمثال من مراسيل ثابت البناني [الزهد والورع والعبادة: ص ١٨٩].

١١ ـ «من حج فزار قبري بعد موتي كان كمن زارني في حياتي».

حكمه: هو معروف من حديث حفص بن سليمان القارىء صاحب عاصم، وقد اتفق أهل العلم بالحديث على الطعن في حديث حفص هذا دون قراءته» (الرد على الأخنائي: ص ٢٨).

١٢ ـ «ليستمتع أحدكم بحله ما استطاع فإنه لا يدري ما يعرض له في حرمته».

حكمه: رواه أبو كريب وأبو يعلى الموصلي، وقد روى الترمذي وابن ماجه بمثل إسناده لكن أبو سورة ضعفوه» (شرح العمدة: ١/ ٣٦٦).

١٣ ـ «لما نزلت (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) قالوا: يا رسول الله، من قرابتك الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: علي وفاطمة وابناهما».

حكمه: (قاله الرافضي ينسبه إلى مسند أحمد بن حنبل ونحوه في الصحيحين).

قوله: أن أحمد روى هذا في مسنده كذب بين، فإن هذا مسند أحمد موجود، وليس فيه هذا الحديث، وأظهر من ذلك كذباً قوله: إن نحو هذا في الصحيحين، وليس هو في الصحيحين، بل فيهما وفي مسند أحمد ما يناقض ذلك. (منهاج السُّنّة: ٧/ ٩٥ ـ ١٠٤).

١٤ ـ «لا يقطع الصلاة شيء».

حكمه: ضعيف. (القواعد النورانية: ٣٣).

١٥ ـ «لا يبغض العرب إلا منافق».

حكمه: زيد بن جبيرة عندهم منكر الحديث، وهو مدني، ورواية إسماعيل بن عياش عن غير الشاميين مضطربة.(اقتضاء الصراط المستقيم: ١/ ٣٩٠ ـ ٣٩١).

١٦ ـ «كنت كنزاً لا أُعرف، فأحببت أن أعرف فخلقت خلقاً، فعرفتهم بي، فبي عرفوني».

حكمه: ليس هذا من كلام النبي ﷺ، ولا يعرف له إسناد صحيح ولا ضعيف «أحاديث القصاص: ص ٥٥ برقم: ٣).

١٧ ـ «أن أبا محذورة أنشد بين يدي النبي ﷺ:

قد لسعت حية الهوى كبدي
فلا طبيب لها ولا راقي

إلى آخرها.

وتواجد رسول الله ﷺ، ووقعت البردة عن كتفيه. فتقاسمها فقراء الصفة وجعلوها رقعاً في ثيابهم».

حكمه: هذا كذب باتفاق أهل العلم بالحديث، لكن قد رواه بعضهم، لكنه من الأكاذيب الموضوعة» (أحاديث القصاص: ٦٠ ـ ٦١ برقم: ١٣).

١٨ ـ «من علم أخاه آية من كتاب الله فقد ملك رقه».

حكمه: هذا كذب، ليس في شيء من كتب أهل العلم. (مجموع الفتاوى: ١٨/ ٣٨١).

١٩ ـ «من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي».

حكمه: حصين هذا الذي رواه قد أنكر أكثر الحفاظ أحاديثه. (اقتضاء الصراط المستقيم: ١/ ٣٨٧ ـ ٣٩٠).

٢٠ ـ «من أشبع جوعة أو ستر عورة ضمنت له على الله الجنة».

حكمه: هذا لفظ لا يعرف عن النبي ﷺ. (أحاديث القصاص: ص ٧٤ برقم ٣٧).

هذه المجموعة من الأحاديث تشكل جزءاً صغيراً من الأحاديث التي حكم عليها شيخ الإسلام رحمه الله صحة وضعفاً، ومن يريد المزيد فليرجع إلى مجموع الفتاوى، أحاديث القصاص، ومنهاج السُّنّة وغيرها من كتب شيخ الإسلام فسيجد فيه الكثير من الأحكام.

○ **نماذج مما نقله الأئمة عنه في التصحيح والتضعيف:**

اعتمد كثير من العلماء الذين جاؤوا بعده على أحكامه على الأحاديث صحة وضعفاً، ونقلوا ذلك في مصنفاتهم، أذكر منهم الإمام ابن القيم، والحافظ ابن حجر، والحافظ السخاوي، والحافظ السيوطي، والعلاَّمة علي القاري، وغير هؤلاء كثير. وسأذكر نماذج من ذلك عند الإمامين السخاوي في كتاب المقاصد الحسنة، والعلاَّمة علي القاري في كتابه «المصنوع في معرفة الحديث الموضوع».

أ ـ من كتاب المقاصد الحسنة للحافظ السخاوي:

ـ حديث: إن لجواب الكتاب حقاً كرد السلام».

قال السخاوي: ولا يثبت رفعه «بل المحفوظ كما قال ابن تيمية: وقفه» (المقاصد: حديث رقم: ٢٢٩ ص ١١٧).

ـ حديث: «إن الله لما خلق العقل قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أشرف منك، فبك آخذ، وبك أعطي».

قال السخاوي: قال ابن تيمية وتبعه غيره: إنه كذب موضوع باتفاق. انتهى. (المقاصد الحسنة: حديث رقم: ٢٣٣/ ص ١١٨).

ـ حديث «حب الدنيا رأس كل خطيئة».

قال السخاوي: وجزم ابن تيمية بأنه من قول جندب البجلي رضي الله عنه. (المقاصد حديث رقم: ٣٨٢ ص ١٨٢.

ـ حديث «الشيخ في قومه كالنبي في أمته».

قال السخاوي: وممن جزم بكونه موضوعاً شيخنا ـ يعني ابن حجر ـ ومن قبله التقي ابن تيمية فقال: إنه ليس من كلام النبي ﷺ، وإنما يقوله بعض أهل العلم، وربما أورده بعضهم بلفظ: الشيخ في جمعته كالنبي في قومه، يتعلمون من علمه، ويتأدبون من أدبه، وكل ذلك باطل. (المقاصد: حديث رقم: ٦٠٩/ ص ٢٥٧).

ـ حديث «من زارني وزار أبي إبراهيم في عام واحد دخل الجنة».

قال السخاوي: قال ابن تيمية إنه موضوع ولم يروه أحد من أهل العلم بالحديث، وكذا قال النووي في آخر الحج من شرح المهذب: هو موضوع لا أصل له. (المقاصد حديث رقم: ١١٢٦/ ص ٤١٣).

- حديث «لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه الله به».

قال السخاوي: قال ابن تيمية: إنه كذب. (المقاصد برقم: ٨٨٣ ص (٣٤).

وغير هذه النماذج عن السخاوي كثير.

ب - من كتاب (المصنوع في معرفة الحديث الموضوع) للعلاَّمة علي القاري رحمه الله:

- حديث «أكرموا طهوركم».

قال القاري: قال ابن تيمية: موضوع، وفي «الذيل»: هذا كما قال: (المصنوع: ص ٥٨ برقم ٣٥).

- حديث: «سبُ أصحابي ذنبٌ لا يغفر».

قال القاري: قال ابن تيمية: هذا كذب موضوع. (المصوع: ص ١١٠ - ١١١/ حديث برقم: ١٥١).

- حديث: «القلب بيت الرب».

قال السخاوي: قال الزركشي وغيره: لا أصل له، وقال ابن تيمية: موضوع، وفي الذيل: هو كما قال. (المصنوع: ص ١٣١ برقم: ٢١٧).

ـ حديث: «كنت كنزاً لا أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت خلقاً فعرفتهم بي فعرفوني».

قال القاري: نص الحفاظ كابن تيمية والزركشي والسخاوي على أنه لا أصل له (المصنوع: ص ١٤١ برقم ٢٣٢).

ـ حديث: «من زارني وزار أبي إبراهيم في عام واحد دخل الجنة».

قال القاري؛ قال ابن تيمية: إنه موضوع، وقال النووي: إنه باطل لا أصل له. (المصنوع: ص ١٨٢ برقم: ٣٣٦.

ـ حديث «من عرف نفسه فقد عرف ربه».

قال القاري: قال ابن تيمية: موضوع. (المصنوع: ص ١٨٩ برقم: ٣٤٩).

ـ حديث «من قدم لأخيه إبريقاً يتوضأ به، فكأنما قدَّم جواداً».

قال القاري: قال ابن تيمية: موضوع، وفي الذيل: هو كما قال (المصنوع: ص ١٩٠ برقم: ٣٥٣).

ـ حديث «النظر إلى الوجه الجميل عبادة».

قال القاري: قال ابن تيمية: باطل لا أصل له. (المصنوع: ص ٢٠٢/ برقم ٣٨٣).

○ علوم مصطلح الحديث ومصنفاته عند ابن تيمية:

وسأعرض لبعض آرائه في مصطلح الحديث على سبيل

التمثيل، وليس الحصر، ولبعض آراءه في بعض المصنفات الحديثية.

أ ـــ نماذج من آرائه في علوم المصطلح:

١ ـ رأيه في الحديث المرسل:

قال رحمه الله: والمراسيل قد تنازع الناس في قبولها وردها وأصح الأقوال أنَّ منها المقبول، ومنها المردود، ومنها الموقوف، فمن عُلِمَ من حاله أنه لا يرسل إلا عن ثقة: قُبِلَ مرسَلُه، ومن عُرِفَ أنه يُرسِلُ عن الثقة وغير الثقة إن كان إرساله رواية عمن لا يعرف حاله، فهذا موقوف، وما كان من المراسيل مخالفاً لما رواه الثقات كان مردوداً، وإذا كان المرسَل من وجهين، كلٌّ من الراويين أخَذَ عن شيوخ الآخر فهذا يدل على صدقه، فإن مثل ذلك لا يتصور في العادة تماثُلُ الخطأ فيه وتعمدُ الكذب»[١].

٢ ـ معنى قولهم: حديث لا أصل له:

قال السيوطي رحمه الله: وقولهم هذا الحديث ليس له أصل، أو: لا أصل له، قال ابن تيمية: معناه ليس له إسناد»[٢].

---

(١) بحوث الندوة العالمية ص ٢٧٤ـ٢٧٦.

(٢) منهاج السُّنّة النبوية: ٤/ ١١٧.

٣ ـ إيراد الحادث الواحد من طرق مختلفة:

قال رحمه الله: «إن تعدد الطرق مع عدم التشاعر أو الاتفاق في العادة: يُوجب العلم بمضمون المنقول، لكن هذا يُنتفع به كثيراً في علم أحوال الناقلين، وفي مثل هذا ينتفع برواية المجهول، والسيء الحفظ، وبالحديث المرسل، ونحو ذلك، ولهذا كان أهل العلم يكتبون مثل هذه الأحاديث ويقولون: إنه يصلح للشواهد والاعتبار ما لا يصلح لغيره، قال أحمد: قد أكتب حديث الرجل لأعتبره»[١].

٤ ـ رأيه في الحديث الضعيف والعمل به:

قال رحمه الله: «قولنا: إن الحديث الضعيف خير من الرأي: ليس المرادُ به الضعف المتروك، لكن المراد به الحسن، كحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وحديث إبراهيم الهجري، وأمثالهما ممن يحسن الترمذي حديثه.

وكان الحديثُ في اصطلاح من قبل الترمذي: إما صحيحاًوإما ضعيفاً، والضعيف نوعان: ضعيف متروك، وضعيف ليس بمتروك، فتكلم أئمة الحديث بذلك الاصطلاح، فجاء من لا يعرف إلا اصطلاح الترمذي فسمع قول بعض الأئمة: «الحديث الضعيف أحب إليّ من القياس»، فظن أنه يحتج بالحديث الذي

(١) تدريب الراوي: النوع الثاني والعشرون: ص ١٩٥.

يضعفه مثل الترمذي، وأخذ يرجح طريقة من يرى أنه أتبعُ للحديث الصحيح، وهو في ذلك من المتناقضين الذين يرجحون الشيء على ما هو أولى بالرجحان منه، إن لم يكن دونه»[1].

٥ ـ رأيه في الشواهد الضعيفة:

قال رحمه الله: «وقد يروي الإمام أحمد وإسحاق وغيرهما أحاديث تكون ضعيفة عندهم لاتهام رواتها بسوء الحفظ ونحو ذلك، ليُعتَبَر بها، ويستشهد بها، فإنه قد يكون لذلك الحديث ما يشهد له أنه محفوظ، وقد يكون له ما يشهد بأنه خطأ وقد يكون صاحبها كذاباً في الباطن ليس مشهوراً بالكذب، بل يروي كثيراً من الصدق، فيُروى حديثه وليس كل ما رواه الفاسق يكون كذباً، بل يجب التبيُّن في خبره كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٤٩] الآية، فيُروى لتُنظر الشواهد هل تدلُّ على الصدق أو الكذب»[2].

٦ ـ الأحاديث التي يحتج بها للأحكام الفقهية:

قال رحمه الله: «لو تناظر فقيهان في مسألة من مسائل الفروع، لم تقم الحجة على المُناظِر إلا بحديث يُعلَمُ أنه مُسنَدٌ

---

(١) مقدمة في أصول التفسير: ص ٣٠.

(٢) منهاج السُّنّة النبوية: ٢/ ١٩١.

إسناداً تقوم به الحُجَّة أو يصححه من يُرجَعُ إليه في ذلك، فإذا لم يُعلَم إسنادُه ولا أَثبته أئمةُ النقل فمن أين يعلم؟»[(١)].

وأما عن مرجعية تصحيح الأحاديث وتضعيفها فيقول رحمه الله:

«المنقولات فيها كثير من الصدق وكثير من الكذب. والمرجع في التمييز بين هذا وهذا إلى أهل الحديث، كما يرجع إلى النحاة في النحو، ويرجع إلى علماء اللغة فيما هو من اللغة، وكذلك علماء الشعر والطب وغير ذلك، فلكل علم رجالٌ يعرفون به، والعلماء بالحديث أجلُّ قدراً من هؤلاء، وأعظمهم صدقاً، وأعلاهم منزلة، وأكثرهم ديناً»[(٢)].

٧ ـ رأيه في بعض المصطلحات:

○ **قولهم: تركه فلان.**

قال رحمه الله: «قولهم: تركه شعبة، معناه أنه لم يرو عنه، وترك الرواية قد يكون لشبهة لا توجب الجرح، وهذا معروف في غير واحد، قد خرج له في الصحيح»[(٣)].

---

(١) منهاج السُّنَّة النبوية: ٤/ ٨١.

(٢) منهاج السُّنَّة النبوية: ٤/ ١٠.

(٣) مجموع الفتاوى: ٢٤/ ٣٤٩.

○ **مصطلح: يكتب حديثه ولا يحتج به:**

قال رحمه الله: «قول أبي حاتم: يكتب حديثه ولا يُحتجُّ به، أبو حاتم يقول مثل هذا في كثير من رجال، «الصحيحين»، وذلك أن شرطه في التعديل صعب.

و (الحجة) في اصطلاحه، ليس هو الحجة في اصطلاح جمهور أهل العلم، وأبو حاتم من أصعب الناس تزكية»[1].

○ **مصطلح: ليس بقوي في الحديث:**

قال رحمه الله: «عبارة لينة تقتضي أنه ربما كان في حفظه بعض التغير، ومثل هذه العبارة لا تقتضي عندهم تعمد الكذب، ولا مبالغة في الغلط»[2].

○ **مصطلح: لا أعلم أنهم رضوه:**

قال رحمه الله: «وهذا يقتضي أنه ليس عندهم من الطبقة العالية، ولهذا لم يخرج البخاري ومسلم له، ولأَمثاله، لكن مجرد عدم تخريجهما للشخص لا يوجب رد حديثه، وإذا كان كذلك، فيقال: إذا كان الجارح والمعدل من الأئمة، لم يقبل الجرح إلا مفسراً، فيكون التعديل مقدماً على الجرح المطلق»[3].

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٤/ ٣٤٩، ٣٥٠.
(٢) مجموع الفتاوى: ٢٤/ ٣٥٠.
(٣) مجموع الفتاوى: ٢٤/ ٣٥١.

○ **مصطلح: ضعيف، ليس بالقوي:**

قال رحمه الله: «قال فيه الإمام أحمد ـ يعني عتبة بن حميد الضبي ـ ضعيف، ليس بالقوي، لكن أحمد يقصد بهذه العبارة (ليس بالقوي) أنه ليس ممن يصحح حديثه، بل هو ممن يُحسَّنُ حديثه، وقد كانوا يسمون حديث مثل هذا ضعيفاً. ويحتجون به، لأنه حسن، إذ لم يكن الحديث إذ ذاك مقسوماً إلا إلى صحيح وضعيف»[1].

٨ ـ حكم خبر الآحاد:

قال رحمه الله: «وخبر الواحد المتلقى بالقبول يوجب العلم عند جمهور العلماء من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، وهو قول أكثر أصحاب الأشعري كالإسفرائيني وابن فورك، فإنه وإن كان في نفسه لا يفيد إلا الظن، لكن لما اقترن به إجماع أهل العلم بالحديث على تلقيه بالتصديق، كان بمنزلة إجماع أهل العلم بالفقه على حكم مستندين في ذلك إلى ظاهر أو قياس أو خبر واحد، فإن ذلك الحكم يصير قطعياً عند الجمهور وإن كان بدون الإجماع ليس بقطعي، لأن الإجماع معصوم، فأهل العلم بالأحكام الشرعية لا يجمعون على تحليل حرام، ولا تحريم حلال، كذلك أهل العلم بالحديث لا يجمعون

---

(١) مجموع الفتاوى الكبرى: ٣/ ٢٤٣.

على التصديق بكذب، ولا التكذيب بصدق، وتارة يكون علم أحدهم لقرائن تحتف بالأخبار توجب لهم العلم، ومن علم ما علموه حصل له من العلم ما حصل لهم»[(١)].

٩ ـ الحديث المتواتر:

قال رحمه الله: «وأما المتواتر فالصواب الذي عليه الجمهور: أن المتواتر ليس له عدد محصور، بل إذا حصل العلم عن إخبار المخبرين كان الخبر متواتراً، وكذلك الذي عليه الجمهور أن العلم يختلف باختلاف حال المخبرين به، فرب عدد قليل أفاد خبرهم العلم بما يوجب صدقهم، وأضعافهم لا يفيد خبرهم العلم.

ولهذا كان الصحيح أن خبر الواحد قد يفيد العلم إذا احتفت به قرائن تفيد العلم.

وعلى هذا فكثير من متون الصحيحين متواتر اللفظ عند أهل العلم بالحديث وإن لم يعرف غيرهم أنه متواتر، ولهذا كان أكثر متون الصحيحين مما يعلم علماء الحديث علماً قطعياً أن النبي ﷺ قاله، تارة لتواتره عندهم، وتارة لتلقي الأمة له بالقبول»[(٢)].

---

(١) علم الحديث لابن تيمية: ص ٣٤، مجموع الفتاوى: ١٨/ ٤١.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٨/ ٤٠ـ ٤١.

١٠ ـ قبول رواية الراوي أوردها:

قال رحمه الله: «الراوي إما أن تقبل روايته مطلقاً أو مقيداً، فأما المقبول إطلاقاً فلا بد أن يكون مأمون الكذب بالمظنة، وشرط ذلك العدالة وخلوه عن الأغراض والعقائد الفاسدة التي يظن معها جواز الوضع.

وأن يكون مأمون السهو بالحفظ والضبط والإتقان، وأما المقيد فيختلف باختلاف القرائن، ولكل حديث ذوق، ويختص بنظر ليس للآخر»(١).

ب ـ آراؤه في بعض المصنفات الحديثية:

وفيما يلي أعرض بعض نماذج من آرائه في بعض المصنفات الحديثية، ومرتبتها في القوة والضعف.

١ ـ كتاب الحلية لأبي نعيم:

«قال رحمه الله: «وأبو نعيم يروي في «الحلية» في فضائل الصحابة وفي الزهد أحاديث غرائب يَعلم أنها موضوعة، وكذلك الخطيبُ وابن الجوزي وابن عساكر وابن ناصر وأمثالهم»(٢).

وقال «أن أبا نعيم روى كثيراً من الاحاديث التي هي ضعيفة بل موضوعة باتفاق علماء الأحاديث وأهل السُّنَّة والشيعة، وهو

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٨/ ٤٧.

(٢) الرد على البكري: ص ١٩.

وإن كان حافظاً ثقة كثير الحديث واسع الرواية لكن روى كما هو عادة المحدثين يروون ما في الباب لأجل المعرفة بذلك، وإن كان لا يُحتج من ذلك إلا ببعضه»[1].

وقال أيضاً: «وما يرويه أبو نعيم في «الحلية» أو في «فضائل الخلفاء»، قد اتفق أهل المعرفة بالحديث على أنَّ فيه كثيراً من الكذب الموضوع، ومجرد كونه رواه لا يدل على صحة الحديث»[2].

٢ ـ كتاب الفردوس للديلمي:

قال رحمه الله: «ابن شيرويه الديلمي الهمذاني ذكر في كتابه «الفردوس» أحاديث كثيرة صحيحة، وأحاديث حسنة، وأحاديث موضوعة، وإن كان من أهل العلم والدين ولم يكن ممن يكذب هو، لكنه نقل ما في كتب الناس، والكتبُ فيها الصدق والكذب»[3].

وقال أيضاً: «كتاب الفردوس للديلمي فيه موضوعات كثيرة، أجمع أهل العلم على أن مجرد كونه رواه لا يدل على صحة الحديث»[4].

---

(١) منهاج السنّة: ٤/ ١٥.

(٢) منهاج السنّة: ٤/ ١٠، ٣٨.

(٣) منهاج السُّنّة: ٤/ ٧٨.

(٤) منهاج السُّنّة: ٤/ ٣٨.

٣ ـ رأيه في بعض كتب الفضائل:

قال رحمه الله: «النسائي صنف «خصائص علي» وذكر فيه عدة أحاديث ضعيفة وكذلك «أبو نعيم في الفضائل»، وكذلك الترمذي في جامعه روى أحاديث كثير في فضائل علي كثير منها ضعيف»[١].

وقال رحمه الله: «من الناس من قصد رواية كل ما روي في الباب من غير تمييز بين صحيح وضعيف، كما فعله أبو نعيم، وكذلك غيره ممن صنف في الفضائل، ومثله ما جمعه أبو الفتح بن أبي الفوارس، وأبو علي الأهوازي وغيرهما في «فضائل معاوية» ومثلُ ما جمعه النسائي في فضائل علي، وكذلك ما جمعه أبو القاسم بن عساكر في «تاريخه» في فضائل علي وغيره»[٢].

٤ ـ رأيه في مصنفي السير وقصص الأنبياء:

«قال رحمه الله: «جمهور مصنفي السير والأخبار وقصص الأنبياء: لا يميز بين الصحيح والضعيف، والغث والسمين، كالثعلبي، والواحدي، والمهدوي، والزمخشري، وعبد الجبار بن أحمد، وعلي بن عيسى الرُّماني، وأبي عبد الله ابن الخطيب الرازي، وأبي نصر بن القشيري ـ وأبي الليث السمرقندي، وأبي

---

(١) منهاج السُّنّة: ٤/ ٤٨.

(٢) منهاج السُّنّة: ٤/ ٨٤.

عبد الرحمن السلمي، والكواشي الموصلي، وأمثالهم من المصنفين في التفسير.

فهؤلاء: لا يعرفون الصحيح من السقيم، ولا لهم خبرة بالمروي المنقول، ولا لهم خبرة بالنقلة، بل يجمعون فيما يروون بين الصحيح والضعيف، ولا يميزون بينهما، لكن منهم من يروي الجميع، ويجعلُ العهدة على الناقل كالثعلبي وغيره، ومنهم من ينصرُ قولاً أو جملة إما في الأصول أو التصوف والفقه بما يوافقها من صحيح أو ضعيف، ويردُّ ما يخالفها من صحيح أو ضعيف»[1].

٥ ـ موازنة بين المسند وسنن أبي داود ورأيه في كتاب الفضائل لأحمد:

قال رحمه الله: «صنف أحمد كتاباً في فضائل الصحابة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم، وقد روى في هذا الكتاب ما ليس في مسنده، وليس كل ما رواه أحمد في المسند وغيره يكون حجة عنده، بل يروي ما رواه أهل العلم.

وشرطه في المسند: أن لا يروي عن المعروف بالكذب عنده، وإن كان في ذلك ما هو ضعيف، وشرطه في المسند أمثل من شرط أبي داود في سننه»، وأما في «كتب الفضائل» فروى ما

(١) الرد على البكري: ص ١٥.

سمعه من شيوخه سواء كان صحيحاً أو ضعيفاً، فإنه لم يقصد أن لا يروي في ذلك إلا ما ثبت عنده، ثم زاد ابنه عبد الله على «مسند أحمد» زيادات، وزاد أبو بكر القطيعي زيادات، وفي زيادات القطيعي أحاديث كثيرة موضوعة، فظن ذلك الجهال أنه من رواية أحمد، وأنه رواها في المسند، وهذا خطأ قبيح»[1].

وقال رحمه الله: «وكل من عرف العلم يعلم أن ليس كل حديث رواه أحمد في «الفضائل» ونحوه يقول: إنه صحيح، بل ولا كلُّ حديث رواه في مسنده يقول: إنه صحيح، بل أحاديث «مسنده» هي التي رواها الناس عمن هو معروف عند الناس بالنقل ولم يظهر كذبه، وقد يكون في بعضها علة تدل على أنه ضعيفٌ بل باطل، لكن غالبها وجمهورها أحاديث جيدة يحتج بها، وهي أجود من أحاديث سنن أبي داود.

وأما ما رواه في الفضائل فليس من هذا الباب عنده، والحديث قد يعرف أن محدثه غلط فيه أو كَذَبهُ من غير علم بحال المحدث، بل بدلائل أخر»[2].

وقال أيضاً: «وأحمد له «المسند» المشهور، وله كتاب مشهور في فضائل الصحابة، روى فيه أحاديث لا يرويها في

---

(١) منهاج السُّنّة: ٤/ ٢٧.

(٢) منهاج السُّنّة: ٤/ ٦١.

«المسند» لما فيها من الضعف لكونها لا تصلح أن تُروى في المسند، لكونها مراسيل أو ضعافاً بغير الإرسال»[(١)].

٦ ـ رأيه في كتب البيهقي رحمه الله:

قال رحمه الله: «... والبيهقي مما أُنكر عليه رواية هذا الحديث الكذب، ورآه أهل العلم لا يستوفي الآثار التي لمخالفيه، كما يستوفي الآثار التي له، وأنه يحتج بآثار لو احتج بها مخالفوه لأظهر ضعفها وقَرَح فيها، وإنما أوقعه في هذا ـ مع علمه ودينه ـ ما أوقع أمثاله ممن يريد أن يَجعل آثارَ النبي ﷺ موافقة لقول واحدٍ من العلماء دون آخر، فمن سلك هذه السبيل دَحَضَتْ حُجَجُه، وظَهَرَ عليه نوعٌ من التعصُّب بغير الحق»[(٢)].

وقال أيضاً: «والبيهقي يعزو ما رواه إلى الصحيح في الغالب، وهو من أقلهم استدلالاً بالموضوع، لكن يروي في الجهة التي يَنصُرُها من المراسيل والآثار ما يَصلحُ للاعتضاد، ولا يَصْلُح للاعتماد، ويَتْرُكُ في الجهة التي يضعفُها ما هو أقوى من ذلك الإسناد»[(٣)].

---

(١) منهاج السُّنّة: ٤/ ٧٥.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٤/ ١٥٤.

(٣) الرد على البكري: ص ٢٠.

وقال أيضاً: «والبيهقي يروي في الفضائل أحاديث كثيرةً ضعيفة، بل موضوعة كما جرت عادة أمثاله من أهل الحديث»[(١)].

٧ ـ رأيه في كتاب «الكامل في الرجال» لابن عدي:

«قال رحمه الله: «الكامل في أسماء الرجال» لابن عدي، لم يصنف في فنه «مثله»[(٢)].

ويقصد احتواء الكتاب وجمعه وتوسعه في ترجمة الراوي، بذكر بعض أحاديثه التي أنكرت عليه، ولا يعني به سلامته من المآخذ من كل الوجوه، فما سَلِمَ كتابُ صنفه إنسان من مؤاخذة»[(٣)].

○ بعض مصنفاته في الحديث:

صنف شيخ الإسلام رحمه الله في الحديث وعلومه، كما صنف في العلوم الأخرى وقد عد له العلماء ضمن قوائم أسماء مصنفاته حوالي (٤١) كتاباً في الحديث وعلومه، ولعل الكثير منها فُقِدَ فيما فقد من مصنفاته رحمه الله، وإن كان قد وصل إلينا بعض الرسائل والأجزاء الصغيرة، وقد جمع الكثير من هذه الرسائل في

---

(١) منهاج السُّنَّة: ٣/ ٨.

(٢) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة: ص ٩٦، ومجموع الفتاوى: ١/ ٢٧١.

(٣) الرقع والتكميل: ص ٣٤١ من تعليق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله وأحسن إليه.

مجلد رقم (١٨) من مجموع الفتاوى، وقد كان بينها رسائل في شرح حديث معين، أو كلام في مسألة في علوم المصطلح.

ومن هذه الرسائل والأجزاء:

١ ـ «الأربعين» التي رواها شيخ الإسلام بالسند إلى رسول الله ﷺ.

٢ ـ شرح حديث إني حرمت الظلم على نفسي.

٣ ـ شرح حديث عمران بن حصين: «كان الله ولم يكن شيء قبله».

٤ ـ شرح حديث إنما الأعمال بالنيات.

٥ ـ شرح حديث خطبة الحاجة.

٦ ـ شرح حديث «بدأ الإسلام غريباً».

٧ ـ شرح حديث «المرء مع من أحب».

٨ ـ شرح حديث: «أُنزل القرآن على سبعة أحرف».

٩ ـ شرح حديث «من عادى لي ولياً».

١٠ ـ شرح حديث النزول.

١١ ـ شرح حديث «فحج آدم موسى».

١٢ ـ شرح حديث «لا يزني الزاني وهو مؤمن».

١٣ ـ شرح حديث «وما ترددون عن شيء».

١٤ ـ شرح حديث «لا يرث المسلم الكافر».

١٥ ـ أحاديث القصاص.

وغيرها كثير كما سبق أن ذكرت ذلك في قائمة أسماء مصنفات شيخ الإسلام التي أوردتها.

○ ابن تيمية من أقدم من ألف في الأحاديث المشتهرة على الألسنة:

كانت رسالة شيخ الإسلام «أحاديث القصاص» من أول الرسائل التي أُلفت في الأحاديث المشتهرة على الألسنة والشائعة بين الناس، وذلك بسبب القصاص وتأثيرهم غالباً، وقد كانت هذه الرسالة من أقدم ما وصل إلينا من المؤلفات في هذا النوع.

يقول الدكتور محمد الصباغ حفظه الله في ذلك:

«ولدى دراستي المفصلة لهذه الرسالة تبين لي أنها كانت أصلاً اعتمد عليه السيوطي والسخاوي وغيرهما ممن ألف في الأحاديث المشتهرة على الألسنة.

لقد أوردت كتب الأحاديث الشائعة، هذه الأحاديث كلها الواردة في هذه الرسالة، ولا تستثني إلا النزر اليسير، ونقلت عن ابن تيمية كثيراً من عباراته الواردة في هذه الرسالة، ورأيت السخاوي في أكثر من موضع من المقاصد الحسنة لا يصرح بذكر اسمه، بينما يذكره بصراحة في مواضع أخرى من الكتاب»[1].

---

(١) مقدمة رسالة أحاديث القصاص: ص ١٥.

سأذكر فيما يلي أرقام بعض الأحاديث التي صرح فيها الإمام السخاوي رحمه الله بذكر اسم ابن تيمية والنقل عنه في كتابه «المقاصد الحسنة»:

١٧، ٤٥، ٢٢٩، ٢٣٣، ٣٨٤، ٦٠٩، ٧١٤، ٨٣٨، ٨٥٦، ٨٨٣، ٩٩٠، ١١٢٦، ١٣٥٦.

وقد نقل الحافظ السيوطي رحمه الله كثيراً من عبارات شيخ الإسلام ابن تيمية في ذيله على الموضوعات.

○ خلاصة:

كانت السُّنّة المطهرة وعلومها من الأساسيات التي درسها وحفظها شيخ الإسلام، وكان من أكثر الناس استحضاراً لمتونها واستعمالاً لها في ردوده وإجاباته، وكان حافظاً لا يجارى، وعالماً بالسُّنّة لا يدرك ولا يلحق، وكان من أبرز علماء عصره فيها رحمه الله.

الفصل الحادي عشر

ابن تيمية مفسراً

لقد علمنا في الفصول الماضية ما أكرم الله به شيخ الإسلام من قوة العقل، وحدة الذكاء، وعظيم الفهم والإدراك، وقوة الحافظة الخارقة، والعشق الشديد للعلم وأبوابه، وخاصة ما كان يتعلق بكتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ، حيث تمكن شيخ الإسلام رحمه الله من حفظ القرآن وهو في مرحلة الصبا، وأتقن العلوم وأحكمها وهو دون العشرين من عمره، وها هو يخبر عن شدة محبته لكتاب الله تعالى وعلومه فيقول:

«ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مئة تفسير، ثم أسأل الله الفهم، وأقول: يا معلم آدم وإبراهيم علمني، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها، وأمرغ وجهي في التراب، وأقول: يا معلم إبراهيم! فهمني»[1].

وإن الذي يمعن النظر بإنصاف وحيدة كاملة، سيدرك أن كتاب الله تعالى وسُنّة رسوله ﷺ قد اختلطت بلحمه ودمه، فما

---

(١) العقود الدرية: ص ٦٢.

من بحث ولا موضوع تكلم فيه، أو كتب عنه، إلا وهو مشحون بالآيات الكثيرة، والأحاديث الصحيحة، وشرحهما وتفسيرهما.

وقد ازداد تعلقه واهتمامه بالقرآن حين سجن في قلعة دمشق، حيث كان شغله الشاغل قراءة كتاب الله تعالى وتلاوته، والتدبر في آياته، حيث صنف في ذلك الكثير أثناء إقامته في السجن.

وأما عن التلاوة فقد أخبر أخوه زين الدين عبد الرحمن بن تيمية رحمه الله أن شيخ الإسلام رحمه الله قد ختم القرآن ثمانين ختمة في السجن، وخاصة أثناء فترة مرضه رحمه الله»[١].

○ **سعة علمه بالتفسير:**

وقد أثنى عليه أهل عصره ـ من أهل العلم والفضل والمكانة ـ وذكروا سعة علمه بتفسير كتاب الله تعالى، وغزارة الفوائد التي كان يستنبطها من آياته، ومن ذلك الثناء ما قاله:

ـ الحافظ الذهبي رحمه الله:

«... وأما التفسير فمُسلَّم إليه، وله في استحضار الآيات من القرآن ـ وقت إقامة الدليل بها على المسألة ـ قوة عجيبة، وإذا رآه المقرىء تحير فيه، ولفرط إمامته في التفسير وعظمة اطلاعه يبين خطأ كثير من أقوال المفسرين، ويوهي أقوالاً عديدة، وينصر قولاً

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ٣٨.

واحداً موافقاً لما دل عليه القرآن والحديث، ويكتب في اليوم والليلة من التفسير، أو من الفقه، أو من الأصلين، أو من الرد على الفلاسفة والأوائل: نحواً من أربعة كراريس أو أزيد[1].

«... ما رأيت أحداً أسرع انتزاعاً للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه» وقال: «كان آية من آيات الله في التفسير والتوسع فيه، لعله يبقى في تفسير الآية المجلس والمجلسين» وقال «.. حكى لي من سمعه يقول: إني وقفت على مائة وعشرين تفسيراً استحضر من الجميع الصحيح الذي فيها»[2].

«.. وبرع في تفسير القرآن، وغاص في دقيق معانيه بطبع سيّال، وخاطرٍ وقَّادٍ إلى مواضع الإشكال ميّال، واستنبط منه أشياء لم يُسبق إليها..»[3].

ـ الحافظ البرزالي رحمه الله:

«... وكان إذا ذكر التفسير بُهت الناس من كثرة محفوظه وحسن إيراده وإعطائه كل قول ما يستحقه من الترجيح والتضعيف والإبطال، وخوضه في كل علم كان الحاضرون يقضون منه العجب»[4].

---

(١) العقود الدرية: ص ٢٠، الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩١.
(٢) الوافي بالوفيات: ٧/ ١٥، ١٦.
(٣) شذرات الذهب: ٦/ ٨١ عن المعجم المختص للمحدثين للذهبي.
(٤) العقود الدرية: ص ١٢ـ ١٣، الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩١، الشهادة الزكية: ص ٤٨.

«.. وقلَّ أن يسمع شيئاً إلا حفظه، ثم اشتغل بالعلوم، وكان ذكياً كثير المحفوظ، فصار إماماً في التفسير وما يتعلق به»[1].

ـ الحافظ ابن سيد الناس رحمه الله:

«... إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته» إلى أن قال: «... كان يتكلم في التفسير، فيحضر مجلسه الجم الغفير، ويرددون من بحر علمه العذب النمير ويرتعون من ربيع فضله في روضة وغدير»[2].

ـ الحافظ ابن الوردي رحمه الله:

«.. وأما التفسير فمسلَّم إليه، وله في استحضار الآيات للاستدلال بها قوة عجيبة، ولفرط إمامته في التفسير وعظمة اطلاعه يبين خطأ كثير من أقوال المفسرين»[3].

ـ الحافظ الصفدي رحمه الله:

«.. وأما التفسير فيده فيه طولى، وسَرْدُه فيه يجعل العيون حولى»[4].

---

(١) الشهادة الزكية: ص ٤٩.

(٢) العقود الدرية: ص ١٠، المعجم المختص بالمحدثين: ٢٥ـ٢٦، الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٠.

(٣) تاريخ ابن الوردي: ٢/ ٢٨٦ وما بعدها.

(٤) أعيان العصر عن المنجد: ص ٥٠.

ـ الحافظ ابن كثير رحمه الله:

«جلس الشيخ تقي الدين المذكور أيضاً يوم الجمعة عاشر صفر بالجامع الأموي بعد صلاة الجمعة على منبر قد هُيءَ له لتفسير القرآن العزيز فابتدأ من أوله في تفسيره، وكان يجتمع عنده الخلق الكثير، والجم الغفير من كثرة ما يورد من العلوم المتنوعة المحررة»(١).

ـ الحافظ البزار رحمه الله:

«أما غزارة علومه فمنها: ذكر معرفته بعلوم القرآن المجيد واستنباطه لدقائقه، ونقله لأقوال العلماء في تفسيره، واستشهاد وبدلائله، وما أودعه الله تعالى فيه من عجائبه، وفنون حكمه، وغرائب نوادره، وباهر فصاحته، وظاهر ملاحته، فإنه فيه من الغاية التي يُنتهى إليها، والنهايةُ التي يُعَوَّلُ عليها.

ولقد كانَ إذا قُرِىءَ في مجلسه آياتٌ من القرآن العظيم يشرعُ في تفسيرها، فينقضي المجلسُ بجملته، والدرسُ بِرُمته، وهو في تفسير بعض آية منها، وكان مجلسه في وقتٍ مُقَدَّرٍ بقدر ربع النهار، يفعل ذلك بديهة من غير أن يكون له قارىءٌ مُعَيّن، يقرأ له شيئاً معيناً يبيته ليستعد لتفسيره، بل كان من حَضَرَ يقرأ ما تيسر، ويأخذ هو في القول على تفسيره، وكان غالباً لا يقطع إلا ويفهم السامعون

(١) البداية والنهاية: ١٣/ ٣٠٢.

أنه لولا مضي الزمن المعتاد لأورد أشياء أخر في معنى ما هو فيه من التفسير، لكن يقطع نظراً في مصالح الحاضرين.

ولقد أملى في تفسير ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ﴾ [الأخلاص: ١] مجلداً كبيراً، وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] نحو خمساً وثلاثين كراسة.

ولقد بلغني أنه شرع في جمع تفسير لو أتمه لبلغ خمسين مجلداً»[(١)].

ـ وترجم له الحافظ شمس الدين محمد بن علي الداوودي في كتابه طبقات المفسرين ترجمة حافلة[(٢)].

○ تفرغه للتفسير في آخر عمره:

تفرغ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في آخر عمره حين سجن في قلعة دمشق لتلاوة كتاب الله تعالى أو تدبر آياته، وحل المشكلات العويصة في فهم بعض الآيات القرآنية، كما ذكر ذلك عنه أخص أصحابه وأكثرهم كتابة لكلامه.

قال الشيخ أبو عبد الله بن رشيق رحمه الله:

«كتب الشيخ رحمه الله نقول السلف مجردة عن الاستدلال على جميع القرآن، وكتب في أوله قطعة كبيرة بالاستدلال، ورأيت

---

(١) الأعلام العلية: ص ٢٠ـ ٢١.

(٢) طبقات المفسرين للداوودي: ١/ ٤٦ـ ٥٠ برقم: ٤٢.

له سوراً وآيات يفسرها، ويقول في بعضها: كتبته للتذكر، ونحو ذلك.

ثم لما حبس في آخر عمره كتبت له أن يكتب على جميع القرآن «تفسيراً مرتباً» على السور، فكتب يقول: إن القرآن فيه ما هو بين بنفسه، وفيه ما قد بينه المفسرون في غير كتاب، ولكن بعض الآيات أشكل تفسيرها على جماعة من العلماء فربما يطالع الإنسان عليها عدة كتب ولا يتبين له تفسيرها، وربما كتب المصنف الواحد في آية تفسيراً، ويفسر غيرها بنظيره، فقصدت تفسير تلك الآيات بالدليل، لأنه أهم من غيره.

وإذا تبين معنى آية تبين معاني نظائرها، وقال: قد فتح الله عليَّ في هذه المرة من معاني القرآن ومن أصول العلم بأشياء كان كثير من العلماء يتمنونها، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن أو نحو هذا، وأرسل إلينا شيئاً يسيراً مما كتبه في هذا الحبس، وبقي شيء كثير في مسألة الحكم عند الحكام لما أخرجوا كتبه من عنده، وتوفي وهي عندهم إلى هذا الوقت نحو أربع عشرة رزمة»[1].

وقال ابن رجب رحمه الله نقلاً عن الحافظ الذهبي قوله:

«وفي آخر الأمر حُبس بقلعة دمشق سنتين وأشهراً، وبها مات رحمه الله تعالى، وبقي مدة في القلعة يكتب العلم ويصنفه،

---

(١) العقود الدرية: ص ٢٧ـ٢٨.

ويرسل إلى أصحابه الرسائل ويذكرُ ما فتح الله به عليه في هذه المرة من العلوم العظيمة والأحوال الجسيمة وقال: قد فتح الله عليَّ في هذا الحصن في هذه المرة، من معاني القرآن ومن أصول العلم، بأشياء كان كثير من العلماء يتمنونها، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن.

ثم إنه مُنع من الكتابة، ولم يُترك عنده دواة ولا قلم ولا ورق، فأقبل على التلاوة والتهجد والمناجاة والذكر»[(١)].

○ طريقته ومنهجه في التفسير:

كان شيخ الإسلام رحمه الله في تفسيره يتجه إلى فهم آيات الكتاب العزيز بإخلاص، مستعيناً في ذلك بالآثار السلفية، والمدلولات اللغوية. وربما طالع الكثير حول الآية الواحدة فلا يهتدي، فيلجأ إلى رب السموات والأرض بتضرع وخشوع أن يعلمه ويفهمه، ولذلك كان يقول رحمه الله:

«ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثم أسأل الله الفهم، وأقول: يا معلم آدم وإبراهيم علمني، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها، وأمرغ وجهي في التراب، واسأل الله تعالى وأقول: «(يا معلم إبراهيم فهمني»[(٢)].

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ٤٠١ـ٤٠٢.

(٢) العقود الدرية: ص ٢٦.

ونستطيع أن نلخص منهجه رحمه الله في التفسير بالنقاط التالية:

١ ـ تفسيره القرآن بالقرآن وهو الأصل الأول في تفسير كلام الله تعالى.

٢ ـ تفسير القرآن بالسُّنّة المطهرة وهي الأصل الثاني لتفسير القرآن الكريم.

وفي ذلك يقول رحمه الله:

«فإن أعياك ذلك ـ يعني تفسير القرآن بالقرآن ـ فعليك بالسُّنّة، فإنها شارحة للقرآن موضحة له»[١].

«والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجد فمن السُّنّة»[٢].

«ومما ينبغي أن يعلم أن القرآن والحديث إذا عرف تفسيره من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى أقوال أهل اللغة»[٣].

«والسُّنّة تفسر القرآن، وتبينه، وتدل عليه، وتعبر عنه»[٤].

٣ ـ تفسير القرآن بأقوال الصحابة وهو في المرتبة الثالثة من تفسير القرآن حيث يقول رحمه الله:

---

(١) مقدمة في أصول التفسير: ص ٩٢.

(٢) المرجع السابق: ص ٩٣.

(٣) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٢٧.

(٤) مجموع الفتاوى: ٣/ ١٣٨.

«وحينئذٍ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السُّنّة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح ولا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة، الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين»[(١)].

٤ ـ تفسير القرآن بأقوال التابعين:

وفي ذلك يقول رحمه الله:

«إذا لم نجد التفسير في القرآن، ولا في السُّنّة، ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر، فإنه كان آية في التفسير»[(٢)].

ويرى أن ما أجمع عليه التابعون فهو حجة حيث يقول:

«أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السُّنّة،أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك»[(٣)].

٥ ـ اتباعه للدليل، وعدم التعصب لأي قول مهما كان قائله حتى ولو كان من أقرب الناس إليه.

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٦٤، مقدمة في أصول التفسير: ص ٩٣.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٦٨ـ٣٦٩، مقدمة في أصول التفسير: ص ٩٧.

(٣) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٧٠.

٦ ـ الاستطراد وطول النفس في العرض والتوضيح، فهو يكثر من سرد الأدلة من الكتاب والسُّنّة أحياناً، ويطيل في مناقشة أكثر القضايا كدأبه دائماً في كتبه ومصنفاته.

٧ ـ استحضاره للأقوال والأدلة عند تفسيره لآيات الكتاب العزيز حيث يشحن تفسيره بالآيات، والأحاديث، والأقوال، والألفاظ التي يسردها بنظم عجيب وترتيب دقيق.

٨ ـ نقله عن الأئمة الكبار في التفسير مع الإشارة إلى ذلك.

٩ ـ أمانته العلمية، ودقته في النقل وهي سمة غالبة على منهجه رحمه الله في سائر مصنفاته[(١)].

○ رأيه في كتابة تفسير مرتب للقرآن:

وقد طلب إليه أحد تلاميذه وهو في السجن أن يكتب في القرآن كله تفسيراً مرتباً، بدل أن يكتفي بجمع نقول عن السلف في غير ترتيب، أو من غير تطبيق لها على الآيات فكتب إليه يقول:

«إن القرآن فيه ما هو بين بنفسه، وفيه ما قد بينه المفسرون في غير كتاب، ولكن بعض الآيات أشكل تفسيرها على جماعة من العلماء، فربما يطالع الإنسان عليها عدة كتب ولا يتبين له

---

(١) استفدنا في منهجه من مقدمة كتاب تفسير آيات أشلكت: ص ١٠٥ـ١٢٠ للأستاذ عبد العزيز بن محمد الخليفة حفظه الله.

تفسيرها، وربما كتب المصنف الواحد في آية تفسيراً، ويفسر غيرها بنظيره، فقصدت تفسير تلك الآيات بالدليل، لأنه أهم من غيره، وإذا تبين معنى آية تبين معاني نظائرها»[1].

لأجل هذا لم يكتب شيخ الإسلام في كل التفسير، لأن بعض الآيات لا يحتاج إلى تفسير، إذ هي تفسر نفسها، وبعضها قد فسره المفسرون وكتبت فيه الكتب، ولكنه عني بما يشتبه أو يخفى، فعني بمحاولة إدراكه ودراسته للوصول إلى الحق في تفسيره، وأُثر عنه قوله فيه مكتوباً، وتلقى تلاميذه بعضه مكتوباً عنه في حياته رحمهم الله جميعاً»[2].

○ ميزات تفسير شيخ الإسلام:

لقد تميز تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى بميزات لم تتوفر للكثير من التفاسير الأخرى، من هذه الميِّزات:

١ ـ اخلتط تفسيره بعمق النظرة، وسلامة الذوق، من غير أن يطغى النظر على الأثر، ولا يختفي الفكر المستقيم بين مختلف الروايات، وشتى النقول، بل إنك لترى عقله المتفكر المتدبر يلمع وراء الروايات، وفي مزدحم الآثار[3].

---

(١) العقود الدرية: ص ٢٧ـ٢٨.

(٢) ابن تيمية: أبو زهرة: ص ٥١٢.

(٣) ابن تيمية لأبي زهرة: ص ٥١٠ـ٥١١.

٢ ـ كان يتسم بارتباطه مع الحياة، حيث أنه يطبق الآيات القرآنية على ما حوله من الحياة والإنسان، ويستعرض الحياة من وجهة نظره، ويتناول معاصريه وطبقات الأمة المختلفة بالاحتساب، ويضع يده على مواطن الانحراف عن هذه الآيات والحقائق ويخبر بنتائج ذلك، إن ميزة الحيوية هذه منحت مؤلفاته حياة طويلة، وتأثيراً عميقاً وروعة عجيبة قد تندرُ في مؤلفات غيره، وقد تكون مفقودة في مؤلفات غيره[(١)].

وهذه الصفة هي التي جعلت من تفسير ابن تيمية رحمه الله مرجعاً للأجيال والشعوب على مر الدهور لحل معضلاتهم، كما يظهر من منهجه أنه داعية إلى الله يخاطب الإنسانية ويوجههم بالعواطف الدينية، حريصاً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣ ـ اعتماده المنهج السلفي القويم في تفسيره للقرآن بالقرآن، وبالسُّنّة النبوية، وآثار السلف واللغة العربية.

٤ ـ يسوق في تفسيره غريب القرآن ومعانيه ومفرداته، ورأي أهل اللغة والأدب مع أقوال السلف، ويرجح منها ما يوافق أقوال السلف.

٥ ـ استيعاب المباحث النحوية ويوفي الكلام عليها ببراعة كاملة، ويرجح ما يوافق أسلوب القرآن ومنهجه»[(٢)].

---

(١) ابن تيمية للندوي: ص ١١٣.

(٢) الندوة العالمية: ص ٢٥٤ـ٢٥٥.

○ **القواعد الكلية أو الأساسية لفهم القرآن:**

ونظراً للأهمية البالغة لفهم كتاب الله تعالى على الوجه الصحيح والأكمل، فقد بيَّن رحمه الله تعالى القواعد الأساسية (أو كليات فهم القرآن)، والتي تحمي الناس من الوقوع في التأويل والانحراف عن الفهم الصحيح لكتاب الله، ولأن منهجه كان سلفياً محضاً فقد انسجمت القواعد الأساسية التي ذكرها لفهم القرآن مع هذا المنهج، وقد انطلق في هذه القواعد من المنطلقات التالية:

١ ـ اعتقاده اعتقاداً جازماً أن النبي ﷺ قد فسر القرآن كله، ولم يترك منه جزءً يحتاج إلى بيان لم يبينه، أو مُعضلاً يحتاج إلى توضيح ولم يوضحه، ولا مجملاً يحتاج إلى تقييد لم يقيده، وهكذا.

قال رحمه الله: ويجب أن يعلم أن النبي ﷺ بيَّن لأصحابه معاني القرآن كما بين ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] يتناول هذا وهذا، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن، والعلم، والعمل جميعاً»[(١)].

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٣١.

٢ ـ أن الصحابة رضوان الله عليهم ما كانوا يطلبون القرآن إلا لمعانيه، فهم إذا كانوا حفظوا القرآن، فلا بد أنهم قد حفظوا أيضاً معانيه.

يقول رحمه الله: «ومن المعلوم أن كل كلام المقصود منه فهم معانيه، دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك، وأيضاً فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم، كالطب والحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم ونجاتهم وسعادتهم، وقيام دينهم ودنياهم، ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلاً جداً، وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم، وكلما كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر»(١).

٣ ـ ويقرر شيخ الإسلام أن التابعين قد تلقى بعضهم جميع التفسير من الصحابة حيث يقول رحمه الله:

«ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة، كما قال مجاهد ـ رحمه الله ـ: عرضت المصحف على ابن عباس أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها، ولهذا قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم، وكذلك الإمام أحمد وغيره ممن صنف في التفسير يكرر الطرق عن مجاهد أكثر من غيره.

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٣٢.

والمقصود أن التابعين تلقوا التفسير عن الصحابة كما تلقوا عنهم علم السُّنّة، وإن كانوا قد يتكلمون في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال كما يتكلمون في بعض السنن بالاستنباط والاستدلال»[١].

٤ ـ ويخلص شيخ الإسلام رحمه الله إلى أن الذي يريد أن يفهم القرآن ومعانيه بطريقة صحيحة فعليه أن لا يعدل عن منهج الصحابة والتابعين في تفسيرهم لكتاب الله تعالى:

حيث يقول رحمه الله:

«وفي الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً في ذلك، بل مبتدعاً، وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه، فالمقصود بيان طرق العلم وأدلته، وطرق الصواب، ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ، فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعاً»[٢].

وبناءً على هذه المنطلقات فقد بين رحمه الله تعالى أحسن طرق التفسير فقال رحمه الله:

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٣٢ـ٣٣٣.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٦١ـ٣٦٢.

١ ـ إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر، وما اختصر من مكان فقد بسط في موضع آخر.

٢ ـ فإن أعياك ذلك فعليك بالسُّنّة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن... والغرض إنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السُّنّة.

٣ ـ وحينئذٍ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السُّنّة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن، والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، مثل عبد الله بن مسعود..، ومنهم الحبر البحر «عبد الله بن عباس».

٤ ـ إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة، ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر، فإنه كان آية في التفسير...، وكسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح.. وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع

في عباراتهم تباين في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً وليس كذلك، فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو نظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن، فليتفطن اللبيب لذلك، والله الهادي.

وقال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير؛ يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة. أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك.

٥ ـ فأما تفسير القرآن بمجرد الرأيْ فحرام.. وهكذا روى بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أنهم شددوا في أن يفسر القرآن بغير علم.. فمن قال في القرآن برأيه فقد تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أُمر به.. ولهذا تحرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به.. قال أبو بكر الصديق: أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لم أعلم؟!.

.. فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه، ولهذا

روى عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة، لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ولما جاء في الحديث المروي من طرق: «من سئل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار»[(١)].

○ **من آرائه في كتب التفسير:**

كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله على معرفة واسعة بالتفاسير، فقد ذكرت سابقاً أنه ربما اطلع على مئة تفسير من أجل أن يفهم آية واحدة، وهو في الوقت نفسه مفسر قدير ذكر عنه الذهبي رحمه الله أنه جلس يفسر سورة نوح في المسجد الجامع في دمشق أكثر من سنة.

ولشيخ الإسلام رحمه الله آراء صائبة في التفاسير التي سبقت زمنه، يبيِّن فيها الجوانب الإيجابية والسلبية لكل تفسير من هذه التفاسير، نورد نماذج منها فيما يلي:

١ ـ تفسير ابن جرير الطبري:

قال فيه رحمه الله:

«أما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها تفسير محمد بن

(١) هذه المقتطفات في أحسن طرق التفسير من مجموعة الفتاوى: ١٣/ ٣٦٣ـ ٣٧٤.

جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين، كمقاتل ابن بكير، والكلبي»[1].

«وتفسير محمد بن جرير الطبري، وهو من أجل التفاسير المأثورة، وأعظمها قدراً»[2].

«وأما أهل العلم الكبار: أهل التفسير: مثل محمد بن جرير الطبري، وبقي بن مخلد، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وعبد الرحمن بن إبراهيم دحيم، وأمثالهم، فلم يذكروا فيها مثل هذه الموضوعات»[3].

«وكتب التفسير التي يذكر فيها الإسناد الذي يحتج به، وإذا كان في بعض كتب التفسير التي ينقل منها الصحيح والضعيف، مثل تفسير الثعلبي، والواحدي، والبغوي، بل وابن جرير، وابن أبي حاتم، لم يكن مجرد رواية واحد من هؤلاء دليل على صحته باتفاق أهل العلم، فإنه إذا عرف أن تلك المنقولات فيها صحيح وضعيف، فلا بد من بيان أن هذا المنقول من قسم الصحيح دون الضعيف»[4].

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٨٥.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٦١.

(٣) منهاج السُّنَّة: ٧/ ١٣.

(٤) منهاج السُّنَّة: ٧/ ٢٩٩ـ ٣٠٠.

٢ ـ تفسير ابن أبي حاتم:

قال فيه رحمه الله:

«إن ابن أبي حاتم لم يذكر عن الكذابين مقاتل والكلبي»[(١)].

«وابن أبي حاتم قد ذكر في أول كتابه في التفسير أنه طلب منه إخراج تفسير القرآن مختصراً بأصح الأسانيد، وأنه تحرى إخراجه بأصح الأخبار إسناداً، وأشبعها متناً، وذكر إسناده عن كل من نقل عنه شيئاً»[(٢)].

«من أئمة التفسير الذين ينقلونها بالأسانيد المعروفة، كتفسير ابن جريج، وسعيد بن أبي عروبة، وعبد الرزاق، وابن جرير الطبري، وابن أبي حاتم، وغيرهم من العلماء الأكابر، الذين لهم في الإسلام لسان صدق، وتفاسيرهم متضمنة للمنقولات التي يعتمد عليها في التفسير»[(٣)].

٣ ـ تفسير القرطبي:

ذكره شيخ الإسلام تفسير القرطبي في إجابته عن سؤال حول تفسير الزمخشري فقال رحمه الله:

---

(١) الرد على البكري: ص ١٧.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٥/ ٢٠١.

(٣) منهاج السُّنَّة: ٧/ ١٧٨.

«وتفسير القرطبي خير منه ـ أي الزمخشري ـ بكثير، وأقرب إلى طريقة أهل الكتاب والسُّنّة، وأبعد عن البدع، وإن كان كل هذه الكتب لا بد أن يشتمل على ما ينقد، لكن يجب العدل بينها، وإعطاء كل ذي حق حقه»[1].

٤ ـ تفسير ابن عطية:

قال رحمه الله:

«وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري وأبعد عن البدع، وإن اشتمل على بعضها، بل هو خير منه بكثير، بل لعله أرجح هذه التفاسير، لكن تفسير ابن جرير أصح من هذه كلها»[2].

«وتفسير ابن عطية وأمثاله: أتبع للسُّنّة والجماعة، وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري، ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل، فإنه كثيراً ما ينقل تفسير محمد بن جرير الطبري، وهو من أجل التفاسير المأثورة، وأعظمها قدراً، ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف، لا يحكيه بحال، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين، وإنما يعني بهم طائفة، من أهل الكلام، الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم، وإن كانوا أقرب إلى السُّنّة من

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٨٧.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٨٥.

المعتزلة، لكن ينبغي أن يعطى كل ذي حق حقه، ويعرف أن هذا من جملة التفسير على المذهب.

فإن الصحابة، والتابعين، والأئمة إذا كان لهم في تفسير الآية قول، وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر لأجل مذهب اعتقدوه، وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحاب، والتابعين لهم بإحسان صاروا مشاركين للمعتزلة، وغيرهم من أهل البدع في مثل هذا»[1].

٥ ـ تفسير الثعلبي:

قال فيه رحمه الله:

«والثعلبي هو في نفسه كان فيه خير ودين، وكان حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع، والواحدي صاحبه كان أبصر منه بالعربية، لكن هو أبعد عن السلامة، واتباع السلف، والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي، لكنه صان تفسيره من الأحاديث الموضوعة، والآراء المبتدعة»[2].

«أما ما نقله من تفسير الثعلبي، فقد أجمع أهل العلم بالحديث أن الثعلبي يروي طائفة من الأحاديث الموضوعة،

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٦١.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٥٤.

كالحديث الذي يرويه في أول سورة عن أبي أمامة في فضل تلك السورة، وكأمثال ذلك.

ولهذا يقولون: هو كحاطب ليل وهكذا الواحدي تلميذه، وأمثالهما من المفسرين، ينقلون الصحيح والضعيف»[1].

«وأمثال هؤلاء ممن في كتابه من الكذب ما لا يحصيه إلا الله، هل يجوز الاعتماد على ما يرويه هؤلاء، أو يكون أرفع من هذا، وإن كان فيها من الصدق ما لا يحصيه إلا الله، كتفسيرالثعلبي، والواحدي، والشفا للقاضي عياض، وتفسير أبي الليث، والقشيري مما فيه ضعف كثير، وإن كان الغالب عليه الصحيح»[2].

٦ ـ تفسير الواحدي:

قال رحمه الله:

«وأما الواحدي فإنه تلميذ الثعلبي، وهو أخبر منه بالعربية لكن الثعلبي فيه سلامة من البدع، وإن ذكرها تقليداً لغيره، وتفسيره وتفسير الواحدي البسيط، والوسيط، والوجيز، فيها فوائد جليلة، وفيها غث كثير من المنقولات الباطلة وغيرها»[3].

(١) منهاج السُّنّة: ٧/ ١٢.
(٢) الرد على البكري: ص ٢٠.
(٣) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٨٥.

«إن الواحدي كشيخه لا يميز بين الصحيح والضعيف، والغث والسمين»[1].

٧ ـ تفسير البغوي:

سئل شيخ الإسلام عن أي التفاسير أقرب إلى الكتاب والسُّنّة الزمخشري، أم القرطبي، أم البغوي، أم غير هؤلاء؟

فقال رحمه الله: «أما التفاسير الثلاثة المسؤول عنها فأسلمها من البدعة، والأحاديث الضعيفة البغوي، لكنه مختصر من تفسير الثعلبي، وحذف منه الأحاديث الموضوعة، والبدع التي فيها، وحذف أشياء غير ذلك»[2].

٨ ـ تفسير الزمخشري:

قال رحمه الله:

«وأما الزمخشري فتفسيره محشو بالبدعة، وعلى طريقة المعتزلة من إنكار الصفات، والرؤية والقول بخلق القرآن، وأَنكر أن الله مريد للكائنات، وخالق لأفعال العباد، وغير ذلك من أصول المعتزلة»[3].

---

(١) الرد على البكري: ص ١٤.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٨٦.

(٣) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٨٦.

«وهو من المفسرين الذين يذكرون من الأحاديث ما يعلم أهل الحديث أنه موضوع»[1].

«مثل هذا لا يرويه إلا أحد رجلين: رجل لا يميز بين الصحيح والضعيف، والغث والسمين، وهم جمهور مصنفي السير، والأخبار، وقصص الأنبياء، كالثعلبي، والواحدي، والمهدوي، والزمخشري.. فهؤلاء لا يعرفون الصحيح من السقيم، ولا لهم خبرة بالمروي المنقول، ولا لهم خبرة بالرواة النقلة..»[2].

٩ ـ تفسير القشيري، وتفسير السمرقندي، وتفسير السلمي:

قال رحمه الله:

«وإذا كان تفسير الثعلبي وصاحبه الواحدي ونحوهما فيها من الغريب الموضوع في الفضائل، والتفسير ما لم يجز معه الاعتماد على مجرد عزوه إليها فكيف بغيرها، كتفسير أبي القاسم القشيري، وأبي الليث السمرقندي، وحقائق التفسير لأبي عبد الرحمن السلمي الذي ذكر فيه عن جعفر ـ أي الصادق ـ ونحوه ما يعلم أنه من أعظم الكذب»[3].

---

(١) منهاج السُّنَّة: ٧/ ٩١.

(٢) الرد على البكري: ص ١٤.

(٣) الرد على البكري: ص ٧.

«وكتاب حقائق التفسير لأبي عبد الرحمن السلمي يتضمن ثلاثة أنواع:

أحدها: نقول ضعيفة عمن نقلت عنه، مثل أكثر ما نقله عن جعفر الصادق، فإن أكثره باطل عنه، وعامتها فيه من موقوف أبي عبد الرحمن.

وقد تكلم أهل المعرفة في نفس رواية أبي عبد الرحمن، حتى كان البيهقي إذا حدث عنه يقول: حدثنا من أصل سماعه.

الثاني: أن يكون المنقول صحيحاً، لكن الناقل أخطأ فيما قال.

الثالث: نقول صحيحة عن قائل مصيب، فكل معنى يخالف الكتاب والسُّنّة، فهو باطل وحجة داحضة وكل ما وافق الكتاب والسُّنّة والمراد بالخطاب غيره، إذا فسر به الخطاب فهو خطأ، وإن ذكر على سبيل الإشارة، والاعتبار، والقياس، فقد يكون حقاً، وقد يكون باطلاً.

وقد تبيَّن بذلك أن من فسر القرآن أو الحديث، وتأوله على غير التفسير المعروف عن الصحابة والتابعين فهو مفتر على الله، ملحد في آيات الله، محرف للكلم عن مواضعه، وهذا فتح لباب الزندقة والإلحاد، وهو معلوم البطلان بالاضطرار من دين الإسلام»[1].

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٢٤٣.

وقد أفدنا في عرض هذه الأراء من موضوع «رأي شيخ الإسلام ابن تيمية في التفاسير المطبوعة» الذي جمعه وعلق عليه بشير جواد القيسي والمنشور ضمن مجلة الحكمة الغراء(١).

○ **استفادة من جاء بعده من آرائه:**

ولعظمة الفوائد القرآنية في كلامه رحمه الله، وغزارة العلوم التي كان يتمتع بها، وكما قبس أهل العلم والفضل واستفادوا من آرائه في شتى العلوم، فقد أفادوا من آرائه في علوم القرآن والدراسات القرآنية، ومن هؤلاء الزركشي في كتابه البرهان، والسيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن، وكذلك ابن كثير في كتابه التفسير، وابن القيم في مواضع مختلفة من كتبه.

فمن ذلك ما قاله ابن القيم رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

«وكان شيخ الإسلام أبو العباس بن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: والصحيح أن معنى الآية أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان، وأحدهما أعظم من الآخر، فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي مشتملة على ذكر الله تعالى، وما فيها من ذكر الله تعالى أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر»(٢).

---

(١) مجلة الحكمة: عدد ٧/ ص ٢٠٥ـ ٢٣٣.

(٢) التفسير القيم: ص ٤٠٤ـ ٤٠٥.

ـ ومن ذلك ما نقله ابن كثير رحمه الله في موضوع أن قائل عبارة «ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب» وإن القائل هي امرأة العزيز حيث قال:

«وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام وقد حكاه الماوردي في تفسيره، وانتدب لنصره الإمام العلاَّمة أبو العباس بن تيمية رحمه الله فأفرده بتصنيف على حدة»[1].

وقد أشار السيوطي رحمه الله إلى أنه قد اعتمد على مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية رحمه الله وذلك في مقدمته لكتاب الإتقان[2].

○ من آثاره ومصنفاته في التفسير:

لقد كان رحمه الله يتمتع بذهن وقَّاد، وعلم واطلاع واسعين على التفسير وعلومه، وقد صنف في التفسير مصنفات كثيرة بين كتاب كبير، وأجزاءٍ صغيرة.

ومن تلك المصنفات التي وصلت إلينا أسماؤها أو مادتها نذكر هذه النماذج:

١ ـ مقدمة في أصول التفسير.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٢٠.

(٢) الاتفاق للسيوطي: ١/ ٨.

٢ ـ الإكليل في المتشابه والتأويل.

٣ ـ تفسير سورة الإخلاص.

٤ ـ تفسير سورة النور.

٥ ـ تفسير المعوذتين.

٦ ـ دقائق التفسير/ قام بجمعه وترتيبه الدكتور محمد الجليند.

٧ ـ تفسير آيات أشكلت.

٨ ـ أقسام القرآن.

٩ ـ رسالة في المعاني المستنبطة من سورة الإنسان.

١٠ ـ قاعدة في تحزيب القرآن وما يتعلق بذلك وما ورد فيه من الآثار.

١١ ـ قاعدة في تفسير أول البقرة.

١٢ ـ فضائل القرآن.

١٣ ـ تفسير سورة الفاتحة.

١٤ ـ تفسير سورة المائدة.

١٥ ـ تفسير سورة (لم يكن الذين كفروا) البينة.

وغير هذا كثير، ذكرته في قائمة مصنفات شيخ الإسلام رحمه الله.

○ نماذج من آرائه في التفسير وعلومه:

وسأعرض فيما يلي نماذج من آرائه في التفسير وعلومه، وكما وردت في مصنفاته رحمه الله تعالى:

١ ـ أهمية فهم القرآن وتدبره عنده:

قال رحمه الله:

«وكانت البدع الأولى مثل بدعة الخوارج إنما هي من سوء فهمهم للقرآن، لم يقصدوا معارضته، لكن فهموا منه ما لم يدل عليه، فظنوا أنه يوجب تكفير أرباب الذنوب إذا كان المؤمن هو البر التقي، قالوا: فمن لم يكن براً تقياً فهو كافر، وهو مخلد في النار، ثم قالوا: وعثمان وعلي ومن والاهما ليسوا بمؤمنين لأنهم حكموا بغير ما أنزل الله»[١].

«وكذلك إن كان المسلم قد حفظ القرآن أو بعضه ـ وهو لا يفهم معانيه ـ فتعلمه لما يفهمه من معاني القرآن أفضل من تلاوة ما لا يفهم معانيه»[٢].

٢ ـ فائدة معرفة أسباب النزول:

قال رحمه الله:.

---

(١) مقدمة في أصول التفسير: ص ٣٠.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٣/ ٥٦.

«ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسَبَّبِ»[1].

٣ ـ رأيه في الإسرائيليات:

قال رحمه الله:

«.. ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه وتجوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيراً، ويأتي على المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعدتهم، وعصا موسى من أي الشجر كانت، وأسماء الطير التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله منها

(١) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٣٩.

موسى، إلى غير ذلك مما أبهم الله في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم، ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز»[1].

٤ ـ السُّنّة لا تنسخ القرآن.

قال رحمه الله:

«.. ومعرفة الإجماع قد تتعذر كثيراً أو غالباً فمن ذا الذي يحيط بأقوال المجتهدين، بخلاف النصوص فإن معرفتها ممكنة متيسرة، وهم إنما كانوا يقضون بالكتاب أولاً، لأن السُّنّة لا تنسخ الكتاب فلا يكون في القرآن شيء منسوخ بالسُّنّة، بل إن كان فهي منسوخ كان في القرآن ناسخهُ فلا يقدم غير القرآن عليه، ثم إذا لم يجد ذلك طلبه في السُّنّة، ولا يكون في السُّنّة شيء منسوخ إلا والسُّنّة نسخته، لا ينسخ السُّنّة إجماع ولا غيره، ولا تعارض السُّنّة بإجماع، وأكثر ألفاظ الآثار، فإن لم يجد فالطالب قد لا يجد مطلوبه في السُّنّة مع أنه فيها، وكذلك في القرآن، فيجوز له إذ لم يجده في القرآن أن يطلبه في السُّنّة، وإذا كان في السُّنّة لم يكن ما في السُّنّة معارضاً لما في القرآن، وكذلك الإجماع الصحيح لا يعارض كتاباً ولا سُنّة»[2].

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٦٦ـ٣٦٧.

(٢) معارج الوصول: ص ٣٠.

٥ ـ رأيه في تأويل المتشابهات:

قال رحمه الله:

«وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن في قوله تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧] في المتشابهات قولان:

أحدهما: أنها آيات بعينها تتشابه على كل الناس.

والثاني: ـ وهو الصحيح ـ أن التشابه أمر نسبي، فقد يتشابه عند هذا ما لا يتشابه عند غيره، ولكن ثَمَّ آيات محكمات لا تشابه فيها على أحد، وتلك المتشابهات إذا عرف معناها صارت غير متشابهة، بل القول كله محكم، كما قال: (أحكمت آياته ثم فصلت) وهذا كقوله «الحلال بَيِّن والحرام بَيِّن، وبين ذلك أمور متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس» وكذلك قولهم «ان البقر تشابه علينا»[١].

«ومن قال من السلف إن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله فقد أصاب أيضاً، ومراده بالتأويل ما استأثر الله بعلمه، مثل وقت الساعة، ومجيء أشراطها، ومثل كيفية نفسه، وما أعده في الجنة لأوليائه»[٢].

(١) مجموع الفتاوى: ١٣/ ١٤٣ـ ١٤٤.
(٢) مجموع الفتاوى: ١٣/ ١٤٤.

٦ ـ القراءات السبع:

قال رحمه الله:

«والقرآن الذي بين لوحي المصحف متواتر، فإن هذه المصاحف المكتوبة اتفق عليها الصحابة ونقلوها قرآناً عن النبي ﷺ، وهي متواترة عن عهد الصحابة، نعلم علماً ضرورياً أنها ما غيرت، والقراءة المعروفة عن السلف الموافقة للمصحف تجوز القراءة بها بلا نزاع بين الأئمة، ولا فرق عند الأئمة بين قراءة أبي جعفر، ويعقوب وخلف وبين قراءة حمزة، والكسائي، وأبي عمرو، ونعيم، ولم يقل أحد من سلف الأمة وأئمتها إن القراءة مختصة بالقراء السبعة، فإن هؤلاء جمع قراءاتهم أبو بكر بن مجاهد بعد ثلاثمائة سنة من الهجرة، واتبعه الناس في ذلك، وقصد أن ينتخب قراءة سبعة من قراء الأمصار، ولم يقل هو ـ ولا أحد من الأئمة ـ إنما خرج عن هذه السبعة فهو باطل، ولا أن قول النبي ﷺ: أنزل القرآن على سبعة أحرف»، أريد به قراءة هؤلاء السبعة، ولكن هذه السبعة اشتهرت في أمصار لا يعرفون غيرها، كأرض المغرب ـ فأولئك لا يقرؤون بغيرها لعدم معرفتهم باشتهار غيرها.

فأما من اشتهرت عندهم هذه كما اشتهر غيرها، مثل أرض العراق وغيرها فلهم أن يقرأوا بهذا وهذا، والقراءة الشاذة مثل ما خرج عن مصحف عثمان كقراءة من قرأ: (الحي القيام) و (صراط

من أنعمت عليهم) و (إن كان إلا زقية واحدة) (والليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلى، والذكر والأنثى) وأمثال ذلك.

فهذه إذا قرىء بها في الصلاة ففيها قولان مشهوران للعلماء، هما روايتان عن الإمام أحمد.

أحدهما: تصح الصلاة بها، لأن الصحابة الذين قرأوا بها كانوا يقرؤونها في الصلاة، ولا ينكر عليهم.

والثاني: لا؛ لأنها لم تتواتر إلينا، وعلى هذا القول فهل يقال: إنها كانت قرآناً فنسخ، ولم يعرف من قرأ إلا بالناسخ؛ أو لم تنسخ، ولكن كانت القراءة بها جائزة لمن ثبتت عنده دون من لم تثبت، أو لغير ذلك، هذا فيه نزاع مبسوط في غير هذا الموضع.

وأما من قرأ بقراءة أبي جعفر ويعقوب ونحوهما: فلا تبطل الصلاة بها باتفاق الأئمة، ولكن بعض المتأخرين من المغاربة ذكر في ذلك كلاماً وافقه عليه بعض من لم يعرف أصل هذه المسألة»[1].

٧ ـ تأويل آيات الصفات:

قال رحمه الله:

«إن جميع ما في القرآن من آيات الصفات ليس عن الصحابة اختلاف في تأويلها، وقد طالعت التفاسير المنقولة عن

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٢/ ٥٦٩ـ ٥٧٠.

الصحابة، وما رووه من الحديث، ووقفت من ذلك على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار، أكثر من تفسير، فلم أجد إلى ساعتي هذه عن أحد من الصحابة أنه تأول شيئاً من آيات الصفات، أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف»[1].

(١) تفسير سورة النور: ص ١٤٥.

الفصل الثاني عشر

ابن تيمية وعلوم العقيدة والمنطق

لقد كان شيخ الإسلام رحمه الله يتمتع بثقافة عالية في مختلف العلوم والمعارف، واطلاعاً واسعاً على شتى علوم أهل عصره، إضافة إلى فرط ذكائه، وسيلان ذهنه، وقوة حافظته، وسرعة إدراكه وبديهته.

وكان لا يشغله عن المطالعة والازدياد في المعرفة شيء حتى عبر عن ذلك الحافظ الذهبي رحمه الله بقوله: «ما رأيته إلا ببطن كتاب»[(١)].

وعبر عن إعجابه. بغزارة علومه وسعة اطلاعه الحافظ ابن دقيق العيد رحمه الله بقوله: لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً العلوم لها بين عينيه، يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريد»[(٢)].

ومن تلك العلوم التي أتقنها شيخ الإسلام علوم العقيدة، والمنطق وعلم الكلام حتى فاق فيها كبار أئمتها، وأصلح عوارها،

---

(١) معجم الشيوخ للذهبي: ١/ ٥٦.

(٢) الرد الوافر: ص ١٠٧.

وبين مفاسد المنطق وعلم الكلام وأضرارهما على العقيدة الإسلامية وصفاءها.

○ ثناء العلماء عليه في هذا الجانب:

كما أثنى العلماء عليه في الجوانب المختلفة لمعرفته واطلاعه، فقد أثنوا عليه في سعة اطلاعه على علوم الكلام والمنطق، ومعرفته بالمذاهب والنحل والملل، وكيف وقف للمعوج من أفكارها بالمرصاد، وقام لنصرة السُّنّة المحمدية قياماً تعرض في سبيله للأذى، فاحتمل ذلك صابراً محتسباً، ولقي الله راضياً مرضياً.

ومن ذلك الذي قالوه نذكر هذه الأقوال:

ـ قال الحافظ الذهبي:

«.. ونظر في العقليات، وعرف أقوال المتكلمين ورد عليهم، ونبه على خطئهم وحذر منهم، ونصر السُّنّة بأوضح حجج، وأبهر براهين، وأوذي في ذات الله من المخالفين، وأخيف في نصر السُّنّة المحضة حتى أعلى الله مناره، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته، والدعاء له، وكبت أعداءه، وهدى به رجالاً من أهل الملل والنحل»[1].

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٨٩ـ ٣٩٠.

وقال: «... وأما معرفته بالملل والنحل والأصول والكلام فلا أعلم له فيه نظيراً»[1].

وقال: «... وإن سمي المتكلمون فهو فَردُهم وإليه مرجعهم، وإن لاح ابن سينا يَقْدُم الفلاسفة فلَّهم وبَخَسَهم، وهتك أستارهم وكشف عوارهم»[2].

ـ وقال الحافظ ابن سيد الناس رحمه الله:

«.. أو حاضر بالنحل، والملل لم يُرَ أوسع من نحلته، ولا أرفع من درايته، برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عيناه مثل نفسه»[3].

ـ وقال الحافظ الصفدي رحمه الله:

«وأما الملل والنحل ومقالات أرباب البدع الأَول، ومعرفة أرباب المذاهب وما خُصّوا به من الفتوحات والمواهب، فكان في ذلك بحراً يتموج، وسهماً ينفذ على السواء لا يتعرج»[4].

---

(١) العقود الدرية: ص ١٨ـ١٩.
(٢) فوات الوفيات عن المنجد ص ٦٢.
(٣) المعجم المختص بالمحدثين ٢٥ـ٢٦، العقود: ٩.
(٤) أعيان العصر عن المنجد: ص ٥٠.

ـ وقال الحافظ البرزالي رحمه الله:

«وأما معرفته بالملل والنحل والأصول والكلام فلا أعلم له فيه نظيراً»[1].

ـ وقال الحافظ أبو حفص البزار رحمه الله:

«وأما ما خصه الله تعالى به من معارضة أهل البدع في بدعتهم، وأهل الأهواء في أهوائهم، وما ألفه في ذلك من دحض أقوالهم، وتزييف أمثالهم وأشكالهم، وإظهار عوارهم وانتحالهم، وتبديد شملهم، وقطع أوصالهم، وأجوبته عن شبههم الشيطانية، ومعارضتهم النفسانية، للشريعة الحنيفية المحمدية، بما منحه الله تعالى به من البصائر الرحمانية، والدلائل النقلية، والتوضيحات العقلية، حتى ينكشف قناع الحق، وبان بما جمعه في ذلك وألفه الكذب من الصدق حتى لو أن أصحابها أحياءٌ ـ ووفقوا لغير الشقاء ـ لأذعنوا له بالتصديق، ودخلوا في الدين العتيق»[2].

ـ وها هو الحافظ السيوطي رحمه الله يبدي إعجابه بمدى معرفته بالفلسفة والمنطق فيقول:

«فإن برعت في الأصول وتوابعها من المنطق والحكم والفلسفة وآراء الأوائل، ومجاراة العقول، واعتصمت مع ذلك

---

(١) فوات الوفيات عن المنجد ص ٦٢.

(٢) الأعلام العلية: ٣١ـ٣٢.

بالكتاب والسُّنّة وأصول السلف، ولفقت بين العقل والنقل، فما أظنك في ذلك تبلغ رتبة ابن تيمية ولا والله لا تقاربها»[1].

○ **رأيه في علم المنطق:**

قال رحمه الله:

«وليس لذلك فائدة إلا تضييع الزمان، وإتعاب الأذهان، وكثرة الهذيان ودعوى التحقيق بالكذب والبهتان، وشغل النفوس بما لا ينفعها بل قد يضلها، عما لا بد لها منه»[2].

«إني كنت دائماً أعلم أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي، ولا ينتفع به البليد»[3].

○ **شدة نقده لعلوم المنطق:**

كان قد اشتهر أن علوم المنطق اليوناني قد خدمها وهذبها ونماها أصحاب العقول الكبيرة، حتى أوصلوها إلى درجة الكمال، فوقوع الخطأ والزلل فيها نادر، ولذلك فإن توجيه النقد لها لم يكن أمراً مقبولاً عند الكثيرين، ولكن شيخ الإسلام وجه سهام النقد لهدم هذا الاعتقاد عند الكثير من أهل العلم حيث يقول رحمه الله:

---

(١) ابن تيمية ص: ١١٦.

(٢) الرد على المنطقيين: ص ٣١.

(٣) المرجع السابق: ص ٣.

«.. فهذه العلوم عقلية محضة ليس فيها تقليد لقائل، وإنما تعلم بمجرد العقل فلا يجوز أن تصحح بالنقل ـ بل ولا يتكلم فيها إلا بالمعقول المجرد ـ فإذا دل المعقول الصريح على بطلان الباطل منها لم يجز رده، فإن أهلها لم يدَّعو أنها مأخوذة عمن يجب تصديقه، بل عن عقل محض، فيجب التحاكم فيها إلى موجب العقل الصريح»(١).

○ **أسباب انحراف المنطقيين:**

ويحدث شيخ الإسلام عن أسباب انحراف المنطقيين فيقول:

«وسبب ذلك أعراضهم عن الفطرة العقلية، والشرعة النبوية بما ابتدعوه مما أفسدوا به الفطرة والشريعة، فصاروا يسفسطون في العقليات، ويقرمطون في السمعيات»(٢).

يقول أيضاً:

«إن ما عند أئمة النظار ـ أهل الكلام والفلسفة ـ من الدلائل العقلية على المطالب الإلهية، فقد جاء القرآن بما فيها من الحق، وما هو أكمل وأبلغ منها على أحسن وجه، مع تنزهه عن الأغاليط

---

(١) الرد على المنطقيين: ص ٢٠٨.

(٢) النبوات: ص ١٤٨.

الكبيرة الموجودة عند هؤلاء، فإن خطأهم فيها كثير جداً، ولعل ضلالهم أكثر من هداهم، وجهلهم أكثر من علمهم»[(١)].

وكان شيخ الإسلام رحمه الله يرى أن أولئك الذين يضعون المقدمات العقلية لتسبق الدراسة الشرعية، ويجعلون ما في القرآن يسير على منهاجها، فيؤولون صريحه ليوافقها، إنما يجعلون علم العقل فوق علم النبوة، حيث يقول:

«يقدمون في كتبهم الكلام في النظر والدليل والعلم، وأن النظر يوجب العلم وأنه واجب، ويتكلمون في جنس النظر وجنس الدليل، وجنس العلم بكلام قد اختلط فيه الحق بالباطل، ثم إذا صاروا إلى ما هو الأصل والدليل في الدين استدلوا بحدوث الأعراض على حدوث الأجسام، وهو دليل مبتدع في الشرع، وباطل في العقل»[(٢)].

ينقد ابن تيمية رحمه الله هؤلاء، لأنهم يقدمون عند دارستهم لما جاء به النبوة تلك الدراسة العقلية عليها، ثم يحكمون على الأوصاف التي جاءت في القرآن بقوانينها، ويوجهونها بتوجيهها، فما يوافقها أقروه كما ورد، وما لم يوافقها وجهوه على اتجاهها، وأولوه بتأويلها، ثم هم في هذا السبيل لم

---

(١) الرد على المنطقين: ٣٢١.

(٢) معارج الوصول: (ص ٦).

يلتفتوا إلى السُّنّة ولم يعلموا أنها شارحة للكتاب، مبينة لكل ما جاء فيه، وأنها الطريق الوحيد لتفسيره.

ينقد ابن تيمية ذلك المسلك، لأنه يجعل الحاكم محكوما، فيجعل النبوة التي هي حاكمة هادية للعقول محكومة بها، خاضعة لها»(١).

○ نقضه للمنطق وإخباره أنه يمكن الاستغناء عنه:

يخبر شيخ الإسلام أن علم المنطق من العلوم التي يمكن الاستغناء عنه، وأنه ليس له فائدة عملية ولا نظرية حيث يقول:

«.. وأيضاً لا تجد أحداً من أهل الأرض حقق علماً من العلوم وصار إماماً فيه مستعيناً بصناعة المنطق، لا من العلوم الدينية ولا غيره فالأطباء والحساب، والكتَّاب ونحوهم يحققون ما يحققون من علومهم وصناعاتهم بغير صناعة المنطق.

وقد صنف في الإسلام علوم النحو واللغة والعروض والفقه وأصوله والكلام وغير ذلك، وليس في أئمة هذه الفنون من كان يلتفت إلى المنطق، بل عامتهم كانوا قبل أن يعرب هذا المنطق اليوناني.

وأما العلوم الموروثة عن الأنبياء صرفاً، وإن كان الفقه وأصوله متصلاً بذلك فهي أجل وأعظم من أن يظن أن لأهلها

---

(١) ابن تيمية: أبو زهرة: ص ٢٤٠.

التفات إلى المنطق، إذ ليس في القرون الثلاثة من هذه الأمة ـ التي هي خير أمة أخرجت للناس ـ وأفضلها القرون الثلاثة: من كان يلتفت إلى المنطق أو يعرج عليه، مع أنهم في تحقيق العلوم وكمالها بالغاية التي لا يدرك أحد شأوها، كانوا أعمق الناس علماً، وأقلهم تكلفاً، وأبرهم قلوباً، ولا يوجد لغيرهم كلام فيما تكلموا فيه إلا وجدت بين الكلامين من الفرق أعظم مما بين القدم والفَرْق[1]، بل الذي وجدناه بالاستقراء أن من المعلوم: أن من الخائضين في العلوم من أهل هذه الصناعة أكثر الناس شكاً واضطراباً، وأقلهم علماً وتحقيقاً، وأبعدهم من تحقيق علم موزون، وإن كان فيهم من قد يحقق شيئاً من العلم، فذلك لصحة المادة والأدلة التي ينظر فيها، وصحة ذهنه وإدراكه، لأجل المنطق، بل إدخاله صناعة المنطق في العلوم الصحيحة يطول العبارة ويبعد الإشارة، ويجعل القريب من العلم بعيداً، واليسير منه عسيراً، ولهذا تجد من أدخله في الخلاف والكلام وأصول الفقه وغير ذلك، لم يفد إلا كثرة العلم والتشقيق، مع قلة العلم والتحقيق»[2].

(١) الفرق: المقصود به فرق الشعر من الرأس.

(٢) نقض المنطق: ص ١٦٨ـ١٦٩.

○ **اتجاهه لنقض المنطق من دعائمه التي يقوم عليها:**

وابن تيمية ـ رحمه الله ـ لا يكتفي في هدم المنطق مبيناً أنه لا جدوى فيه، وأن الناس من غيره يصلون إلى الحقائق في استقامة تفكير وسلامة تعبير، وأن الذين يسلكون مذهبه لا يقصدون إلا تشقيق القول من غير جداء، ويأتي البنيان من قواعده، فيحاول أن يثبت أن الدعائم التي يقوم عليها بناء المنطق دعائم واهية، وأنها في ذاتها غير سليمة(١).

فيقول رحمه الله:

«اعلم أنهم بنوا المنطق على الكلام في الحد ونوعه، والقياس البرهاني ونوعه، قالوا لأن العلم أما تصور وإما تصديق، فالطريق الذي ينال به التصور هو الحد، والطريق الذي ينال به التصديق هو القياس، فنقول الكلام في أربعة مقامات، مقامين سالبين، ومقامين موجبين، فالأولان في قولهم أن التصور المطلوب لا ينال إلا بالحد، والثاني أن التصديق المطلوب لا ينال إلا بالقياس، والآخران أن الحد يفيد العلم بالتصورات، وأن البرهان الموصوف يفيد العلم بالتصديقات، فالمقامان السالبان ينفيان الطرق التي يسلكها غير المناطق في التوصيل إلى التصور والتصديق، والمقامان الموجبان يثبتان أن طريقي المناطقة هما

(١) ابن تيمية: لأبي زهرة: ص ٢٤٩.

وحدهما يؤديان إلى التصور والتصديق»[1].

ويخلص رحمه الله إلى القول:

«هذا ملخص ما قالوه: وكل هذه الدعاوى كذب في النفي والإثبات فلا ما نفوه من طرق غيرهم كلها باطل، ولا ما أثبتوه من طرقهم كلها حق على الوجه الذي ادعوا فيه، وإن كان في طرقهم ما هو حقه كما أن في طرق غيرهم ما هو باطل، فما من أحد منهم ولا من غيرهم يصنف كلاماً إلا ولا بد أن يتضمن ما هو حق»[2].

○ ترجيحه للاستقراء على القياس:

يذكر العلاَّمة السيد سليمان الندوي رحمه الله في تقديمه لكتاب الرد على المنطقيين ما نصه:

«إنك إذا تقرأ هذا الكتاب بإمعان وروية تجد منه عدة من قضايا المنطق ومسائل الفلسفة التي اخترعها شيخ الإسلام لأول مرة، وهي تطابق آراء فلاسفة الغرب ونظرياتهم مطابقة تامة، وعلى سبيل المثال نرى أن علماء المنطق من المسلمين كانوا يقلدون أرسطو في قوله: إن كليات المنطق أساس العلم، وبالتالي رجحوا البرهانيات والمقاييس على الاستقراء وهونوا أمره، ولأجل

(١) صون المنطق والكلام: ص ٢٠٢.

(٢) صون المنطق والكلام: ص ٢٧٨، ابن تيمية لأبي زهرة: ص ٢٥٠.

هذا ادعى بعض علماء الغرب أن (مل) (Mill) هو أول من رتب أصول الاستقراء، وأسس قواعد المنطق الجديد، والحال أن شيخ الإسلام سبقه بقرون إلى بيان أهمية الاستقراء والاستفادة منه.

وهكذا قدم حلولاً ناجحة للمسائل العويصة والمعقدة في هذا الفن بالأدلة القطعية مما يشهد باجتهاده وذكائه، إن ما قاله شيخ الإسلام في مسألة العلة واللزوم هو نفس ما أثبته الفلسفي الشهير هيوم (Hume) في مؤلفاته، وزلت فيها أقدام فحول العلماء، وضل بسببها الملاحدة والطبيعيون، ويوجد في كتابه الرد على المنطقيين تحقيقات جديدة، ونظريات حديثة، وهي تدل على جلالة علمه وذكائه الغريب»[١].

○ لماذا درس ابن تيمية المنطق:

وبعد أن عرفنا رأيه الصريح في المنطق، فإنه يتبادر إلى الأذهان سؤال وهو لماذا درس ابن تيمية المنطق إذن.

إن ابن تيمية رحمه الله إنما تعلم المنطق والفلسفة ليهدمها، وكان يقرؤها ويفهمها، وهو في غير محيطها، ولم ينغمر في غمارها، وشدد النكير على الغزالي في منهاجه، وأخذ يتتبع هفواته ويتقصى هناته.

---

(١) الندوة العالمية: ص ١٩١ـ١٩٢.

وقد درس ابن تيمية الفلسفة وعرفها، لأنه رآها داء قد أصاب فكر المسلمين، فجعل منهم المتكلمين والمتفلسفين، وأنها سرت إلى العقل الإسلامي فسيطرت على مساربه، ويرى أنه قبل أن يخوض في بيان العقيدة الإسلامية وموافقتها لصريح المعقول لا بد من إبعاد العناصر الفلسفية التي هي أخيلة وأوهام، كما يبعد عن الجسم الإنساني الأخلاط الضارة لتتم سلامته[1].

فهدفه إذن هدم الفلسفة وعلم المنطق من أسسه ودعائمه، من أجل تنقية العقيدة الإسلامية مما شاب جمالها الناصع من أخيلة وأوهام المتفلسفين، وإعادة الصفاء إلى هذه العقيدة بعيداً عن علوم اليونان التي لم تؤلف أو تكتب إلا ضمن إطار العقيدة الوثنية لليونانيين، ولذلك يقول رحمه الله:

«لما كان بيان مراد الرسول في هذه الأبواب لا يتم إلا بدفع المعارض العقلي، وامتناع تقديم ذلك على نصوص الأنبياء، بيَّنَّا في هذا الكتاب فساد القانون الفاسد الذي صدوا به الناس عن سبيل الله، وعن فهم مراد الرسول وتصديقه فيما أخبر به، إذا كان أي دليل أقيم على بيان مراد الرسول لا ينفع إذا قدر أن المعارض العقلي ناقضه، بل يصير ذلك قدحاً في الرسول، وقدحاً فيمن استدل بكلامه، وصار هذا بمنزلة المريض الذي تكون به أخلاط

(١) ابن تيمية، لأبي زهرة: ٢٣٦، ٢٣٩.

فاسدة تمنع انتفاعه بالغذاء، فلا ينفعه مع وجود هذه الأخلاط الفاسدة التي تفسد الغذاء، فكذلك القلب الذي اعتقد قيام الدليل العقلي القاطع على نفي الصفات أو بعضها، أو نفي عموم خلقه لكل شيء وأمره ونهيه، أو امتناع المعاد أو غير ذلك لا ينفعه الاستدلال عليه في ذلك بالكتاب والسُّنّة، إلا مع بيان فساد المعارض، وفساد المعارض قد يعلم جملة وتفصيلاً»[1].

○ هل كان ابن تيمية عدواً للعقل:

لم يكن ابن تيمية رحمه الله عدواً للعقل كما يحلو للبعض أن يصوره، وإنما كان عدواً للفلسفة التي ألهت فكر أرسطو وأفلاطون، وجعلت في فكرهما الحق فقط، وبررت على ألسنة المتفلسفين ذلك التناقض البين بين الفلسفة الأرسطية وبين الفلسفة الأفلاطونية وذلك بتلمس الوجوه التي ترفع هذا التناقض بينهما، وتزيل ما بينهما من خلاف تلمسه بداهة الفكر الأولى.

لقد جعل بعض الناس من مفهوم كلمة «العقل» ومفهوم كلمة «الفلسفة» شيئاً واحداً، أو جعلوا الفلسفة مرادفة لكلمة العقل، ولذلك جعلوا ممن يعادي الفلسفة مُعادياً للعقل، ولكن ابن تيمية وهو يسعى إلى الحق يؤمن بأن صريح العقل موافق لصحيح النقل، ويؤمن بأن هذه الفلسفة ليست ثمرة عقل صحيح

---

(١) موافقه صريح المعقول لصحيح المنقول: ١/ ٨ ـ ٩.

سليم، بل ثمرة عقل فيه لوثة من فساد، وعلة من مرض، يؤمن بأنها ثمرة عقل حاد عن الطريق الأقوم، فحاول استمداد الهدى من دوغة الضلال.

كيف يعادي ابن تيمية العقل وهو الذي أطلق العقل ودعى إلى تحريره من أسر التقليد، وعانى في سبيل ذلك وتعرض لمحن كثيرة مختلفة، وقد كان مؤمناً بأن فطرة العقل الصحيح موافقة للعقل الصحيح، على أن لا يحيف الفكر على أقداس الدين الحق، أو يضع قيماً للتدين والأخلاق غير ما جاء به رسول الله ﷺ، فهنا لا تكون حرية، بل عبودية لفلسفة ضال ملحد».

وكيف يتهم ابن تيمية بعداوته للعقل وما قامت دعوته إلا على أساس إطلاق العقل من ربقة التقليد، حتى يهتدي بأنوار الحقيقة العليا من كتاب الله تعالى وهدي رسوله ﷺ»[١].

○ **لماذا أكثر من التأليف في علوم العقيدة؟**

وفي الرد على هذا التساؤل ذكر لنا الحافظ أبو حفص البزار رحمه الله أنه وجه إليه مثل هذا السؤال فقال:

«ولقد أكثر، رضي الله عنه، التصنيف في الأصول فضلاً عن بقية العلوم، فسألته عن سبب ذلك، والتمست منه تأليف نص في

---

(١) مواقفه صريح المعقول صحيح المنقول مقدمة: ١/ ٤٩ـ ٥١ بتصرف.

الفقه يجمع اختياراته وترجيحاته، ليكون عمدة في الإفتاء فقال لي ما معناه:.

الفروع أمرها قريب، ومن قلد ـ المسلم ـ فيها أحد العلماء المقلَّدين، جاز له العمل بقوله، ما لم يتيقن خطأه، وأما الأصول: فإني رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء: كالمتفلسفة، والباطنية، والملاحدة، والقائلين بوحدة الوجود، والدهرية والقدرية، والنصيرية، والجهمية، والحُلولية، والمعطلة، والمجسمة، والمشبهة، والراوندية، والكلابية، والسليمية، وغيرهم من أهل البدع، قد تجاذبوا فيها بأزمة الضلال، وبان لي أن كثيراً منهم إنما قصد إبطال الشريعة المقدسة المحمدية، الظاهرة العلية على كل دين، وأن جمهورهم وقع الناس في التشكيك في أصول دينهم، ولهذا قلَّ أن سمعت أو رأيتُ معرضاً عن الكتاب والسُّنّة، مقبلاً على مقالاتهم إلا وقد تزندق أو صار على غير يقين في دينه واعتقاده.

فلما رأيت الأمر على ذلك بأن لي: أنه يجب على كل من يقدر على دفع شبههم وأباطيلهم، وقطع حجتهم وأضاليلهم، أن يبذل جهده ليكشف رذائلهم، ويزيف دلائلهم، ذباً عن الملة الحنيفية، والسُّنّة الصحيحة الجلية.

ولا والله ما رأيت فيهم أحداً ممن صنف في هذ الشأن، وادعى علو المقام، إلا وقد ساعد بمضمون كلامه في هدم قواعد دين الإسلام.

وسبب ذلك إعراضه عن الحق الواضح المبين، وعن ما جاءت به الرسل الكرام عن رب العالمين، واتباعه طرق الفلسفة في الاصطلاحات التي سموها بزعمهم: حِكَميّات، وعقليات، وإنما هي: جهالات، وضلالات، وكونه التزمها معرضاً عن غيرها أصلاً ورأساً، فغلبت عليه حتى غطت على عقله السليم، فتخبط حتى خبط فيها عشواً، ولم يفرق بين الحق والباطل، وإلا فالله أعظم لطفاً بعباده أن لا يجعل لهم عقلاً يقبل الحق ويثبته، ويُبطل الباطل وينفيه، لكن عَدَمَ التوفيق وغَلَبَةَ الهوى أوقع مَنْ أوقع في الضلال، وقد جعل الله تعالى العقل السليم من الشوائب ميزاناً يَزِنُ به العبد الواردات فيُفرقُ به بين ما هو من قبيل الحق، وما هو من قبيل الباطل ولم يبعث الله الرسل إلا إلى ذوي العقل، ولم يقع التكليف إلا مع وجوده، فكيف يقال: إنه مخالف لبعض ما جاءت به الرسل الكرام عن الله تعالى؟ هذا باطل قطعاً، يشهد له كل عقل سليم، لكن ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

قال الإمام الشيخ قدس الله روحه: فهذا ونحوه هو الذي أوجب أني صَرَفْتُ جُلَّ همي إلى الأصول، وألزمني أن أوردت مقالاتهم وأجبت عنها، بما أنعم الله تعالى به من الأجوبة النقلية والعقلية»[١].

(١) الأعلام العلية: ٣٣ـ٣٥.

○ جودة كلامه في أمور العقيدة:

وفي ذلك يقول الحافظ أبو حفص البزار رحمه الله:

«حدثني غير واحدٍ من العلماء الفضلاء النبلاء الممعنين بالخوض في أقاويل المتكلمين لإصابة الثواب، وتمييز القشر من اللُّباب:

أن كلاً منهم لم يزل حائراً في تجاذب أقوال الأصوليين ومعقولاتهم، وأنه لم يستقر في قلبه منها قولٌ، ولم يَبِنْ له من مضمونها حقًّ، بل رآها كلها موقعةً في الحيرة والتضليل، وجُلّها مُمعنٌ بتكلف الأدلة والتعليل، وأنه كان خائفاً على نفسه من الوقوع بسببها في التشكيك والتعطيل، حتى مَنَّ الله تعالى عليه بمطالعته مؤلفات هذا الإمام، أحمد بن تيمية شيخ الإسلام، وما أورده من النقليات والعقليات في هذا النظام، فما هو إلاّ أن وقف عليها وفهمها، فرآها موافقةً للعقل السليم وعلمها، حتى انجلى ما كان قد غشيه من أقوال المتكلمين من الكلام، وزال عنه ما خاف أن يقع فيه من الشك وظفر بالمرام.

ومن أراد اختبار صحة ما قلته فليقف بعين الإنصاف، العريّة عن الحسد والانحراف، إن شاء ـ على مختصراته في هذا الشأن، كشرح الأصبهانية ونحوها، وإن شاء على مطولاته كتلخيص التلبيس من تأسيس التقديس، والموافقة بين العقل والنقل، ومنهاج

الاستقامة والاعتدال، فإنه والله يظفر بالحق والبيان، ويستمسك بأوضح برهان أو يزن حينئذٍ في ذلك بأوضح ميزان.

وقد أبان بحمد الله تعالى، فيما ألف فيها لكل بصير، الحق من الباطل، وأعانه بتوفيقه حتى رد عليهم ـ أهل البدع والمذاهب والفرق ـ بدعهم وآراءهم، وخدعهم وأهواءهم، مع الدلائل العقلية بالطريقة العقلية، حتى يجيب عن كل شبهة من شبههم بعدة أجوبة جلية واضحة، يعقلها كل ذي عقل صحيح، ويشهد لصحتها كلُّ عاقل رجيح[1].

○ **بعض مؤلفاته في العقيدة:**

كتب ابن تيمية رحمه الله في العقيدة كثيراً من المصنفات، بل لعلها أغزر ما كتب مادة، وأكثرها فوائد، وقد ذكرت في قائمة مؤلفاته كثيراً من أسمائها التي وصلت إلينا، وفيما يلي أسماء أشهرها في هذا الباب:

١ ـ الإيمان.

٢ ـ الاستقامة.

٣ ـ اقتضاء الصراط المستقيم.

٤ ـ الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

٥ ـ شرح الأصبهانية.

---

(١) الأعلام العلية: ٣٣، ٣٥.

٦ ـ الرسالة الحموية.

٧ ـ الرسالة التدمرية.

٨ ـ الرسالة الواسطية.

٩ ـ رسالة الاحتجاج بالقضاء والقدر.

١٠ ـ قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة.

١١ ـ منهاج السُّنّة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية.

١٢ ـ رسالة مراتب الإرادة.

١٣ ـ الرسائل البعلبكية، والكيلانية، والبغدادية، والأزهرية.

١٤ ـ معارج الوصول.

١٥ ـ نقض المنطق.

١٦ ـ الرد على المنطقيين.

١٧ ـ موافقة صحيح المنقول صريح المعقول.

١٨ ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح/ في الرد على عقائد المسيحية وغيرها الكثير.

وقد اتسمت بعضها بمظهر الجدال العقلي، وبعضها الآخر جمع بين المناقشة المخصبة المنتجة، والعلم الصحيح العميق فهي مرجع في بابها، وحقائق علمية صادقة وعميقة، وجدل ومناظرة جيدة محكمة وعميقة.

○ **من أين نأخذ عقيدة ابن تيمية:**

وعن هذا التساؤل يجيب الباحث محمد السيد الجليند في كتابة الممتع (الإمام ابن تيمية وموقفه من التأويل) فيقول:

«والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: إذا أراد الباحث أن يعثر على رأي ابن تيمية وعقيدته التي يدين بها، فهل من الصواب في ذلك أن نبحث عنها خلال نقاشه للخصوم ببيان تهافت حججهم ومناقضتهم بعضهم بعضاً؛ أم الصواب أن نتلقاها عنه عما يعتقده ويدين به صراحة بلا لبس ولا التواء؟.

أرى أن من الأجدى، أن نتلقى رأي بن تيمية - في جميع المسائل التي تعرض لها. عنه ما صرح به، وليس من الصواب أن نذهب في متابعة لهؤلاء وهؤلاء، وندعي أن معارضته لهذا الرأي أو ذاك يدل على قبوله لنقيضه، كما ألزمه خصومه وهو لم يترك موقفاً تعرض له إلا أولى فيه برأيه صراحة مدعوماً بالأدلة العقلية الصريحة والنقلية الصحيحة.

وإذا كان هذا رأينا فابن تيمية قد وضع رسائل عدة في بيان العقيدة الصحيحة التي عليها سلف الأمة، كالعقيدة الواسطية، والحموية، وتعرض لها كذلك في مواطن عدة من كتبه الأخرى، كالفرقان بين الحق والباطل، ومذهب أهل السُّنّة، وعرش الرحمن وما ورد فيه من الآيات، وغير ذلك من كتبه»[1].

---

(١) الإمام ابن تيمية وموقفه من التأويل: ص ٤١١.

○ مجمل عقيدة ابن تيمية كما جاءت في مصنفاته:

وحين زيد الحديث عن عقيدة ابن تيمية رحمه الله تعالى فلا بد أن نستقيها من كلامه الصريح الجريء، لا أن نلتقط عبارة من هنا، وعبارة من هناك في أثناء دفعه ومناقشته للمذاهب الكلامية، ودحض حجج بعضها بالبعض الآخرين، ظانين إننا بذلك نلزمه بما لم يلزم به نفسه، وحين يجد البعض مثل هذه العبارات الموهمة يطير بها فرحاً، ويظن أنه بذلك نال بغيته التي يكرس جهوده كلها للوصول إليه وهي النيل من عقيدة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، والحكم عليه ظلماً وبهتاناً بالضلال والزيغ والكفر، فهل هذا هو الإنصاف والحيدة العلمية.

والعجيب أن هذا البعض إذا أخبرته وبينت له خطأ ما ذهب إليه، قال لك: إنه ولو لم يكن هو القائل، فإن مجرد نقله له يدل على أنه يعتقده، فهل هذا منطق سديد أم أنه ضرب من المماحكة على طريقة المثل القائل ـ عنزة ولو طارت ـ.

وسأسوق فيما يلي مجموعة من النصوص الصريحة الجريئة التي عبر عنها شيخ الإسلام بمنتهى الجرأة والصراحة المعروفة عنه، يوضح فيها ويبين عقيدته رحمه الله:

ـ أبرز شيخ الإسلام عقيدته وبينها أنها ثابتة لا تتغير ولا تتحول في هذه الأبيات الشعرية المعروفة ـ باللامية ـ حيث قال:

يا سائلي عَنْ مذهبي وعقيدتي
رُزِقَ الهدى مَنْ للهدايةِ يَسأَلُ
إِسْمَعْ كلامَ مُحَقِّقٍ في قولِهِ
لاَ يَنْثَنِي عَنْهُ ولا يَتَبَدَّلُ
حُبُّ الصحابةِ كُلِّهم لِيْ مَذْهَبٌ
ومَوَدَّةُ القربى بها أَتَوَسَّلُ
وأقول في القرآن ما جاءت به
آياته فهو القديم[1] المنزل
وأقول: قال الله جلّ جلاله
والمصطفى الهادي ولا أتأول
وجميع آيات الصفات أُمرُّها
حقاً كما نقل الطراز الأول
وأرد عهدتها إلى نُقَّالها
وأصونها عن كل ما يُتخيل
قبحاً لمن نبذ القرآن وراءه
وإذا استدل يقول: قال الأخطل
والمؤمنون يرون حقاً ربهم
وإلى السماء بغير كيف ينزل

(١) قال المعلق على القصيدة: لم أعثر فيما اطلعت عليه أن ابن الإمام ابن تيمية يعبر بالقديم» وإنما يعبر بأنه غير مخلوق إلا إذا كان من باب الأخبار كالشاهد هنا.

وأقـرُّ بـالـمـيـزان والـحـوض الـذي
أرجـو بـأنـي مـنـه ريـا أَنـهـل
وكـذا الـصـراط يُـمَـدُّ فـوق جـهـنـم
فـمـسـلَّـمٌ نـاجٍ وآخـر مـهـمـل
والـنـار يـصـلاهـا الـشـقـي بـحـكـمـةٍ
وكـذا الـتـقـي إلـى الـجـنـان سـيـدخـل
ولـكـل حـي عـاقـل فـي قـبـره
عـمـل يـقـارنـه هـنـاك ويُـسـأل
هـذا اعـتـقـاد الـشـافـعـي ومـالـك
وأبـي حـنـيـفـة ثـم أحـمـد يـنـقـل
فـإن اتـبـعـت سـبـيـلـهـم فـمـوفـق
وإن ابـتـدعـت فـمـا عـلـيـك مـعـول[1]

ومن ذلك ما قاله في العقيدة الواسطية:

«ومن الإيمان بالله، الإيمان بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل.. فاتفق السلف على أن الكيف غير معلوم.. وكذلك التمثيل منفي بالنص

---

(١) العقيدة السلفية: د. سعيد عبد العزيز الشبلي: ٢٩٨ـ ٣٠٠، وتعليقه عليها، جلاء العينين للآلوسي: ص ٥٨، وشرح الرسالة أحمد بن عبد الله المرداوي وطبعها في الرياض عام ١٣٥٨هـ.

والإجماع مع دلالة العقل على نفيه ونفي التكييف إذ كنه الباري غير معلوم للبشر»[1].

وما قاله في الفتوى الحموية:

«ثم القول الشامل في جميع هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه، أو بما وصفه به رسوله ﷺ، وبما وصفه به السابقون الأولون لا يتجاوز القرآن والحديث.

قال الإمام أحمد رضي الله عنه: «لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو بما وصفه به رسوله ﷺ لا يتجاوز القرآن والحديث».

ومذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، ونعلم أن ما وصف الله به من ذلك فهو حق ليس فيه لغز ولا أحاجي بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه، لا سيما إذا كان المتكلم اعلم الخلق بما يقول، وأفصح الخلق في بيان العلم، وأنصح الخلق في البيان والتعريف والدلالة والإرشاد.

وهو سبحانه مع ذلك ليس كمثله شيء لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته، ولا في أفعاله، فكما يتيقن أن الله سبحانه له ذات حقيقية، وله أفعال حقيقية، فكذلك له صفات

---

(١) مجموعة الرسائل الكبرى: ١/ ١٩٣ـ ١٩٤.

حقيقية، وهو ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وكل ما أوجب نقصاً أو حدوثاً فإن الله منزه عنه حقيقة، فإنه سبحانه مستحق للكمال الذي لا غاية فوقه، ويمتنع عليه الحدوث لامتناع العدم عليه، واستلزام الحدوث، سابقةُ العدم، ولافتقار المحدَث إلى محدث ولوجوب وجوده بنفسه سبحانه وتعالى.

ومذهب السلف بين التعطيل وبين التمثيل، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، فيعطلون أسمائه الحسنى وصفاته العلى، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويلحدون في أسماء الله وآياته»[1].

○ وفي حديثه عن استواء الله على عرشه قال رحمه الله:

«والقول الفاصل: هو ما عليه الأمة الوسط، من أن الله مستو على عرشه استواء يليق بجلاله ويختص به، فكما أنه موصوف بأنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه سميع بصير، ونحو ذلك ولا يجوز أن يثبت للعلم والقدرة خصائص الأعراض التي كعلم المخلوقين وقدرتهم، فكذلك هو سبحانه

---

(١) الفتوى الحموية: ص ٢٧٢.

فوق العرش ولا نثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق ولوازمها.

واعلم أن ليس في العقل الصريح، ولا في النقل الصحيح ما يوجب مخالفة الطريقة السلفية أصلاً، لكن هذا الموضع لا يتسع للجواب عن الشبهات الواردة على الحق، فمن كان في قلبه شبهة وأحب حلها فذلك سهل ويسير»(١).

○ **وفي حديثه عن علو الله على خلقه، قال رحمه الله:**

«ثم من توهم أن كون الله في السماء بمعنى أن السماء تحيط به وتحويه فهو كاذب ـ إن نقله عن غيره ـ وضال ـ إن اعتقده في ربه ـ وما سمعنا أحداً يفهمه من اللفظ، ولا رأينا أحداً نقله عن أحد، ولو سئل سائر المسلمين هل تفهمون من قول الله تعالى ورسوله: «إن الله في السماء» أن السماء تحويه، لبادر كل أحد منهم إلى أن يقول: هذا شيء لعله لم يخطر ببالنا»(٢).

وهناك الكثير من النصوص التي تكلم بها، وصرح بقوة وجرأةٍ عن عقيدته في جميع المسائل المطروحة، وبيَّن أنه يدور مع منهج الكتاب والسُّنّة وطريق السلف في فهم أمور العقيدة، لا يخرج عنها ولا يغيرها ولا يبدلها مع مرور الأزمان، وأما الذين

---

(١) الفتوى الحموية: ص ٢٧٥ـ ٢٧٦.

(٢) الفتوى الحموية: ص ٥٢٣ـ ٥٢٤، مجموع الفتاوى: ٥/١٠٦.

يريدون الخصومة فيدورون مع الكلام الموهم ابتغاءً الفتنة، وابتغاء تأويله، ورجاء الوصول إلى مآربهم في عدائهم لهذا الإمام وفكره رحمه الله.

○ دحض شبه وافتراءات موجهة إليه:

حيكت حول ابن تيمية رحمه الله الكثير من المؤامرات، ورماه أعداؤه بالكفر والإلحاد ووضعت الكثير من الكتب للنيل منه، ووجهت إليه اتهامات كاذبة، وافتراءات ظالمة كانت بالنسبة لحياة هذا الإمام الواضحة تشكل مجرد فقاعات سرعان ما تنفجر فلا تترك خلفها أثراً، لأن أصحابها ما أرادوا منها وجه الله تعالى، وإنما أرادوا إشباع رغباتهم وأهوائهم في النيل منه حتى ولو كان ما يقولونه كذباً محضاً، وزوراً وظلماً فرجل مثل ابن تيمية رحمه الله في صراحته وجرأته، وصدقه بما يراه حقاً، لن يسلم من الحاسدين والشانئين الذين رأوا أن مجدهم سرعان ما بدأ يتجه إلى أفول أمام حملات ابن تيمية في الكشف عن الزيف والخداع الذي كانوا يمارسونه، فاستحلوا ما حرم الله في توجيه الاتهامات الكاذبة لإلصاق تهمة الضلال والزيغ به، وما رؤي داءٌ كالحسد يفتك في دين المرء وإيمانه، وما عُلمَ كاتباع الهوى في الفتك بصدق الناس ومروءتهم، فلله الأمر من قبل ومن بعد.

وسأعرض فيما يلي لبعض هذه الاتهامات والافتراءات، ثم أُسلط عليها أقوال ابن تيمية وتصريحاته التي تكشف زيفها،

وتفضح عوارها، فتنقض عليها كالشهاب الثاقب، فتتركها أثراً بعد عين، أما مجموع هذه الاتهامات ونقضها فسيكون لي حديث مفصل عنها في بحث خاص خارج هذا الكتاب.

١ ـ اتهامه بأنه قال: إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا، ونزل درجة من درجات المنبر.

الرد: هذه من التهم الكاذبة التي ألصقت به زوراً وبهتاناً، ونقلها ابن بطوطة في رحلته المشهورة، هي تهمة تحمل في طياتها عوامل هدمها، ولكن قبل أن أبين عوامل هدمها من داخلها، أسوق كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في ذلك:

«والذي يجب القطع به أن الله ليس كمثله شيء في جميع ما يصف به نفسه، فمن وصفه بمثل صفات المخلوقين في شيء من الأشياء، فهو مخطىء قطعاً، كمن قال: إنه ينزل فيتحرك وينتقل كما الإنسان من السطح إلى أسفل الدار، وكقول من يقول: إنه يخلو منه العرش، فيكون نزوله تفريغاً لمكان وشغلاً لآخر، فهذا باطل يجب تنزيه الرب عنه»[١].

وقال رحمه الله:

«وكذلك إنَّ جعل صفات الله مثل صفات المخلوقين، واستواء الله كاستواء المخلوق، أو نزوله كنزول المخلوق، ونحو

(١) مجموع الفتاوى: ٥/ ٥٧٨.

ذلك، فهو مبتدع ضالٌّ»[١].

وقد رد علاَّمة الشام محمد بهجة البيطار هذه التهمة بقوله:

أن ابن بطوطة لم يسمع من ابن تيمية ولم يجتمع به، إذ وصل دمشق وكان الشيخ رحمه الله في سجنه بقلعة دمشق عام ٧٢٦هـ، ولبث فيه إلى وفاته رحمه الله، فكيف رآه وهو يخطب على منبر.

ثم إن رحلة ابن بطوطة مليئة بالروايات والحكايات الغربية كمثل قوله: وفي وسط المسجد (أي الأموي) قبر زكريا عليه السلام!!.

ثم إن ابن تيمية لم يكن يعظ الناس على منبر الجمعة كما زعم ابن بطوطة، وقد بيَّن الذهبي والبرزالي أن ابن تيمية كان مدرساً وواعظاً ولم يكن خطيباً، وكان يلقي الدرس جالساً على كرسي، ولم يصعد المنبر!! وكان خطيب المسجد الأموي عند دخول ابن بطوطة دمشق قاضي القضاة القزويني!!.

ثم إن الباحث لا يجد في جميع ما كتبه الإمام ابن تيمية في حدوث النزول إلا إثبات النزول على وجه يليق به تعالى، ولم يذكر مرة واحدة أن نزوله تعالى يشبه نزول أي أحد من خلقه[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى: ٥/ ٥٦٢.

(٢) حياة شيخ الإسلام: ص ٤٣ وما بعدها.

والأعجب أن بعض من تعودوا أن يدفعوا التهم عن أنفسهم أو مذاهبهم، يتقنون فن الجرح والتعديل خاصة إذا كان الكلام في حقهم، ويضعفون ويكذبون لأقل شبهة، لكنهم ينسون فن الجرح التعديل ويقبلون حتى الأكاذيب والافتراءات ويستهدون بها، ويجعلوها أساساً لاتهاماتهم مع علمهم اليقيني أنَّها محضُ كذب وافتراء، وأن من تكلموا بها ليسوا إلا مفترين فيما يقولون.

وبهذا نعلم أن هذه التهمة الموجهة لشيخ الإسلام ليست إلا فرية عارية عن الصحة تاريخاً، وعقلاً، ونقلاً كما سبق أن ذكرنا.

٢ - اتهامه بالقول بفناء النار:

الرد: قال شيخ الإسلام رحمه الله:

«.. وقد اتفق سلف الأُمة وأئمتها وسائر أهل السُّنّة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى بالكلية كالجنة والنار، والعرش وغير ذلك، ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلا طائفة من أهل الكلام والمبتدعين كالجهم بن صفوان، ومن وافقه من المعتزلة ونحوهم، وهذا قول يخالف كتاب الله، وسُنّة رسوله ﷺ، وإجماع سلف الأمة وأئمتها»(١).

(١) مجموع الفتاوى: ١٨/ ٣٠٧.

«... فقال الجهم بن صفوان: إن لمعلومات الله ومقدوراته غاية ونهاية، ولأفعاله آخر، وأن الجنة والنار تفنيان، ويفنى أهلهما، حتى يكون الله آخراً لا شيء معه، كما كان أولاً لا شيء معه.

وقال أهل الإسلام جميعاً: ليس للجنة والنار آخر، وأنهما لا تزالان باقيتين، وكذلك أهل الجنة لا يزالون في الجنة يتنعمون، وأهل النار في النار يعذبون، ليس لذلك آخر، ولا لمعلومات الله ومقدوراته غاية ولا نهاية»(١).

وفي ذكره لأقوال الناس في وجود ما لا يتناهى في الماضي والمستقبل، ذكر ما يلي:

«**أحدها**: امتناع وجود ما لا يتناهى في الماضي والمستقبل، وهذا قول أبي الهذيل والجهم بن صفوان، وعن هذا الأصل قال الجهم بفناء الجنة والنار، واشتد إنكار سلف الأمة عليه بذلك»(٢).

وقال رحمه الله في مجموع الفتاوى وقد سئل عن حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «سبعة لا تموت ولا تفنى ولا تذوق الفناء: النار وسكانها، واللوح، والقلم، والكرسي، والعرش» فهل هذا حديث صحيح أم لا؟.

فأجاب «هذا الخبر بهذا اللفظ ليس من كلام النبي ﷺ،

---

(١) درء تعارض العقل والنقل: ٢/ ٣٥٨، بيان تلبيس الجهمية: ١/ ١٥٧.

(٢) درء تعارض العقل والنقل: ٨/ ٣٤٥.

وإنما هو من كلام بعض العلماء، وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السُّنّة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى بالكلية، كالجنة والنار، والعرش وغير ذلك، ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلا طائفة من أهل الكلام المبتدعين، كالجهم بن صفوان ومن وافقه من المعتزلة ونحوهم، وهذا قول باطل يخالف كتاب الله، وسُنّة رسوله، وإجماع سلف الأمة وأئمتها، كما في ذلك من الدلالة على بقاء الجنة وأهلها، وبقاء غير ذلك مما لا تتسع هذه الورقة لذكره، وقد استدل طوائف من أهل الكلام والمتفلسفة على امتناع فناء جميع المخلوقات بأدلة عقلية، والله أعلم»[1].

إضافة إلى هذه النصوص الواضحة التي تكشف زيف هذه التهمة الباطلة، فإن شيخ الإسلام قد أفرد هذه المسألة بكتاب أسماه «الرد على من قال بفناء الجنة والنار» وقد حققه الدكتور محمد السمهري.

٣ ـ اتهامه بالقول بقدم العالم النوعي:

الرد: وهذه فرية أخرى مكشوفة فضحها شيخ الإسلام بأقواله الكثيرة التي يكفر بها القائلين بقدم العالم.

قال رحمه الله:

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٨/ ٣٠٧.

«فالذي جاء به القرآن والتوراة، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها مع أئمة أهل الكتاب: أن هذا العالم خلقه الله وأحدثه من مادة كانت مخلوقة قبله كما أخبر في القرآن أنه ﴿استوى إلى السماء وهي دخان﴾ أي بخار: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١] وقد كان قبل ذلك مخلوق غيره كالعرش والماء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧].

وهذا مذهب جماهير الفلاسفة الذين يقولون: إن هذا العالم مخلوق محدث، وله مادة متقدمة عليه، لكن حكي عن بعضهم أن تلك المادة المعنية قديمة أزلية، وهذا أيضاً باطل، كما قد بسط في غير هذا الموضع»[1].

وقال رحمه الله:

«فالذي يفهمه الناس من هذا الكلام أن كل ما سوى الله مخلوق، حادث، كائن، بعد أن لم يكن، وأن الله وحده هو القديم الأزلي، ليس معه شيء قديم تقدمه، بل كل ما سواه كائن بعد أن لم يكن، فهو المختص بالقدم، كما اختص بالخلق والإبداع، والإلهية والربوبية، وكل ما سواه محدث مخلوق مربوب عبد له، وهذا المعنى هو المعروف عن الأنبياء وأتباع الأنبياء من المسلمين

---

(١) درء تعارض العقل والنقل: ١/ ١٢٣.

واليهود والنصارى، وهو مذهب أشر الناس غير أهل الملل من الفلاسفة وغيرهم»[1].

وقال رحمه الله:

«... وهذا مما يستدل على أن كل ما سوى الله حادث كائن بعد أن لم يكن»[2].

وقال رحمه الله في رده على ابن عربي الذي يقول بقدم العالم:

«ولما كانت أحوال هؤلاء شيطانية كانوا مناقضين للرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم، كما يوجد في كلام صاحب «الفتوحات المكية» و «الفصوص» وأشباه ذلك يمدح الكفار مثل قوم نوح وهود وفرعون وغيرهم، وينتقص الأنبياء: كنوح وإبراهيم وموسى وهارون، ويذم شيوخ المسلمين المحمودين عند المسلمين: كالجنيد بن محمد، وسهل بن عبد الله التستري، ويمدح المذمومين عند المسلمين كالحلاج ونحوه، كما ذكره في تجلياته الخيالية الشيطانية، فإن الجنيد ـ قدس الله روحه ـ كان من أئمة الهدى، فسئل عن التوحيد فقال: «التوحيد إفراد الحدوث عن القدم، فبيَّن أن التوحيد أن تميز بين القديم والمحدث، وبين الخالق والمخلوق، وصاحب الفصوص أنكر هذا، وقال في

(١) المرجع السابق: ١/ ١٢٥.

(٢) مجموع الفتاوى: ٩/ ٢٨٠ـ ٢٨٢.

مخاطبته الخيالية الشيطانية له: يا جنيد! هل يميز بين المحدث والقديم إلا من يكون غيرهما؟ فخطأ الجنيد في قوله: «أفراد الحدوث عن القدم، لأن قوله هو! أن وجود المحدث هو عين وجود القديم»[1].

وممن برأه من هذه التهمة الإمام الألوسي في كتابه جلاء العينين حيث قال:

«ومن جملة ما يبرأ به الشيخ ابن تيمية عن القول بقدم العالم، سواء كان القدم بالذات أو النوع، أنه قد صرح بكفر ابن سينا وأضرابه لقولهم بقدم العالم»[2].

وها هو تلميذه النجيب ابن القيم يقول في نونيته:

والله كان وليس شيء غيره
سبحانه جل العظيم الشأنِ
لسنا نقول كما يقول الملحد الز
نديق صاحب منطق اليونان
بدوام هذا العالم المشهود وال
أرواح في أزلٍ وليس بفان

وبعد هذا كله يتبين لنا بطلان هذه الفرية وكذبها، وأن شيخ الإسلام بريء منها كما هو بريء من غيرها.

---

(١) مجموع الفتاوى: ١١/ ٢٣٩ـ ٢٤٠.

(٢) جلاء العينين: ص ٣٣٣.

٤ ـ اتهامه بالقول بالحد والمكان والجهة فالتحيز لله تعالى».

يقول رحمه الله تعالى:

«من توهم أن كون الله في السماء بمعنى أن السماء تحيط به وتحويه فهو كاذب ـ إن نقله عن غيره ـ وضال ـ إن اعتقده في ربه ـ وما سمعنا أحداً يفهمه من اللفظ، ولا رأينا أحداً نقله عن أحد، ولو سئل سائر المسلمين هل تفهمون من قول الله تعالى ورسوله «أن الله في السماء» أن السماء تحويه، لبادر كل أحد منهم إلى أن يقول: هذا شيء لم يخطر ببالنا، بل عند المسلمين أن الله في السماء كما نص القرآن والسُّنّة وهو على العرش واحد، إذ السماء إنما يراد به العلو، فالمعنى أن الله في العلو لا في السفل»(١).

وقال رحمه الله:

«إن لفظ التشبيه في كلام الناس لفظ مجمل فإن أريد بنفي التشبيه ما نفاه القرآن فهذا حق، وإن أريد بالتشبيه أنه لا يثبت لله شيء من الصفات فيلزم ألا يقال له: حي، عليم، قدير لأن العبد يسمى بهذه الأسماء، وكذلك في كلامه وسمعه وبصره ورؤيته وغير ذلك، ولا يقال حينئذٍ إن هذا تشبيه يجب نفيه»(٢).

ويدفع الإمام ابن تيمية رحمه الله شبة الجهة بقوله:

---

(١) الفتوى الحموية: ص ٥٢٣ـ ٥٢٤، مجموع الفتاوى: ٥/ ١٠٦.

(٢) منهاج السُّنّة: ٢/ ٨٠.

«قد يراد بالجهة شيء موجود وهو الأمر الوجودي غير الله فيكون مخلوقاً كما إذا أريد بالجهة نفس العرش أو نفس السموات.

وقد يراد به ما ليس بموجود وهو الأمر العدمي غير الله تعالى كما إذا أريد بالجهة ما فوق العالم.

ومعلوم أنه ليس في النص إثبات لفظ الجهة ولا نفيه كما فيه إثبات العلو والاستواء والفوقية والعروج إليه ونحو ذلك، وقد عُلِمَ أن ما ثَمَّ موجود إلا الخالق والمخلوق، والخالق سبحانه وتعالى مباين للمخلوق، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته.

فيقال لمن نفى: أتريد بالجهة أنها شيء مخلوق موجود؟ فالله ليس داخلاً في المخلوقات.

أم تريد بالجهة ما وراء العالم؟ فلا ريب أن الله فوق العالم.

وكذلك يقال لمن أثبت وقال إن الله في جهة: أتريد أن الله فوق العالم أو تريد به أن الله داخل في شيء من المخلوقات فإن أردت الأول فهو حق، وإن أردت الثاني فهو باطل...»(١).

وقال رحمه الله:

«وهكذا التحيز يحتمل معنيين:.

---

(١) العقيدة التدمرية: ص ٤٥، شرح حديث النزول: ص ٧١.

إن أريد به أن الله تحوزه المخلوقات فالله أعظم وأكبر، لأنه وسع كرسيه السموات والأرض، وإن أريد به أنه مباين للمخلوقات منفصل عنها ليس حالاً في شيء منها فهذا صحيح وهو قول السلف وأئمة السُّنّة حيث ذهبوا إلى أن الله فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه»[1].

هذا كلام واضح جلي ينفي هذه الشبهة والتهمة الباطلة ويدفعها، صَدَرَ من شيخ الإسلام ابن تيمية وهو كلام صريح لاغموض فيه، فالعلو ثابت لله تعالى، واللوازم باطلة، لأن علو الله سبحانه وتعالى وفوقيته ليست مثل فوقية الشر، حتى تستلزم الحيِّز الجهة، وأن القول بأن العلو يستلزم هذه المعاني إنما نشأ من قياس الخالق على المخلوق، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وليس معنى كون الله في السماء أن السماء تحتويه أو تحيط به، بل هو سبحانه فوق كل شيء ومحيط بكل شيء ووسع كرسيه السموات والأرض.

وسأسوق فيما يلي مناقشة لطيفة لهذه التهمة قدمها الدكتور عوض منصور حفظه الله حيث يقول:

هذه التهمة باطلة في حق الإمام ابن تيمية من وجوه:

١ ـ إن اصطلاحي المكان والجهة هما اصطلاحان بشريان لم يرد بهما كتاب ولا سُنّة فيما يتعلق بعلو الله سبحانه وتعالى

---

(١) التدمرية: ص ٤٤.

واستوائه على عرشه، فاصطلح أهل الكلام على أن (المكان) هو ما أحاطت به الجهات، وقالوا عنه (مخلوق) و (محدود) و (محصور)، ولا يمكن أن يكون الله في (مكان)، وكذلك قالوا بالنسبة إلى (الجهة والحد) شيئاً مشابهاً، فكل ما يتعين (بالجهة) فهو محدود، والمحدود مخلوق وهذا مستحيل في حقه سبحانه.

والرد على هذا الفهم هو: أن المخلوق يتحدد بالمكان والجهة، والمخلوق يحتاج لكي يكون موجوداً إلى مكان وجهة وجود، أما الله عزّ وجلّ، (فليس كمثله شيء) فلا يحتاج لوجوده مكاناً، إذ كان ولا مكان، ولكن لمَّا اقتضت إرادته سبحانه حدوث الكون، اقتضت أن يكون للكون مكان، وأن يكون في جهة السفل والتحت لكونه مربوباً ومخلوقاً، وأن يكون الله عزّ وجلّ فوق الكون باعتبار الكون لا باعتبار وحدانيته سبحانه، إذ لا توصف ذاته بفوق أو تحت، ولكن إذا نسبت إلى المخلوقات والكون المخلوق (من جهة المخلوق) لا من جهته سبحانه، فهو سبحانه فوق العرش فوق السماء السابعة، والكون تحته سبحانه، ولا يجوز إطلاق ما يطلق على المخلوق عليه سبحانه!!.

٢ ـ لقد نطق الصحابة والتابعون وتابعوهم وأئمة الإسلام الأعلام بعلو مكانه سبحانه تصريحاً، وابن تيمية واحد من هؤلاء الأعلام، ولم ينفرد بهذا الوصف وحده، وعلى سبيل المثال لا الحصر:

قول شيخ المفسرين الإمام الطبري في (جامع البيان م٣/ ج٣/ ص٩):

«وهو العلي على خلقه بارتفاع مكانه عن أماكن خلقه...».

وقال الإمام الدارمي في (النقض على بشر المريسي ١/ ٩٦):

«قد أينا له مكاناً واحداً، أعلى مكان، وأطهر مكان، وأشرف مكان، عرشه العظيم المقدس المجيد، فوق السماء السابعة العليا..».

وقال الإمام عبد القادر الجيلاني في كتابه (الغنية) عن مجموع الفتاوى (٥/ ٨٣ ـ ٨٤) «وهو تعالى بجهة العلو، مستو على العرش، محتو على الملك، محيط علمه بالأشياء».

وقال ابن رشد المالكي في (الكشف عن مناهج الأدلة) ص٦٦:

«وأما هذه الصفة (يعني القول بالجهة)، فلم يزل أهل الشريعة يثبتونها حتى نفتها المعتزلة ومتأخرو الأشاعرة.. فقد ظهر أن إثبات الجهة واجب شرعاً وعقلاً».

وقال الإمام القرطبي صاحب التفسير المشهور (٧/ ٢١٩):

«وقد كان السلف الأول، رضي الله عنهم، لا يقولون بنفي الجهة، ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى. كما نطق كتابه، وأخبرت رسله..) وسنجد أن سلف الأئمة، منذ

عهد النبي ﷺ وحتى أيامنا هذه مجمعون على إثبات الفوقية له سبحانه، والتحتية لمخلوقاته..»[(١)].

وأمر آخر يجب الانتباه إليه وهو أنه بالتحقيق والاستقراء لا يستطيع قائل أن يثبت أن الإمام ابن تيمية صرَّح بالجهة، وإنما يؤخذ عليه أن ذلك لازم لمذهبه، فهل لازم المذهب يعتبر مذهباً؟.

إن العلماء المحققين وتنبيهات السلفيين والخلفيين على أن لازم المذهب ليس بمذهب.

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: «ولازم المذهب ليس بمذهب، ولم يزل المذكور ـ يعني ابن تيمية ـ داعية إلى الإيمان بالله تعالى طول عمره»[(٢)].

ويقول العز بن عبد السلام في قواعده الكبرى مبيناً أن لازم المذهب ليس بمذهب: «فإن قيل: يلزم من الاختلاف في كونه سبحانه في جهة أن يكون حادثاً قلنا: لازم المذهب ليس بمذهب، لأن المجسمة جازمون بأنه في جهة وجازمون بأنه قديم أزلي ليس بمحدث، فلا يجوز أن ينسب إلى مذهب مَن يُصرِّح بخلافه وإن كان لازماً من قوله»[(٣)].

---

(١) الرحمن على العرش استوى: د. عوض منصور: ٣٠ـ ٣١.

(٢) الرد الوافر: ص ٢٨٣.

(٣) جلاء العينين للآلوسي: ٤٠٩.

والثابت أن الإمام ابن تيمية قال بالعلو والفوقية، وهذا ثابت بالنص، أما الفوقية فالثابت أنه فسرها بالأمر الوجودي وبالأمر العدمي، ثم أبطل تفسيرها بالمعنى الوجودي وهو الفوقية التي يراد بها شيء موجود غير الله فيكون مخلوقاً وقديراً وما ليس بموجود غير الله تعالى، وهو معناها العدمي كما إذا أراد ما فوق العالي، وقد عُلِمَ أن ما هناك موجود إلا الخالق والمخلوق، والخالق سبحانه مغاير للمخلوق، فإن أراد بالفوقية؛ أنها شيء مخلوق موجود، فالله تعالى ليس داخلاً في المخلوقات، وبهذا بطل المعنى الوجودي للفوقية»[1].

ومن هنا فالإمام ابن تيمية أثبت ما أثبته الشرع من أن الله تعالى في السماء وتعرج الملائكة إليه، وهو حين يثبت العلو والفوقية يثبت علواً لائقاً بذاته لا يشبه علو الخلائق، وكذلك الفوقية، وينفي المشابهة ويستدل بقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ويمنع قياس الغائب على الشاهد، وهو في هذا لم يخرج عما قاله السَلَف بل لم يخرج عما ورد في الكتب التي يطعنه بها الطاعنون مثل كتاب «إتحاف الكائنات ببيان مذهب السلف والخلف من المتشابهات» للعلاَّمة السبكي رحمه الله.

---

(١) العقيدة السلفية ص ٣٨٤ـ٣٨٥.

فالسبكي رحمه الله حين يسوق الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦] يقول: «نؤمن بها على المعنى الذي أراده الله سبحانه وتعالى مع كمال التنزيه عن صفات الحوادث والحلول»(١).

ثم يسوق مذهب الإمام السلفي ابن كثير الذي يسلك مذهب السلف الصالح كالإمام مالك والأوزاعي والليث بن سعد والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين من أن مذهبهم: إمرارها (أي آيات الصفات) كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل»(٢).

ثم يسوق مذهب الإمام نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري رحمهم الله: قال: «من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه.

فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة، والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى ونفى عن الله تعالى النقائض فقد سلك سبيل الهدى»(٣).

---

(١) إتحاف الكائنات للسبكي: ص ٥.
(٢) إتحاف الكائنات للسبكي ص ٦، تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٨٨.
(٣) إتحاف الكائنات: ص ٦.

والإمام ابن تيمية رحمه الله لم يخرج عما قاله الإمام أحمد بن حنبل حين قيل له: الله فوق السماء السابعة على عرشه بائن عن خلقه؟ قال: نعم هو على عرشه لا يخلو شيء من علمه.

فابن تيمية رحمه الله أثبت العلو والفوقية بناءً على ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ، وقد ذكرنا مجموعة من النصوص عن أئمة السلف وأكابر العلماء في ذلك.

فإن كان الإثبات يستلزم الجهة، وأنه لم يصرح به، ويمكن الإثبات بدون اللوازم، وكما هو معلوم أن لازم المذهب ليس بلازم، فقد أثبت الإمام أحمد بن حنبل الرؤية بدون لوازمها، وكذلك بعض الأشاعرة يثبتون الرؤية بدون لوازمها من الجهة والحيز والمكان، كما هو المفهوم من مذهبهم[1]، فلم لا يكون الأمر كذلك بالنسبة للإمام ابن تيمية في إثباته للعلو والفوقية بدون اللوازم من الجهة والحيز والمكان[2].

٥ ـ اتهامه بالقول بحلول الحوادث في الذات الإلهية:

إن الذي يطلع على ما كتبه الإمام ابن تيمية في سائر كتبه

---

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي: ص ١٧٣، مقالات الإسلاميين: ١/ ٢٦٥، مناهج الأدلة لابن رشد في المقدمة للدكتور محمود قاسم، الأصول الخمسة: ص ٢٣٢، نهاية الإقدام: ص ٣٥٦.

(٢) العقيدة السلفية: ٣٨٨ـ ٣٩١ بتصرف.

وبخاصة كتابه «درء تعارض العقل والنقل» يجده عندما يناقش أهل الكلام، لا يعطي جواباً لأية مسألة كلامية قبل أن يتبين ما هو المراد بمصطلحات وضعها الكلاميون، وما هو المقصود منها وما هي مدلولاتها (لأن هذه المصطلحات في رأيه ـ كالعرض والجوهر والحوادث وغيرها ـ لم تكن على عهد رسول الله ﷺ، ولم ينزل بها شرع محكم)، ومما قاله في ذلك:

«وإذا كانت هذه الألفاظ [أي المصطلحات الكلامية] مجملة ـ كما ذكر ـ فالمخاطب لهم إما أن يفصل ويقول: ما تريدون بهذه الألفاظ؟ فإن فسروها بالمعنى الذي يوافق القرآن قبلت، وإن فسروها بخلاف ذلك ردت».

ثم قال:

«وإما أن يمتنع عن موافقتهم في التكلم بهذه الألفاظ نفياً وإثباتاً، فإن امتنع عن التكلم بها معهم فقد ينسبونه إلى العجز والانقطاع، وإن تكلم بما معهم نسبوه إلى أنه أطلق تلك الألفاظ التي تحتمل حقاً وباطلاً، وأوهموا الجهال باصطلاحهم.. فما لم يثبت أن الرسول دعا الخلق إليه لم يكن على الناس إجابة من دعا إليه، ولا دعوة الناس إلى ذلك، ولو قُدّر أن ذلك المعنى حق».

وقال أيضاً:

«... وهذا لأن الناس لا يفصل بينهم النزاع إلا كتاب منزل من السماء (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله)، وإذا رُدوا

إلى عقولهم فلكل واحد منهم عقل»[1].

وطبقاً لقاعدته هذه التي وضعها لنفسه رحمه الله قال في رده على المتكلمين:

«فمن قال: ليس الرب تعالى محلاً للحوادث، نقول له: إن هذا لفظ مجمل لا يقبل على إطلاقه، بل يفسر ويفصل كالآتي:

فإن أُريد بهذا النفي المجمل أن الله تعالى ليس محلاً للحوادث، أي ليس داخل ذاته المقدسة شيء من المخلوقات المحدثة فهذا حق.

أو أريد بذلك نفي تجدد وحدوث صفات ذاته فهو أيضاً حق، لأن صفاته تعالى قديمة أزلية إذ هي صفات كمال، وفقدها عيب، ونقص لا يليق بالإله جل جلاله.

وإن أريد بهذا النفي المجمل ـ وهو مراد النفاة (لما وصف الله به نفسه ورسوله) نفي وإنكار ما وصف الله تعالى به نفسه، وما وصفه به رسوله ﷺ، فهو نفي مردود على قائله، لأن المؤمن لا يخطر بباله أن الله تعالى قد يصف نفسه أو يصفه أعلم الخلق بالله وهو الرسول ﷺ بكلام يكون ظاهر كفراً يجب تأويل ذلك، بل جميع ما وصف الله به نفسه، وما وصفه به رسوله ﷺ، صفات كمال، ظواهرها التي تليق بجلال الله تعالى تختلف عن الظواهر

---

(١) درء تعارض العقل والنقل: ١/ ٢٢٩.

المشاهدة عند المخلوق كما تختلف ذواته عن ذواتهم»[1].

وقال رحمه الله:

«فلما حدث هذا القول، وقالت به المعتزلة، وقالوا: لا تحل به الأعراض والحواث، وأرادوا بذلك أن لا تقوم به صفة كالعلم والقدرة، ولا فعلٌ كالخلق والاستواء (والإحياء والإماتة وسائر الأفعال) أنكر أئمة السلف ذلك عليهم كما هو متواتر معروف وهذا لازم لجميع الطوائف التي أنكرته»[2].

ولهذا قال الإمام البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١]، بأن حدثه لا يشبهُ حدث المخلوقين﴾ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١][3].

فليس كذاته ذات، وليس كصفاته صفات، وليس كأفعاله أفعال: استواءً ونزولاً الخ[4].

من كل هذا يتبين لنا أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بريء مما وجهه إليه خصومه وحساده من التهم والافتراءات،

---

(١) مجموع الفتاوى: ٦/ ٢٧٣.
(٢) درء تعارض العقل والنقل: ٤/ ٢٤.
(٣) فتح الباري: ١٣/ ٤٩٦.
(٤) الرحمن على العرش استوى: ٢٨ـ ٣٠.

وهذا الذي ذكرت بعض نماذج لهذه التهم وما أكثر ما يطلق الحساد من التهم، فما هذه التهم إلا كسحابة صيف سرعان ما تنقشع أمام أنوار الحقيقة الساطعة، ومن أجمل ما رُد به على التهم الموجهة لشيخ الإسلام رحمه الله ما قاله ابن فضل الله لعمري رحمه الله شعراً حيث قال:

ولم يكن مثله بعد الصحابة في
علم عظيم وزهد ما له خطرُ
يا عالماً بنقول الفقه أجمعِها
أعنك تُحفَظُ زلاتٍ كما ذكروا
كم من فتىً جاهلٍ غُرٍّ أَبنتَ له
رُشد المقالِ فزالَ الجَهلُ والغررُ
قالوا بأنك قد أخطأتَ واحدةً
وقد يكون فهلا منك تُغتفرُ
ومن يكون على التحقيق مجتهداً
له الثواب على الحالين لا الوزرُ
عليك في البحث أن تبدي غوامضه
وما عليك إذ لم تفهمِ البقرُ
قدَّمْت لله ما قدَّمت من عملٍ
وما عليك بهم ذَمّوك أو شكروا(١)

(١) الشهادة الزكية: ص ٦٧ـ٦٨.

○ **الخطأ في الاجتهاد في مسائل العقيدة:**

قد يظن البعض أنه لا يمكن وقوع الاجتهاد في مسائل العقيدة، وأن من أخطأ في مسألة من مسائل العقيدة فإنه لا يتصور أن يكون معذوراً أو مأجوراً، لأن حديث أجر المجتهد المخطىء لا ينطبق إلا على من اجتهد في مسائل الفقه العملية.

إن هذا التصور في الحقيقة ليس له سند شرعي وأنه لا فرق في العذر والأجر في كل مجتهد ممن هو معدود في العلماء اللذين اجتهدوا في مسائل الدين فأخطأوا قبل أن يظهر لهم الحق فيها، وقد أكد شيخ الإسلام عدم الفرق هذا في مواضع عدة:

- فقال رحمه الله في كلامه على اختلاف اجتهادات الصحابة في المسائل الشرعية:

«وتنازعوا في مسائل علمية اعتقادية، كسماع الميت صوت الحي، وتعذيب الميت ببكاء أهله، ورؤية محمد ﷺ ربه قبل الموت، مع بقاء الجماعة والألفة.

وهذه المسائل منها ما أحد القولين خطأٌ قطعاً، ومنها ما المصيب في نفس الأمر واحد عند الجمهور اتباع السلف والآخر مؤد لما وجب عليه بحسب قوة إدراكه»[1].

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٩/ ١٢٣.

ـ وقال في كلامه على الاجتهاد في المسائل الأصولية العلمية وغيرها ناقلاً مذاهب المختلفين فيها:

«والقول المحكي عن عبيد الله بن الحسن العنبري هذا معناه: أنه كان لا يؤثم المخطىء من المجتهدين من هذه الأمة لا في الأصول ولا في الفروع، وأنكر جمهور الطائفتين من أهل الكلام والرأي على عبيد الله هذا القول، وأما غير هؤلاء فيقول: هذا قول السلف وأئمة الفتوى كأبي حنيفة والشافعي، والثوري، وداود بن علي وغيرهم، لا يؤثمون مجتهداً مخطئاً في المسائل الأصولية ولا في الفروع، كما ذكر ذلك عنهم ابن حزم وغيره، ولهذا كان أبو حنيفة والشافعي وغيرهما يقبلون شهادة أهل الأهواء إلا الخطابية ويصححون الصلاة خلفهم.

والكافر لا تقبل شهادته على المسلمين ولا يصلى خلفه، وقالوا هذا هو القول المعروف عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الدين أنهم لا يكفرون ولا يفسقون ولا يؤثمون أحداً من المجتهدين المخطئين، لا في مسألة عملية ولا علمية، قالوا: والفرق بين مسائل الفروع والأصول إنما هو من أقوال أهل البدع من أهل الكلام والمعتزلة والجهمية ومن سلك سبيلهم، وانتقل هذا القول إلى أقوام تكلموا بذلك في أصول الفقه، ولم يعرفوا حقيقة هذا القول ولا غيره.

قالوا: والفرق بين ذلك في مسائل الأصول والفروع، كما

أنها محدثة في الإسلام لم يدل عليها كتاب ولا سُنّة ولا إجماع، بل ولا قالها أحد من السلف الأئمة»[1].

ـ ثم يؤكد شيخ الإسلام ما ذهب إليه بقوله:

«وهذا فصل الخطاب في هذا الباب، فالمجتهد المستدل من إمامٍ وحاكمٍ وعالمٍ وناظرٍ ومفتٍ وغير ذلك إذا اجتهد واستدل فاتقى الله ما استطاع كان هذا هو الذي كلفه الله إياه، وهو مطيع لله مستحق للثواب إذا اتقاه ما استطاع، ولا يعاقبه الله البتة خلافاً للجهمية المجبرة، وهو مصيب، بمعنى أنه مطيع لله، لكن قد يعلم الحق في نفس الأمر وقد لا يعلمه، خلافاً للقدرية والمعتزلة في قولهم: كل من استفرغ وُسْعَه علم الحق، فإن هذا باطل كما تقدم، بل كل من استفرغ وُسْعَه استحق الثواب»[2].

ـ ثم يضرب شيخ الإسلام الأمثلة والنماذج على قوله حيث ذكر رحمه الله:

«والخطأ المغفور في الاجتهاد هو في نوعي المسائل الخبرية والعلمية كما بسط في غير هذا الموضع، كمن اعتقد ثبوت شيء لدلالة آية أو حديث، وكان لذلك ما يعارضه ويبين المراد ولم يعرفه:

(١) مجموع الفتاوى: ١٩/ ٢٠٦ـ٢٠٧.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٩/ ٢١٦ـ٢١٧.

مثل من اعتقد أن الذبيح إسحاق لحديث اعتقد ثبوته.

«أو اعتقد أن الله لا يرى، لقوله: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ولقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، كما احتجت عائشة بهاتين الآيتين على انتفاء الرؤية في حق النبي ﷺ، وإنما يدلان بطريق العموم.

وكما نقل عن بعض التابعين أن الله لا يُرى، وفسروا قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۞ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] بأنها تنتظر ثواب ربها، كما نقل ذلك عن مجاهد وأبي صالح.

أو من اعتقد أن الميت لا يعذب ببكاء الحي، لاعتقاد أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨] يدل على ذلك، وأن ذلك يقدم على رواية الراوي لأن السمع يغلط، كما اعتقد ذلك طائفة من السلف والخلف.

«أو اعتقد أن الميت لا يسمع خطاب الحي، لاعتقاده أن قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠] يدل على ذلك.

أو اعتقد أن الله لا يعجب، كما اعتقد ذلك شريح، لاعتقاده، أن العجب إنما يكون من جهل السبب، والله منزه عن الجهل.

أو اعتقد أن علياً أفضل الصحابة لاعتقاده صحة حديث الطير، وأن النبي ﷺ قال: «اللهم إئتني بأحب الخلق إليك، يأكل معي من هذا الطائر».

أو اعتقد أن من جَّس للعدو وعلمهم بغزو النبي ﷺ فهو منافق، كما اعتقد ذلك عمر في حاطب وقال: دعني اضرب عنق هذا المنافق.

أو اعتقد أن من غضب لبعض المنافقين غضبة فهو منافق، كما اعتقد ذلك اسيد بن حضير في سعد بن عبادة، وقال: إنك منافق تجادل عن المنافقين.

أو اعتقد أن بعض الكلمات أو الآيات أنها ليست من القرآن، لأن ذلك لم يثبت عنده بالنقل الثابت، كما نقل عن غير واحد من السلف أنهم أنكروا ألفاظاً من القرآن، كإنكار بعضهم: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: ٢٣] وقال: إنما هي «ووصى ربك»، وأنكر بعضهم قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٨١]، وقال: إنما هو ميثاق بني إسرائيل، وكذلك هي في قراءة عبد الله، وإنكار بعضهم: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الرعد: ٣١] إنما هي: ﴿أو لم يتبين الذين آمنوا﴾، وكما أنكر عمر على هشام بن الحكم، لما رآه يقرأ سورة الفرقان على غير ما قرأها، كما أنكر طائفة من السلف على بعض القراء بحروف لم يعرفوها، حتى جمعهم عثمان على المصحف الجامع..»[(١)].

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٠/ ٣٣ـ٣٦.

○ نماذج من أحكامه على الفرق والمذاهب الموجودة في عصره:

اتسمت أحكام ابن تيمية رحمه الله على الأشخاص، والمذاهب والفرق، بالعدالة والإنصاف، والتجرد من الهوى، والموازنة بين الحسنات والسيئات، وصدور هذه الأحكام عن علم بأحوال من يتكلم فيهم، ثم التماس الأعذار للمخطئين منهم، ولكنه لا يبخل عليهم بما يجب عليه من القيام بالدعوة والإصلاح، ومما لا شك فيه أن هناك تباينٌ وتدرج كبير في الخطأ والانحراف عند الأمة، يبدأ من حافة الكفر ثم يتدرج درجات ليصل إلى درجات الخير والتقوى والصلاح.

وقد ذكرت في فصل أخلاق وسجايا في الحديث عن إنصافه وعدله مع خصومه كلاماً لا أحتاج إلى إعادته في هذا الموطن، ولكن سأذكر نصوصاً واضحة تشهد على عدالته في هذه الأحكام.

وقد وضع شيخ الإسلام رحمه الله ضابطاً في تكفير الفرق ـ بناءً عليه حكم على بعضها بالكفر وعلى بعضها بعدم الكفر، مع أن جميع الفرق قد يصدر عنها أقوال كفرية ـ وهو ارتباط الظاهر بالباطن ـ فمن عُلمَ من هذه الفرق أن باطن مذهبه الكفر، ومعاندة الرسول ﷺ حكم عليه بالكفر، ويعلم ذلك من معرفة مقصود مذهبهم.

وهذا يتبين من خلال أقوالهم، ومن سبب نشوء فرقتهم، فنجد أنه كفرَّ الفرق التي حقيقة مذهبها تعطيل الصانع، أو إبطال الاحتجاج بالشريعة أو إبطال التكاليف.

أما الفرق التي لا تكون كذلك، أخطأت في عقيدتها فلا تكفر.

- ولذلك فمن ضمن الفرق التي لا يكفرها الخوارج، والشيعة المفضلة، والمرجئة، والقدرية، والمعتزلة، والكلابية، والأشاعرة.

- ومن ضمن الفرق التي يكفرها: الفلاسفة، الجهمية، الباطنية، القدرية المكفرة، باطنية الشيعة، وباطنية الصوفية أصحاب وحدة الوجود، الإسماعيلية، والرافضة الإمامية الإثني عشرية، والنصيرية أهل الجبل[1].

ووفقاً لهذا الضابط الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه فإنه يرى أن الثنتين والسبعين فرقة لا تكفر، بل هي في جملة المسلمين، مع تضليلهم وتبديعهم، وأن الوعيد الوارد فيهم كالوعيد الوارد في أصحاب الكبائر:

---

(١) التفصيل في بيان هذا طويل وقد أحسن عرضه وذكر نصوص شيخ الإسلام في ذلك الدكتور عبد المجيد بن سالم بن عبد الله الشعبي حفظه الله وزاده علماً وفضلاً في كتابه الماتع (منهج ابن تيمية في مسألة التكفير) فقد عرض فيه المنهج والأدلة بطريقة جيدة فجزاه الله خيراً.

قال رحمه الله في كلامه على أهل البدع:

«وإن لم يكونوا في نفس الأمر كفاراً لم يكونوا منافقين، فيكونوا من المؤمنين، فيستغفر لهم، ويترحم عليهم، وإذا قال المؤمن: ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان يقصد كل من سبقه من قرون الأمة بالإيمان، وإن كان قد أخطأ في تأويل تأوله فخالف السُّنّة، أو أذنب ذنباً، فإنه من إخوانه الذين سبقوه بالإيمان، فيدخل في العموم، وإن كان من الثنتين والسبعين فرقة، فإنه ما من فرقة إلا وفيها خلق كثير ليسوا كفاراً، بل مؤمنون فيهم ضلالٌ وذنبٌ يستحقون به الوعيد كما يستحقه عصاة المؤمنين.

والنبي ﷺ لم يخرجهم من الإسلام، بل جعلهم من أمته، ولم يقل: إنهم يخلدون في النار، فهذا أصل عظيم ينبغي مراعاته»[1].

وفي كلامه عن الخوارج قال رحمه الله «.... ومع هذا فالصحابة ـ رضي الله عنهم ـ والتابعون لهم بإحسان لم يكفروهم ولا جعلوهم مرتدين، ولا اعتدوا عليهم بقول ولا فعل، بل اتقوا الله فيهم، وساروا فيهم السيرة العادلة.

وهكذا سائر فرق أهل البدع والأهواء من الشيعة والمعتزلة وغيرهم، فمن كفَّر الثنتين والسبعين فرقة كلهم فقد خالف الكتاب

(١) منهاج السُّنّة: ٥/ ٢٤٠ـ ٢٤١.

والسُّنّة وإجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان، مع أن حديث الثنتين والسبعين فرقة ليس في الصحيحين، وقد ضعفه ابن حزم وغيره، لكن حسنه غيره أو صححه كما صححه الحاكم وقد رواه أهل السنن وروي من طرق.

وليس قوله: «ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة» بأعظم من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، وقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٣٠]، وأمثال ذلك من النصوص الصريحة بدخول من فعل ذلك النار»[١].

وضمناً لاعتبار مقياس القرب من المنهج الصحيح ضمن الأمة المسلمة الواحدة يؤكد شيخ الإسلام اعتبار القرب إلى السُّنّة كميزان للحكم على الفرق فيقول رحمه الله في كلامه على الروافض:

«ومنهم ظهرت إمهات الزندقة والنفاق، كزندقة القرامطة الباطنية وأمثالهم، ولا ريب أنَّهم أبعد طوائف المبتدعة عن الكتاب والسُّنّة، ولهذا كانوا هم المشهورين عند العامة بالمخالفة للسُّنّة، فجمهور العامة لا تعرف ضد السني إلا الرافضي، فإذا قال أحدهم أنا سني فإنما معناه لست رافضياً.

---

(١) منهاج السُّنة: ٥/ ٢٤٧ـ٢٤٩.

ولا ريب أنهم شر من الخوارج، لكن الخوارج كان لهم في مبدأ الإسلام سيف على أهل الجماعة، وموالاتهم (أي الروافض) الكفار أعظم من سيوف الخوارج، فإن القرامطة والإسماعيلية ونحوهم من أهل المحاربة لأهل الجماعة، وهم منتسبون إليهم، وأما الخوارج فهم معروفون بالصدق، والروافض معروفون بالكذب، والخوارج مرقوا من الإسلام وهؤلاء نابذوا الإسلام.

وأما القدرية المحضة فهم خير من هؤلاء بكثير وأقرب إلى الكتاب والسُّنّة، لكن المعتزلة وغيرهم من القدرية هم جهمية أيضاً، وقد يكفرون من خالفهم ويستحلون دماء المسلمين فيقربون من أولئك.

وأما المرجئة فليسوا من هذه البدع المعطلة، بل قد دخل في قولهم طوائف من أهل الفقه والعبادة، وما كانوا يعدون إلا من أهل السُّنّة، حتى تغلظ أمرهم بما زادوه من الأقوال المغلظة.

ولما كان قد نسب إلى الإرجاء والتفضيل قوم مشاهير متبعون: تكلم أئمة السُّنّة المشاهير في ذم المرجئة المفضلة تنفيراً من مقالتهم، كقول سفيان الثوري: من قدم علياً على أبي بكر والشيخين فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار، وما أرى يصعد له إلى الله عمل مع ذلك، أو نحو هذا القول، قاله لما نسب إلى تقديم علي بعض أئمة الكوفيين.

وكذلك قول أيوب السختياني: من قدم علياً على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار قاله لما بلغه ذلك عن بعض أئمة الكوفيين، وقد روي أنه رجع عن ذلك.

وكذلك قول الثوري ومالك والشافعي وغيرهم في ذم المرجئة لما نسب إلى الإرجاء بعض المشهورين.

وكلام الإمام أحمد في هذا الباب جار على كلام من تقدم من أئمة الهدى، ليس له قول ابتدعه ولكنه أظهر السُّنّة وبيَّنها وذبَّ عنها وبين حال مخالفيها وجاهد عليها، وصبر على الأذى فيها لما أظهرت الأهواء والبدع، وقد قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فالصبر واليقين بهما تنال الإمامة في الدين، فلما قام بذلك قرنت باسمه من الإمامة في السُّنّة ما شهر به وصار متبوعاً لمن بعده، كما كان تابعاً لمن قبله»[١].

وقال رحمه الله:

«والنجاريّة والضرارية وغيرهم يقربون من جهم في مسائل القدر والإيمان مع مقاربتهم له أيضاً في نفي الصفات.

والكلابية والأشعرية خير من هؤلاء في باب الصفات، فإنهم يثبتون لله الصفات العقلية، وأئمتهم يثبتون الصفات الخبرية

---

(١) مجموع الفتاوى: ٣/ ٣٥٦ـ٣٥٧.

في الجملة، كما فصلت أقوالهم في غير هذا الموضع، وفي باب القدر ومسائل الأسماء والأحكام.

والكلابية هم أتباع أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب، الذي سلك الأشعري خطته.

وأصحاب ابن كلاب كالحارث المحاسبي، وأبي العباس القلانسي ونحوهما، خير من الأشعرية في هذا وهذا، فكلما كان الرجل إلى السلف أقرب كان قوله أعلى وأفضل»[١].

---

(١) مجموع الفتاوى: ٣/ ١٠٢ـ١٠٣.

الفصل الثالث عشر

«ابن تيمية والعلوم الأخرى»

وُصِفَ شيخ الإسلام رحمه الله بالتوسع في الاطلاع والمعرفة، وتحصيل أغلب ما عرف في عصره من الثقافات والعلوم المتنوعة، وقد ذكرنا سابقاً فصولاً من معرفته لعلوم الفقه وأصوله، والحديث، والتفسير، وعلوم العقيدة والكلام والمنطق، وإمامته في هذه العلوم، ولم تكن هذه العلوم فقط هي كل ما حصل، ولكنه كان واسع الاطلاع أيضاً على علوم أخرى مثل العربية، والتاريخ، وعلوم التربية والسلوك، وسأحاول أن أذكر طرفاً من هذا الاطلاع على هذه العلوم بشيء من الإجمال في هذا الفصل.

أ ـ ابن تيمية وعلوم العربية:

اعتنى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعلوم العربية، فهماً ودراية، لما تؤديه من عون في معرفة تفسير القرآن وبيان أحكامه، وقد أثنى عليه العلماء في هذا الباب ومن ذلك الثناء ما قاله:

الحافظ الذهبي رحمه الله:

«واتقن العربية أصولاً وفروعاً، وتعليلاً واختلافاً»[1].

وقال أيضاً: «وله يد طولى في معرفة العربية والصرف والنحو»[2].

وقال الحافظ البرزالي رحمه الله:

«ويدري جملة صالحة من اللغة، وعربيته قوية جداً»[3].

وقال ابن الوردي رحمه الله:

«وقرأ أياماً في العربية على ابن عبد القوي، ثم فهمها وأخذ يتأمل كتاب سيبويه حتى فهمه، وبرع في النحو»[4].

○ مدحه لكتاب سيبويه في النحو:

قرأ شيخ الإسلام رحمه الله تعالى كتاب سيبويه في النحو حتى فهمه، وأثنى عليه ثناءً حاراً حيث قال رحمه الله:

«وليس في العالم مثل كتابه وفي حكمة لسان العرب»[5].

---

(١) شذرات الذهب: ٦/ ٨١ـ ٨٢.

(٢) فوات الوفيات عن المنجد: ص ٦٢.

(٣) فوات الوفيات عن المنجد: ص ٦٢.

(٤) تاريخ ابن الوردي: ٢/ ٤٠٨.

(٥) نقض المنطق: ص ١٧٥.

○ **انتقاده على سيبويه:**

ورغم إعجابه الشديد بكتاب سيبويه في النحو، وثناءه عليه، إلا أن نظرة الثناء هذه لم تمنعه أن يكشف عما وقع فيه من لبس أو خطأ، وأن يوجه سهام النقد له لما يعتقد أنه أخطأ فيه، فقد كان لا تأخذه في الحق لومة لائم، وليس عنده مداهنة، وكان مادحه وذامُّه في الحق عنده سواء.

ولأجل نقده هذا نافره أبو حيان بعدما مدحه مدحاً شديداً، وقطعه بسببه، ثم عاد ذاماً له وصير ذلك ذنباً لا يغفر.

وأبيات أبي حيان قيل فيها: أنه لم يقل أبياتاً خير منها ولا أفحل»[1].

وقصة أبي حيان مع ابن تيمية رحمهما الله ذكرها الحافظ العلاَّمة ابن كثير رحمه الله حيث قال: «إن أبا حيان تكلَّم مع الشيخ تقي الدين ابن تيمية، في مسألة في النحو فقطعه ابن تيمية فيها، وألزمه الحُجَّة، فذكر أبو حيان كلام سيبويه، فقال ابن تيمية: يُفْشُر سيبويه: أَسيبويه نبي النحو، أرسله الله به حتى يكون معصوماً؟ سيبويه أخطأ في القرآن في ثمانين موضعاً، لا تفهمها أنت ولا هو»[2].

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٢.

(٢) الشهادة الزكية: ص ٣٢، الدرر الكامنة: ١/ ١٦٢ـ ١٦٣.

○ خصائص مذهبه في النحو والعربية:

وكما هو معروف من شخصية ابن تيمية رحمه الله، واستقلالية تفكيره، ولطول باعه في العلوم كان له منهجاً خاصاً يتَّبعه، فمن خصائص منهجه ومذهبه في علوم العربية ما يلي:

١ ـ التعليل والنقد للنصوص اللغوية.

٢ ـ توجيه معاني القرآن والنظر بدقة في المسائل الخلافية، مما يدفعه لتمحص آراء المتقدمين وتفهم كتبهم ونقدها، فما وجد فيها مما يخالف عرف القرآن ومعهوده نقده حتى لو صدر عمن أعجب به من النحاة.

○ استفادة ابن القيم رحمه الله من شيخه في العربية:

تفقه ابن القيم على شيخه ابن تيمية، وأخذ عنه جملة من العلوم، لا بد أن تكون العربية منها، ومن استقراء آثار ابن القيم نلمس ما يفيد أن الرجل قد استفاد من شيخه في جوانب متعددة من علوم العربية:

ومن المسائل التي صرح بأنه سأل شيخه ابن تيمية عنها، وأخذ برأيه وفضَّله على غيره:

ـ حديثه عن معنى الاستثناء في قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [البقرة: ١٥٠] قال ابن القيم رحمه الله:.

«وسمعت شيخ الإسلام يقول: ليس الاستثناء بمنقطع بل هو متصل على بابه، وإنما أوجب لهم أن يحكموا بانقطاعه حيث ظنوا أن الحجة ها هنا المراد بها الحجة الصحيحة الحق» وذكر نصوصاً بين فيها معنى الحجة وقال: «إذا كانت الحجة اسماً يحتج به من حق أو باطل صح استثناء حجة الظالمين من قوله: «لئلا يكون للناس عليكم حجة» وأبدى ابن القيم إعجابه بهذا التوضيح فقال: «وهذا في غاية التحقيق»(١).

- وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤] قال ابن القيم: «وعبر لي شيخنا عن هذا المعنى بعبارة وجيزة فقال: المعنى سبح ناطقاً باسم ربك متكلماً به، وكذا: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] المعنى: سبح ربك ذاكراً اسمه» وعقب على هذه الفائدة فقال: «وهذه الفائدة تساوي رحلة، لكن لمن يعرف قدرها»(٢).

ومن المسائل التي انتُفع بها حديث ابن تيمية عن معاني الأدوات والحروف، حيث ذكر في تفسير لام العاقبة، قال: «سمعت شيخنا أبا العباس بن تيمية يقول: «يستحيل دخول لام العاقبة في فعل الله، فإنها حيث وردت في الكلام فهي لجهل الفاعل لعاقبة فعله، كالتقاط آل فرعون لموسى، فإنهم لم يعلموا

(١) بدائع الفوائد: ٤/ ١٧٣.

(٢) البدائع: ١/ ٩١.

عاقبته، أو العجز عن دفع العاقبة نحو: لِدُوا للموتِ وابنوا للخراب.

ثم قال: فأما في فعل من لا يعزُبُ عنه مثقالُ ذرةٍ، ومن هو على كل شيء قدير، فلا تكون قط إلا لام كي وهي لام التعليل»[1].

○ **نماذج من آرائه في النحو:**

ومن آرائه الكثيرة في النحو وسائل العربية اخترت بعض هذه النماذج:

- قوله أنه لا يذكر في القرآن لفظ زائد إلا لمعنى زائد حيث قال رحمه الله:

- فليس في القرآن من هذا شيء، ولا يذكر فيه لفظاً زائداً لمعنى زائد، وإن كان ضمن ذلك التوكيد، وما يجيء من زيادة اللفظ في مثل قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقوله: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠]، وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣] وقوة اللفظ لقوة المعنى..)[2].

---

(١) ابن القيم وآراؤه النحوية: ص ٩٨ـ ١٠٠.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٦/ ٥٣٧.

وفي قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة: ٦] وقول البعض أن الباء زائدة قال رحمه الله: «وإذا قيل امسح برأسك ورجلك لم يقتض إيصال الماء إلى العضو، وهذا يبين أن الباء حرف لمعنى لا زائدة كما يظنه بعض الناس، وهذا خلاف قوله:

معاوي إننا بشر فاسجع

فلسنا بالجبال ولا الحديدا

فإن الباء هنا مؤكدة، لو حذفت لم يختل المعنى، والباء في آية الطهارة إذا حذفت اختل المعنى»[1].

- الاحتجاج بالحديث النبوي والقياس عليه:

قال رحمه الله في مسألة التوكيد اللفظي:

«قلت: هذا الكلام الذي ذكره بإعادة اللفظ وإن كان كلام العرب وغير العرب، فإن جميع الأمم يؤكدون، إما في الطلب، وإما في الخبر، بتكرار الكلام، ومنه قول النبي ﷺ: «والله! لأغزون قريشاً، ثم والله! لأغزون قريشاً، ثم والله! لأغزون قريشاً، ثم قال: إن شاء الله، ثم لم يغزوهم»[2].

(١) مجموع الفتاوى: ٢١/١٢٩.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٦/٥٣٧.

ـ حمل النص القرآني وغيره على الظاهر الذي يوافق المعنى:

يدعو شيخ الإسلام إلى حمل النص على الظاهر وهجر التكلف والتحمل اللذين يبعدان النص عما يجب أن يكون عليه، والظاهر عنده هو:

«وأما إن أراد بإجرائه على الظاهر الذي هو الظاهر في عرف سلف الأمة، لا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يلحد في أسماء الله تعالى، ولا يُقرأ القرآن والحديث بما يخالف تفسير سلف الأمة وأهل السنّة، بل يجري ذلك على ما اقتضته النصوص، وتطابق عليه دلائل الكتاب والسُّنّة، وأجمع عليه سلف الأمة، فهذا مصيب في ذلك وهو الحق»(١).

ولهذا رد على الذين يقولون بالتقديم والتأخير بأن هذا خلاف الأصل، لأن الأصل إقرار الكلام على نظمه وترتيبه لا تغير ترتيبه كما في تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية ٢ ـ ٤] هو: وجوه خاشعة عاملة يومئذٍ تصلى ناراً حامية، وعلى أن الظرف (يومئذٍ) يتعلق بـ «تصلى» و «خاشعة» صفة للوجوه، فيكون قد فصل بين الصفة والموصوف»(٢).

ومن المسائل النحوية التي كان له فيها قصب السبق:

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٨٠.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٦/ ٢١٧ـ٢١٨، الحكمة ١٤/ ١٧٤ـ١٧٥.

ـ أن الميم المشددة في اللهم: زيدت للتعظيم والتفخيم:

إن الميم هنا بمنزله الواو الدالة على الجمع فهي من مخرجها حيث قال ابن تيمية: «وجاءت الميم في مثل (اللهم) (إشعاراً) بجميع الأسماء، وذلك لأن حرف الشفة مما كان جامعاً للقوة من مبدأ مخارج الحروف إلى منتهاها بمنزلة الخاتم الآخر الذي حوى ما في المتقدم وزيادة كان جامعاً لقوى الحروف»[(١)].

ـ أن لو يجوز فيها أن تقع حرفاً مصدرياً:

أجاز شيخ الإسلام أن يُسبك من (لو) وما في حيزها مصدر مؤول، وهي مسألة لم يذكرها أكثر النحويين، وممن أجازها ابن مالك وأبو علي الفارسي والفراء والتبريزي وأبو البقاء العكبري، ولعل أكثر وقوعها حرفاً مصدرياً مقيد بكون (ود) أو (يود) عاملاً في المصدر المؤول منها ومما في حيزها»[(٢)].

○ ابن تيمية والشعر:

لم يعرف شيخ الإسلام كشاعر، لكنه قال الشعر وبرع فيه، ولم ينتهجه أسلوباً في كلامه، وأجوبته إلا إذا اضطر لذلك، ولم يعرف كنحوي لكنه ناقش النحويين وصاحبهم وأفحمهم وتفوق

---

(١) الحكمة: ١٤/ ١٩٣.

(٢) مجموع الفتاوى: ٤/ ٣٤٩، الحكمة: ١٤/ ١٩٧ـ ١٩٨.

عليهم، فهو كما قال فيه ابن دقيق العيد: «رأيت رجلاً سائر العلوم بين عينيه، يأخذ منها ما شاء، ويترك ما شاء».

○ قيمة شعره العلمية:

قال فيه الحافظ الذهبي رحمه الله:

«وله نظم قليل وسط»[1].

○ نماذج من استشهاده بالشعر:

كان شيخ الإسلام يكثر من الاستشهاد بالشعر في المناسبات المختلفة فمن ذلك: أنه كان يتمثل كثيراً بهذا البيت:

أنـا الـمُـكَـدَّى وبـن الـمُـكَـدَّى
وهـكـذا كـان أبـي وجـدي[2]

ومن ذلك أنه كان كثيراً ما ينشد:

تـمـوت الـنـفـوس بـأوصـابـهـا
ولـم تـشـك عـوادهـا مـا بـهـا
ومـا أنـصـفـت مـهـجـةٌ تـشـتـكـي
هـواهـا إلـى غـيـرِ أحـبـابـهـا[3]

وكان يتمثل أيضاً بقول الشاعر:

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٦.
(٢) مدارج السالكين: ٧/ ٢٢.
(٣) الوافي بالوفيات: ١/ ٥٢٤.

وأخرج من بين البيوتِ لَعَلَّني
أُحدِّثُ عنكِ النَّفْسَ في السِّرِّ خالياً[1]

وكان يتمثل بقول الشاعر:

مَنْ لي بِمثلِ سَيْرِكِ المُدَلَّلِ
تَمشي رُوَيْداً وتَجي في الأوَّلِ[2]

○ **نماذج من نظمه الشعر:**

ذكرت في طيات الفصول السابقة نماذج من نظمه للشعر، وذلك في رده على سؤال حول القدر، ومنظومة حول عقيدته، ومنظومة في التضرع والابتهال إلى الله تعالى، وسأذكر هنا نموذجين آخرين:

- أبيات منظومة في باب الفقه: «أيها أفضل الحج نافلة أم الصدقة..»، فقد سئل شيخ الإسلام:

ماذا يقولُ أهلُ العلمِ في رَجُلِ
آتاهُ ذو العرشِ مالاً حَجَّ واعتَمَرا
فَهزَّه الشَّوقُ نَحوَ المُصطفى طَرَبا
الحجُ أَفضلُ أم إيثارُهُ الفقرا
أَم حَجَّةٌ عَنْ أَبيهِ ذاكَ أَفضلُ أَم
مَاذا الذي يا سَادَتي ظَهَرا

(١) الرد الوافر: ص ٦٩.

(٢) الرد الوافر: ص ٨٥.

فَـأَفـتُـوا مُـحِـبّاً لَـكُـمْ قَـدْ رَامَ فِـدْيَـتـكُـمْ
وَذِكْــرُكُــمْ دأَبُــهُ إنْ غَــابَ أو حَــضَــرا

فأجاب نظماً:

نَـقُـولُ فـيـهِ: بـأن الـحَـجَّ أَفْـضَـلُ مِـنْ
فِـعْـلِ الـتَّـصَـدُّقِ والإعـطـاءِ لـلـفُـقَـرا
والـحـجُّ عَـنْ وَالِـديْـهِ فـيـهِ بِـرّهُـمَـا
والأمُ أَســبقُ فــي الــبرِّ الــذي ذُكِــرا
لـكـنْ إذا الـغـرضُ خُـصَّ الأَبُّ كـانَ إذاً
هـو الـمُـقَـدَّمُ فـيـمـا يَـمـنـعُ الـضَـرَا
كـمـا إذا كـانَ مُـحـتـاجـاً إلـى صِـلَـةٍ
وأُمُّـهُ قَـدْ كَـفَـاهَـا مَـنْ بَـرَى الـبَـشَـرا
هــذا جــوابُــكَ يــا هــذا مُــوَازَنَــةً
وَلـيـسَ مُـفِـتـيـكَ مَـعْـدوداً مـن الـشُـعـرا(١)

ـ وله نظم في قوله ﷺ: ثلاث منجيات وثلاث مهلكات، حيث قال رحمه الله:

عَـلَـيْـكَ بِـخـوفِ الـلَّـهِ فـي الـسِّـرِّ والـجـهـرِ
وبـالـقـصـدِ لـلإنـفـاقِ فـي الـعُـسْـرِ والـيُـسْـرِ
وبـالـعَـدْلِ إنْ تـغـضَـبْ وإن تَـكُ راضـيـاً
فـهُـنَّ ثـلاثٌ مـنـجـيـاتٌ مِـنَ الـشَـرِّ

---

(١) الصحيح من النظم الفصيح: ص ٥٤ ـ ٥٥.

وإِيَّـاكَ والـشُّـحَّ الـمـطـاعَ ولا تَـكُـنْ
بِـمُـتَّـبِعِ الأَهـواءِ فَـتَـرجِـعُ بـالـخُـسـرِ
وعَـدِّ عـن الإِعـجـابِ بـالـنَّـفـسِ إنَّ
خِتامُ الثلاثِ المُهلِكَاتِ لَدَى الحَشْرِ[1]

ب ـ علمه بالتاريخ والسير:

إن التاريخ لم يكن من اختصاص ابن تيمية، ولم يتوفر على دراسته كتوفره على درسة العلوم الدينية، ولكن الحافظ الذهبي رحمه الله الذي كان من مؤرخي الإسلام المتبصرين في التاريخ والناقدين له يتحدث عن معرفته بالتاريخ فيقول:

«وأما معرفته بالتاريخ والسير فعجب عجيب»[2].

وقد نقل تلميذه النابغة ابن قيم الجوزية حادثاً مدهشاً عن علمه بالتاريخ وسعة نظره وحضور ذهنه في كتابه «زاد المعاد» أنه قال:

«ولما كان في بعض الدول التي خفيت فيها السُّنّة وأعلامها، أظهر طائفة منهم ـ يعني من اليهود ـ كتاباً قد عَتَّقُوهُ وزوَّرُوهُ، وفيه: أن النبي ﷺ أسقط عن يهود خيبر الجزية، وفيه:

(١) تذكير النبيه في أيام المنصور وبنيه لابن حبيب (٢/ ١٨٧)، الصحيح من النظم الفصيح: ٧٠ـ ٧١.

(٢) العقود الدرية: ص ٢٣.

شهادة علي بن أبي طالب، وسعد بن معاذ، وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم، فراج ذلك على مَنْ جَهِلَ سُنَّةَ رسول الله ﷺ ومغازيه وسِيَره، وتوهمُّوا، بل ظنوا صِحته، فَجَروا على حُكم هذا الكتاب المزود، حتى أُلقي إلى شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ وطلِبَ منه أن يُعين على تنفيذه، والعملِ عليه، فبصق عليه، واستدلّ على كذبه بعشرة أوجه:

منها: أن فيه شهادةَ سعد بن معاذ، وسعد توفي قبل خيبر قطعاً.

ومنها: أن في الكتاب، أنه أسقط عنهم الجزية، والجزية لم تكن نزلت بعد، ولا يعرفها الصحابة حينئذٍ، فإن نزولها كان عام تبوك بعد خيبر بثلاثة أعوام.

ومنها: أنه أسقط عنهم الكُلَفَ والسُّخَرَ، وهذا محال، فلم يكن في زمانه كُلَفٌ ولا سُخَرٌ تُؤخذ منهم، ولا من غيرهم، وقد أعاذه الله، وأعاذ أصحابه من أخذ الكْلَف والسُّخَر، وإنما هي من وضع الملوك الظَّلمة، واستمر الأمر عليها.

ومنها: أن هذا الكتاب لم يذكره أحد من أهل العلم على اختلاف أصنافهم، فلم يذكره أحدٌ من أهل المغازي والسير، ولا أحدٌ من أهل الحديث والسُّنّة، ولا أحد من أهل الفقه والإفتاء، ولا أحدٌ من أهل التفسير، ولا أظهروه في زمان السلف، لعلمهم

أنهم إن زوَّروا مثل ذلك، عرفوا كذبه وبُطلانه، فلما استخفُّوا بعض الدول في وقت فتنةٍ وخفاء بعض السُّنّة، زوَّروا ذلك، وعتَّقوه وأَظهروه، وساعدهم على ذلك طمعُ بعضِ الخائنين لله ولرسوله، ولم يستمرَّ لهم ذلك حتى كشف الله أمره، وبيَّن خلفاءُ الرسل بطلانه وكذبَه»[1].

جـ - ابن تيمية وعلم السلوك والتربية:

كان ابن تيمية رحمه الله أحد فرسان الوعظ والإرشاد، وأحد السباقين في ميدان التربية والسلوك والتزكية، فهو عالم متبحر في خفايا النفس وشؤونها، ومراميها وخباياها، وأمراضها وعللها.

وهو طبيب معالج يضع الدواء المناسب للداء المناسب، ويصف البلسم الشافي للمرض العضال، ويحذر من الأمراض قبل الوقوع بها، وينبه إلى ضرورة الوقاية وأخذ الحيطة والحذر قبل التردي في مهاوي الهلكة والفساد.

ويعرض ابن تيمية رحمه الله هذه الأمور بأسلوب جميل أخاذ، مستعيناً بالبراهين الدامغة، والحجج القوية، والأدلة المقنعة معتمداً في أسلوب عرضه على الاستشهاد بالآيات القرآنية،

(١) زاد المعاد: ٣/ ١٥٣، ابن تيمية للندوي: ١٢٢-١٢٣.

والأحاديث النبوية الواردة في الموضوع، مكثراً منها وشارحاً لبعضها، وذاكراً لأقوال السلف الصالح في مواضعها لزيادة وضوح الفكرة وجلائها، ومعلقاً على أفكار الموضوع ومركزاً على ما ترمي إليه الفكرة مع المناقشة والبيان والتوضيح والشرح، ومسلطاً سيف النقد على أهل البدع والضلال، وراداً على أفكارهم ومعتقداتهم، ولا يترك فرصة تنال منهم، وتبين زيف دعواهم إلا ناقشها وبين القول الفصل فيها.

○ مختارات من آرائه التربوية والمسلكية:

والذي يستعرض تراث شيخ الإسلام رحمه الله سيجد له آراء كثيرة في التربية، وتهذيب النفس وتزكيتها، وعلاج علل القلوب ومعرفة أسبابها، مما يضعه في مصاف كبار المربين، ولمن يحب أن يتعرف على المزيد من آرائه التربوية فليراجع كتبه التي جمعها في هذا الباب مثل التحفة العراقية، أمراض القلوب وشفاؤها، الاستقامة، والرسائل التي عالج فيها كثيراً من هذه الموضوعات والموجودة ضمن المجلد العاشر من مجموع الفتاوى، وجامع الرسائل والمسائل ففيها الكثير الكثير الذي يلغي الصورة المرسومة في أذهان البعض عن شدته في آراءه، وسيجد فيها ثروة كبيرة في هذا الباب، ومن تلك الأراء التربوية والمسلكية تسوق هذه النماذج.

١ ـ القلب هو الأصل:

«القلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى لك إلى البدن بالضرورة، لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب.

وقال أبو هريرة: القلب ملك، والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده.

وقول أبي هريرة تقريب، وقول النبي ﷺ أحسن بياناً، فإن الملك وإن كان صالحاً فالجند لهم اختيار قد يعصون ملكهم وبالعكس، فيكون فيهم صلاح مع فساده، أو فساد مع صلاحه، بخلاف القلب فإن الجسد تابع له لا يخرج عن إرادته قط كما قال النبي ﷺ: «إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد».

فإذا كان القلب صالحاً بما فيه من الإيمان علماً وعملاً قلبياً، لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق، كما قال أئمة الحديث: قول وعمل، قول باطن وظاهر، وعمل باطن وظاهر، والظاهر تابع للباطن لازم له، متى صلح الباطن صلح الظاهر، وإذا فسد فسد، لهذا قال من قال من

الصحابة عن المصلي العابث لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه.

فلا بد في إيمان القلب من حب الله ورسوله وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما[1].

٢ ـ المحبة وعوامل صلاح القلب:

«القلب لا يصلح، ولا يفلح، ولا يلتذ، ولا يسر، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن إلا بعبادة ربه، وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه، ومن حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له، لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله... ولو سعى في هذا المطلوب ولم يكن مستعيناً بالله، متوكلاً عليه، مفتقراً إليه في حصوله لم يحصل له، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فهو مفتقر إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود، ومن حيث هو المسؤول المستعان به المتوكل عليه، فهو إلهُهُ لا إلهَ لَهُ غيره، وهو ربه لا رب له سواه»[2].

---

(١) مجموع الفتاوى: ٧/ ١٨٦ـ١٨٧.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٠/ ١٩٤ـ١٩٥.

٣ ـ ينبوع الخير وأصله:

«ينبوع الخير وأصله إخلاص العبد لربه عبادة واستعانة، كما في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وفي قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وفي قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] وفي قوله: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ١٧] بحيث يقطع العبد تعلق قلبه من المخلوقين انتفاعاً بهم، أو عملاً لأجلهم، ويجعل همته ربه تعالى، وذلك بملازمة الدعاء له في كل مطلوب من فاقة وحاجة ومخافة وغير ذلك، والعلم له بكل محبوب، ومن أحكم هذا فلا يمكن أن يوصف ما يعقبه ذلك»[١].

٤ ـ مفهوم التقوى:

«التقوى أن يعمل الرجل بطاعة الله، على نور من الله، يرجو رحمة الله، وأن يترك معصية الله على نور من الله، يخاف عذاب الله.

ولا يتقرب إلى الله إلا بأداء فرائضه، ثم بأداء نوافله قال تعالى: «وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه» كما جاء في الحديث الصحيح الإلهي الذي رواه البخاري)[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٠/ ٦٥٩ـ٦٦٠.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٠/ ٤٣٣.

«والتقوى: هي الاحتماء عما يضر بفعل ما ينفع، فإن الاحتماء عن الضار يستلزم استعمال النافع، وأما استعمال النافع فقد يكون معه أيضاً استعمال الضار، فلا يكون صاحبه من المتقين.

وأما ترك استعمال النافع والضارّ ـ وهذا لا يكون ـ فإن العبد إذا عجز عن تناول الغذاء كان متغذياً بما معه من المواد التي تصبِّرهُ حتى يهلك، ولهذا كانت العاقبة للتقوى والمتقين، لأنهم المحتمون عما يضرهم، فعاقبتهم الإسلام والكرامة، وإن وجدوا ألماً في ابتداء متناول الدواء والاحتماء كفيل الأعمال الصالحة والمكروهة، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ولا بد لكل مؤمن في أحواله من ثلاثة أشياء: أمر يمتثله، ونهي يجتنبه، وقدرٌ يرضى به، فأقل حالة لا يخلو المؤمن فيها من أحد هذه الأشياء الثلاثة، فينبغي له أن يلزم بها قلبه، ويحدث بها نفسه، ويأخذ بها الجوارح في كل أحواله»(١).

٥ ـ حلاوة الإيمان:

«فالإيمان إذا باشر القلب وخالطته بشاشته لا يسخطه القلب، بل يحبه ويرضاه، فإن له من الحلاوة في القلب واللذة والسرور والبهجة ما لا يمكن التعبير عنه لمن لم يذقه، والناس

---

(١) مكارم الأخلاق: ٤٣ـ ٤٤.

متفاوتون في ذوقه، والفرح والسرور الذي في القلب له من البشاشة ما هو بحسبه وإذا خالطت القلب لم يسخطه، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ [الرعد: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤] فأخبر سبحانه أنهم يستبشرون بما أنزل من القرآن، والاستبشار هو الفرح والسرور، وذلك لما يجدونه في قلوبهم من الحلاوة واللذة والبهجة بما أنزل الله.

واللذة أبداً تتبع المحبة، فمن أحب شيئاً ونال ما أحبه وجد اللذة به، فالذوق هو إدراك المحبوب، واللذة الظاهرة كالآكل مثلاً: حال الإنسان فيها أنها يشتهي الطعام ويحبه، ثم يذوقه ويتناوله فيجد حينئذٍ لذته وحلاوته، وكذلك النكاح وأمثال ذلك.

وليس للخلق محبة أعظم ولا أكمل ولا أتم من محبة المؤمنين لربهم، وليس في الوجود ما يستحق أن يحب لذاته من كل وجه إلا الله تعالى، وكل ما يحب سواه فمحبته تبع لمحبه، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ إنما يُحب لأجل الله، ويُطاع لأجل الله، ويُتبع لأجل الله»[1].

(١) مجموع الفتاوى: ١٠/ ٦٤٨ـ٦٤٩.

٦ ـ الافتقار إلى الله:

«العبد مفتقر دائماً إلى التوكل على الله والاستعانة به، كما هو مفتقر إلى عبادته فلا بد أن يشهد دائماً فقره إلى الله، وحاجته في أن يكون معبوداً له، وأن يكون معيناً له، فلا حول ولا قوة إلا بالله، ولا ملجأ من الله إلا إليه»[(١)].

«العبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له، كان أقرب إليه وأعز له، وأعظم لقدره، فأعظم الخلق أعظمهم عبودية لله.

وأما المخلوق فكما قيل: احتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره..

فأعظم ما يكون العبد قدراً، وحرمة عند الخلق إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم، كنت أعظم ما يكون عندهم، ومتى احتجت إليهم ـ ولو في شربة ماء ـ نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم، وهذا من حكمة الله ورحمته، ليكون الدين كله لله، ولا يشرك به.

ولهذا قال حاتم الأصم: لما سئل: فيم السلامة من الناس؟ قال: أن يكون شيئك لهم مبذولاً، وتكون من شيئهم آيساً»[(٢)].

---

(١) مجموع الفتاوى: ١/ ٥٦.

(٢) مجموع الفتاوى: ١/ ٣٩.

٧ ـ أنفع شيء للعامة والخاصة:

«فأنفع ما للخاصة والعامة: العلم بما يُخلِّصُ النفوس من هذه الورطات، وهو إتباعُ السيئات الحسنات، والحسنات ما ندب الله إليه على لسان خاتم النبيين: من الأعمال، والأخلاق، والصفات، ومما يزيل موجب الذنوب: المصائب المكفرة، وهي كل ما يؤلم من: هم، أو حزن، أو أذى، في مالٍ، أو عرض، أو جسد، أو غير ذلك، لكن ليس هذا من فعل العبد»(١).

٨ ـ جماع الخلق الحسن مع الناس:

«وجماع الخلق الحسن مع الناس: أن تصل من قطعك بالسلام، والإكرام، والدعاء له، والاستغفار، والثناء عليه، والزيارة له، وتعطي من حرمك من: التعليم، والمنفعة، والمال، وتعفو عمن ظلمك: في دم، أو مال، أو عرض، وبعض هذا واجب، وبعضه مستحب.

وأما الخلق العظيم الذي وصف به محمداً ﷺ ـ فهو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقاً، هكذا قال مجاهد وغيره، وهو تأويل القرآن، كما قالت عائشة رضي الله عنها ـ: (كان خلقه القرآن)، وحقيقته المبادرة إلى امتثال ما يحبه الله تعالى ـ بطيب نفس وانشراح صدر)(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٠/ ٦٥٧.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٠/ ٦٥٨.

٩ ـ الصبر الجميل:

«والصبر الجميل صبر بلا شكوى، قال يعقوب عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] مع قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] فالشكوى إلى الله لا تنافي الصبر الجميل، ويروى عن موسى عليه الصلاة والسلام أنه كان يقول: «اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث وعليك التكلان» ومن دعاء النبي ﷺ: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، اللهم إلى من تكلني؛ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليَّ فلاا أُبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن ينزل بي سخطك، أو يحل عليّ غضبك، لك العتبى حتى ترضى».

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ في صلاة الفجر: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] ويبكي حتى يسمع نشيجه من آخر الصفوف، بخلاف الشكوى إلى المخلوق، قرىء على الإمام أحمد في مرض موته أن طاووساً كره أنين المريض، وقال: إنه شكوى، فما أَنَّ حتى مات، وذلك أن المشتكي طالب بلسان الحال، إما إزالة ما يضره، أو حصول ما

ينفعه، والعبد مأمور أن يسأل ربه دون خلقه، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۞ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ﴾ [الشرح: ٦ ـ ٧] وقال ﷺ لابن عباس: «إذ سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله».

ولا بد للإنسان من شيئين: طاعته بفعل المأمور، وترك المحظور، وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدور، **فالأول**: هو التقوى، **والثاني**: هو الصبر»[1].

١٠ ـ أصول العبادة:

«العبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الأسماء مقصودها واحد، ولها أصلان: **أحدهما**: ألا يُعبد إلا الله.

والثاني: أن يُعبد بما أمر وشرع لا بغير ذلك من البدع، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠] وقال تعالى: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢] وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٥].

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٠/ ٦٦٦ـ٦٦٧.

فالعمل الصالح هو الإحسان، وهو فعل الحسنات، والحسنات هي ما أحبه الله ورسوله، وهو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب، فما كان من البدع في الدين التي ليست مشروعة فإن الله لا يحبها ولا رسوله، فلا تكون من الحسنات ولا من العمل الصالح، كما أن من يعمل ما لا يجوز كالفواحش والظلم ليس من الحسنات، ولا من العمل الصالح.

وأما قوله: «ولا يشرك بعبادة ربه أحداً» وقوله: «أسلم وجهه لله» فهو إخلاص الدين لله وحده، وكان عمر بن الخطاب يقول: اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك ولا تجعل لأحد فيه شيئاً.

وقال الفضيل بن عياض في قوله: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ [تبارك: ٢] قال: أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السُّنّة»[١].

١١ ـ الزهد النافع المشروع:

«الزهد النافع المشروع الذي يحبه الله ورسوله، هو الزهد

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٠/ ١٧٢ـ ١٧٤.

فيما لا ينفع في الآخرة، فأما مَّا ينفع في الآخرة، وما يستعان به على ذلك فالزهد فيه زهد في نوع من عبادة الله وطاعته، والزهد إنما يراد لأنه زهد فيما يضر، أو زهد فيما لا ينفع، فأما الزهد في النافع فجهل وضلال كما قال النبي ﷺ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز».

والنافع للعبد هو عبادة الله وطاعته وطاعة رسوله، وكل ما صده عن ذلك، فإنه ضار لا نافع، ثم الأنفع له أن تكون كل أعماله عبادة لله وطاعة له، وإن أدى الفرائض وفعل مباحاً لا يعينه على الطاعة، فقد فعل ما ينفعه، وما لا ينفعه ولا يضره»[1].

١٢ ـ الفتن النفسية والاحتراز منها:

«وكذلك ما يؤذى الإنسان به في فعله للطاعات كالصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطلب العلم من المصائب، فصبره عليها أفضل من صبره على ما ابتلي به بدون ذلك، وكذلك إذا دعته نفسه إلى محرمات: من رئاسة، وأخذ مال، وفعل فاحشة كان صبره عنه أفضل من صبره على ما هو دون ذلك، فإن أعمال البر كلما عظمت كان الصبر عليها أعظم مما دونهما.

فإن في «العلم» و «الإمارة» و «الجهاد» و «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» و «الصلاة» و «الحج» و «الصوم» و «الزكاة»

(١) مجموع الفتاوى: ١٠/ ٥١١.

من الفتن النفسية وغيرها ما ليس في غيرها، ويعرض في ذلك ميل النفس إلى الرئاسة والمال والصور، فإذا كانت النفس غير قادرة على ذلك لم تطمع فيه، كما تطمع مع القدرة، فإنها مع القدرة تطلب تلك الأمور المحرمة، بخلاف حالها بدون القدرة، فإن الصبر مع القدرة جهاد، بل هو من أفضل الجهاد، وأكمل من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن الصبر عن المحرمات أفضل من الصبر على المصائب.

الثاني: أنَّ ترك المحرمات مع القدرة عليها وطلب النفس لها أفضل من تركها بدون ذلك.

الثالث: أَنَّ طلب النفس لها إذا كان بسبب أمر ديني، كمن خرج لصلاة، أو طلب علم أو جهاد فابتلي بما يميل إليه من ذلك، فإن صبره عن ذلك يتضمن فعل المأمور، وترك المحظور، بخلاف ما إذا مالت نفسه إلى ذلك بدون عمل صالح، ولهذا كان يونس بن عبيد يوصي بثلاث يقول: لا تدخل على سلطان ـ وإن قلت: آمره بطاعة الله ـ ولا تدخل على امرأة ـ وإن قلت: أعلمها كتاب الله ولا تضع أُذنك إلى صاحب بدعة ـ وإن قلت: أرد عليه.

فأمره بالاحتراز من أسباب الفتنة، فإن الإنسان إذا تعرض لذلك فقد يفتتن، ولا يسلم»[1].

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٠/ ٥٧٥ـ ٥٧٧.

○ **نماذج من أحكامه على بعض كتب السلوك:**

فقد سئل رحمه الله عن «إحياء علوم الدين» و «قوت القلوب» الخ...

فأجاب:

«أما «كتاب قوت القلوب» و «كتاب الإحياء» تبع له فيما يذكره من أعمال القلوب: مثل الصبر والشكر، والحب والتوكل، والتوحيد ونحو ذلك، وأبو طالب أعلم بالحديث والأثر وكلام أهل علوم القلوب من الصوفية وغيرهم من أبي حامد الغزالي، وكلامه أَسدُّ وأجود تحقيقاً، وأبعد عن البدعة مع أن في «قوت القلوب» أحاديث ضعيفة وموضوعة، وأشياء كثيرة مردودة.

وأما ما في الإحياء، من الكلام في «المهلكات» مثل الكلام على الكبر، والعجب والرياء، والحسد، ونحو ذلك، فغالبه منقول من كلام الحارث المحاسبي في الرعاية، ومنه ما هو مقبول ومنه ما هو مردود، ومنه ما هو متنازع فيه.

و «الإحياء» فيه فوائد كثيرة، لكن فيه مواد مذمومة، فإنه فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد، فإذا ذكر معارف الصوفية كان بمنزلة من أخذ عدواً للمسلمين ألبسه ثياب المسلمين.

وقد أنكر أئمة الدين على «أبي حامد» هذا في كتبه، وقالوا: مرضه «الشفاء» يعني شفاء ابن سينا في الفلسفة.

وفيه أحاديث وآثار ضعيفة، بل موضوعة كثيرة، وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترهاتهم.

وفيه مع ذلك من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنّة، ومن غير ذلك من العبادات والأدب ما هو موافق للكتاب والسنّة، ما هو أكثر مما يرد منه، فلهذا اختلف فيه اجتهاد الناس وتنازعوا فيه»[1].

○ ابن تيمية وتطبيقه لقواعد السلوك الإسلامي على نفسه:

كان الشيخ رحمه الله متسامحاً، مطبقاً لأخلاقيات الإسلام في العفو وتصفية قلبه من الأحقاد والضغائن، ومن ذلك عفوه عن العلماء الذين آذووه حين أراد السلطان قتلهم، ودفاعه عنهم بقوله: «إذا قتلت هؤلاء، لا تجد بعدهم مثلهم، وحين ذكره السلطان بأنهم سبق لهم أن آذوه، وأرادوا قتله مراراً أجاب «من آذاني فهو في حل»[2].

ولم يتمالك أحد خصومه الألداء الشيخ ابن مخلوف رحمه الله قاضي المالكية نفسه من الاعتراف بأنه لم ير مثل ابن تيمية، لأنه حرَّض عليه فلم يقدر عليه، فلما قدر عليهم جميعاً صفح عنهم وحاجج عنهم»[3].

---

(١) مجموع الفتاوى: ١/ ٥٥١ـ٥٥٢.

(٢) البداية والنهاية: ١٤/ ٥٤.

(٣) البداية والنهاية: ١٤/ ٥٤.

وهذا صحيح لأننا لو عقدنا مقارنة بين حديث هذا القاضي بعد أن زال عنه الصولجان ووصف ابن تيمية له في السجن، لظهر الفرق بين الرجلين، إذ يقول عنه:

«وابن مخلوف ولو عمل مهما عمل ـ والله ما أقدر على خير إلا وأعمله معه.. فإني أعلم أن الشيطان ينزغ بين المؤمنين، ولن أكون عوناً للشيطان على إخواني المسلمين»[1].

فإذا ما انتقل من هذه العلاقة الخاصة مع خصمه القاضي ونظر إلى المسلمين بعامة، فإنه يدعو لهم بالخير في دينهم ودنياهم، ويحب أن يراهم وقد اختفت من بينهم بذور الفتن والخلاف، فلن «ينقطع الدور وتزول الحيرة، إلا بالإنابة إلى الله والاستغفار والتوبة، وصدق الالتجاء، فإنه سبحانه لا ملجأ منه إلا إليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[2].

وكذلك فهو يعلن أنه لا يهدف إلى تحقيق عرض دنيوي، ولا يطمع في تحقيق منصب، أو جاه، أو الحصول على أموال، فإنه، لم يقبل من أحد شيئاً «من النفقات السلطانية، ولا من الكسوة، ولا من الإدارات ولا غيرها، ولا تدنس بشيء من ذلك»[3] فهو يسعى إلى تحقيق ما يحبه الله ورسوله، فإذا ما قابلته

---

(١) محنة الشيخ: ص ٥٩.

(٢) محنة الشيخ: ص ٥٩.

(٣) البداية والنهاية: ١٤/ ٤٣.

بعض الخصومات، فإنه لا ينظر إليها نظرة شخصية خاصة، وإنما يتحمل كل الصعاب في سبيل هدفه العام الذي عاش من أجله ولذلك يقول:

«نحن إنما ندخل فيما يحبه الله ورسوله والمؤمنون، ليس لنا غرض مع أحد، بل نجزي بالسيئة الحسنة، ونعفو ونغفر»[(١)].

ويقول أيضاً محدثاً في نفسه: «فإن الناس يعلمون أني من أطول الناس روحاً وأصبر على مر الكلام، وأعظم الناس عدلاً في المخاطبة لأقل الناس»[(٢)].

وكانت حياة الشيخ برهاناً على صدق قوله، واقتران العلم بالعمل، فحين تمكن من خصومه كما بينا لم يصبهم بأذى، وحين سجنه السلطان الناصر أصبح ذلك دليلاً على أنه لم يحاول أن يستمد قوته من السلطان، بل كان يعلن ما يراه حقاً، ولو كان يستمدها من الناصر ما ألقاه في غيابة السجن، فكان هذا هو الدليل القاطع على أنه متبوع لا تابع، وحر سيد نفسه، وليست نفسه ولا فكره ملكاً لأحد»[(٣)].

---

(١) محنة الشيخ: ص ٥٨.

(٢) محنة الشيخ: ص ٤٤.

(٣) محمد أبو زهرة: التعريف بابن تيمية ص ٦٩٠ من كتاب أسبوع الفقه الإسلامي.

وبهذا يتبين أن شيخ الإسلام رحمه الله كان مطبقاً لقواعد السلوك الإسلامية التي عالجها بالبحث والدراسة[1].

○ ـ من عباراته وأقواله الجامعة:

إن الله عزّ وجلّ حين يؤتي الحكمة من يشاء من عباده، ويجمع له من العلوم والمعارف ما لم يجتمع لسواه، وتتسع دائرة معرفته لتشمل ما كان متعارفاً عليه من ثقافة عصره وعلومه، ومن كان حاله الانشغال بالعلم والعبادة والزهادة والجهاد والعطاء، سيوفقه الله تعالى ويسدد لسانه فينطق بينابيع الحكمة، والعبارات الجامعة المعبرة عن المراد، والتي تستحق أن تخط وتكتب بماء الذهب كما يقولون، وتوضع نصب أعين الناس للعمل بها فمن تلك العبارات المشهورة عنه قوله: «ما يصنع أعدائي بي؟! أنا جنتي وبستاني في صدري[2]، إن رحت فهي معي لا تفارقني! إنَّ حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة» المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه»[3].

(١) ابن تيمية والتصوف: الدكتور مصطفى حلمي: ص ٣٦٣ـ ٣٦٤.

(٢) إيمانه وعلمه.

(٣) الوابل الصيب: ٧٠.

وقد اخترت مجموعة من عباراته وأقواله الجامعة في ثلاثة أبواب، هي: العلم، والعبادة والزهد والسلوك، والتوحيد ومعرفة الله تعالى، وهذه العبارات تستحق كل الاهتمام والتقدير.

١ ـ عبارات جامعة في باب العلم:

قال رحمه الله:

- «العلم إما نقلٌ مصدق، وإما استدلال محقق»(١).
- «الإمامة في الدين موروثة عن الصبر واليقين»(٢).
- «العلم إما نقل مصدق عن معصوم، وإما قول عليه دليل معلوم، وما سوى هذا فإما زيف مردود، وإما موقوف لا يعلم أنه بَهَرَجٌ ولا منقود»(٣).
- «لا ريب أن لذة العلم أعظم اللذات، واللذة التي تبقى بعد الموت، وتنفع في الآخرة هي لذة العلم بالله والعمل له، وهو الإيمان به»(٤).
- «من فارق الدليل ضلَّ السبيل، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول»(٥).

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٤٤.
(٢) مجموع الفتاوى: ١٠/ ٣٨.
(٣) مجموع الفتاوى: ٣١/ ٣٢٩ـ ٣٣٠.
(٤) مجموع الفتاوى: ١٤/ ١٦٢.
(٥) مفتاح دار السعادة: ١/ ٣٠٤.

● «حصول العلم في القلب كحصول الطعام في الجسم، فالجسم يحس بالطعام والشراب وكذلك القلوب تُحس بما يتنزل إليها من العلوم التي هي طعامها وشرابها»[1].

● «لا ينال الهدى إلا بالعلم، ولا ينال الرشاد إلا بالصبر»[2].

٢ ـ عبارات جامعة في العبادة والزهد والسلوك:

قال رحمه الله:

● «العبد دائماً بين نعمة من الله يحتاج فيها إلى شكر، وذنب منه يحتاج فيه إلى الاستغناء، وكل من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائماً، فإنه لا يزال يتقلب في نعم الله وآلائه، لا يزال محتاجاً إلى التوبة والاستغناء»[3].

● «الصبر الجميل: هو الذي لا شكوى فيه ولا معه، والصفح الجميل: هو الذي لا عتاب معه، والهجر الجميل: هو الذي لا أذى معه»[4].

● «أولياء الله هم الذين يتبعون رضاه بفعل المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور»[5].

---

(١) مجموع الفتاوى: ٤/ ٤١.
(٢) مجموع الفتاوى: ١٠/ ٤٠.
(٣) مجموع الفتاوى: ١٠/ ٨٨.
(٤) مدارج السالكين: ٢/ ١٦٠.
(٥) مجموع الفتاوى: ١/ ٨٥.

● «العارف لا يرى له على أحد حقاً، ولا يشهد له على غيره فضلاً، ولذلك لا يعاتب، ولا يطالب، ولا يضارب»[(١)].

● «فالقلب لا يَصلح، ولا يُفلح، ولا يَلتذ، ولا يُسر، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن، إلا بعبادة ربه، وحبه، والإنابة إليه»[(٢)].

● «الحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب، كما أن الغنى غنى النفس»[(٣)].

● «إن في الدنيا جنة[(٤)] من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة»[(٥)].

● «من أراد السعادة الأبدية، فليلزم عتبة العبودية»[(٦)].

● «أعظم الكرامة لزوم الاستقامة»[(٧)].

● «العبادة مبناها على الشرع والاتباع، لا على الهوى والابتداع»[(٨)].

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ٥٢٣.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٠/ ١٩٤.

(٣) نقض المنطق: ص ١٨٦.

(٤) يعني جنة الإيمان.

(٥) الوابل الصيب: ٩، المدارج: ٢/ ١٢٢.

(٦) المدارج: ١/ ٥٣١.

(٧) المدارج: ٢/ ١٠٥، مجموع الفتاوى: ١٠/ ٢٩.

(٨) مجموع الفتاوى: ١/ ٨٠.

• «الذنوب سبب للضر، والاستغفار يزيل أسبابه»[1].

• «شهادة التوحيد تفتح باب الخير، والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر»[2].

• «نفسك تطلب منك الكرامة، وربك يطلب منك الاستقامة»[3].

• «الإنسان في الدنيا يجد في قلبه بذكر الله، وذكر محامده وآلائه وعبادته من اللذة ما لا يجده في شيء آخر»[4].

• «المقصود بالزهد: ترك ما يضر العبد في الآخرة، وبالعبادة: فعل ما ينفع في الآخرة، فإذا ترك الإنسان ما ينفعه في دينه، وينفعه في آخرته، فعل من العبادة ما يضر فقد اعتدى وأسرف، وإن ظن ذلك زهداً نافعاً، وعبادة نافعة»[5].

• «لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة، فيتشربها، فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة، تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه، ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا أُشرِبَت قلبك كل شبهة تمر عليك صار مقراً للشبهات»[6].

---

(١) مجموع الفتاوى: ١/ ٢٥٥.
(٢) مجموع الفتاوى: ١٠/٢٥٦.
(٣) مدارج السالكين: ٢/ ٣١٣ـ٣١٤.
(٤) منهاج السُّنّة: ٥/٣٨٩.
(٥) المدارج: ٢/ ١٠، مجموع الفتاوى: ١٤/٤٥٨.
(٦) مفتاح دار السعادة: ١/ ٤٤٣.

٣ ـ عبارات جامعة في التوحيد ومعرفة الله تعالى:

قال رحمه الله:

• «كمال التوحيد: أن لا يبقى في القلب شيء لغير الله أصلاً، بل يبقى العبد موالياً لربه في كل شيء، يحب من أحب وما أحب، ويبغض من يبغض وما أبغض ويوالي من والى، ويعادي من عادى، ويأمر بما يأمر به، وينهى عما نهى عنه»(١).

• «الرب سبحانه يريدك لك، ولمنفعتك بك، لا لينتفع بك، وذلك منفعة عليك بلا مضرة، فتدبر هذا»(٢).

• «الرب يُحبُّ أن يُحبْ»(٣).

• «المحب التام لا يؤثر فيه لوم اللائم، وعذل العاذل بل ذلك يغريه بملازمة المحبة»(٤).

• «الرضا والتوكل يكتنفان المقدور، التوكل قبل وقوعه، والرضا بعد وقوعه، فمن توكل على الله قبل الفعل، ورضي بالمقضي له بعد الفعل فقد قام بالعبودية»(٥).

---

(١) المدارج: ٣/ ٤٨٥.

(٢) مجموع الفتاوى: ١/ ٣٠.

(٣) مجموع الفتاوى: ١/ ٥٤.

(٤) مجموع الفتاوى: ١٠/ ٦١.

(٥) مجموع الفتاوى: ١٠/ ٣٧.

● «كل نقمة منه عدل، وكل نعمة منه فضل»[1].

● «كلما قويت محبة العبد لمولاه، صغرت عنده المحبوبات وقلَّتْ) وكلما ضعفت كثرت محبوباته وانتشرت»[2].

● «لن يخاف الرجل غير الله، إلا لمرض في قلبه»[3].

● «لا تكون عبادة إلا بِحُبْ المعبود، ولا يكون حمد إلا بحب المحمود، وهو سبحانه المعبود المحمود»[4].

● «تحقيق قول «لا إله إلا الله» هو إثبات تأليه القلب لله حباً خالصاً، وذلاً صادقاً، ومنع تأليهه لغير الله، وبغض ذلك وكراهته، فلا يعبد إلا الله، ويحب أن يعبده، ويبغض عبادة غيره، ويحب التوكل عليه وخشيته ودعاءه، ويبغض التوكل على غيره، وخشيته ودعاءه»[5].

وغير هذه العبارات كثير في مصنفاته رحمه الله، وهذا هو نهاية المطاف مع علوم ابن تيمية بالنسبة لنا، وليس نهايته بالنسبة له فقد كان كنزاً لا نظير له رحمه الله.

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٠/ ٨٥.
(٢) مجموع الفتاوى: ١/ ٩٤.
(٣) الأعلام العلية: ص ٧٤.
(٤) منهاج الاستقامة: ٥/ ٤٠٤.
(٥) مجموع الفتاوى: ١٤/ ٢٨٠.

الفصل الرابع عشر

كيف نتعامل مع أهل العلم

إن لأهل العلم والآمرين بالمعروف، وأهل الفضل مكانة خاصة، فقد أثنى الله تعالى على أهل العلم ورفعهم مكاناً علياً، وجعلهم في مرتبة بعد مرتبة الأنبياء لأنهم ورثة الأنبياء، والمبلغين عنهم ما أنزل الله إليهم، والمؤتمنون على الرسالة المنزلة على محمد ﷺ، وأكرمهم بأن جعل الملائكة في السماء، وأهل الأرض والسموات يستغفرون لهم لتعليمهم الناس الخير والمكارم.

لأجل هذا كله فلا بد لطالب العلم، والساعي إلى تهذيب نفسه بالخير، أن يتعلم بعض الضوابط التي لا بد منها ليحسن التعامل مع أهل العلم، فلا يسيء إلى نفسه حين يسيء الأدب مع أهل العلم، الذين كان لهم سابقة في الخير والفضل والصلاح، فخصائص الطين في ابن آدم هي التي تجعله مرتكباً للأخطاء، ومتعرضاً للزلل، وأهل العلم والعلماء بشر لا بد لهم أن يقعوا في الأخطاء أو الذنوب، بقصد أو بغير قصد، ولكن لمكانتهم التي اختصهم الله تعالى بها، فإن هناك مجموعة من الضوابط والموازين

التي لا بد لطالب العلم أن يعرفها ويلتزم بها عند نظره إلى أخطاء العلماء.

أ ـ طالب العلم بحاجة إلى توعية وتنبيه:

إن طالب العلم أحوج ما يحتاج إلى التوعية والتنبيه بمخاطر الطريق، حتى يتقي مصارع ومنعطفات قد تودي به إلى الهلاك، من حيث يظن أنه يحسن وهو يسيء، وحتى لا يكون من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلًا ۞ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ۞ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٢ ـ ١٠٤]، فطالب العلم سائر في طريق الآخرة، فعليه أن يحسن العمل حتى يرى النتيجة الحسنة، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله:

«السائر إلى الله والدار الآخرة، بل كل سائر إلى مقصد، لا يتم سيره ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين، قوة علمية، وقوة عملية، فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق، ومواضع السلوك فيقصدها سائراً فيها، ويجتنب أسباب الهلاك، ومواطن العطب، وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل، فقوته العلمية كنور عظيم بيده يمشي به في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة، فهو يبصر بذلك ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوهاد، والمتالف، ويعثر به من الأحجار والشوك، وغيره، ويبصر بذلك

النور أيضاً، أعلام الطريق. وأدلتها المنصوبة عليها، فلا يضل عنها، فيكشف له النور عن الأمرين، أعلام الطريق ومعاطبها.

والقوة العملية يسير حقيقة، بل السير هو حقيقة القوة العملية، إن السير هو عمل المسافر وكذلك السائر إلى ربه، إذا أبصر الطريق وأعلامها، وأبصر الغابر والوهاد والطرق الناكبة عنها، فقد حصل له شطر السعادة والفلاح..»[1].

ب ـ ضوابط وموازين للتعامل مع العلماء:

ومن أجل توعية وتنبيه طالب العلم، والسائر في درب الآخرة، أسوق هذه الضوابط والموازين التي تحكم تعامله مع أهل العلم، وتوجه مساره التوجيه الصحيح، حتى يعرف خطوات سيره بوضوح، فلا يتعثر في سيره، ولا يكبو به جواد هواه، لأن طالب العلم يجب أن يكون عالي الهمة، وخير ما يرفعه ويحقق له المأمول ما جاء في قول أحد الصالحين.

«لا يتحقق كمال الإنسان إلا بهمة ترقيه، وعلم يبصره ويهديه، فبهما تتحقق مراتب السعادة والفلاح».

فهمة طالب العلم لا ترضى بالدون من الأمور، وإنما تقصر في بعض الأوقات، فإذا حثت سارت، ومتى رأى من نفسه عجزاً

(١) طريق الهجرتين: ٢٣١.

فليسأل المنعم، أو كسلاً فليسأل الموفق، فلن ينال خيراً إلا بطاعته.

ولأجل المحافظة على الهمة عالية، والقلب نظيفاً طيباً، كانت هذه الضوابط والموازين ولذلك فتدبرها بعين قلبك قبل أن تراها بعين رأسك، واقرأها فإن وجدت خيراً فاعمل به، ولكن تأنّى في الحكم عليها سلباً لئلا تفقد خيراً لو تمهلت قليلاً لنلته.

١ ـ الكلام في الناس يجب أن يكون بعلم وعدل لا بجهل وظلم:

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وأمور الناس إنما تستقيم في الدنيا مع العدل، الذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق. وإن لم تترك فيها، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تقوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الإسلام والظلم.

ذلك أن العدل نظام كل شيء، وإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم يكن صاحبها من أهل الدين، من خلاف، ومتى لم تقم بالعدل لم تقم. وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة»[١].

---

(١) مجلة الحكمة: عدد ٩/ ص ٢٨.

وقال رحمه الله: «ومعلوم أننا إذا تكلمنا فيمن هو دون الصحابة، مثل الملوك المختلفين على الملك، والعلماء والمشايخ المختلفين في العلم والدين، وجب أن يكون الكلام بعلمٍ وعدلٍ لا بظلم وجهل، وإن العدل واجب لكل أحد، وعلى كل أحد في كل حال، والظلم محرماً مطلقاً لا يباح بحال قط، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟﴾ [المائدة: ٨] وهذه الآية نزلت بسبب بغضهم للكفار، وهو بغض مأمور به، فإذا كان البغض الذي أمر الله به قد نهى صاحبه أن يظلم من أبغضه، فكيف بمن يبغض مسلماً بتأويل وشبهة أو بهوى نفس؟ فهو أحق أن لا يظلم، بل يعدل عليه»(١).

- والعبرة عند الذهبي رحمه الله كثرة المحاسن، وذلك حين لاحظ أن الغلاة في كل مذهب يفتقدون ميزان العدل في التعامل مع الآخرين، فهو يرى أن العدل هو ميزان الشريعة يجب أن يتعدى هذا الميزان حتى لأهل البدع والأهواء، ما داموا موحدين من أهل القبلة، فيجب أن يعدل في الحديث عنهم بذكر خيرهم، ويذموا بما عليه من الشر فقال رحمه الله:

«قد ماجت بهم الدنيا وكثروا، وفيهم أذكياء وعباد وعلماء، نسأل الله العفو والمغفرة لأهل التوحيد، ونبرأ إلى الله من الهوى والبدع، ونحب السُّنّة وأهلها، ونحب العالم على ما فيه من الاتباع

---

(١) منهاج السُّنّة: ٥/ ١٢٦.

والصفات الحميدة، ولا نحب ما ابتدع فيه بتأويل سائغ، وإنما العبرة كثرة المحاسن..»[1].

٢ ـ التجرد من الهوى:

كان التجرد من الهوى وسيبقى من الأسباب التي تجعل الحكم صائباً، أو قريباً من الصواب، وقد حذر الله تعالى في كتابه من اتباع الهوى لأنه يضل عن سبيله تعالى، ولو كان من كان، وحين يقع الإنسان أسير الهوى، فإن الموازين تنقلب وتتغير المفاهيم، فيصبح الحق باطلاً، والباطل حقاً بمجرد فساد القلب وانتكاس الفطرة.

وإلى هذه النقطة أشار شيخ الإسلام حيث قال:

«ومن المعلوم أن مجرد نفور النافرين، أو محبة الموافقين لا يدل على صحة القول ولا فساده، إلا إذا كان بهدى من الله، بل الاستدلال بذلك الاستدلال، اتباع للهوى بغير ما أنزل الله».

ومتبع الهوى لا بد أن يقوده هواه إلى الظلم والعدوان، بحسب القدرة والاستطاعة لمن خالفه ولم يوافقه، وربما يعادي من له علم ودعوة إلى الله، ويقف في وجهه صاداً عن الحق، كما كان اليهود يفعلون ذلك، ثم تجده يرمي من خالفه بالألقاب المنفرة التي تخالف أمر الله ورسوله، لينفر الناس عن قبول كلامه وسماع

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٠/ ٤٥ـ٤٦.

نصائحه، وإن كان يدعو إلى السُّنّة ويرغب فيها، يفعل ذلك ابتغاء الفتنة والتفرقة، ويزعم في ذلك أنه مصلح وفي سبيل المصلحة الموهومة، وإن في ذلك دفع الفساد عن الناس ويريد لهم الخير، كما قال فرعون لقومه: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، وهكذا تنقلب الموازين والقيم، ويصبح المفسد في نظر الناس مصلحاً، والمصلح للدين مفسداً، فيقع شر عريض، وبلاء مستطير.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله:

«وصاحب الهوى يعميه الهوى ويصمه، فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك، ولا يطلبه ولا يرضى لرضى الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضى إذا حصل ما يرضاه ويهواه، ويغضب إذا ما حصل ما يغضب له بهواه، ويكون مع ذلك منه شبهة دين: إن الذي يرضى له ويغضب له أنه السُّنّة وأنه الحق وأنه الدين، وإذا قدر أن الذي معه هو الحق المحض دين الإسلام، ولم يكن مقصده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، بل قصده الحمية لنفسه أو طائفته أو الرياء، ليعظم هو ويثنى عليه أو فعل ذلك شجاعة وطبعاً، أو لغرض من الدنيا لم يكن لله ولم يكن مجاهداً في سبيل الله، فكيف إذا كان الذي يرى الحق والسُّنّة هو كنظيره معه حق وباطل وسُّنّة وبدعة، ومع خصمه حق وباطل وسُّنّة وبدعة».

ولأجل اتباع الهوى نَشَأت الفتن والخلافات بين الناس، وفي بيان ذلك يقول رحمه الله:

«فإن أكثرهم ـ أصحاب المقالات الفاسدة ـ قد صار لهم هوى في ذلك، أن ينتصر جاههم أو رياستهم، وما ينسب إليهم لا بقصد أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، بل ينصبّون على من خالفهم وإن كان مجتهداً معذوراً لا يغضب الله عليه، ويرضون عمن يوافقهم وإن كان جاهلاً سيء القصد ليس له علم أو حسن قصد، فيفضي هذا إلى أن يحمدوا من لم يحمده الله ورسوله، ولا يذموا من ذم الله ورسوله، وتصير موالاتهم ومعاداتهم على أهواء أنفسهم لا على دين الله ورسوله ﷺ»[(١)].

٣ ـ الخطأ سُنّة البشر:

ولأن العلماء والفقهاء من البشر، فلا بد من وقوعهم في الأخطاء أيضاً، ولا تزال سُنّة الله جارية في ذلك، وما من فقيه إلا وله فتاوى شاذة يعجب المرء منه، وكأن الله تعالى شاءت قدرته ذلك يستدل البشر على أن العصمة لله وحده، فلذلك ينبغي أن لا يقلد العالم في خطأه وزلله، وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله:

«أما العالم فلا ينبغي أن يقلد فيما زل فيه، إذ أن الدين لا يؤخذ بالخطأ.

---

(١) مجلة الحكمة: عدد ٩/ ٢٩، ٣١، ٣٢، ٣٣.

وأن العالم قد يزل ولا بد، إذ ليس بمعصوم فلا يجوز قبول كل ما يقوله، وينزل قوله منزلة المعصوم.»[1].

○ **لا يترك العالم لزلته:**

ولما كان كل ابن آدم خطاء، وأن ليس بمعصوم إلا من عصم الله من أنبيائه، لذا كان من المعلوم في أبواب العلم، وأقوال السلف أنه ما من إمام إلا وله زلات واضحة، أرادها الله تعالى حيث يثبت الصواب من جهة أخرى، ولهذا كرر شيخ الإسلام الذهبي هذه القاعدة عند إيراد الجرح والتعديل لكثير من الأئمة، ومنها ذكره لقول أبي موسى المديني:

«أشار بهذا إلى أنه قلَّ إمام إلا وله زلة، فإذا ترك لأجل زلته ترك كثير من الأئمة، هذا لا ينبغي أن يفعل»[2].

كما أن وجود الزلة لأي عالم لكي يتواضع، لأنه يعتقد أنه مهما بلغ من العلم والفضل فسوف يقع في الخطأ، وهذا من حكمة الخالق عزّ وجلّ، وحتى لا يؤخذ العلم من شخص واحد معين، أو أن يقدس شخص ما، مهما بلغ من العلم والزهد، وأن يتجه المسلمون دوماً نحو المنبع الصافي، والمورد العذب، وأن يكون استسقاء العلم في كل زمان ومكان من القرآن الكريم والسُّنّة

(١) أعلام الموقعين: ٢/ ١٧٥.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٠/ ٨٨.

المطهرة، كما أن الاقتداء لا يكون إلا بالمصطفى ﷺ حتى يكون الخير مستمراً في أمته حتى قيام الساعة[1].

○ **لا يسلم من الخطأ أحد من بني آدم:**

ولما كان الخطأ صفة لاصقة في بني الإنسان، ولا ينجو منها أحد مهما بلغ مرتبة من العلم والدين، ولو نجا منها أحد لنجا منها أصحاب رسول الله ﷺ الكرام، وهم خير القرون على وجه الأرض، ومع ذلك لم يسلم أحد منهم من الخطأ والوقوع فيه بتأويل أو بغير تأويل.

والسيد كما قيل من عدت هفواته وسقطاته، فهذا أقرب من غيره إلى الصواب.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله:

«فأما الصديقون والشهداء والصالحون، فليسوا بمعصومين وهذا في الذنوب المحققة، وأما ما اجتهدوا فيه فتارة يصيبون وتارة يخطئون، فإذا اجتهدوا وأصابوا فلهم أجران، وإذا اجتهدوا وأخطئوا فلهم أجر على اجتهادهم وخطؤهم مغفور لهم.

وبعض المبتدعة يرى أن الخطأ والإثم والذنب أمران متلازمان، فإذا أخطأ المجتهد ولو بتأويل سائغ، فإنه آثم، ولكن أهل السُّنّة والجماعة يرون أن المجتهد مأجور، والقول قد يكون

---

(١) مسافر على طريق الدعوة: ص ١٤٠.

مخالفاً للنص الصريح وفاعله معذور، لأن المخالفة بالتأويل لم يسلم منها أحد من أهل العلم، يقول النبي ﷺ. إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب، فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ، فله أجر».

وهنا يبيِّن ابن تيمية رحمه الله قاعدة شريفة يجب التنبه لها:.

«وهو أن ما يصدر من بعض من له علم ودين من الشطحات والأقوال المخالفة للشرع، قد يكون مسلوب العقل أو مجتهداً مخطأً اجتهاداً قولياً أو عملياً، فلا يذم والحالة هذه ولا يتابع عليها فيما هو مخالف لشرع الله، يقول:

«وهذا فيما يعلم من الأقوال والأفعال أنه مخالف للشرع بلا سبب، كالشطحات المأثورة لبعض المشايخ، كقول ابن هود: إذا كان يوم القيامة نصبت خيمتي على جهنم، وكان الشبلي يحلق لحيته، ويمزق ثيابه حتى أدخلوه المارستان مرتين».

ثم قال: «جماع هذا أن هذه الأمور تعطى حقها من الكتاب والسُّنّة في الخبر والأمر والنهي ووجب اتباعه ولم يلتفت إلى من خالفه كائن من كان، ولم يجز اتباع أحد خلاف ذلك، كما دل عليه الكتاب والسُّنّة وإجماع الأمة من اتباع الرسول وطاعته، وأن الرجل الذي صدر منه ذلك يعطى عذره حيث عذرته الشريعة، بأن يكون مسلوب العقل، أو ساقط التمييز، أو مجتهداً، أو مخطأً اجتهاداً قولياً أو عملياً، أو مغلوباً على ذلك، الفعل أو الترك، بحيث لا يمكنه رد ما هو فيه من الفعل المنكر بلا ذنب فعله، ولا

يمكنه أداء ذلك الواجب بلا ذنب فعله، ويكون في هذا الباب نوعه محفوظاً، بحيث لا يتبع ما خالف الكتاب والسُّنّة، ولا يجعل ذلك شرعاً ولا منهاجاً، بل لا سبيل إلى الله ولا شرعه إلا بما جاء به الرسول ﷺ.

وأما الأشخاص الذين خالفوا بعض ذلك على الوجوه المتقدمة فيعذرون، ولا يذمون ولا يعاقبون، فإن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله وأفعاله ويترك إلا رسول الله ﷺ».

ويفرق شيخ الإسلام بين المخالف للمسائل الاعتقادية المعلومة من الدين بالضرورة فهؤلاء ونحوهم يبيَّن لهم الحق، فإن أعرضوا عنه وجب الإنكار عليهم بحسب ما جاءت به الشريعة من اليد واللسان والقلب، وبين المخالف للمسائل الفرعية التي هي موارد الاجتهاد، والتي تنازع فيها أهل الإيمان والعلم، فهذه قد تكن قطعية عند بعض من تبيَّن له الحق فيها، لكن لا يلزم الناس بما بان له، ولم يبين لهم، فهذا قد يسلم له ويكون صاحبه معذوراً، وقد لا يسلم له حاله فلا يكون معذوراً، بل آثماً، فقد تكون هذه المسائل اجتهادية، فهذا تسليم لكل مجتهد بذل وسعه في الوصول إلى الحق، ومن قلده في ذلك وتابعه على طريقته لا ينكر ذلك عليه[١].

(١) مجلة الحكمة: ٩/ ٣٧ـ٣٩.

○ **رب العزة يتجاوز عن الخطأ:**

إن الله عزّ وجلّ قد تجاوز عن خطأ المجتهد سواء في المسائل العلمية أو العملية، لعلمه بأن الخطأ جار على البشر، والتهديد بالعقاب يعطل عملية الاجتهاد التي لا بد منها لأمور المعاش والمعاد ولذلك جرت المسامحة لكل مجتهد.

«ولو كان قد أخطأ خطأً مخالفاً للكتاب والسُّنّة، ولو عوقب هذا لعوقب جميع المسلمين، فإنه ما منهم من أحد إلا وله أقوال اجتهد فيها، أو قلد فيها وهو مخطىء فيها، فلو عاقب الله المخطىء لعاقب جميع الخلق، بل قد قال الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ..﴾ [البقرة: ٢٨٥] الآيات، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: «أنّ الله استجاب هذا الدعاء»، ولما قال المؤمنون: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال تعالى: «قد فعلت»، وكذلك في سائر الدعاء، وقال النبي ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي عن الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه».

فالمفتي والجندي والعامي إذا تكلموا بالشيء بحسب اجتهادهم، اجتهاداً أو تقليداً قاصدين لاتباع الرسول بمبلغ علمهم لا يستحقون العقوبة بإجماع المسلمين، وإن كانوا قد أخطأوا خطأً مجمعاً عليه..»[1].

(١) مجموع الفتاوى: ٣٥/ ٣٧٨.

٤ ـ أعرف الحق تعرف أهله:

إن العاقل ينظر دائماً إلى الحق، ثم ينظر بعد ذلك إلى القول نفسه، فإن كان حقاً قبله ورضيه لنفسه سواءً كان فاعله مبطلاً أو محقاً، ويحرص على انتزاع الحق ولو من لسان إبليس، فإن الحكمة ضالة المؤمن ينشدها من كل أحد، فإن وجدها فهو أحق بها.

وبناءً على هذا الكلام فإن أقدار الرجال تقاس بمقدار الاقتراب أو الابتعاد عن المبادىء والشريعة باعتبارها عقيدة التوحيد البعيدة كل البعد عن الشرك، أما أن تقاس المبادىء بالرجال، فذلك من أفكار أهل الجاهلية، وأصحاب المبادىء الأرضية، أما أهل التوحيد فقد قالوا على لسان سيد العقلاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

«أعرف الحق تعرف أهله» «أعرف الرجال بالحق، ولا تعرف الحق بالرجال» وبناءً عليه فإن هذه القاعدة ستبقى هي الأساس التي يقاس عليها الناس، والأصل الذي يرجعون إليه، ومن الظلم بل من التجني أن نجعل أقوال رجل وأحواله هي الميزان الذي نقيس عليه الشرع، فما وافق أقواله من نصوص الشرع قبلناه وإلا فلا.

يقول ابن القيم رحمه الله:

«اتخاذ أحوال رجل بعينه بمنزلة نصوص الشارع، ولا

يلتفت إلى أقوال من سواه، بل ولا إلى نصوص الشرع إلا إذا وافقت نصوص قوله، فهذا والله هو الذي اجتمعت الأمة على أنه محرم في دين الله، ولم يظهر في الأمة إلا بعد انقراض القرون الفاضلة».

ولذلك من العدل والإنصاف أن نقبل الحق من أيٍ كان، طالما أنه متطابق وموافق لما جاءت به الشريعة الغراء في الكتاب والسُّنّة، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام رحمه الله:

«والله قد أمرنا ألا نقول إلا الحق، وألا نقول عليه إلا بعلم، وأمرنا بالعدل والقسط، فلا يجوز لنا إذا قال يهودي أو نصراني ـ فضلاً عن الروافض ـ قولاً فيه حق أن نتركه، بل نرد ما فيه من باطل، دون ما فيه من الحق».

ويقول أيضاً رحمه الله:

«وليس مما أمر الله به رسوله، ولا مما يرتضيه عاقل أن نقابل الحجج القوية، بالمعاندة والجحد، بل قول الصدق والتزام العقل لازم عند جميع العقلاء، وأهل الإسلام أحق بذلك من غيرهم، إذ هم ـ ولله الحمد ـ أكمل الناس عقولاً، وأتمهم إدراكاً، وأصحهم ديناً، وأشرفهم كتاباً، وأفضلهم نبياً، وأحسنهم شريعة»[١].

---

(١) مجلة الحكمة: ٩/ ٣٥، ٤٠ـ٤١.

٥ ـ خلاف العلماء فيما بينهم لا يذهب بالألفة والمحبة:

إن التنازع بين أهل العلم والفضل أمر جار، ولا يخرجهم عن الفضل لأسباب كثيرة، ولم يسلم من النزاع حتى صحابة رسول الله ﷺ، ولكن خلافهم وتنازعهم في أمور الشرع لم يقدهم إلى الخصومة، ولا أدى بهم إلى الكراهية، ولكنهم حافظوا على الألفة والمودة بينهم، لأن مقصدهم جميعاً كان تبيان الحق، والوصول إلى الخير، مع النية الخالصة لله تعالى.

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«وقد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله تعالى في قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] وكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية، مع بقاء الألفة والعصمة، وأخوة الدين، نعم من خالف الكتاب المستبين، والسُّنّة المستفيضة، أو ما أجمع عليه سلف الأمة خلافاً لا يعذر فيه، فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع»(١).

وقال ابن القيم رحمه الله:

«إن أهل الإيمان قد يتنازعون في بعض الأحكام، ولا يخرجون بذلك عن الإيمان، وقد تنازع الصحابة في كثير من

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٤/ ١٧٢.

مسائل الأحكام، وهم سادات المؤمنين، وأكمل الأمة إيماناً» فإذا كان الصحابة قد جرى بينهم تنازع في الأحكام ولم يخرجهم عن الألفة والمحبة، فما جرى بين بقية علماء الأمة أكثر، فالأصل أن لا يخرج التنازع في الأحكام القلوب إلى مرحلة من الكراهية والقطيعة ما نرى في أيامنا هذه».

ذلك ما قاله الليث بن سعد في رسالته إلى الإمام مالك رحمهما الله تعالى حيث قال: «وذاكرتك أنت وعبد العزيز بن عبد الله بعض ما نعيب على ربيعة من ذلك، فكنتما من الموافقين، فيما أنكرت تكرهان منه ما أكرهه، ومع ذلك بحمد الله عند ربيعة خير كثير، وعقل أصيل، ولسان بلي، وفضل مستبين، وطريقة حسنة في الإسلام، ومودة صادقة لإخوانه عامة، ولنا خاصة..»[(١)].

٦ ـ إياك والتعصب والتقليد في الخطأ، فإن عواقبه وخيمة:

«وطالما أننا عرفنا أن العلماء يتنازعون، ويخطئون، فعلى طالب العلم أن لا يقلد العالم في خطئه، ولا يتعصب لذلك الخطأ فيغلق على عقله وسائل التفكير الصحيح، فيحرم بذلك خيراً كثيراً، ولينأ بنفسه عما جرى بين الأئمة والعلماء من خلاف وتنازع، لأنه إن شغل نفسه بذلك أضاع جهده، وصرف وقته دون طائل، وضيع على نفسه سبل الاستفادة.

---

(١) أعلام الموقعين: ٣/ ١٠٩.

وفي ذلك يقول العلاَّمة السبكي رحمه الله:

«وينبغي لك أيها المسترشد أن تسلك سبيل الأدب مع الأئمة الماضين، وأن لا تنظر إلى كلام بعضهم في بعض إلا إذا أتى ببرهان واضح، ثم إن قدرت على التأويل وحسن الظن فدونك، وإلا فاضرب صفحاً عما جرى بينهم، فإنك لم تخلق لهذا، فاشتغل بما يعنيك، ودع ما لا يعنيك.

ولا يزال طالب العلم عندي نبيلاً حتى يخوض فيما جرى بين السلف الماضين، ويقضي لبعضهم على بعض»[(١)].

وهذا هو الأصل في تصرف طالب العلم مع علماء الأمة، فالغاية هي أن يشتغل بما يعني، ويستغني عما لا يعني ففي ذلك الأجر والمثوبة، وفي عكسه الفتنة والبلاء.

فإن لم يلتزم طالب العلم بهذا، وأقحم نفسه في ميدان الانتصار لهذا أو هذا من العلماء، ونصب نفسه قاضياً يقضي لأحدهم على الآخر دون أن تتوفر فيه مؤهلات ذلك، فإن ذلك سيسوقه إلى أن يهضم الآخرين حقوقهم، ويرى محاسنهم مساوىء، ويصبح همه الوحيد التقاط الأخطاء، وتتبع القبائح، والانتصار للذات، وبذلك يكون قد أقحم نفسه في ميدان تمزيق الأمة، وتفتيت وحدتها، وتفريق كلمتها، وما أروع ما قاله الإمام الشاطبي رحمه الله في هذه المسألة حيث قال:

---

(١) طبقات الشافعية لابن السبكي: ٢/ ٣٩، قاعدة في الجرح والتعديل: ٦١ـ ٦٢.

فبينا نحن نتتبع المحاسن صرنا نتتبع القبائح، فإن النفوس مجبولة على الانتصار لنفسها ومذاهبها وسائر ما يتعلق بها، فمن غض من جانب صاحبه، غض صاحبه من جانبه، فكان المرجع لمذهبه في هذا الوجه غاضاً من جانب مذهبه، فإنه تسبب في ذلك، كما في الحديث: «إن من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه.. يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه» فهذا من ذلك، وقد منع الله أشياء من الجائزات لإفضائها إلى الممنوع.. فالترجيح بما يؤدي إلى افتراق الكلمة وحدوث البغضاء ممنوع..»[١].

ومما يزيد البلاء، ويقطع سبل الإصلاح ورجوع المودة، ما يقوم به المتعصبون من طلبة العلم طعنهم وتعقبهم لرأي الخصم الذي نصبوا أنفهسم لعدائه، والانتصار لخصمه، مما يزيد الانحراف ويوسع شقة الخلاف، فيصعب على العلماء المتلطفين إصلاح ما انفتق نتيجة للجهل والتعصب، وفي ذلك يقول الغزالي رحمه الله:

«أكثر الجهالة إنما رسخت في قلوب العوام بتعصب جماعة من جهال أهل الحق، حين أظهروا الحق في معرض التحدي والإدلاء، ونظروا إلى ضعفاء الخصوم بعين التحقير والازدراء، فثارت في بواطنهم دواعي المعاندة والمخالفة، ورسخت في

---

(١) الموافقات: ٤/ ٣٦٤.

قلوبهم الاعتقادات الباطلة، وتعذر على العلماء المتلطفين محوها مع ظهور فسادها».

٧ ـ كيف نتعامل مع خطأ العالم أو زلته:

على طالب العلم أن يلزم الحذر أمام زلة العالم، وأن يتحوط كثيراً في التعامل مع أخطائه، فقد علمنا أن الزلة والخطأ من طبيعة البشر، ولذلك فعلينا كطلبة علم أن نحسن الظن، ونضبط انفعالاتنا تجاه أخطاء العلماء، فلا نجعل من الأخطاء والنقائص والعيوب مجالاً للاقتداء، ولتحقيق هذا الحذر علينا أن نتعامل معها على النحو التالي:

○ الخطأ لا يوجب التنقيص:

فإذا ظفرت بوهم لعالم فلا تفرح به للحط منه، ولكن افرح به لتصحيح المسألة فقط، فإن المنصف يكاد يجزم بأنه ما من إمام إلا وله أغلاط وأوهام، لا سيما المكثرين منهم.

وما يشغب بهذا ويفرح به للتنقيص إلا متعالم «يريد أن يُطِبَّ زُكاماً، فَيُحدِث به جذاماً».

نعم ينبه على خطأ، أو وهم وقع لإمام غُمر في بحر علمه وفضله، لكن لا يثير الرهج عليه بالتنقص منه، والحط عليه فيغتر به من هو مثله»[(١)].

(١) حلية طالب العلم: بكر أبو زيد: ص ٥٨.

فالخطأ يعرف إذن للتصويب لا للتنقيص، وللتوجيه والتنبيه لا للعيب والتشويه.

○ لا تقلد العالم في زلته:

إن زلة العالم ليست موضع الاقتداء، لأن مواطن الخير وموافقة الشرع هي موطن القدوة. والأصل في طالب العلم إذا عرف زلة العالم أن يتبع القاعدة التالية وهي:

«زلة العالم لا يصح اعتمادها من جهة، ولا الأخذ بها تقليداً له.. كما أنه لا ينبغي أن يُنْسَبُ صاحبها إلى التقصير أي: إذا بذل غاية وسعه واجتهاده ـ ولا أن يشنع عليه، ولا ينتقص من أجلها، أو يعتقد فيه الإقدام على المخالفة بحتاً، فإن هذا كله خلاف ما تقتضي رتبته في الدين»[(١)].

وهذا هو الصواب عند السلف رحمهم الله في التعامل مع أهل العلم، فتمسك به أخي طالب العلم، وعض عليه بالنواجذ.

○ تعامل مع الخطأ بعدل وإنصاف:

وقد ذكرت ضمن قاعدة الكلام في أهل العلم يجب أن يكون بعلم وعدل، وأن تُعرف لهم مكانتهم وفضلهم وسابقتهم، وأن لا تُضيع حسناتهم، وأن لا يبخسوا أشياءهم ولنعلم «أن من كثرت حسناته وعظمت، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر، فإنه

---

(١) الموافقات للشاطبي: ٤/ ١٧٠.

يحتمل له ما لا يحتمل لغيره، ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره، فإن المعصية خبث، والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث، بخلاف الماء القليل فإنه يحمل أدنى خبث... وهذا أمر معلوم عند الناس مستقر في فطرهم، إن من له ألوف من الحسنات فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها، حتى أنه ليختلج داعي عقوبته على إساءته، وداعي شكره على إحسانه، فيغلب داعي الشكر لداعي العقوبة، ما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد
جاءت محاسنه بألف شفيع

وقال آخر:

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً
فأفعاله اللاتي سررن كثير[1]

٨ ـ التماس الأعذار بالأسباب:

يتعرض الإنسان ـ ومنذ طفولته ـ إلى تركيبة متشابكة من العوامل والمؤثرات التي تؤدي إلى تكوين مجمل خصائصه الذاتية، ومن هذه العوامل مجموعة من الخصائص الفطرية كالذكاء والموهبة، وقابلية الذاكرة، والاستيعاب اللغوي، وسرعة الإدراك، والقدرة العددية، ونظائرها، وكذلك مجمل الخصائص والقدرات

---

(١) مفتاح دار السعادة: ١/ ١٧٦.

الآلية كدقة التحكم، وتوقيت رد الفعل، وسرعة الاستجابة وأشباه ذلك، ومجمل الخصائص الإبداعية كالتفكير التباعدي، والتقويم والإدراك، وأشباه ذلك.

ويضاف إلى الخصائص الفطرية مجموعة العوامل البيئية كالحضارة والبداوة، وحياة المدينة والريف، والغنى والفقر، والعلم والجهل، وطريقة تربية الوالدين.

ثم يأتي دور العوامل الاجتماعية كنمط الحياة، والعزلة والخلطة، وهل للشخص أشقاء أم لا، وطبيعة أساتذة كل مادة خلال حياته الدراسية، ثم بعد ذلك المجموعة المتشابكة من العوامل المكتسبة من تأثره بالمحيط والأفراد والأجواء والعائلة، والثقافة الذاتية ونوعها وكميتها، ثم طوارىء الحياة كالفتن والزواج والطلاق والمشاكل السياسية وطبيعة البلد، وغير ذلك مما يشكل إحصاؤه صعوبة واضحة، والإنسان بعد ذلك كله نتيجة لمثل هذه المؤثرات في خصائصه وصفاته وقدراته.

إن إدراك هذه الحقيقة تجعل المنصف يعذر أخطاء، وعيوب أهل الفضل والأكابر، كما أنه لا يبالغ في مدحهم والثناء على عبقريتهم، فإن الله سبحانه وتعالى قد أوجد كل هذه الأسباب ليختص الإنسان بخصائص ومميزات ومواهب معينة، ولا بد للناظر لميزات كل إنسان أن يسارع إلى التماس العذر له عند رؤية بعض النقائص، لأن المنظور إليه إنسان قد تعرض لأسباب

النقص، فكم من قائد ملهم يفتقد الخطابة والكتابة لعجز فطري، وغير ذلك مما يمكن القياس عليه، ويعتذر به عن النقص عند أهل الفضل والمعروف، رغم أن هذا ليس تبريراً يمنع أهل المعروف من الاستزادة من الخير، والصعود في سلم المعروف، والارتقاء في المعالي، ودفع النقائص، وقبول النصائح، ولكنها حقيقة حياتية يجب أن لا تهمل في النظر إلى الناس[(١)].

٩ ـ الأئمة الثقات لا يقبل فيهم أقوال الجارحين:

واعلم أخي طالب العلم أنار الله بصيرتي وبصيرتك باتباع الحق، أن الأئمة الثقات لا يقبل فيهم جرح الجارحين، وتتعامل معهم على أساس عدالتهم، وعلى هذا كانت أقوال العلماء الثقات العاملين، ولا يغرنك أن بعضهم قد خرج عن هذه القاعدة، فلا تتبعه على خطأ، فالمبدأ هو المعمول به وليس أفعال الأشخاص:

وفي ذلك يقول ابن عبد البر رحمه الله تعالى:

الصحيح في هذا الباب أن من ثبتت عدالته، وصحت في العلم إمامته، وبانت ثقته وبالعلم عنايته، لم يلتفت فيه إلى قول أحد إلا أن يأتي في جرحته ببيِّنة عادلة، تصح بها جرحتُه على طريق الشهادات»[(٢)].

---

(١) مسافر على طريق الدعوة: ص ١٣٧ـ١٣٨.

(٢) قاعدة في الجرح والتعديل: ص ١٣ـ ١٤.

○ **قال السبكي رحمه الله:**

«الصواب عندنا أن من ثبتت إمامته وعدالته، وكثر مادحوه ومزكوه، ونَدَر جارحوه، وكانت هناك قرينةٌ دالة على سبب جرحه، من تعصب مذهبي أو غيره، فإنا لا نلتفت إلى الجرح فيه، ونعمل فيه بالعدالة، وإلا فلو فتحنا هذا الباب، وأخذنا تقديم الجرح على إطلاقه، لما سلم لنا أحد من الأئمة، إذ ما من إمام إلا وقد طعن فيه طاعنون، وهلك فيه هالكون»[1].

وقال رحمه الله:

«.. أن الجارح لا يُقبَلُ منه الجرح، وإن فسَّره في حق من غلبَتْ طاعاته على معاصيه، ومادحوه على ذامِّيه، ومزكُّوه على جارحيه، إذا كانت هناك قرينة يَشهد العقل بأنَّ مثلها حاملٌ على الوقيعة في الذي جَرحَه من تعصُّبٍ مذهبي، أو منافسة دنيوية، كما يكون بين النظراء، أو غير ذلك»[2].

وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى:

«لو كان كلُّ من ادُّعيَ عليه مذهب من المذاهب الرديئة، ثبَتَ عليه ما ادُّعِيَ عليه، وسقَطَت عدالتُه، وبطَلَتْ شهادتُه بذلك، للزم تَرْكُ أكثر مُحدِّثي الأمصار، لأنَّه ما منهم ـ أحدٌ ـ إلا وقد

(١) قاعدة في الجرح والتعديل: ص ٩ـ ١٠.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٣.

نسبه قوم إلى ما يُرغَبُ به عنه، ومن ثبتت عدالتُه لم يقبل فيه الجرح، وما تُسقط العدالة بالظن»[(١)].

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله:

«كلُّ رجلٍ ثبتت عدالتُه، لم يُقبَل فيه تجريحُ أحد، حتى يتبيَّن ذلك عليه بأمر لا يَحتملُ غير جَرْحه»[(٢)].

١٠ ـ خذ من العلماء صوابهم واترك خطأهم:

ولما كانت غايتك أخي طالب العلم أن تصل إلى الحق، وتنجو به في عرصات القيامة، فلا يضرك أنه تأخذه من أي من العلماء المرشدين، فإن كل إنسان محاسب يوم القيامة عما يقوم به وما يقوله في الدنيا، ولن يضره أخطاء الآخرين إذا نجى بنفسه يوم القيامة، فعليك أخي طالب العلم أن تستفيد من العلماء بمقدار ما ينفعك في آخرتك، وما يضرك عيب الأئمة الكبار إذا أرشدوك إلى الحق والخير، وما يضرك ما فيهم من نقص إذا أبعدوك عن الشر، فأنت حينئذٍ مثل من (... يطلب مهرباً من سبع ضار يفترسه، لم يفرق بين أن يرشده إلى الهرب مشهور أو خامل، وضراوة سباع النار بالجهل بالله تعالى أشد من ضراوة كل سبع، فالحكمة ضالة

---

(١) هدي الساري: ١/ ١٥١ـ ١٥٢.

(٢) تهذيب التهذيب: ٧/ ٢٧٣.

المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها، ويتقلد المنة لمن ساقها إليه كائناً من كان..)[1].

١١ ـ لا تشمت بأخطاء العلماء فتفتضح ويشمت الناس بك:

إن طالب العلم لا يفرح بأخطاء أهل العلم، فالسابقون كانوا يقولون حين سئلوا عن آداب المناظرة، ولم لا يتناظرون مع غيرهم، فقال قائلهم: كان أحدنا إذ تناظر مع صاحبه، يدعو الله تعالى أن ينطق صاحبه بالحق، فإذا فعل فرح له مناظره» أما الخلف الذين جاؤوا بعدهم فإن أحدهم أشد ما يكون فرحاً إذا أخطأ صاحبه، فيشمت به ويظهر عيوبه ومثالبه.

فطالب العلم حين يعرف نفسه وما عنده من جوانب القصور الكثيرة سينشغل بها عن غيره، فمن العيب بل من العار أن يرى القشة في عين صاحبه، ولا يرى جذع الشجرة في عينه، وإن من رأى عمله عرضة لكل آفة ونقص رأى تفوق غيره عليه، وخشي على نفسه.

«ولا يكمل هذا المعنى إلا بأن تربأ بنفسك عن تعيير المقصرين، فلعل تعييرك لأخيك بذنبه أعظم ذنباً من ذنبه، وأشد من معصيته، لما فيه من صولة الطاعة، وتزكية النفس وشكرها، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب، وأن أخاك باء به، ولعل كسرته

(١) إحياء علوم الدين: ١/ ٥٠.

بذنبه وما أحدث له من الذلة والخضوع، والإزراء على نفسه، والتخلص من مرض الدعوى والكبر والعجب، ووقوفه بين يدي الله ناكس الرأس، خاشع الطرف، منكسر القلب، أنفع له وخير من صولة طاعتك، وتكثرك بها، والاعتداد بها والمنة على الله وخلقه بها، فما أقرب هذا العاصي من رحمة الله، وما أقرب هذا المدل من مقت الله، فذنب تذل به لديه أحب من طاعة تدل بها عليه، وأنك أن تبيت نائماً وتصبح نادماً، خير من أن تبيت قائماً وتصبح معجباً، فإن المعجب لا يصعد له عمل، وإنك إن تضحك وأنت معترف، خير من أن تبكي وأنت مدل، وأنين المذنبين أحب إلى الله عزّ وجلّ من زجل المسبحين المدلين، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواءً استخرج به داءً قاتلاً هو فيك ولا تشعر..»[1].

جـ ـ كيف تكون نظرة الخصوم إلى العلماء:

إن أي عالم من العلماء، وخاصة الأئمة الكبار والعلماء الذين يؤثرن في واقعهم سيواجهون تعاملاً خاطئاً معهم في أقوالهم وأفعالهم، فمن متعصب لهم إلى درجة تكاد تصل بهم أو بمناهجهم إلى العصمة، ولهذا يأخذ هذا المتعصب كل كلامهم على أنه حقائق مسلمة، وبدهيات لا تقبل المناقشة، ومنهم متعصب ضدهم، فهو مغرض في الحديث عنهم، متهم في نيته

---

(١) تهذيب مدارج السالكين: ص ١٢٠.

ضدهم، يقبل على مؤلفاتهم وبحوثهم بهدف تصيد الأخطاء وتضخيمها واتهامهم نتيجة لذلك في عقائدهم ودينهم ودنياتهم وأفكارهم وحياتهم.

وكلتا النظرتين لا تصدر عن منهج إسلامي سديد، بل النظرة التي تتفق مع منهج الإسلام الأصيل في النظر والتقويم، هي النظرة التي تزن الأمور بمنهج عادل متزن، فلا إفراط ولا تفريط، ولا شطط فيها ولا تقصير، يقدر أصحابها كلام العلماء ولا يقدسونه، ويعرضون كلامهم على الحق فما وافقه أخذوا به وتبنوه، وما خالفه تركوه مع احترام صاحبه وتوقيره، ودون أن يكبروا الأخطاء إلى درجة التغطية على الصواب الكثير.

ومن أهم الأخطاء التي وقع بها بعض المسلمين في تعاملهم مع كلام العلماء والنظرة إليه، والتي قادتهم بالتالي إلى سلسلة من الأخطاء الأخرى من سوء الفهم والتأويل، والاتهام والتنقيص، وإثارة الشبهات والاتهامات حول بعض القضايا التي يجدون فيها أو في تأويل أو تفسير يتوافق مع أهوائهم، وبالتالي جعلتهم يخرجون بنتائج خاطئة، أو يصدرون أحكاماً خاطئة، لأن ما بني على الخطأ فهو خطأ، ما يلي:

١ ـ النظر إلى كلام العلماء ـ أو العالم ـ بمنظار أسود بهدف التقاط الأخطاء أو تسجيل العيوب والمآخذ:

ولا شك أن الذي ينظر بهذا الشكل إلى كلام العلماء ـ أو

العالم أياً كان ـ له دلالة على نفسيته غير السوية أولاً، كما يدل على افتراض سوء النية عنده ثانياً، فهو بهذه النظرة يعمد إلى إخفاء الحسنات والفضائل والمزايا على كثرتها، ويركز على المآخذ على قلتها؟ فهل هذا هو أدب الإسلام وسماحته؟ وهل يتقرب من يفعل هذا إلى الله بالإساءة إلى جنوده وعباده؟ أم أن من يفعل ذلك يتفق في فعله هذا مع أعداء الدين، ويلتقي معهم على تشويه فكر المسلمين وعلومهم بالإساءة إلى رجاله وتنقيص رواده؟ إن لم يكن بعض من يفعل هذا من منفذي خطط الأعداء ومكرهم ومؤامراتهم!!!.

٢ ـ سوء التصنيف للأخطاء، بجعلها في درجة واحدة:

حيث يعتبر خصوم العلماء ـ أو العالم أياً كان ـ أن جميع الأخطاء بدرجة واحدة فهم لا يفرقون بين خطأ في المنهج والأساس والهدف والباعث، وبين خطأ آخر في بعض الجزئيات والتفاصيل، فاعتبار هذين الخطأين على درجة واحدة ظلم كبير للعالم الذي يتناولونه.

والأخطاء ثلاثة:

ـ خطأ في الباعث والمقصد حيث تكون النية سيئة، والمقصد خبيث، والباعث على دراسة هذا الدين العداء والحقد، فهذا يكفي لإساءة الظن بكل كلام، وعدم اعتبار لآرائه، فهذا الخطأ يقع فيه الذين يتحدثون عن الإسلام من أعدائه من

المستشرقين، أو الشيوعيين، أو الصليبيين، أو اليهود أو غيرهم، فهؤلاء متهمون في نياتهم وبواعثهم.

ـ خطأ في المنهج والخطة مع سلامة في المقصد وحسن النية ونبل الباعث، وهذا يوقع صاحبه في أخطاء كثيرة، لأن للمنهج أهمية كبيرة في صحة المضمون، فصاحب هذا الخطأ لا بد أن يشار إلى أخطائه الناتجة عن منهجه ـ وهي كثيرة ـ كذلك لا بد أن يشار إلى إصاباته ـ وهي قليلة ـ مع التسليم بسلامة مقصده، وهؤلاء مثل المعتزلة والخوارج، فمقاصدهم طيبة، ونياتهم حسنة، ومع ذلك منهجهم خاطىء، ومنطلقهم مشوه.

ـ خطأ في بعض خطوات الطريق، وفي عرض بعض الأفكار، وفي التعبير عن بعض المعاني. والخروج ببعض النتائج، مع حسن النية وسلامة المقصد أولاً، ومع صحة المنهج وصوابية المنطلق واستقامة الطريق ثانياً، فهذا الخطأ العرضي لا يضير صاحبه، ولا ينعكس على فكره ونتاجه، ولا يأخذ أكبر من حجمه الطبيعي، وهو من سمات البشر وينطبق على صاحبه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥].

وعلى هذا تحمل أخطاء علماء المسلمين، ورواده في مختلف العلوم الإسلامية، وينطبق عليهم المثل القائل (كفى بالمرء نبلاً أن تعد معايبه).

٣ ـ الخطأ في الحكم الناتج عن سوء التصنيف للأخطاء الجانبية الموجودة في مصنفات العلماء:

فإذا اكتشف الذي يبحث بهذه النظرة خطأً، أو مأخذاً عند أحد العلماء، فإنه يصدر حكماً جائراً بالدعوة إلى ترك ذلك الكتاب أو المصنف الذي وجده فيه، ولا يكتفي بهذا بل يبادر بإصدار الحكم الظالم بتجهيل صاحبه واتهامه في نيته ومقصده، وفي إيمانه وعقيدته، وفي أفكاره وآرائه، وما هكذا يتعامل أهل العلم وطلبته الحقيقيون مع أفكار وآراء العلماء، ولا هكذا يتم التعامل مع مؤلفاتهم أو إصدار الأحكام عليها.

فالباحث العادل الذي ينطلق من توجيهات القرآن ومبادىء الإسلام وأسس المنهج العلمي الموضوعي الإسلامي، يعتمد الكلام الصحيح للعالم الذي يدرس، ويترك الكلام الخاطىء مع الاحترام والتوقير، إن وقوع العالم في خطأ ـ غير مقصود وناتج عن الاجتهاد ـ لا يعني ترك نتاج وعلم هذا العالم كله، بل يعني رفض الخطأ وحده وأخذ باقي علمه وكلامه.

وقد بينت في الضوابط السابقة كيفية التعامل مع زلات العلماء وهفواتهم بما فيه الكفاية.

٤ ـ محاكمة كلام العالم إلى صورة معينة في ذهن الباحث:

كأن يحاكم كلام ذلك العالم بناءً على مذهب كلامي أو فقهي معين، أو مدرسة خاصة، مع أن ذلك العالم لا يخضع لذلك

المذهب، ولذلك فإن الذي يفعل ذلك فإن حكمه صادر سلفاً على أن ذلك الكلام خطأ، وأن ذلك العالم الذي قاله مخطىء!!!.

الذي يفعل ذلك يجعل من فهم أصحاب الفرق الإسلامية ـ مثلاً ـ أصلاً تحاكم إليه نصوص القرآن ودلالاتها وإيماءاتها، بدل أن يحاكم ذلك الفهم إلى تلك النصوص.

وفي هذا يقول الدكتور عدنان زرزور حفظه الله: «إن آراء رجال المذاهب الكلامية ليست أصلاً تفسر في ضوئه نصوص القرآن، وليست مقرراتهم الفكرية المسبقة مقدمات ضرورية لفهم القرآن، علماً بأن هذه المقررات ليست إلا فهماً مجزءاً للنص القرآني! إن الأصل عندنا لا يصير فرعاً، والفرع لا ينقلب أصلاً..»[١].

وحتى لا يقع الباحث في خطأ عند نظرته إلى أي عالم وفهم أفكاره وآرائه، وحتى لا يحاكمه إلى آراء ومقررات أصحاب الفرق الإسلامية، فعليه أن يتعرف على منهجه في فهم القرآن الكريم، والسُّنّة المطهرة، وعلى طريقته في استخراج الأحكام والمسائل منهما سواءً كانت اعتقادية أو حكمية، وأن يحاكمه بناءً على تقريرات القرآن ذاته، وتفسيرات رسول الله ﷺ، وتصورات الصحابة والتابعين.

---

(١) علوم القرآن للدكتور عدنان زرزور: ص ٤٣٠.

٥ ـ عدم جمع كلام العالم المتفرق في كتبه حول الموضوع الواحد:

إن العالم قد يكرر الحديث عن الموضوع الواحد مرات عديدة في مصنفاته، ويفرقه في مواطن مختلفة، وقد يغير في طريقة العرض بزيادة أو نقصان في المادة المعروضة حسب السياق الذي يعرض فيه ذلك الموضوع، وقد يختلف رأيه ويتجدد في بعض المسائل حسب نظراته المتجددة، وعلمه المتجدد المتطور.

فإذا وقف الباحث على رأي ما للعالم حول موضوع معين، فإنه لا يستطيع أن يجزم أن هذا هو الرأي الأخير الذي استقر عليه ذلك العالم، إلا بعد الاطلاع على كلامه حول هذا الموضوع في المواطن المتفرقة، ثم يجمعه وينظر فيه مجتمعاً، ثم يخضعه لأسس البحث والترجيح عند التعارض حتى لا يظلم ذلك العالم أو يقوِّله ما لم يقل، أو ينسب له رأياً تراجع عنه في وقت لاحق!!!.

ولذلك يحتاج طالب العلم المنصف الذي يضع طلب الحق نصب عينيه، ويريد أن يعرف رأي العالم في أي موضوع من الموضوعات أن يجمع كلامه المتفرق حول ذلك الموضوع، ثم ينظر فيه بعد ذلك، وهذا الجمع يحتاج إلى أناة وجلد واطلاع

واسع على مصنفات ذلك العالم، ولكن لا بد من ذلك حتى لا يظلم ذلك العالم في الحكم له أو عليه.

إن الكثير من العلماء يديمون النظر في آرائهم وأفكارهم حسب ما يكتسبه من علوم جديدة. ناتجة عن كثرة نظره في العلوم والمعارف التي يطلع عليها، فيعدل في نظرته إلى بعض المواضيع والمسائل، ويصوب آراءه فيها، ويعترف ـ بالنص الصريح ـ على خطئه في فهمه السابق، وأن الصحيح هو هذا الرأي الجديد.

٦ ـ إغفال المنهج الإسلامي في النظر في أقوال العالم، وبخاصة عند تعارضها:

إن هذا المنهج ـ كما بينه علماء الأصول ـ يقوم على أربع مراحل متدرجة:

أ ـ الجمع بين النصوص المتعارضة، والاجتهاد في التوفيق بالطرق الصحيحة للتوفيق.

ب ـ إذا لم يمكن التوفيق بينها فالترجيح، بأن يرجح أحدها على الباقي بإحدى طرق الترجيح.

جـ ـ وإذا لم يمكن الترجيح يلجأ إلى القول بالنسخ، حيث ينسخ المتأخر المتقدم، واللاحق السابق.

د ـ وإذا لم يمكن هذا أيضاً يسقط اعتبار هذه النصوص، ويتوقف عن العمل بها أو اعتمادها.

وفي هذا يقول الشيخ عبد الوهاب خلاف: «إذا تعارض النصان ظاهراً، وجب البحث والاجتهاد في الجمع والتوفيق بينهما بطريق صحيح من طرق الجمع والتوفيق، فإن لم يمكن وجب البحث والاجتهاد في ترجيح أحدهما بطريق من طرق الترجيح، فإن لم يمكن هذا ولا ذاك، وعلم تاريخ ورودهما كان اللاحق منهم ناسخاً للسابق، وإن لم يعلم تاريخ ورودهما توقف عن العمل بهما.

وإذا تعارض قياسان أو دليلان من غير النصوص ولم يمكن ترجيح أحدهما عدل عن الاستدلال بهما[١].

وطرق الترجيح في المرحلة الثانية من مراحل النظر في النصوص المتعارضة هي: ترجيح دلالة العبارة على دلالة الإشارة، وترجيح المنطوق الصريح على المنطوق غير الصريح، وترجيح المنطوق الصريح على المفهوم، وترجيح المفسر على الظاهر»[٢].

ومن مظاهر هذا الخطأ ـ مظهر آخر خطير وهو تطبيق «مفهوم المخالفة» على كلام العالم، الذي لم يجمع كاملاً أولاً، ولم يوفق بينه ثانياً، حيث يقرأ الذي يفعل هذا العبارة ويقف عندها، ولا يكلف نفسه أن يجمع معها مثيلاتها ـ إذ قد يخرج بذلك المجموع برأي صائب ـ بل يستنطق هذه العبارة، ويُقَوِّلُها ما

---

(١) علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف: ص ٢٢٩.

(٢) المرجع السابق: ٢٣١ـ٢٣٢.

ليس فيها، ومن ثم ينسب إلى صاحبها رأياً لم يقله، أو لم يخطر على باله، ويلزمه بأشياء لا تلزمه، وذلك بسبب تطبيق مفهوم المخالفة عليها.

إذ أن هناك خلافاً بين الأصوليين في الأخذ بمفهوم المخالفة، والراجح عندهم أنه لا يحتج به، وفي ذلك يقول الشيخ عبد الوهاب خلاف رحمه الله: (النص الشرعي لا دلالة له على حكم في مفهوم المخالفة»، ويبين المعنى الإجمالي لهذه القاعدة فيقول:

«إن النص الشرعي لا دلالة له على حكم ما في المفهوم المخالف لمنطوقه، لأنه ليس من مدلولاته بطريق من طرق الدلالة الأربع (وهي العبارة والإشارة والدلالة والاقتضاء) بل يعرف حكم المفهوم المخالف المسكوت عنه بأي دليل آخر من الأدلة الشرعية التي منها الإباحة الأصلية)[١].

وبعض الباحثين ـ أو طلبة العلم ـ يحرصون ويصرون على تطبيق مفهوم المخالفة على كلام العلماء الذين يتقصدونهم بالدراسة في مسألة ما، ثم يعممون هذا الرأي على ما يخالفها.

ويقرر الدكتور عدنان زرزور حفظه الله أن هذا الأسلوب من أكبر الأخطاء في التعامل مع آراء العلماء والأخذ عنهم، حيث أن طلبة العلم لو طرحوا في اعتمادهم لفهم كلام العلماء مفهوم

---

(١) المرجع السابق: ١٥٣ ـ ١٥٤.

المخالفة من نظرتهم، لانتهت أكثر المشاكل من أذهان أصحابها والله أعلم»[1].

ثم إن اعتماد هذا البعض لمفهوم المخالفة، وتطبيقه على آراء العالم ـ أو العلماء ـ وأفكاره جعلهم ينسبون إليه أقوالاً لم يقلها، وأحكاماً لم يصدرها، وآراءً لم ينص عليها، فقد ألزموه بلوازم لا تلزمه لأنه قد يكون صرح في مواطن أخرى بنقضها ونفيها، فإذا كان لازم المذهب ليس بمذهب، فكيف نلزم صاحب المذهب به؟ وإذا كان صرح بنفيه فكيف ننسبه إليه؟.

إن لازم المذهب ليس بمذهب إذا لم يلتزمه صاحبه، وبخاصة إذا أنكره، ولذلك يكون إلزامه به ونسبته إليه كذباً وافتراءً عليه، وإلى هذا ذهب جمهور العلماء.

وفي مقدمة هؤلاء الإمام ابن تيمة رحمه الله، فقد سئل: هل لازم المذهب مذهب أم لا؟.

فأجاب: والصواب أن مذهب الإنسان ليس بمذهب له إذا لم يلتزمه، فإنه إذا كان قد أنكره ونفاه كانت إضافته إليه كذباً عليه، بل ذلك يدل على فساد قوله وتناقضه في المقال، غير التزامه اللوازم التي يظهر أنها من قبيل الكفر والمحال مما هو أكثر، فالذين قالوا بأقوال يلزمها أقوال يعلم أنه لم يلتزمها:

---

(١) علوم القرآن لزرزور: ٤٢٨.

ويورد مثالاً لهذه القاعدة فيقول: (ولو كان لازم المذهب مذهباً للزم تكفير كل من قال عن الاستواء أو غيره من الصفات أنه مجاز ليس بحقيقة، فإن لازم هذا القول يقتضي أن لا يكون شيء من أسمائه وصفاته حقيقة»[1].

هذه هي أهم أخطاء الذين ينظرون إلى العلماء نظرة خصومة، مما أدى بهم إلى أن يصلوا إلى نتائج خاطئة، واستخرجوا من كتب العلماء أحكاماً خاطئة، وآراء خاطئة، ومذاهب خاطئة، وأصدروا لهم أو عليهم أحكاماً خاطئة، ولا غرابة في ذلك فإن ما بني على الخطأ فهو خطأ[2].

د ـ النظرة الصحيحة إلى آراء العالم الواحد:

أما الطريقة الصحيحة والموضوعية المنهجية والعلمية والموضوعية والأصولية للتعامل مع الأقوال المتعارضة للعالم الواحد، والتي دل عليها الدكتور الأصولي الشهيد أستاذي وشيخي عبد الله عزام رحمه الله ورفع درجته حيث أخبر عن هذه الطريقة وأنها تتمثل فيما يلي:

١ ـ أن نثبت نسبة النصوص محل الاتهام إلى قائلها أو كاتبها.

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٠/ ٢١٧.

(٢) قد استفدت هذه الأفكار من كتاب في ظلال القرآن في الميزان للدكتور صلاح الخالدي حفظه الله، وتصرفت فيها اختصاراً حسب الحال: انظر ص: ٢١ـ٣٧.

٢ ـ أن يجمع بين النصوص، فيحمل المجمل على المبين المفصل، والمبهم على الواضح.

٣ ـ أن يُلجأ إلى النسخ التاريخي، فيعتد بالنص المتأخر، وينسخ به القول المتقدم.

٤ ـ أن يرجح بين النصوص المتعارضة بطريقة الترجيح المعروفة في الفقه والأصول، فترجح عبارة النص على إشارة النص، ويرجح المنطوق الصريح على المنطوق غير الصريح أو يلجأ إلى إسقاط العبارتين المتعارضتين إذا لم يتوصل إلى ترجيح إحداهما.

٥ ـ الأصل هو إحسان الظن فيما يقوله المسلم، ويحمل على المحمل الحسن، وأن يفسر التفسير السليم المتفق مع عقيدة السلف، ولنا في ضنيع سلفنا الصالح قدوة في إحسان ظن بعضهم ببعض، وفي حمل كلام بعضهم على الحسن والأحسن في فهمه وتفسيره ـ وإن كان موهماً ـ على المعنى الطيب، والعقيدة الصحيحة، والقول الحسن.

ومن ذلك ما نراه من دفاع الإمام ابن القيم رحمه الله عن الإمام الهروي في كتابه «منازل السائرين إلى الحق» حين دفع عنه تهمة الفناء ووحدة الوجود حين يقرأ عبارته عن الفناء والتي تقول:

«هو اضمحلال ما دون الحق علماً، ثم مجداً، ثم حقاً، وهو على ثلاث درجات: «الدرجة الأولى فناء المعرفة في المعروف

وهو الفناء علماً، وفناء العيان في المعاين وهو الفناء جحداً، وفناء الطلب في الوجود وهو الفناء حقاً.

والدرجة الثانية: فناء شهود الطلب لإسقاطه، وفناء شهود المعرفة لإسقاطها، وفناء شهود العيان لإسقاطه.

والدرجة الثالثة: الفناء عن شهود الفناء وهو الفناء حقاً...»[1].

ولكن الإمام ابن القيم ـ السلفي البصير المتزن ـ يدافع بحرارة عن الهروي عندما شرح كلامه في «مدارج السالكين» الذي شرح به كتاب الهروي «منازل السائرين».

قال: «وحاشا شيخ الإسلام ـ الهروي ـ من إلحاد أهل الإلحاد، وإن كانت عبارة موهمة، بل مفهمة ذلك»[2].

ويتابع رحمه الله وهو يدافع عن الهروي، ويرد على من يتهمه بقوله بوحدة الوجود بقوله:

«وهذا كذب على شيخ الإسلام، وليس مراده: فناء شهود العيان، فيفنى عن مشاهدة المعاينة، ويغيب بمعاينة عن معاينته،

---

(١) منازل السائرين للهروي: ٧٥.

(٢) مدارج السالكين: ١/ ١٤٩.

وليس مراده: انتفاء التعدد والتغاير بين المعايِن والمعايَن، وإنما مراده؛ انتفاء الحاجب عن درجة الشهود، لا عن حقيقة الوجود.

وفرق بين إسقاط الشيء عن درجة الوجود العلمي الشهودي، وإسقاطه عن رتبة الوجود العيني الخارجي، فشيخ الإسلام ـ بل مشايخ القوم المتكلمين بلسان الفناء ـ هذا مرادهم»[1].

ويقول بعبارة صريحة مدافعاً عن الهروي وغيره فيقول:

«وليس مرادهم فناء موجود ما سوى الله في الخارج، بل فناؤه عن شهودهم وحسهم، فحقيقته: غيبة أحدهم عن سوى مشهودِهِ، بل غيبته عن شهوده ونفسه...»[2].

ويقول الإمام ابن تيمية رحمه الله حول هذا المعنى:

«إذا قال أحد المشايخ ما أرى غير الله، أو لا أنظر إلى غير الله ونحو ذلك، فمرادهم بذلك: ما أرى رباً غيره، ولا خالقاً ولا مدبراً غيره، ولا إلهاً لي غيره.. ولا أنظر إلى غيره محبة له أو خوفاً منه أو رجاءً له..»[3].

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ١٥١.

(٢) المصدر السابق: ١/ ١٥٥.

(٣) العبودية لابن تيمية: ص ١٥١.

هذه هي أهم القواعد المتبعة في النظرة الموضوعية الصحيحة لأراء العالم الواحد، وخاصة عند تعارض أقواله[1].

هـ ـ ابن تيمية بشر يخطىء ويصيب:

وشيخ الإسلام ابن يمية رحمه الله من كبار علماء الإسلام والمسلمين، وقد كان صاحب عطاءٍ علمي متجدد في عصره، ولم يعرف لأحد التبحر في شتى العلوم والمعارف كما عرف له رحمه الله، ولم يعرف لأحد من علماء الإسلام من العطاء العلمي والتصانيف كما عرف له ولقلة من العلماء الآخرين، ولكنه سيبقى بشراً من البشر يصيب ويخطىء، ولا يُدَّعى له العصمة فهو لم يدّعها لنفسه، وما أخطأ فيه وهو قليل مغمور في بحر علمه وفضله وهو كثير غزير، ولا ينظر إليه إلا وفقاً للمنهج الصحيح والضوابط التي أسلفت في التعامل مع العلماء، فعلى طلبة العلم أن لا يغمطوا الرجل حقه، فقد كان كنزاً لا نظير له، وبحر من العلم لا ساحل له، إذا تكلم في فن من فنون العلم ظن سامعه أنه لا يحسن إلا ذلك الفن، وقد ألان الله له العلوم كما ألان الحديد لداود عليه السلام كما قال ابن الزملكاني رحمه الله، وكان رجلاً جمع العلوم بين عينيه يأخذ منها ما يشاء ويترك ما يشاء كما قال

---

(١) مجلة المجتمع عدد ٥٢٦، تاريخ: ٢٣ جمادى الآخرة: ١٤٠١، صفحة ٢٣ـ ٢٥، والعددان التاليان: ٥٢٧ صفحة ٢٣ـ ٢٥، ورقم ٥٢٨: صفحات ٣٢ـ ٣٤، وانظر في ظلال القرآن في الميزان: ٨٣، ٨٤، ٨٩، ٩٠.

ابن دقيق العيد رحمه الله، وبناءً على هذه النظرة الصحيحة ـ الموضوعية كيف نظر إليه مترجموه، وسأورد فيما يلي بعضاً من أقوالهم.

○ **قال الحافظ الذهبي رحمه الله فيه:**

«... وقد انفرد بفتاوى نِيل من عرضه لأجلها، وهي مغمورة في بحر علمه، فالله تعالى يسامحه، ويرضى عنه، فما رأيتُ مثلَه، وكلٌّ أحدٍ من الأُمّةِ فيؤخذ من قوله ويترك، فكان ماذا؟»[1].

«وانفرد بمسائل، فنيل من عرضِهِ لأجلها، وهو بشر له ذنوبٌ، وخطأ، ومع هذا فوالله ما مقَلَت عيني مثلَهُ، ولا رأى هو مثل نفسِهِ.

كان إماماً متبحراً في علوم الديانة، صحيح الذهن، سريع الإدراك، سَيَّال الفَهْم، كثير المحاسن، موصوفاً بفرط الشجاعة والكرم، فارغاً عن شهوات المأكل والملبس والجماع، لا لَذَّةَ له في غير نشرِ العلم وتدوينه والعمل بمقتضاه»[2].

«وأنا لا أعتقد فيه عصمة، بل أنا مخالف له في مسائل أصلية وفرعية، فإنه كان مع سعة علمه، وفرط شجاعته، وسيلان ذهنه، وتعظيمه لحرمات الدين: بشراً من البشر، تعتريه حِدَّة في

---

(١) تذكرة الحفاظ: ٤/١٤٩٦.

(٢) المعجم المختص بالمحدثين: ص ٢٥.

البحث وغضب وشطط للخصم تزرع له عداوة في النفوس، وإلا لو لاطف خصومه لكان عليه كلمة إجماع، فإنَّ كبارهم خاضعون لعلومه، معترفون بتفوقه، مُقرِّون بُندورةِ خطئه، وأنه بحر لا ساحل له، وكنز لا نظير له، ولكن ينقمون عليه أخلاقاً وأفعالاً، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك ـ سوى رسول الله ﷺ ـ ولم أرَ مثله في ابتهاله واستغاثته وكثرة توجهه»[1].

«.. وهو بشر من البشر، له ذنوب، فالله تعالى يغفر له ويسكنه أعلى جنته، فإنه كان رباني الأمة، وفريد الزمان، وحامل لواء الشريعة وصاحب معضلات المسلمين، وكان رأساً في العلم..»[2].

«.. ويناظر أسوة بمن تقدمه من الأئمة، فله أجر على أخطائه، وأجران على إصابته»[3].

○ **وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:**

«... وبالجملة كان ـ رحمه الله ـ من كبار العلماء، وممن يخطىء ويصيب، ولكنه خطأه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في بحر لجي، وخطؤه أيضاً مغفور له، كما في «صحيح البخاري»:

---

(١) الدرر الكامنة: ١/ ١٦١، ثلاث تراجم نفيسة: ص ٢٤.

(٢) العقود الدرية: ص ٢٤.

(٣) الدرر الكامنة: ١/ ١٦١، الوافي بالوفيات عن المنجد: ص ٢٩.

إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»[1] فهو مأجور، وقال الإمام مالك بن أنس: كل أحد يؤخذ من قوله ويُترك إلا صاحب هذا القبر ﷺ، والله سبحانه وتعالى أعلم»[2].

○ وقال الحافظ بن فضل الله، العمري رحمه الله شعراً في رثائه كان منه:

يا عالماً بنقول الفقه أجمعها
أعنك تحفظ زلات كما ذكروا

كم مِنْ فتىً جاهل غرٍّ أبنتَ له
رُشد المقاله فزالَ الجهل والغررُ

ما أنكروا منك إلا أنهم جهلوا .
عظيم قدرك لكن ساعد القدرُ

قالوا بأنك قد أخطأت واحدة
وقد يكون، فهلا منك تُغْتَفرُ

ومن يكون على التحقيق مجتهداً
له الثواب على الحالين لا الوَزرُ

---

(١) أخرجه البخاري: ١٣/ ٣١٧ بالفتح، ومسلم برقم: ١٧١٦ من حديث عمرو بن العاص.

(٢) البداية والنهاية: ١٤/ ١٤٠، الرد الوافر: ١٦٦ـ١٦٧، الشهادة الزكية: ص ٦٤.

ألم تكن بأحاديث النبي إذا
سُئلتَ تعرف ما تأتي وما تَذَرُ
حاشاك من شُبَهٍ ومن شَبَهٍ
كلاهما منك لا يبقى له أثرُ[1]

○ **وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله:**

«... وهذه تصانيفه طافحة بالردِّ على من يقول: بالتجسيم والتبري منه، ومع ذلك فهو بشر يخطىء ويصيب، فالذي أصاب فيه ـ وهو الأكثر ـ يستفاد منه، ويُتَرحم عليه بسببه، والذي أخطأ فيه لا يقلد فيه، بل هو معذور لأن أئمة عصره شهدوا له بأن أدوات الاجتهاد اجتمعت فيه، حتى كان أشد المتعصبين عليه، والقائمين في إيصال الشر إليه، وهو الشيخ كمال الدين الزملكاني شهد له بذلك، وكذلك الشيخ صدر الدين ابن الوكيل الذي لم يثبت لمناظرته غيره.

فالواجب على من تلبس بالعلم، وكان له عقل أن يتأمل كلام الرجل من تصانيفه المشهورة، أو من ألَسنة من يوثق به من أهل النقل، فيفرد من ذلك ما ينكر، فيحذر منه على قصد النصح، ويثنى عليه بفضائله فيما أصاب من ذلك، كدأبِ غيره من العلماء..»[2].

---

(١) العقود الدرية: ص ٥٣٠، الشهادة الزكية: ٦٧ـ ٦٨.

(٢) الشهادة الزكية: ٧٣ـ ٧٤، الرد الوافر: ٢٤٧ـ٢٤٨.

○ **وقال شيخ الإسلام البلقيني رحمه الله:**

«.. قد نسب الشيخ، تقي الدين ابن تيمية ـ رحمه الله ـ لأشياء أنكرها عليه معاصروه، وانتصب للرد عليه الشيخ تقي الدين السبكي في مسألتي الزيارة والطلاق، وأفرد كلاً منه بتصنيف، وليس في ذلك ما يقتضي شينه أصلاً، وكلُّ أحدٍ يؤخذ من قوله، ويترك، إلا صاحب هذا القبر ـ يعني النبي ﷺ ـ والسعيد من عُدَّتْ غلطاته، وانحصرت سقطاته»[1].

○ **وقال الإمام العلاَّمة بدر الدين العيني رحمه الله:**

«... وقد سارت تصانيفه في الآفاق، وليس فيها شيء مما يدل على الزيغ والشقاق، ولم يكن بحثه فيما صدر عنه في مسألة الزيارة والطلاق. إلا عن اجتهاد سائغ بالاتفاق، والمجتهد في الحالتين مأجور ومثاب، وليس فيه شيء مما يلام ويعاب، لكن حملهم على ذلك حسدهم الظاهر وكيدهم الباهر، وكفى للحاسد ذماً آخر سورة الفلق في احتراقه بالقلق»[2].

○ **وقال الحافظ السخاوي رحمه الله:**

«وكذا ممن حصل من بعض الناس منهم نُفْرةٌ، وتحامٍ عن الانتفاع بعلمهم، مع جلالتهم علماً، وورعاً، وزهداً، لإطلاق

---

(١) الشهادة الزكية: ٨٥ـ٨٦، الرد الوافر: ص ٢٥٠.

(٢) الشهادة الزكية: ص ٧٦ـ ٧٧، الرد الوافر: ص ٢٦٢.

لسانهم وعدم مداراتهم، بحيث يتكلمون بما فيه مبالغة، كابن حزم وابن تيمية، وهما ممن امتحن وَأوذي وكل أحد من الأمة يؤخذ من قوله ويترك، إلا رسول الله ﷺ»[1].

○ **وقال الشيخ حسنين مخلوف رحمه الله تعالى:**

«وللإمام ابن تيمية موافقاً ومخالفاً فضل عظيم ويد طولى على العلم والعلماء، والقضاة والمفتين وسائر الباحثين في سائر العصور، حيث أثار هذه المسائل والبحوث التي اختلفت فيها الأنظار وتجاذبها البحث بين النُّظَار، وقَصَدَ كلٌ إصابة الحق والصواب، ولكل مجتهد نصيب، فمن أصاب فله أجران، ومن أخطأ فله أجر الاجتهاد، وعلى الله قصد السبيل والتوفيق الحق والصواب»[2].

و ـ ندرة خطأه وقلته بالنسبة لصوابه:

○ **وفي ذلك يقول الحافظ الذهبي رحمه الله:**

«... وإلا لو لاطف خصومه لكان عليه كلمة إجماع، فإنَّ كبارهم خاضعون لعلومه، معترفون بتفوقه، مُقرِّونَ بنُدورةِ خطئه، وأنه بحر لا ساحل له، وكنز لا نظير له..»[3].

---

(١) الإعلان بالتوبيخ للسخاوي: ٤٧٨ـ ٤٧٩.

(٢) ديوان لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص ٤٥.

(٣) الدرر الكامنة: ١/ ١٦١، ثلاث تراجم نفيسة: ص ٢٤.

○ **ويقول الحافظ ابن كثير رحمه الله:**

«.. ولكن خطأه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في بحر لجي..»[1].

○ **وقال الإمام الحافظ ابن المحب الصامت رحمه الله:**

«... وحسب شيخنا مع اتساعه في كل العلوم إلى الغاية والنهاية، سمعاً وعقلاً ونقلاً وبحثاً، أن يكون نادر الغلط، كما كان أخوه أبو محمد ابن تيمية فيما بلغني عنه يقول: أخي نادر الغلط، وكان أبو محمد من الناقدين حديثاً وفقهاً وعربية»[2].

ز ـ آراؤه ليست قائمة على التشهي:

○ **قال الحافظ الذهبي رحمه الله:**

«... لا يؤتى من سوء فهم، فإن له من الذكاء المفرط، ولا من قلة علم فإنه بحر زخار، ولا كان متلاعباً بالدين، ولا ينفرد بمسائله بالتشهي، ولا يطلق لسانه بما اتفق، بل يحتج بالقرآن والحديث والقياس ويبرهن ويناظر أسوة بمن تقدمه من الأئمة، فله أجر على أخطائه، وأجران على إصابته..»[3].

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ١٤٠. الرد الوافر: ١٦٦، الشهادة الزكية: ص ٦٤.

(٢) الرد الوافر: ص ٩٦.

(٣) الدرر الكامنة: ١/ ١٦١، ثلاث تراجم نفيسة: ص ٢٥ـ ٢٦، الوافي بالوفيات عن المنجد: ص ٢٩.

○ **وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله:**

«... والمسائل التي أنكرت عليه، ما كان يقولها بالتشهي..»[1].

○ **وقال شيخ الإسلام البلقيني رحمه الله:**

«ثم إنَّ الظنَّ بالشيخ تقي الدين: أنه لم يصدر منه ذلك تهوراً وعدواناً ـ حاشا لله ـ بل لعله لرأي رآه، وأقام عليه برهاناً، ولم نقف إلى الآن ـ بعد التتبع والفحص ـ على شيء من كلامه يقتضي كُفْرَهُ، ولا زندقته إنما نقف على رَدِّه على أهل البدع، والأهواء، وغير ذلك، مما يدل على براءته، وعلو مرتبته في العلم والدين.

وتوقير العلماء والكبار، وأهل الفضل متعين»[2].

ح ـ أكثر ما أُخذ عليه:

وأكثر ما أخذ عليه ما قاله الحافظ الذهبي رحمه الله:

«وكان فيه قلة مداراة وعدم تؤدة غالباً، ولم يكن من رجال الدُّوَل، ولا يسلك معهم بتلك النواميس، وأعان أعداءه على نفسه بدخوله في مسائل كبار! لا يحتملها عقول أبناء زماننا ولا

(١) الشهادة الزكية: ص ٧٣، الرد الوافر: ٢٤٧ـ٢٤٨.

(٢) الشهادة الزكية: ص ٨٦، الرد الوافر: ٢٥٠.

علومهم، كمسألة التكفير في الحلف بالطلاق، ومسألةِ أن الطلاق بالثلاث لا يقع إلا واحدة، وأن الطلاق في الحيض لا يقع..»[1].

وما قاله الصفدي رحمه الله:

«إلا أنه انفرد بمسائل غريبة، ورجح فيها أقوالاً ضعيفة عند الجمهور معيبة، كاد منها يقع في هُوة، ويسلمُ منها لما عنده من النية المرجوة، والله يعلم قصده وما يترجح من الأدلة عنده.

وما دمر عليه شيءٌ كمسألة الزيارة، ولا شُنَّ عليه مثلها إغارة، دخل منها إلى القلعة معتقلاً، وجفاه صاحبه وقلاه، وما خرج منها إلا على الآلة الحدباء، ولا رجع منها إلا إلى البقعة الجدباء، والتحق باللطيف الخبير، وولّى والثناء عليه كنشر العبير»[2].

فأما مسألة الزيارة التي شنع عليه فيها وحرف كلامه بأنه منع من زيارة القبور، فهذه كتبه، وفتاويه، ومناسكه مصرحة باستحباب زيارة قبور المسلمين، فضلاً عن الأنبياء عليهم السلام ـ بل صرح بجواز زيارة قبور الكفار، نعم، حكى خلافاً للعلماء: فيما إذا سافر لمجرد زيارة القبور.

فمنهم من قال بالجواز: وهو مذهب الجمهور، ومنهم من قال: بالكراهة.

---

(١) تاريخ ابن الوردي: ٢/ ٤١١.

(٢) أعيان العصر للصفدي: عن المنجد: ص ٥٠.

ومنهم من قال: بالتحريم، واختار هذا القول: ابن بطة، وابن عقيل ـ إماما الحنابلة ـ والإمام أبو محمد الجويني ـ إمام الشافعية ـ وهو اختيار القاضي عياض في إكماله وهو إمام المالكية، ومال إلى هذا القول: شيخ الإسلام ابن تيمية.

والحجة في ذلك: الحديث الصحيح وهو قوله ـ عليه السلام: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد..) الحديث.

وقد انتصب للرد على «السبكي»: «ابن عبد الهادي» في مجلد كبير سماه (الصارم المنكي في الرد على السبكي»[1].

وقد تتبعت أقواله في ذلك فلم أجد ما نسب إليه بأنه قد حرم الزيارة للقبور، وإنما كان ميله إلى تحريم شد الرحال إلى زيارة قبور الأنبياء والصالحين، فالزيارة من غير شد الرحال والقصد مستحبة، وبالشد تحرم للحديث.

يقول رحمه الله: «قد ذكرت فيما كتبته من المناسك أن السفر إلى مسجده وزيارة قبره كما يذكره أئمة المسلمين في مناسك الحج عمل صالح مستحب.. والصلاة تقصر في هذا السفر المستحب باتفاق أئمة المسلمين، لم يقل أحد من أئمة المسلمين إن هذا السفر لا تُقْصَرُ فيه الصلاة، ولا نهى أحد عن السفر إلى مسجده، وإن كان المسافر إلى مسجده يزور قبره ﷺ،

---

(١) الشهادة الزكية: ٨٩ـ ٩٠.

بل هذا من أفضل الأعمال الصالحة، ولا في شيء من كلامي، وكلام غيري نهى عن ذلك، ولا نهي عن المشروع في زيارة قبور الأنبياء والصالحين، ولا عن المشروع في زيارة سائر القبور، بل قد ذكرت في غير موضع استحباب زيارة القبور... وأما غيره - يعني النبي ﷺ فليس عنده مسجد فيستحب السفر إليه كما يستحب السفر إلى مسجده، وإنما يشرع أن يزار قبره كما شرعت زيارة القبور، وأما هو ﷺ فيشرع السفر إلى مسجده وينهى عما يوهم أنه سفر إلى غير المساجد الثلاثة.

ويجب الفرق بين الزيارة الشرعية التي سنها رسول الله ﷺ، وبين الزيارة البدعية التي لم يشرعها بل نهى عنها، مثل اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، والصلاة إلى القبر، واتخاذه وثنا، وقد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد؛ المسجد الحرام ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى..)[١].

○ **وأما «مسألة الطلاق» فإن ابن تيمية رحمه الله يقول: إن الطلاق الثلاث دفعة واحدة لا يقع إلا واحدة»:**

فهو لم ينفرد بهذا القول بل هو المنقول عن علي بن أبي

---

(١) الجواب الباهر في زوار المقابر لابن تيمية: ١٤-١٥، وانظر مواطن كثيرة من هذه الرسالة.

طالب، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود، وابن عباس وغيرهم من الصحابة.

ومن التابعين عطاء،، وطاووس، وعمرو بن دينار، وسعيد بن جبير، وأبو الشعثاء، ومحمد بن إسحاق، والحجاج بن أرطأة.

وهو قول داود الظاهري وأكثر أصحابه، ومذهب أبي جعفر محمد الباقر بن علي بن الحسين، وابنه جعفر الصادق، ومحمد بن عبد السلام الخشني القرطبي فقيه عصره، وأصبغ بن الحباب، واختار هذا الإمام أبو حيان في تفسيره «النهر»، والإمام ابن القيم، وتكلم عليه في أربعين ورقة، وإليه ذهب ابن تيمية رحمه الله.

فلينكر على هؤلاء من ينكر على ابن تيمية، لا سيما وقد صرح العلماء إن مذهب الأئمة قاطبة: أنه يجوز للمجتهد أن يقلد، بل يجب عليه العمل بما رآه اجتهاده، وابن تيمية كان مجتهداً، بشهادة علماء عصره، فلا وجه للإنكار عليه إلا مجرد العصبية، والحمية الجاهلية..»[١].

وعلى افتراض أنه اجتهد فأخطأ فهو مأجور على اجتهاده، ومع ذلك فإن المحاكم الشرعية في أيامنا تأخذ بفتواه هذه وتطبقها في قوانين الأحوال الشخصية في كثير من بلاد العالم الإسلامي،

---

(١) الشهادة الزكية: ص ٩٠ـ ٩١، بحوث الندوة العالمية: ص ٣٠٨.

وما رأيت عجباً كمثل المحاولات التي بذلت لمنعه من الإفتاء في هاتين المسألتين، واستخدام النفوذ لدى السلطة لمنعه من ذلك بالرغم أنه لم يعقد له أي مجلس ليناقش في هاتين المسألتين. فهل يصل الحجر على عقول العلماء لمنعهم من الإفتاء بما يرون أنه الحق كمثل هذا الذي يحصل.

ط ـ مواقف الناس تجاه ابن تيمية رحمه الله:

وقد ذكر الحافظ الذهبي رحمه الله ذلك بقوله:

«.. وكان قوالاً بالحق، نهاءً عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، ذا سطوة وإقدام، وعدم مداراة الأغيار، ومن خالطه وَعَرَفَهُ قد ينسبني إلى التقصير في وصفه، وَمَنْ نابذه وخالفه ينسبني إلى التغالي فيه، وليس الأمر كذلك.

مع أنني لا أعتقد فيه العصمة، كلا فإنه مع سعة علمه، وفرط شجاعته، وسيلان ذهنه، وتعظيمه لحرمات الدِّين، بَشَرٌ من البشر تعتريه حِدَّةٌ في البحث، وغضب، وشظف للخصم، يزرع له عداوة في النفوس، ونفوراً عنه، وإلا والله فلو لاطف الخصوم، ورفق بهم وَلَزِمَ المُجاملة، وَحَسَّنَ المكالمة، لكان كلمة إجماع، فإن كبارهم وأئمتهم خاضعون لعلومه وفقهه، معترفون بشغوفه وذكائِه، مُقِرُّونَ بِنُدُورِ خَطَئِه.

○ **موقف الخصوم منه:**

لست أعني بعض العلماء الذين شِعارهم وهُجَّيْراهم الاستخفاف به، والإزدراء بفضله، والمقت له، حتى استجهلوه وكفروه، ونالوا منه من غير أن ينظروا في تصانيفه، ولا فهموا كلامه، ولا لهم حظ تام من التوسع في المعارِفِ، والعالِمُ منهم قد ينصفه ويرد عليه بعلم، وطريق العقل السكوت عما شجر بين الأقران، رحم الله الجميع.

○ **رحم الله امرءاً تكلم بعلم:**

وأنا أقل من أن ينبه على قدره كلمي، أو أن يوضح نبأه قلمي، فأصحابه وأعداؤه خاضعون لعلمه، مقرون بسرعة فهمه، وأنه بحر لا ساحل له، وكنز لا نظير له، وأن جوده حاتمي، وشجاعته خالدية، ولكن قد يَنقِمون عليه أخلاقاً، وأفعالاً، منصفهم فيها مأجور، ومقتصدهم فيها معذور، وظالمهم فيها مأزور، وغاليهم مغرور، وإلى الله ترجع الأمور، وكل يؤخذ من قوله ويترك، والكمال للرسل، والحجة في الإجماع. فرحم الله امرءاً تكلم في العلماء بعلم، أو صمت بحلم، وأمعن في مضايق أقاويلهم بتؤدة وفهم، ثم استغفر لهم، وَوَسَّعَ نطاق المعذرة.

وإلا فهو لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري، وإن أنت عذرت كبار الأئمة في معضلاتهم، ولا تعذر ابن تيمية في مفرداته، فقد أقررت على نفسك بالهوى، وعدم الإنصاف، وإن

قلت لا أعذره لأنه كافر، عدو لله تعالى ورسوله، قال لك خلق من أهل العلم والدين: ما علمناه والله إلا مؤمناً، محافظاً على الصلاة، والوضوء، وصوم رمضان، معظماً للشريعة ظاهراً وباطناً، لا يؤتى من سوء فهم، بل له الذكاء المفرط، ولا من قلة علم فإنَّه بحر زخَّار، بصير بالكتاب والسُّنَّة، عديم النظير في ذلك.

○ مجتهد معذور غير متلاعب بالدين:

ولا هو بمتلاعب بالدين، فلو كان كذلك لكان أسرع شيء إلى مداهنة خصومه وموافقتهم ومنافقتهم، ولا هو يتفرد بمسائل بالتشهي، ولا يفتي بما اتفق، بل مسائله المفردة يحتج لها بالقرآن وبالحديث أو بالقياس، ويبرهنها ويناظرُ عليها، وينقل فيها الخلاف، ويطيل البحث أسوة بمن تقدمه من الأئمة، فإن كان قد أخطأ فيها فله أجر المجتهد من العلماء، وإن أصاب فله أجران، وإنما الذم والمقت لأحد رجلين: رجل أفتى في مسألة بالهوى ولم يبد حُجةً، ورجل تكلم في مسألة بلا خَميرةٍ من علم، ولا توسع في نقل، فنعوذ بالله من الهوى والجهل.

○ العبرة بكلام أهل التقوى والورع:

ولا ريب أنه لا اعتبار بذم أعداء العالِم، فإن الهوى والغضب يحملهم على عدم الإنصاف، والقيام عليه.

ولا اعتبار بمدح خواصِّه، والغُلاَة فيه، فإن الحب يحملهم على تغطية هنَّاته، بل قد يعدوها له محاسن.

وإنما العبرة بأهل الورع والتقوى من الطرفين، الذين يتكلمون بالقسط ويقومون لله ولو على أنفسهم وآبائهم.

○ **كلام العارف المنصف:**

فهذا الرجل لا أرجو على ما قلته فيه دُنْيا، ولا مالاً، ولا جاهاً بوجه أصلاً، مع خبرتي التَّامة به، ولكن لا يسعني في ديني ولا عقلي أن أكتم محاسنه، وأدفن فضائله، وأُبرز ذنوباً له مغفورة في سعة كرم الله تعالى، وصفحة مغمورة في بحر علمه وجوده، فالله يغفر له، ويرضى عنه، ويرحمنا إذا صرنا إلى ما صار إليه، مع أني مخالف له في مسائل أصلية وفرعية، قد أبديت آنفاً أن خطأه فيها مغفور، بل قد يثيبه الله تعالى فيها على حسن قصده، وبذل وسعه، والله الموعد، مع أني قد أوذيت لكلامي فيه من أصحابه وأضداده، فحسبي الله.

... وقد تعبت بين الفريقين، فأنا عند مُحِبِّه مُقَصِّر، وعند عَدُوِّه مُسْرِف مكثر، كلا والله»[١].

وقول الإمام الشوكاني رحمه الله:

---

(١) ثلاث تراجم نفيسة: ٢٣ـ٢٧.

«... والناس قسمان في شأنه، فبعض منهم مقصر به عن المقدار الذي يستحقه بل يرميه بالعظائم، وبعض آخر يبالغ في وصفه ويجاوز به الحد، ويتعصب له، كما يتعصب أهل القسم الأول عليه.

وهذه قاعدة مطردة في كل عالم يتبحر في المعارف العلمية، ويفوق أهل عصره، ويدين بالكتاب والسُّنّة، فإنه لا بد أن يستنكره المقصرون، ويقع له معهم محنة، ثم يكون أمره الأعلى وقوله الأولى، ويصير له بتلك الزلازل لسان صدق في الآخرين.

ويكون لعلمه حظ لا يكون لغيره، وهكذا كان حال هذا الإمام، فإنه بعد موته عرف الناس مقداره، واتفقت الألسن بالثناء عليه إلا من لا يعتد به، وطارت مصنفاته واشتهرت مقالاته»[١].

ي ـ مسك الختام في موقف شيخ الإسلام من خصومه:

ويحدث رحمه الله عن نفسه وموقفه من خصومه فيقول:

«هذا وأنا في سعة صدر لمن يخالفني، فإنه وإن تعدى حدود الله فيَّ بتكفير، أو تفسيق، أو افتراء أو عصبية جاهلية: فأنا لا أتعدى حدود الله فيه، بل أضبط ما أقوله، وأفعله، وأزنه بميزان العدل، وأجعله مؤتماً بالكتاب الذي أنزله الله، وجعله هدى للناس، حاكماً فيما اختلفوا فيه، قال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً

(١) التاج المكلل لصديق حسن خان: ص ٤٢٤.

وَاحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وذلك أنك ما جزيت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠][(١)].

جزى الله شيخ الإسلام خيراً عن أمته، ودينه، ونفع الناس بعلومه الغزيرة، وغفر الله له ولأهل العلم جميعاً، وجمعهم يوم القيامة في مستقر رحمته إخواناً على سرر متقابلين، ونفعنا بعلومهم، وأعاد علينا من بركات هذه العلوم خيراً كثيراً.

(١) مجموع الفتاوى: ٣/ ٢٤٥.

الخاتمة

هذه صفحات ممتعة من حياة شيخ الإسلام، تحدثت عن أحواله، وأقواله، وأفعاله وأخلاقه، وعلومه، ومنهجه في الإصلاح والدعوة، لعلها تصادف قلوباً زكية، وعقولاً ذكية، وهمماً تريد اللحاق بركب العلماء والصالحين، وعباداً نذروا أنفسهم، وقفاً لحمل راية الإسلام، ينطبق على كل واحد منهم قول ابن القيم رحمه الله.

«لم تملكه الرسوم، ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات، بل هو على مراد ربه، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواها، ملبسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسر، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خالياً، يأنس به كل محق، ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها، وكلها منفعة حتى شوكها، فواهاً له، ما أغر به بين الناس! وما أشد وحشته منهم! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه! والله المستعان»[(١)].

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ٩٠ باختصار.

«هذا هوا بن تيمية شيخ الإسلام وإمام أهل الهدى والعرفان، نادرة الزمان وأعجوبة الدهر في القرنين السابع والثامن الهجري.

وهذه هي مواهبه الفطرية، ومقدرته الفكرية، وقوة عارضته، وسعة مداركه، وشدة ذكائه وفهمه وحصافة رأيه.

وهذا هو علو نفسه، وعظم همته، وبُعْدُ غايته، وسمو قصده، ومبلغ إحاطته بزمنه وأحوال أهله، وبمختلف العلوم درساً وتحصيلاً، وتدريساً وتأليفاً، حتى بلغ رتبة الاجتهاد في الفقه، وتسنم ذروة الإمامة في كل فن مارسه، وبز فيه فطاحل العلماء وفاق فيه الأعيان والنظراء.

وهذه شهادة جمهرة من أئمة العلم والحديث والتاريخ عاصروه، أو كانوا على مقربة من عصره.

وناهيك بالحافظ الذهبي، والإمام ابن الوردي، والحافظ اليعمري، والإمام ابن دقيق العيد، والحافظ المزي، والتقي السبكي، والإمام ابن الزملكاني، والعماد الواسطي، وابن رجب الحنبلي، وابن فضل الله العمري، وسراج الدين أبي حفص، وابن الآلوسي في جلاء العينين، وصاحب شذرات الذهب، وصاحب فوات الوفيات، وغيرهم من أقطاب العلم والتاريخ في ذلك العصر.

وما نظن أحداً تحدث عنه معاصروه ومن قربوا من عصره من الثقات الأعلام كما تحدث هؤلاء الأئمة عن ابن تيمية وبلوغه مرتبة الإمامة في كل فن: في التفسير والحديث والفقه، وفي العربية والأصول والكلام، وفي المنطق، والفلسفة، وفي التصوف وفي الملل والنحل والفرق، مع التصوف والعفاف والزهادة والعزوف عن الدنيا، وعلو الهمة، والتعبد والإنابة إلى الله، والاعتصام بالله في كل أمر، والشجاعة والإقدام على اقتحام الخطوب لنصرة الإسلام ضد الطغاة المغيرين على البلاد، لا حباً في رياسة، ولا طمعاً في مغنم، كل ذلك مع اتباع هدى الكتاب والسُّنّة في كل شأن، والوقوف عند حدودها في كل حال، والذود عن حياضهما بقوة خارقة، وعزيمة صادقة مخلصة وشجاعة وإقدام وثقة بالله تعالى وإيمان.

وقد أجمع مؤرخو ابن تيمية على أنه كان في عصره أمة وحدة، توافرت له شروط الاجتهاد، فكان في الدين مجتهداً، وبلغ رتبة الإمامة في كل فن مارسه، فكان في العلوم إماماً متبعاً، وكان أتبع الناس للكتاب والسُّنّة وأقوال الصحابة والتابعين المقتفين آثار النبوة، فكان سلفي العقيدة والمنهج، مقتدياً.

وكان شجاعاً جريئاً لا يرهب قوة، ولا يخشى بطشاً من ذي سلطان، فكان قائداً موفقاً.

وكان صريحاً إلى أبعد حدود الصراحة في رأيه ومناظراته وفتاواه، ومؤلفاته، مع حدة في الطبع، وعنف في الرد على معارضيه إلى حد أَرَّثَ بينه وبينهم العداوة وأورث الكراهية ـ كما قاله الذهبي ـ وإن كان بعضهم قد أنصفه.

وكان عالي الهمة، عزيز النفس أبياً عيوفاً، لا يذل ولا يستخذي، ولا يجاري ولا يماري، ولا يرى لأحد عليه يداً يغضي لها حين يغضب، وقد وهبه الله العلم وأعزه به، فلم يعتز بسواه، ولم يقف بباب حاكم ولا أمير، طامعاً في رفد، آملاً في جاه، وتلك سُنّة السلف الصالح من أئمة الإسلام.

وكان يمتحن بالمحن والشدائد فلا يفل له عزم، ولا تهن منه قوة، واثقاً بالله متذرعاً بالصبر والرضا، محتسباً أجر جهاده عند الله الذي يجزي الصابرين ولا يضيع أجر المحسنين.

ولقد كان له أُسوة حسنة في رسول الله ﷺ وفي أصحابه المجاهدين وأئمة المسلمين، وفي إمامة إمام أهل السُّنّة والجماعة أحمد بن حنبل الذي قام مقام صدق، صابراً على البلاء والمحنة، رضي الله عنهم أجمعين»[1].

ولقد كان رحمه الله تعالى علماً حاز الفضائل، وكاد أن يلحق بالأوائل، وأحي من معالم الدين ما كان دارساً، وجدد للأمة

---

(١) من ترجمة الإمام الشيخ محمد حسنين مخلوف لابن تيمية رحمه الله: انظر ديوان شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣٩ـ ٤٢.

ارتباطها بالكتاب والسُّنّة بعد أن كادت العرى أن تتقطع، وقد لخص الشيخ ولي الله الدهلوي بعبارات موجزة جامعة تلك المزايا التي جمعها شيخ الإسلام، وبين تلك الأوصاف التي جعلت منه مجدداً لمعالم الدين، محيياً للكتاب والسُّنّة فقال رحمه الله:

«وعلى هذا الأصل اعتقدنا في شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، فإنا قد تحققنا من حاله أنه عالم بكتاب الله ومعانيه اللغوية والشرعية، وحافظ لسُنّة رسول الله ﷺ وآثار السلف، عارف لمعانيهما اللغوية والشرعية، أستاذ في النحو واللغة، محرر لمذهب الحنابلة وفروعه وأصوله، فائق في الذكاء، ذو لسان وبلاغة في الذب عن عقيدة أهل السُّنّة، لم يؤثر عنه فسق ولا بدعة اللهم إلا هذه الأمور التي ضيق عليه لأجلها، وليس شيء منها إلا ومعه دليله من الكتاب والسُّنّة، فمثل هذا الشيخ عزيز الوجود في العلم، أو من يطيق أن يلحق شأوه في تحريره وحديثه، والذين ضيقوا عليه ما بلغوا معشار ما آتاه الله تعالى، وإن كان تضييقه ذلك عن اجتهاد، ومشاجرة في مثل ذلك ما هي إلا كمشاجرة الصحابة رضي الله عنهم فيما بينهم، والواجب في ذلك كف اللسان إلا بخير»[١].

---

(١) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين: (ص ٤٦).

وبالجملة فإن ابن تيمية رحمه الله كان إماماً فاق أهل زمانه في العلم والفضل، وحاز من العلم ما لم يعرف لأحد في عصره بل من أزمان عديدة، ولم يأت بعده مثله في الجمع بين العلم والعمل، والتبحر في العلوم والمعارف، قد شهد له أهل عصره من الأئمة والحفاظ، وترك من بنات أفكاره من المصنفات ما لم يستطع أحد أن يترك مثله، رغم ما تعرض له من البلاء والمحن، ورغم اهتمامه بقضايا المسلمين العامة، وقيامه لنصرة دين الله حين قعد الذين حاربوه وعادوه بعد ذلك، لم يخلف ديناراً ولا درهماً ولكنه خلف علماً وفضلاً، وحركة تجديديه أحدثت تغييراً شاملاً في طرائق التفكير، وحرك من أمور العلم ما كان راكداً، وسواء وافقه البعض أو خالفه، فإن قسماً ممن خالفوه قد عرفوا من فضله وعلمه ما لم يستطيعوا معه إلا أن يقروا له بالإمامة في الدين، وأنصفوه كالتقي السبكي رحمه الله وغيره، وقسم اتبع الهوى ونظر إليه نظرة الخصومة والكراهية، فحاول أن يتتبع السقطات والزلات، وسلك في ذلك طرقاً لا يتعامل بها أهل العلم الأفاضل من التدليس والكذب، وافتراء التهم والأباطيل ليلصقوها بهذا الإمام، فالله تعالى يتولى السرائر، ويعفو ويصفح عنهم جميعاً، فقد أناخوا جميعاً ركائبهم في رحابه تعالى، وخير ما نقول في حقهم جميعاً كما قال تعالى على لسان أهل الإيمان حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا

ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

والله نسأل أن يجمع بين أهل العلم والفضل في جنات الرضوان إخواناً على سرر متقابلين، وقد نزع الله من القلوب الضغينة والإحن، فما منهم إلا إمام قد جمع في نفسه من العلم والخير الشيء الكثير، وما من إنسان إلا ويصيب ويخطأ.

وقد انتفت العصمة إلا عن النبيين والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، وجمعنا الله تعالى بهم في مستقر رحمته، ونفعنا بعلومهم، وأسبل علينا وعليهم من ستره وفضله ما يبلغنا به جنته ورضوانه.

وختاماً فإن أحسنت فذلك من فضل الله تعالى وكرمه، وإن أخطأت فقد بذلت وسعي في الوصول إلى المبتغى، وحسبي أنني لم أتعمد الخطأ، فأسأل الله أن يكتب لي الأجر، ويعفو عن الزلة، إنه سميع مجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

إبراهيم محمد العلي

عمان/الأردن

في يوم الإثنين: ١٣/ذو القعدة/١٤١٩هـ

١/٣/١٩٩٩ م

المراجع

١ ـ ابن تيمية عبد الرحمن النحلاوي/ دار الفكر.

٢ ـ ابن تيمية د. محمد يوسف موسى/ المؤسسة المصرية للكتاب.

٣ ـ ابن تيمية والتصوف/ د. مصطفى حلمي/ دار الدعوة.

٤ ـ ابن تيمية السلفي/ د. محمد خليل هراس/ دار الكتب العلمية.

٥ ـ ابن تيمية العالم الجريء/ عبد المنعم الهاشمي/ دار ابن كثير ـ دمشق.

٦ ـ ابن تيمية المجتهد/ د. عمر فروخ/ دار لبنان.

٧ ـ أحاديث القصاص/ابن تيمية/ تحقيق محمد لطفي الصباغ/ المكتب الإسلامي.

٨ ـ الاستقامة/ لشيخ الإسلام ابن تيمية/ محمد رشاد سالم.

٩ ـ استمرارية الدعوة/ د. محمد السيد الوكيل/ دار المجتمع للنشر والتوزيع.

١٠ ـ الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية/ أبو حفص البزار/ تحقيق: زهير الشاويش/ المكتب الإسلامي.

١١ ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين/ لابن القيم.

١٢ ـ الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ/ لأبي عبد الرحمن السخاوي/ تحقيق: روزنتال.

١٣ ـ الإكليل في المتشابه والتأويل/ لشيخ الإسلام ابن تيمية.

١٤ ـ الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل/ محمد السيد الجلينيد/

مجمع البحوث الإسلامية/ الأزهر.
١٥ ـ أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية: للأستاذ محمد إبراهيم الشيباني/ مكتبة ابن تيمية الكويت.
١٦ ـ البداية والنهاية/ لابن كثير الدمشقي.
١٧ ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: للشوكاني. مطبعة السعادة.
١٨ ـ بحوث الندوة العالمية عن شيخ الإسلام ابن تيمية/دار الصميعي.
١٩ ـ تذكرة الحفاظ/ الحافظ الذهبي.
٢٠ ـ منكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم/ ابن جماعة الكناني/ دار المعالي.
٢١ ـ تفسير ابن كثير/ دار المعرفة بيروت.
٢٢ ـ تفسير آيات أشكلت/ لشيخ الإسلام ابن تيمية/ تحقيق: عبد العزيز الخليفة/ مكتبة الرشد.
٢٣ ـ تكامل المنهج المعرفي عند ابن تيمية إبراهيم عقيلي/ المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
٢٤ ـ التقريب لفقه ابن القيم/بكر عبد الله أبو زيد/ الرياض.
٢٥ ـ تلخيص الاستغاثة (الرد على البكري) بن تيمية/ تحقيق: أبو عبد الرحمن محمد بن عجال/ مكتبة الغرباء.
٢٦ ـ ثلاث رسائل في الجهاد/ لشيخ الإسلام ابن تيمية/ تحقيق: إبراهيم العلي ومحمد أبو صعيليك/ دار النفائس/ عمان.
٢٧ ـ جامع الرسائل والمسائل/ لشيخ الإسلام ابن تيمية/ محمد رشاد سالم.
٢٨ ـ جلاء العينين في محاكمة الأحمدين/نعمان الآلوسي/ مطبعة المدني بالقاهرة.
٢٩ ـ الجواب الباهر في زوار المقابر/ لابن تيمية/ تحقيق: سليمان الضبيع/ نشرها قصي الخطيب.
٣٠ ـ الحافظ ابن تيمية/ أبو الحسن الندوي/ دار القلم/ الكويت.

٣١ ـ حياة شيخ الإسلام ابن تيمية/ للشيخ محمد بهجة البيطار/ المكتب الإسلامي.
٣٢ ـ درء تعارض العقل والنقل/ لشيخ الإسلام ابن تيمية/ محمد رشاد سالم/ جامعة الإمام محمد بن سعود.
٣٣ ـ الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة/ الحافظ ابن حجر العسقلاني.
٣٤ ـ دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية/ صلاح الدين مقبول/ دار ابن الأثير.
٣٥ ـ دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية/ الجليند/.
٣٦ ـ ديوان شيخ الإسلام ابن تيمية/جمعه محمد عبد الرحيم/ دار الجيل.
٣٧ ـ ذيل العبر/ للحافظ الذهبي.
٣٨ ـ الذيل على طبقات الحنابلة/لابن رجب الحنبلي.
٣٩ ـ الرد على الأخنائي/لشيخ الإسلام ابن تيمية/ تحقيق المعلمي اليماني/ دار الإفتاء الرياض.
٤٠ ـ الرحمن على العرش استوى/د. عوض منصور.
٤١ ـ الرد على البكري/لشيخ الإسلام ابن تيمية/المطبعة السلفية.
٤٢ ـ الرد على المنطقيين/لشيخ الإسلام ابن تيمية/.
٤٣ ـ الرد الوافر/لابن ناصر الدين الدمشقي/تحقيق: زهير الشاويش/المكتب الإسلامي.
٤٤ ـ رسالة الألفة بين المسلمين/لابن تيمية/تحقيق عبد الفتاح أبو غدة/ مكتبة المطبوعات الإسلامية.
٤٥ ـ الرسالة التدمرية: لشيخ الإسلام ابن تيمية.
٤٦ ـ رفع الملام عن الأئمة الأعلام/لابن تيمية/ نشرها قصي محب الدين الخطيب.
٤٧ ـ سنن ابن ماجة/طبعة فؤاد عبد الباقي.
٤٨ ـ سنن أبي داود/طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد.
٤٩ ـ سنن النسائي/طبعة: عبد الفتاح أبو غدة.

٥٠ ـ سير أعلام النبلاء/للحافظ الذهبي/ مؤسسة الرسالة.
٥١ ـ شذرات الذهب/لابن العماد الحنبلي/دار الفكر.
٥٢ ـ شرائع الإسلام في منهج ابن تيمية/هنري لاوست/ ترجمة: محمد عبد العظيم علي/دار الدعوة.
٥٣ ـ الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية: مرعي بن يوسف الكريم/ دار الفرقان.
٥٤ ـ شيخ الإسلام ابن تيمية والعمل الجماعي/عبد الرحمن عبد الخالق/ جمعية إحياء التراث الإسلامي.
٥٥ ـ شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته وأخباره/صلاح الدين المنجد/دار الكتاب الجديد.
٥٦ ـ صحيح البخاري مع فتح الباري الطبعة السلفية.
٥٧ ـ صحيح مسلم/ طبعة: فؤاد عبد الباقي.
٥٨ ـ الصفدية/لشيخ الإسلام ابن تيمية/محمد رشد سالم.
٥٩ ـ طبقات الحفاظ/جلال الدين السيوطي.
٦٠ ـ طبقات الشافعية لتاج الدين السبكي.
٦١ ـ طبقات المفسرين/للداودي.
٦٢ ـ العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية/لابن عبد الهادي.
٦٣ ـ العقيدة السلفية بين أحمد بن حنبل وابن تيمية/د. عبد العزيز شبلي/دار المنار.
٦٤ ـ العقيدة الواسطية/لشيخ الإسلام ابن تيمية.
٦٥ ـ علم الحديث/ابن تيمية/دار الكتب العلمية.
٦٦ ـ العلماء العزاب/عبد الفتاح أبو غدة/مكتب المطبوعات الإسلامية حلب/ الطبعة الرابعة.
٦٧ ـ علو الهمة/محمد أحمد المقدم/ دار العقيدة للتراث/الإسكندرية.
٦٨ ـ الفتاوي الكبرى لابن تيمية/دار المعرفة.

٦٩ ـ الفتوى الحموية الكبرى/تحقيق: حمود التويجري/دار الصميعي.
٧٠ ـ فوات الوفيات/لابن شاكر الكتبي/تحقيق إحسان عباس/دار صادر/بيروت.
٧١ ـ قاعدة في الجرح والتعديل/لتاج الدين السبكي/طبعة: عبد الفتاح أبو غدة.
٧٢ ـ القواعد النورانية الفقهية/لابن تيمية/تحقيق محمد حامد الفقي/دار المعرفة.
٧٣ ـ مجلة الحكمة/أعداد مختلفة.
٧٤ ـ مجلة الوعي الإسلامي.
٧٥ ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية/١/٣٧.
٧٦ ـ مجموعة الرسائل الكبرى/لابن تيمية/دار الفكر.
٧٧ ـ مدارج السالكين/ابن قيم الجوزية/تحقيق: أحمد الرفاعي/دار الجيل/دار عمار.
٧٨ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل/طبعة: بيت الأفكار الدولية.
٧٩ ـ معارج الوصول إلى أن أصول الدين وفروعه قد بينها الرسول/ابن تيمية/نشرها قصي الخطيب.
٨٠ ـ المعجم الكبير (شيوخ الذهبي)/الحافظ الذهبي.
٨١ ـ المعجم المختص بالمحدثين/الحافظ الذهبي.
٨٢ ـ مكارم الأخلاق/لابن تيمية/جمع وتعليق عبد الحميد بدران/محمد عمر الحاجي/دار الخير.
٨٣ ـ فقه الأولويات في الإسلام/د. مجدي الهلالي/دار التوزيع والنشر الإسلامية/مصر.
٨٤ ـ المنار المنيف في الصحيح والضعيف/لابن القيم/طبعة: عبد الفتاح أبو غدة.
٨٥ ـ منهاج السُّنَّة النبوية/لشيخ الإسلام ابن تيمية/أكثر من طبعة.

٨٦ ـ منهج ابن تيمية في مسألة التكفير/وعبد المجيد الشعيبي/أضواء السلف.
٨٧ ـ موافقة صحيح المنقول صريح المعقول/لابن تيمية/مكتبة السُّنَّة المحمدية.
٨٨ ـ ناحية من حياة شيخ الإسلام/بقلم خادمه إبراهيم بن أحمد الغياني/ محب الدين الخطيب.
٨٩ ـ الوابل الصيب من الكلم الطيب/لابن القيم/دار الكتب العلمية.
٩٠ ـ الوافي بالوفيات/الصفدي.
٩١ ـ الوصية الصغرى/لابن تيمية/تحقيق صبري بن سلافه شاهين/دار الكتاب والسُّنَّة.

الفهـــرس

كتب للمؤلف

١ ـ صفحات مضيئة من عبادة السلف ـ مكتبة المنار/ الزرقاء ـ الأردن.
٢ ـ علي بن المديني/ سلسلة إعلام المسلمين ـ دار القلم/ دمشق.
٣ ـ حذيفة بن اليمان/ سلسلة إعلام المسلمين ـ دار القلم/ دمشق.
٤ ـ الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء/ دار القلم/ دمشق.
٥ ـ صفحات مضيئة من مواقف السابقين/ ١ ـ ٢/ دار القلم ـ دمشق.
٦ ـ صحيح السيرة النبوية/ دار النفائس/ عمان.
٧ ـ من نبوءات الرسول/ حديث الخلافة والأمراء/ دار القلم ـ دمشق.
٨ ـ تفسير سورة الأنعام/ بالمشاركة ـ دار النفائس/ عمان.
٩ ـ الأرض المقدسة بين الماضي والحاضر والمستقبل/ دراسة حديثية تحليلية/ منشورات فلسطين المسلمة.

١٠ ـ صور من أدب السلوك الاجتماعي في الإسلام/ دار النفائس/ عمان.
١١ ـ شيخ الإسلام ابن تيمية/ سلسلة أعلام المسلمين/ دار القلم/ دمشق.

الكتب المحققة:

١٢ ـ نور اليقين في سيرة سيد المرسلين/ تخريج وتعليق/ دار الجيل ـ دار عمار.
١٣ ـ كتاب الرؤية للدارقطني ـ تحقيق بالمشاركة/ مكتبة المنار/ عمان.
١٤ ـ كتاب مختصر قيام الليل للمروزي ـ تحقيق بالمشاركة/ مكتبة المنار/ عمان.
١٥ ـ كتاب مختصر قيام رمضان للمروزي ـ تحقيق بالمشاركة/ مكتبة المنار/ عمان.
١٦ ـ كتاب مختصر صلاة الوتر للمروزي ـ تحقيق بالمشاركة/ مكتبة المنار/ عمان.
١٧ ـ ثلاث رسائل في الجهاد/ لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ تحقيق بالمشاركة/ دار النفائس/ عمان.
١٨ ـ رسالتان في حياة الأنبياء للبيهقي ـ السيوطي ـ تحقيق بالمشاركة/ دار النفائس عمان.
١٩ ـ تخريج أحاديث تقريب الطبري/ ١ ـ ٧/ دار القلم ـ دمشق.